

اعبث بالزمن...
فإذا بالعالم كما تعرفه
يصبح عالماً لا تعرفه

رؤاؤد الزمن

شيفرة يوم القيامة

مكتبة الرمحى أحمد ٩٩

٩٩ ٩٩ ٩٩ ٩٩ ٩٩ ٩٩ ٩٩ ٩٩ ٩٩ ٩٩

ألكس سكارو



”سلسلة مليئة بالتشويق تحتوي على مؤثرات مذهلة ومثيرة.“

Guardian

”أحداث تذهب بالعقول ستدفعكم لقضم أظافر كم.“

Independent on Sunday

”ستدمنون هذه الرواية كما لو كانت إحدى ألعاب الكمبيوتر.“

Waterstone's Books Quarterly

”رواية واعدة بإحراز المراكز الأولى“

Irish News

”مغامرة مشوقة ينتقل روادها بين الأزمنة والأمكنة بنفس السرعة التي تُكسر بها

الرقاب.“

Lovereading4kids.co.uk

”الكثير من الأحداث المتسارعة والمتتالية، لن تتوقف عن قلب صفحات هذا

الكتاب الواحدة تلو الأخرى.“

WriteAway.org.uk

”كتاب رائع ستعجب الفتيان والفتيات على حدٍ سواء... يمكن التعلّق بها

وإدمانها بسهولة!“

redhouse.co.uk

”مرشح ليكون أفضل كتاب خيال علمي لهذا العام ... سيفوز بجدارة.“

Flipside

الكس سكارو ولد عام ١٩٦٦. كان في الأصل فناناً غرافيتياً، ثم قرّر أن يصبح مصمّم ألعاب كومبيوتر، وأخيراً أصبح مؤلفاً. ألف عدداً من قصص المغامرات المثيرة الناجحة وعدداً من سيناريوهات الأفلام، لكنّ أدب الشباب هو الذي سمح له باللعب بالأفكار والمفاهيم التي كان يعبث بها عندما كان يصمّم الألعاب. يعيش في نوريتش في بريطانيا مع زوجته وابنه. صدر له عن دار الساقبي الجزء الأول من السلسلة بعنوان ”رواد الزمن“ والجزء الثاني بعنوان ”يوم المفترس“.

ألكس سكارو



شيفرة يوم القيامة

ترجمة
يارا بارازي

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

الساقبي

Time Riders: The Doomsday Code, by Alex Scarrow
First Published in Great Britain in the English Language in 2011
by Puffin books
Penguin Books Ltd, 80 Strand, London WC2R 0RL, England
© Alex Scarrow 2011

الطبعة العربية
© ألكس سكارو، 2011 و 2016

أهدي هذه الرواية إلى أبناء إخوتي وأخواتي ... وهم (خذوا نفساً عميقاً
لأنني سوف أعدّدهم بحسب أعمارهم): ليونا، جيمس، ناثان، آيغيل،
توم، آرون، ناوومي، جو، نك وكونور. ألا تريدون أن تصبحوا رواد
الزمن في المستقبل؟

تمهيد

شيكاغو، العام ٢٠٤٤

”سيداتي سادتي... هذا ما جئتم جميعاً لرؤيته. سأدخل في خلال دقيقة إلى قفص فاراداي وأختفي تماماً“، قال الرجل. إذا.. ها قد تبين في النهاية أنه ليس سوى مجنون آخر. هزّت أنا لوبيز رأسها وفكرت.. هذا آخر ما أحتاج إليه الآن.

التقت عيناها بعيون واحد أو اثنين من الحاضرين القلائل الذين لم يكونوا سوى صحافيين مثلها وتعرفت إلى بعض منهم، أحدهم مراسل يغطي المواضيع العلمية والبيئية لإحدى المحطات الإخبارية الأوروبية، وآخر يعمل محرراً علمياً في مجلة شهرية إلكترونية مختصاً بتكنولوجيا ستانفورد. لا بدّ من أنهم جميعاً قد تلقّوا مثلها بطاقة الدعوة ذات لون الفانيلا التي استلمتها الأسبوع الماضي، والتي لم تكن تحمل سوى بضع كلمات مطبوعة لشرح ما يجري في العرض. وهي دعوة للحضور إلى مكان يُدعى ”معرض لاركام“ لتشهد العرض الأول لتقنية جديدة ستغيّر حياة كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض، كما تقول الجمل المطبوعة على الدعوة.

تنهدت أنا لوبيز وشعرت بأن العالم يحتاج بالفعل إلى أخبار جيدة

كهذه، لتقنية تغيّر عالمنا هذا.

تخيلت أنا أن معرض لاركام هو مكان لطيف يشبه متجراً صغيراً
لعرض التحف والاختراعات، حيث يمكن لها أن تجد فيه بعضاً من النبيذ
والمقبلات اللذيذة التي يضعون قطعها الصغيرة على الصواني الفضية
ويدورون بها بين المدعوين. وبدلاً من كل ما توقعته، جلس المدعوون
على ثلاثة صفوف من كراسي المدارس البلاستيكية غير المريحة في
مستودع كتيب معتم تخلله بعض الأضواء المتقطعة المتدلية من السقف
ويُسمع فيه صوت تساقط قطرات ماء من مكان ما. ثم صاح الرجل من
فوق المنصة:

”سيحيط بي القفص من كل النواحي بشكل متساوٍ ليفسح لي المجال
الكافي لكي...”

”لكي ماذا؟ لكي تختفي؟... ولدي الصغير قادر على القيام بهذه
الخدعة باستخدام عدّة الساحر القديمة.“ صاح أحدهم من الصف الخلفي.
ارتشف أحدهم بعض القهوة من كأسه البلاستيكية المقاومة للحرارة.
”لا“ أجابه الرجل من فوق المنصة، وقد نسيت أنا اسمه مجدداً فبحث
بين الملاحظات التي خربشتها على لوحها الرقمي.
اسمه ”والدستاين“... حتى اسمه بدا لها مبتذلاً.

”لا“ أجابه بسرعة مرة أخرى ليوقف موجة جديدة من الضحك وقال:
”هذه ليست خدعة مألوفة أخرى من تلك التي تُقدّم في الحفلات.“
رفعت أنا يدها ونادته قائلة: ”سيد والدستاين؟“

”نعم.. تفضلي؟“

”أنت تدّعي لنا أنك ستختفي؟“

أوما والدستاين برأسه إيجاباً وقال:

”سأنتقل إلى مكان آخر في خلال دقيقة.“

”آه.. سنتنقل“، أومات برأسها هي الأخرى وسألته:

”إلى أين بالضبط؟“

ابتسم والدستاين ابتسامة عريضة ودفع خصل شعره الرمادي المتناثرة فوق وجهه إلى الخلف كاشفاً عن عينيه الواسعتين المتألفتين كعيني طفل تبرقان فرحاً من خلف زجاج نظارته، ثم أعلن بطريقة مسرحية قائلاً: "سأنتقل إلى لحظة أخرى من الزمن".

سمعت أنا من خلفها صوت احتكاك أرجل كرسي بالأرضية الاسمنتية الباردة وصوت شخص يتمتم "يا له من أحق" ومن ثم سمعت صوت خطوات تبتعد إلى الخارج. تمكنت من سماع غمغمة الصحفيين الآخرين وتململهم بشكل سيء.

الزمن؟؟ يبدو أن هذا الأحق العجوز المسكين المخدوع يتحدث عن السفر عبر الزمن. ولا بد من أنه يحتاج إلى مساعدة من نوع ما بلا شك، ربما هو بحاجة إلى تلقي الرعاية في مصح نفسي أخضر الجدران، حيث تصدح الموسيقى الهادئة لتساعده على الاسترخاء والتركيز. تفاقم ضجيج تحريك الكراسي حولها وبدأ أن استعراض الرجل المسكين قد انتهى قبل أن يبدأ، مما دفعها للشفقة عليه بعض الشيء.

"لا ترحلوا.. أرجوكم.. انتظروا قليلاً". صاح والدستاين.. ثم قال: "سأريكم الآن".

فتح الرجل طاولة نزهات غير متوازنة فوق منصة العرض المرتجلة التي لم تكن أكثر من بضعة ألواح خشبية مكدّسة بعضها فوق بعض، ثم بدأ بالنقر على مفاتيح حاسب نقال - لاب توب - قديم متآكل، وشاهدت شيئاً يشبه الوعاء النحاسي تحت الطاولة تتدلى منه كابلات موصولة بقفص معدني طويل، وسمعت همهمة التيار الكهربائي عندما بدأ يسري في الوعاء وعندها، خفتت الأضواء داخل المستودع، فأدركت بأن هذا الجهاز الأخرق الذي صنعه ذاك الأحق يسحب التيار الكهربائي من المكان. يا إلهي.. سيثوي نفسه بيديه.. أمامنا جميعاً.

تقدم والدستاين بخطى رشيقة قافراً فوق الكابلات وفتح باب القفص المعدني قائلاً:

”راقبوا ما سيجري..“

فوقفت أنا وصاحت:

”أظن يا سيد والدستاين أنك يجب أن لا...“

إلا أنه لم يفسح لها مجالاً لإكمال كلامها ودخل إلى القفص وصفق بابَه خلفه بشدة كبيرة إلى درجة أن صدى الصوت تردد في كل أنحاء المستودع. فتعالت همهمة الناس مما دفع والدستاين للصياح كي يسمعه الجميع قائلاً:

”سيداتي سادتي.. أنتم على وشك أن تشهدوا الرحلة الأولى عبر الزمن“. فتقدّمت منه أنا وقالت:

”أرجوك... يجب أن تتوقف“!

لاحظت الفتاة أن أحد مراسلي القنوات الرقمية قد شقّ طريقه بين الكراسي وبدأ بتصوير القفص بكاميرته اليدوية، فهزّت رأسها بقرف. لا بد من أن هذا المخبول يحاول تسجيل كل شيء، يحاول تصوير هذا المسكين المخدوع وهو يشوي نفسه كما تُشوى حبة البطاطس.

يا إلهي....

ابتسم والدستاين للفتاة من خلف القضبان بهدوء وارتياح ورفع صوته ليغطّي على صوت الطاقة الكهربائية القوية التي بدأت تسري داخل الجهاز قائلاً:

”لا تقلقي يا عزيزتي، سأكون على ما يرام“!

صاحت أنا ”أرجوك! أرجوك اخرج من القفص“، وقد فاجأتها نبرة الرعب في صوتها ذاته..

إلا أن ابتسامة والدستاين طمأنتها وهو يقول: ”سأكون على ما يرام يا عزيزتي. سأراهم مجدداً.. سأراهم وسألمسهم بيدي هاتين...“

”من هم؟ من تقصد؟ عمّاذًا تحدث؟“، صاحت، لكنّ كلماتها تلاشت وسط الضجيج المتصاعد.

فجأة، تطاير الشرر اللامع عبر قضبان القفص فصاح أحدهم:

”تراجعوا إلى الخلف“!

إنها تعرف أن شحنة كهربائية بهذا الحجم قد تنفجر وتصيبهم جميعاً بالأذى، فتراجعت بلا تفكير خطوات عدّة إلى الخلف فصدمت كاحلها بكرسي فارغ ممّا آلمها كثيراً. أضحت الكراسي كلها فارغة الآن بعد أن وقف الجميع في الخلف وسمعت أحدهم وهو يستنجد بالشرطة، لأنهم لم يحضروا إلى هنا ليشهدوا شخصاً يحاول شوي نفسه أمام كل ذاك الحشد حتى لو كان مجنوناً، إن الحياة اليوم مزدحمة بما يكفي من المجانين.

تطائر الشرر من القفص وانهمر كالشهب على الأرض، وتقطع نور الأضواء في المستودع كله وبدأ يغيب حيناً ويعود حيناً آخر تاركاً إياهم في ظلمة لا ينيرها سوى ضوء جهاز إعدام والدستائن الكهربائي. ومع ذلك، فإنها قادرة على رؤية ظلّه هناك سليماً معافى في قلب الشرر المتطائر هادئاً وثابتاً، لا جثة متفحمة كما توقعت قبل قليل.

و فجأة، وقعت فرقة خفيفة لا تشبه الانفجار بل الطقطقة وسرت في المكان هبة نسيم ناعمة وغريبة، ثم توقف كل شيء. توقف الشرر وصوت الطاقة الكهربائية بأزيزها وفرقتها. وساد السكون المكان بكامله إلى درجة أنها تمكنت من سماع أصوات أنفاس كل الموجودين، وسمعت أحدهم يهمس: ”ليتصل أحدكم بسيارة إسعاف بسرعة“.

أضاء أحدهم مصباح جيب ووجه الشعاع الضوئي نحو القفص.
”يا إلهي.. أين هو؟“

إنه فارغ كما أكد لهم قبل قليل، لقد اختفى. شعرت آنا بشيء من الارتياح ووجدت نفسها تضحك وتقول وهي تهزّ رأسها إيجاباً: ”سوف أذهب إلى.. حسناً.. هذا ما قاله، أليس كذلك؟“

لم يبدُ الارتياح والبهجة على وجه أحد غيرها بعد هذا العرض.
”لم أحضر الليلة إلى هنا لأشاهد عرضاً سحرياً، لدي مقالات أكتبها كما تعلمون.. لدي عمل حقيقي.. لا يشبه هذا النوع من الجنون الممل.“
قال شخص ما.

فجأة، عادت الكهرباء وتطير الشرر على طول السلك الواصل إلى القفص فقال أحدهم:

”يا للهول.. تراجعوا جميعاً.. لقد عاد الجهاز إلى العمل“.

توقعت أنا تكرار ما حدث من جديد لتغطية دخوله من جديد القفص باستعمال خدع الدخان والمرايا المعتادة.. إنه ما يسميه السحرة بفنّ تشتيت الانتباه. لكنها رأت بدلاً من ذلك توهج شبح خافت من وراء القضبان. بدأ الأمر بحجم رأس الإبرة، لكنّ حجمه ازداد مع الوقت ليصل إلى أقدام عدّة عرضاً، متوهّجاً متموّجاً كصفحة الماء. وشاهدت أنا خيلاً شبحياً يشبه الطيف، هذا إذا ما كنا سنعتبر أن مثل هذا الهراء ممكن الحدوث.

”ما هذا؟“ تمتم أحدهم، وانظفاً المصباح اليدوي ممّا سمح لهم برؤية التوهّج الأثيري للطيف بوضوح أكثر من ذي قبل. هزّت أنا رأسها في الظلام نفيّاً وكأنّ السؤال قد وُجّه إليها من دون غيرها من الناس.

”لا أعرف“، أجابت، وفكرت وهي تمنع النظر في الضوء المتموّج دائرياً كالدوّامة بأنها تشبهه في وجود طيف بشري داخل القفص، وربما كان ما تراه أكثر من طيف واحد. هناك شيء ما هناك... أحداً ما... هناك بعض الناس في الداخل. وراحت الخطوط الخارجية التي تحدّد تلك الأشكال البشرية أمامهم تزداد وضوحاً مع الوقت وكأنهم يقتربون باتجاههم من مكان بعيد، لكنّ الشكّ خامر أنا بأن ذاك التوهج الضعيف موجود في مكان آخر.. وشعرت وكأنها تقدمت واقتربت منهم وأصبحت معهم في الداخل - وكأنّ تشابكات القضبان والأسلاك غير موجودة - وشعرت بأنها باتت في مكان آخر، وكأنّ الدوامة التي أمامها بوابة متوهجة إلى... لكنها أمسكت نفسها عن الإبحار في الخيال... ماذا؟ حقاً؟ هل تمازحنا يا رجل؟

”هذا جنون حقيقي“. همست أنا لنفسها، لأن الطيف الذي تراءى لها كان طيفاً بشرياً بالفعل بعد أن باتت معالمه واضحة بكل تأكيد، وبدأ أنه يتحرك باتجاهها فحجب ضوء الدوامة المنبعث من ذاك المكان.. وفجأة

اختفى ذاك النور الشبحي وعمّ الظلام. شعرت أنا وهي غارقة في تلك الظلمة الدامسة بهبة نسيم رقيقة بجانب وجهها فطارت خصلة من شعرها ودخلت عينها، فأعادتها إلى الخلف وعدلت من وضع شعرها... لكنها متأكدة من وجود شيء ما في القفص لأنها تسمع تنفّسه، وتشعر بتنهّداته غير العادية التي تصلها عبر الشباك.

”والدستاين؟.. هل يوجد أحد ما هناك؟ هل أنت هناك؟“ لكن الأنفاس المتهدّجة لم تتوقف ولم تتغيّر.

”من يحمل ذاك المصباح؟ وجهه إلى ذلك القفص“. قال شخص ما من خلفها.

سمعت شخصاً ما يعبث بأزرار المصباح من ورائها ويشتم في الظلام بحثاً عن الزر الصغير.

”والدستاين؟ هل أنت بخير؟“ سألت أنا، فاضطربت الأنفاس السريعة ثم توقفت وكأنه يحاول الإجابة على سؤالها.

”أشعل ذاك المصباح يا رجل“.

”أنا أحاول ذلك لكنّي لا أجد الزر.. أين هو؟“

في تلك اللحظة، تكلم الرجل المسكين المحتجز داخل القفص بصوت خافت، فانحنّت أنا إلى الأمام بتردد بعد أن واتها الشجاعة أخيراً لتقترب من قضبان القفص التي لم تكن حارّة، بل دافئة بسبب شحنة التيار الكهربائي الذي كان يسري فيها قبل قليل، والذي انقطع الآن والحمد لله.

”هل أنت بخير؟“

”أنا... لقد شد.. شاهدت.. إنه..“

”لا بأس.. سنخرجك من هنا حالاً وسنحضر سيارة إسعاف“.

”لقد... لقد شاهدتها“. قال بصوت مرتجف.

عندها، أضاء المصباح اليدوي من خلفها وتحركت ظلال الناس في كل الاتجاهات.

”إنه تحت تأثير الصدمة.. وجهه الضوء عليه“، قالت أنا.

تحرك الشعاع من فوق كتفها راسماً ظلالاً مختلفة تتحرك على جدران المستودع. وتمكنت أنا من النظر عبر القضبان ورؤية الرجل الذي شاهدته قبل دقائق، الرجل الذي اعتقدت أنه بحاجة إلى عناية طبية وإلى الراحة في غرفة هادئة حيث يمكنه السباحة في بحار أحلامه كما يشاء.

ارتاحت أنا لدى تأكدها من عدم احتراق جسده، لكنها عندما نظرت إلى وجهه... وجهه..

لا تزال العينان الباديتان خلف نظارات المجنون تلك واسعتين ودائريتين، تحت نفس الشعر الأشعث الذي يدل على عته صاحبه، لكنهما فقدتا تماماً نظرة الفضول الطفولي والحماس اللذين كانا يميزانها قبل قليل.

بدلاً من الحماس والفضول الطفولي امتلأت العينان بالرعب.. بالرعب التام. وكانت نظراته الساهمة تدل على ذهن متوقف تماماً عن العمل ليحمي نفسه من الإصابة بالجنون. وعندها أدركت أنا أن المناسبة التي دُعيت إليها الليلة لم تكن واحدة من تلك الخدع التي تُقدّم في الصالات، ولا عرضاً لساحر يبحث عن الشهرة وعن طرق لجذب الجماهير.

لقد كان في مكان ما... في مكان آخر بالفعل.. إنه لا يدعي ذلك. لسبب ما انتابها شعور بأنه أمضى في المكان الذي سافر إليه وقتاً أطول من الدقيقة التي غابها عنهم هنا.

”ماذا؟ مالذي جرى هنا الآن؟“ سأله أنا بلطف..

بدا لها أن نظراته الشاردة، التي ربما لا تزال تشاهد ذاك المكان البعيد الذي سافر إليه، بدا لها أن بصره يعود إليه بالتدريج، وأنه يستعيد السيطرة على جسده الموجود هنا في شيكاغو ببطء شديد. تركزت عيناه عليها وأدرك شيئاً فشيئاً أنه لم يكن وحيداً، وأن أحدهم موجود بجانبه تماماً على الطرف الآخر من القضبان. ففتح فمه ليقول شيئاً ما لكن شفثيه الجافتين المتشققتين ترددتا ثم قال:

”لقد رأيتُ... النهاية“.

شعرت أنا بأن شخصاً خلفها يجري اتصالاً ويتكلم مع سيارة إسعاف،

ولا بدّ من أن بعضهم يستطيع سماعه ولاحظت بأن المخبول الذي يحمل الكاميرا ما زال يُصوّر، لربما كان يشعر بالخيبة لأنه لم يجد جثة متفحمة ليعرضها على رئيس تحريره، ولربما سيتحول هذا الهذيان الجنوني إلى قصة ممتازة بالفعل.

”والدستاين؟ ماذا تقصد.. بكلمة النهاية؟“ سألته أنا، ثم أدركت بأنه يبكي عندما سألت دمعة على خده وتاهت بين ثنايا لحيته، وتلاشت من عينيه نظرة الضياع ثم ركّز نظره عليها. التفت حوله فجأة وتفحص محيط القفص وقال: ”يا إلهي.. هذا.. لا بد من إزالة كل هذا من هنا!“

”ماذا؟ هل تقصد إزالة آلتك؟“

وضع كفّ يده على القفص المعدني بقوة فتردّد صدى ارتجاج الشباك مع بعضها حول أرجاء المكان وصاح قائلاً:

”بل هذا! هذا السفر عبر الزمان... سيدمرنا جميعاً“.

الفصل الأول

نيويورك، ٢٠٠١

وقفت مادي وحيدة تراقب مجموعة من طيور النورس وهي تنقب في أكوام القمامة المتجمعة على الطين المتراكم بجانب ضفة النهر الشرقي بسبب انخفاض مستوى المياه، وارتفعت أصوات السيارات التي تعبر جسر ويليامز بريدج فوق رأسها بشكل إيقاعي في ساعة الذروة، إنه وقت عودة العمال من أعمالهم في مناهاتن إلى بيوتهم في بروكلين. رمت حجراً أسفلتياً صغيراً في الماء وراقبت النوارس وهي تطير مذعورة بسبب ارتطامه بالماء.

لكن تفكيرها ما زال مشغولاً بتلك الفكرة.. ياإلهي.. ياإلهي.. ليام وفوستر هما الشخص نفسه؟

هذا ما صارحها به الرجل العجوز، ألم يفعل؟ ألم يعترف لها بأنه وليام كانا الشخص ذاته، وأنه كان في الماضي ليام. وبعد أن عرفت بهذا فإنها تجد أنه على حق، فهناك شبه كبير بين وجهيهما وطباعهما وحتى في طريقة حديثهما.

”حصل هذا لي يا مادي بسبب السفر في الزمن.. الانتقال عبر الزمن أصابني بالشيخوخة“.

إن الحقيقة الماثلة أمامها والتي تتلخص بأن ليام قد تحول إلى هذا الرجل العجوز المسكين.. هي سرّ آخر لا بدّ لها من الاحتفاظ به لنفسها إلى أن ترى بأن ليام قادر على استيعاب الموضوع، وعندها ستخبره. إنها تشعر بالوحدة الشديدة لاضطرابها لكتمان كل تلك الأسرار مما جعلها تشعر بالعزلة وأبعدها عن رفيقها. كما أن الأمر بأكمله يبدو غير منطقي.. إذ إنهم جُنّدوا جميعاً معاً في الوقت نفسه، هي وليام وسال على الرغم من أنّ كلّ واحد منهم قد أتى من زمن مختلف، وتمّ انقاذهم في اللحظات الأخيرة قبل موتهم المحتم على يدّ الرجل العجوز، ولهذا.. يفترض بهم أن يكونوا فريقاً واحداً ويجب ألا يحتفظ واحد منهم لنفسه بالأسرار، وعلى الأخص هذا النوع من الأسرار.

”أنت قائدة الفريق الآن، ولهذا فإن كيفية إخبار ليام بهذه الحقيقة واختيار التوقيت الملائم يعود لك وحدك“. قال لها فوستر. راقبت النوارس وهي تعود بحذرٍ للبحث عن الطعام مجدداً في الأكياس البلاستيكية المتراكمة فوق الطين.

تمتت لنفسها: ”يا له من أمر رائع“، فها قد حصلت على همّ جديد فوق همومها التي تتلاطم داخلها وتمنعها من النوم ليلاً، لأن الأمر ليس مجرد كون ليام وفوستر الشخص ذاته وحسب.. لا.. هناك أمر أخطر بكثير.. تلك الرسالة المكتوبة بخط اليد التي وجدتها في نقطة حصولهم على الإمدادات، تلك الرسالة الموجهة إليها وحدها والتي تقول:

مادي... احذري من باندورا، فالوقت ينفد منا.. انتبهي لنفسك ولا تخبري أحداً بهذا السر.

تساءلت الفتاة عمّا كان يفترض بها أن تفهم من هذه الكلمات بحق الجحيم، لأن ”باندورا“ لا تعني لها أي شيء، فما الذي يدل عليه هذا الاسم أكثر من أنه مجرد اسم فتاة؟

”لماذا يتوجب عليّ أنا إخباره؟“ قالت بهدوء، فتوقف نورس مغرور قريب منها عن التنقيب بين القمامة وأدار رأسه باتجاهها.

”لا أتحدث معك يا طائر المزابل“، فتابع النورس البحث بين النفايات لكنه تابعها بطرف عينه السوداء عى الرغم من ذلك. راقبت الأنوار التي تُضاء في مانهاتن بالتدريج بينما تغيب الشمس خلف برجى مركز التجارة العالمي.

لقد اختارك فوستر وجنّدك لسبب وجيه، ثم جعلك المسؤولة لسبب وجيه أيضاً، لأنه يعرف تماماً بأنك قادرة بذكائك على فهم الأمور الغامضة يا مادي.

تنهّدت الفتاة.. إنها تريد حقاً تصديق هذا، أنه قد قُدّر لها أن تكون قائدة فريق ممتازة، أن تكون رائدة زمن قوية. ولكن.. بطريقة ما.. وبعد أن سارت الأمور على هذا النحو، فإنها بدأت تشعر وكأنها.. وكأنها تطير، أو أنها معلقة هناك بين الأزمنة، ولا بد من أنها محظوظة لأنها ما زالت في قيد الحياة حتى الآن، ومحظوظة أيضاً لأنها لم تتسبب بموت رفيقها ليام وسال، ومحظوظة على وجه الخصوص لأنها لم تعبت بخط سير الزمن، لأنها لم تدمّر العالم.

إنها بالفعل ضغوطات جسيمة تقع على كاهل فتاة في الثامنة عشرة من عمرها. فهمست لنفسها:

”هذا صحيح.. إنها أعباء أكثر من اللازم“.

مكتبة الرمحى أحمد @ktabpdf تليجرام

الفصل الثاني

نيويورك، ٢٠٠١

الإنثيين (الرحلة الزمانية رقم ٥٧):

أنا أراقبه الآن وهو يطفو في الأنبوب المليء بتلك المادة اللزجة، إنه بوب، لكنه لم يصبح بوب بعد إذا كنتم تفهمون قصدي، إنه ذَكَر في الواقع.. ورأسه يخلو تماماً من الشعر وقد تقوقع على نفسه كأبي جنين عادي في بطن أمه. وعلى الرغم من ذلك فبإمكانك التعرّف إليه من ملامح وجهه ومن عظامه الغليظة وملامحه البلهاء على الرغم من أنه لم يكتمل بعد. كما أنّ الجلد لم ينمو بعد على رأسه، أنا قادرة على رؤية النسيج العضليّ الأحمر والأسنان الصغيرة وحجري عينية اللذين يبدو أن ضخمين من دون أجفان تغطيهما. يبدو أن لي في بعض الأحيان أنهما يتحرّكان أو ينتفضان، وكأنهما يحدّقان في... لكنني متأكّدة من أنه لا يراني. إنّ دماغه الجنيني نائم الآن، يحلم بما تحلم به أدمغة الأجنة.

نمت المرحلة الأولى من الجلد على معظم جسده لكنني ما زلت أرى بعضاً من البقع في الأمكنة التي لم ينمو فيها بعد. وهناك مكان صغير أستطيع النظر من خلاله إلى أضلاع صدره وهو يقع تحت ذراعه اليسرى تماماً وأعتقد أنني أرى عضواً هناك... هل هو قلبه؟ إنه ينتفض كما لو كان

حيواناً حبيساً في قفص.

هذا يسبب لي الغثيان في الحقيقة ولهذا أعتقد أنني سأعود إلى سريري. باعتبار أننا ذكرنا الأشياء المسببة للقرف فإن ليام قد خرج من المرحاض في هذه اللحظة بالضبط، وقد حصلنا على مرحاض المخيمات هذا منذ بضعة أيام. يوجد حمام صغير في المستودع له باب خشبي يُصدر صريراً كلما فتحناه ويحتوي على مرحاض مكسور بلا مقعد. كما أنه غير متصل بأنابيب الصرف الصحي ولهذا فهو غير صالح أبداً للاستعمال مما اضطرنا لطلب مرحاض المخيم هذا. لا بدّ من تفرّغه كل بضعة أيام لأنه يملأ المكان برائحة كريهة نتنة، وكلما سحبنا البرميل البلاستيكي من مكانه يخرج المرحاض بكامله من مكانه وتدفق تلك الفضلات المكوّمة داخله في كل مكان.

ياللهول. سيكون تفرّغه من دوري المرة المقبلة.

في كل الأحوال... سنذهب في رحلة قريباً إلى مكان مميز.. هل تريد أن تعرف وجهتنا؟
سأخبرك.

سنذهب غداً إلى "الأحد"! هذا صحيح.. سنخرج من هذا الزمن وننتقل إلى الأحد الماضي. ستكون رحلتي الأولى عبر الزمن. في الواقع... لا. أعتقد أن رحلتي الزمانية الأولى حدثت عندما انتشلني فوستر من المنزل وأحضرني إلى هنا، تلك كانت رحلتي الأولى مع أنني لم أفهم في ذلك الوقت ما كان يجري. كما أنني أعود في الزمن إلى الخلف ثمان وأربعين ساعة كلما أعدنا تشغيل الحقل المغناطيسي الخاص بنا... أليس كذلك؟ لكنّ القيام بهذا الأمر... دخول البوابة هو الانجاز الكبير، لأنه يعني أنك تحوّلت إلى رائد زمن حقيقي، حيث تقفز في فجوة زمانية ومكانية عابراً لحظة من الفضاء العشوائي. يقول ليام إنه أمر غريب لأن كل شيء من حولك يتحول إلى اللون الأبيض الحليبي وتتحول الأشكال ليصبح كل شيء ضبابياً وتشعر ببعض من الحركات المخيفة حولك من دون أن

تتمكن من رؤية من يقوم بها، لكنه يقول أن العملية تجري بشكل سريع
عموماً وأنتك تصل إلى الجهة الأخرى من البوابة قبل أن تدرك ذلك، ولهذا
فلا داعي للقلق.

ممتاز، شكراً لأنك أخبرتني عن الأشياء المتحركة المخيفة يا ليام.
ولهذا... أنا أشعر ببعض من القلق، لكنني متحمسة لأننا سنرى فرقة
الروك المسماة بـ "EssZed" التي أخبرتني مادي بأنها اختفت بعد أحداث
الحادي عشر من أيلول، لقد اختفوا بكل بساطة مع أنه كان بإمكانهم
الوصول للنجومية. وهذا حفلهم الأخير مع أنهم لا يعرفون ذلك بعد،
وتعتقد مادي أنهم سيعجبونني، فقد أسمعني بعضاً من أغانيهم على جهاز
الكمبيوتر وأعتقد أنها جيدة جداً. وأخبرتني بأنهم لن ينالوا إعجاب ليام
على الأغلب وأنه سيتذمر منهم وسيقول بأن أغانيهم هذه ليست موسيقى
حقيقية بل مجرد ضجيج، ولا تشبه الموسيقى الجميلة التي اعتاد على
سماعها.

يا له من أمر مضحك.

إنها تطلق على ما نقوم به اسم رحلة ميدانية، أو فصلاً دراسياً تعليمياً،
لأن بيكس تحتاج إلى مزيد من التجارب العملية لزيادة خبرتها في كيفية
السلوك البشري العادي... إنها بحاجة إلى ذلك بالفعل لأنها جادة للغاية
وتتحرك كالروبوتات، إنها باردة جداً في حين يبدو بوب أبلهاً أو أخرساً،
وبإمكان المرء اعتباره مجرد شخص أحمر. إن نظراتها تصيبني بالخوف
لأنها تبدو وكأنها تفكر بأسرع ثلاث طرق لقتل الشخص الواقف أمامها
بيديها العاريتين.

أعتقد أنني أفضل بوب.

الفصل الثالث

نيويورك، ٢٠٠١

توهجت البوابة في منتصف المستودع راسمة كرة تامة من الطاقة وتراقص في وسطها شبح العالم المتمايل المرتجف الذي كان موجوداً قبل ثمان وأربعين ساعة بالتمام والكمال. إنها ليلة الأحد، وبدا لهم ضوء نيون متراقص وما يشبه الجدار القرميديّ المزدان برسوم الشارع الغرافيتية التي راحت تتماوج داخل السديم الضبابي الحار المنبعث من البوابة.

”هيا يا سال.. ادخلي بسرعة“. قالت مادي.

ابتلعت سال لعابها من خلال حنجرتها المخنوقة بسبب التوتر وأجابتها:

”نعم.. حسناً، أنا جاهزة“.

خطت الفتاة إلى الأمام وشعرت بالطاقة تسري فيها فاقشعرت ذراعاها، طار شعرها إلى الجانبين كستارة مسرح، ثم قالت: ”إنه يدغدغني“.

دخلت الفتاة داخل كرة الطاقة المتوهجة وشعرت بالأرضية الإسمنتية وهي تتمدد تحت قدميها كما لو كانت قماشاً مطاطياً كالذي نجده في لعبة الترامبولين عندما يكون شخص آخر قد سبقنا وبدأ يقفز عليها قبلنا. ومن ثم، وبسرعة شديدة، باتت الأرض ناعمة وارتخت كما لو كانت

مندبلاً ورقياً، وبعد ثانية واحدة اختفت أرضية المستودع تماماً من تحت أقدامهم.

”يا للهول.. أنا أسقط.“ صاحت بصوت كالعواء بينما تضاربت ذراعاها مع ساقها وشعرت بأنها تقوم بحركات بهلوانية في الهواء، فسمعت ليام يقول لها:

”لا تقلقي“. لكنه بدا وكأنه قد صاح إليها بهذه الكلمات من أعلى نفق طويل طويل وبعيد، وتردد صدى كلماته عبره ثم انحسر الصدى بسرعة وتوقف ثم تلاشى تماماً. فنادته:

”ليام!“ لكن صوتها ذاته خمد وتلاشى وكأنه لم يكن.
أنا وحيدة بالفعل.

وكما قال لها بالضبط... ها هي تطفو، أو تسقط عبر محيط يغمره البياض بلا أي ملامح واضحة، كما لو كانت قطعة من رقائق الحبوب التي تناولها على الإفطار وهي تغرق في صحن كبير مليء بالحليب.
حافظي على هدوئك ياسال.

أحاط بها الضباب الأبيض الدوامي من كل جانب. مدت يدها قليلاً بضعة إنشات بعيداً عن وجهها فابتلعها الضباب، لوحت بها حولها وشعرت بمقاومة الهواء الكثيف كالمسائل لحركاتها. ثم نظرت إلى الأعلى أملاً في رؤية ظلّ باهت لأحد رفاقها المسافرين والذين يسقطون في هذا النفق فوقها لكنها لم تشاهد شيئاً سوى المزيد من البياض الساطع.
ربما كنت وحدي بالفعل.

فكرت بأنها ربما تطفو في كونها الأبيض الخاص بها وحدها، وأن الآخرين قد وصلوا إلى مكان ما، وربما كانوا قريبين منها، ربما ليسوا أبعد من رمية حجر، وتساءلت إن كان أحدهم قد ضاع في هذا المكان من قبل ولم يصل إلى الجهة الأخرى، وكُتِبَ عليه أن يقضي بقية عمره تائهاً في دوامات الأبدية هذه. إن المرور بمثل تلك التجربة يسبب الجنون، أليس كذلك؟ لأن الخوض في مثل هذا المكان الخالي من أي شيء يمكن رؤيته

أو سماعه أو شم رائحته أو الشعور به يسبب الجنون من دون شك.
قررت سال أنه من الأفضل لها ألا تفكر بهذا النوع من الأمور، لكن عقلها فاجأها في تلك اللحظة بالسؤال الأخطر على الإطلاق والذي لم تكن تود طرحه على نفسها بالتأكيد..

ماذا لو أن هذه الأشياء المخيفة المتحركة من حولها هم مسافرون آخرون في الزمن.. ماذا لو كانوا مسافرين ضائعين؟ ماذا لو كانوا عالقين هنا حتى أبد الآبدين؟

بإمكانها ببساطة أن تتخيل فتاة أخرى مثلها تماماً، ضائعة قروناً لا تعد ولا تُحصى هنا، وقد شوش الجنون عينيها وجعلهما كامدتين غائمتين كما لو كانتا عيني سمكة مطبوخة، ودفعها للذهيان كسيدة عجوز خرفة تبربر بأشياء لا معنى لها لا تدل سوى على الجنون التام.

هذا لا يفيد، إنه غباء. لا بد لي من التفكير في شيء آخر.
تمنّت في تلك اللحظة لو أنها كانت وحدها بالفعل، لأنها لاحظت وجود شيء ما بقربها، مشوش لكنه متحرك، وهو آخر شيء كانت ترغب في رؤيته الآن فأغمضت عينيها. وما أن قامت بهذا حتى شعرت بالأرض تعود ثابتة تحت قدميها من جديد.

”ما..؟“

فتحت عينيها لتجد نفسها واقفة في موقف سيارات صغير مُضاء بنور شحيح يأتي من إعلان ضوئي من النيون الأحمر الذي كُتبت بواسطته كلمتي (budweiser beer)، وكان ينثر ويطنّ كذبابة غاضبة محتجزة في زجاجة. خطت سال خارج البوابة وخرج بعدها بلحظة كل من ليام ومادي وبيكس على التوالي.

”يا لها من تجربة فظيعة!“ قالت سال وهي تلتقط أنفاسها، فبادرها ليام بابتسامة اعتذار قائلاً:

”المرّة الأولى هي الأسوأ، ربما كان يجدر بي تحذيرك.“
سمعت سال صوتاً نابضاً بطريقة منتظمة إيقاعية آتياً من خلف الجدار

القرميدي أمامها، والذي يمتد يساراً إلى ما بعد مظلة كبيرة حُشر تحتها كثير من السيارات المتلاصقة في صفٍّ واحد، إلى درجة أنها تساءلت كيف أمكن للسائقين الخروج منها بعد ركنها هنا. وينتهي الجدار بعد ذلك ليطل على شارع خلفي شحيح الإضاءة، وقد لاحظت هناك وجود وفدٍ متحركٍ من الناس وقد بدا عليهم الاستعجال وفراغ الصبر.

”آه، يبدو أن الحفلة قد بدأت بالفعل، هيا لندخل يا رفاق“. قالت مادي.

الفصل الرابع

غابة شيروود، نوتنجهام شاير، ١١٩٣

تساقط الثلج بصمت ورقة على الطريق أمامهم هابطاً ببطء من السماء الرمادية المثقلة فوقهم بالغيوم كما تتساقط أزهار الكرز. وعلى جانبي طريق الغابة الممتد أمامهم أثقل الثلج أغصان الأشجار الدائمة الخضرة فانحنى نحو الأسفل كما لو كانت ترتدي تنانير بيضاء اللون.

ارتدى السير جيفري رينو عباءة مثبتة على كتفيه في محاولة منه للمحافظة على حرارة جسده الهاربة مع كل خطوة نحو الأمام، وقد تقرحت ساقيه من طول الركوب، بينما تهادت إيدته - فرسه المفضلة - بضجر وتناقل. لقد امتطى هذه الفرس البرية القوية في رحلاته المختلفة إلى بلدان كثيرة لا يذكر عددها، وحملته من دون تدمر تسعة أشهر متواصلة عبر صحراء الأرض المقدسة الحارة التي لا ترحم، وسهول ممالك ودوقيات أوروبية لا تحصى، وها هي الآن... تعود به إلى الوطن أخيراً، إلى إنكلترا. وقد وصلا إلى شمال لندن واتجها إلى قفار سكوتلاندا البعيدة.

استدار جيفري فوق سرجه نحو الخلف ليطمئن على الآخرين، إذ يرافقه ثلاثة فرسان - كل مع حاشيته، وبعض من الضباط برتبة رقيب، والكاهن الرمزي المسافر معهم لحضور اجتماعاتهم الخمسة اليومية لأداء الصلاة.

ممّا يعني أن مجموعهم الآن هو ثمانية عشر شخصاً، وذلك بعد أن كان عددهم لدى انطلاقهم أكثر من ستين شخصاً، لكن الأمراض والإصابات التي تفاقمت أحوالها بعد المعارك التي خاضوها، والمناوشتين اللتين اضطرروا للنزال فيها مع قطاع الطرق في أثناء عودتهم إلى الوطن، قد قلّصت عددهم كثيراً ولم يُبقِ منهم سوى هذه الحفنة من الرجال القساة الأقوياء الذين لا يعرفون الراحة، لكنهم يبدون له الآن رجالاً جاهزين للاستلقاء هنا على الأرض تحت الثلوج والاستسلام للبرد حتى الموت لشدة التعب البادي عليهم.

”سيدي.. انظر“. صاح أحد أفراد الحاشية وهو يشير إلى الأمام. اعتدل جيفري في جلسته على سرج الحصان وضيق عينيه ليركّز النظر أمامه وسط الغطاء الأبيض الثلجي الممتد أمامهم، فرأى على مسافة منهم رجالاً ملفوفاً بعباءة داكنة وواقفاً في منتصف الطريق المليء بالأخاديد. دفعت غريزة الإحساس بالخطر جيفري لشد عنان فرسه والتوقف رافعاً يده إلى الأعلى، فسمع على الفور رتل الفرسان من خلفه وهم يحاولون التوقف من دون الارتطام بعضهم ببعض.

”نحن في طريقنا لتأدية عمل خاص بالملك... أفسح لنا الطريق.“ لكنّ الرجل الملفوف بالعباءة لم يتحرّك، وساد الغابة صمت شديد لم يقطعه سوى نعيق الغربان المحلّقة عالياً في سماء الشتاء، ولهات الأحصنة، وصوت لجام أحد الخيول في الخلف الذي لم يتوقف مع فارسه سوى بصعوبة.

”هل تسمعنني؟“

لكنّ الرجل لم يسمعه على ما يبدو، فما كان من جيفري إلا أن بادره بالحديث بالفرنسيّة قائلاً:

”Nous faisons les affaires de rois!“

. هبّت نسمة باردة وحرّكت غطاء رأس الرجل الغامض، لكنه لم يتحرك على الرغم من ذلك أيضاً.

هذا ليس أمراً جيداً على الإطلاق.

نظر جيفري إلى الأشجار المحاذية لهم على طول الطريق من الجانبين واكتشف بأنها منطقة ممتازة لنصب كمين. لقد هاجمهم قطاع الطرق من قبل في أوروبا في غابة مشابهة لهذه، وقد ارتكبوا في ذلك الوقت خطأ جسيماً مما أدى إلى خسارة فارس مغوار ورقبيين من الضباط المدججين بالسلاح، وقد أخطأوا عندها في عدم اتخاذ التشكيلة الصحيحة للدفاع عندما ظهر لهم أول اللصوص. ولهذا، رفع يده وأغلق قبضته بإحكام، وهي إشارة إلى مرافقيه للترجل والاستعداد للقتال.

تردد صدى صوت الأحزمة المعدنية وصليل سلاسل الدروع التي يرتديها الفرسان على كامل أجسادهم، ورنين سحب السيوف من أعمادها في جميع أنحاء الغابة. وصاح جيفري وهو يشير إلى بيتس للاقترب، وهو واحد من أفضل الرقباء المرافقين له والمشهور بمهارته في استعمال القوس: "ابتعد عن الطريق! وإلا.. سيطلق أحد رجالي سهامه عليك".

تقدم بيتس إلى محاذاته ووضع سهماً في مكانه داخل القوس وشدّ الوتر بانتظار الأمر وقال:

"هل أطلق سهماً للتحذير يا سيدي؟"

زَمَّ جيفري على شفّتيه من شدة التوتر لأن التحذير قد تمّ بالفعل عن طريق كلامه. ومع ذلك، فقد رأى أنّ إطلاق تحذير جديد بوساطة السهم أفضل من إراقة الدماء في يوم شديد البرودة كهذا. فصاح جيفري مجدداً: "تنحّ عن الطريق وإلا سنطلق سهامنا عليك!"

لم تتغيّر ردّة فعل الرجل الغامض لوهلة، ولم يحدث شيء. ومن ثمّ.. وببطء، تقدّم الرجل باتجاههم عبر الثلج الذي بلغت سماكته حتى كاحليه. فالتفت بيتس إلى جيفري وسأله:

"سيدي؟"

هذا الرجل الأحمق على وشك الموت إذاً، ولربما كانت هذه رغبته، ربما كان يريد أن يموت شهيداً، وقد التقى جيفري بكثير من هذه الحالات

في السنوات الأخيرة، التقى برجال يرغبون بالموت في ساحة المعركة بسبب الوعود البرّاقة التي كانوا يسمعونها عن غفران كل الخطايا في حال الشهادة.

”اقض عليه“، بادر جيفري.

شدّ بيتس وتر القوس بمهارة وسرعة إلى ما وراء كتفيه وسدّد ثم أطلق السهم، فتردد صدى صوت الوتر الرنان بين الأشجار المحيطة بهم ولمع السهم وهو يعبر بسرعة شديدة العشرين ياردة التي تفصلهم عن الرجل الغامض، فارتطم به بقوة وانغرز في شيء ما تحت الأردية القاتمة الملفوفة حول الرجل، لكنه تابع التقدم باتجاههم من دون اكتراث. فهمس جيفري بصوت منخفض:

”يا إلهي“.

لم تفصل بينهم الآن سوى عشرة ياردات، فسحب من تحت عباءته سيفه الضخم من دون جهد يُذكر وصاح لرجاله من فوق كتفه:

”استعدوا للقتال، أيها الضباط.. دافعوا عن العربة“.

انضمّ الفرسان الثلاثة الباقيون إليه في المقدمة، وقد كانوا جميعهم أصغر منه سنّاً، وكان أحدهم أكثر رشاقة منه، لكنهم جميعاً كانوا جاهزين للموت في سبيل حماية الأمانة التي يحملونها خلفهم، والتي ترقد في صندوق خشبيّ غريب الشكل في مؤخرة عربة أمتعتهم.

انسحبت الحاشية المرافقة لهم - وهم من الخدم المأجورين - إلى الخلف لجمع أعنة الخيول والإمساك بها وراقبوا رتل الفرسان وهم يتخذون تشكيلة القتال. كان جيفري يعتبر هؤلاء الفرسان الثلاثة إخوة له في السلاح، وقد كانوا بالفعل من الفرسان المغاوير ومن قدامى المحاربين الذين شاركوا في حملة الملك ريتشارد الصليبية الأولى، وعلى الرغم من أنّ الرجل الغامض قد تجاهل إصابته بالسهم المتدلي من صدره وتابع التقدم باتجاههم، إلا أن جيفري كان الوحيد المتأكد أن هذا سيكون قتالاً قصيراً من بين الفرسان الأربعة الذين تصدّوا للمهاجم الغامض.

فجأة، عندما لم يعد يفصل بينه وبين الفرسان سوى ياردات قليلة، اندفع راکضاً باتجاههم بسرعة شديدة وبخطوات أشبه بالقفزات وسدّد نحوهم رمحاً يبلغ طوله خمسة أقدام بمهارة وخفة وكأن ثقله لا يزيد عن وزن ريشة.

رفع جيفري وويليام - أصغر الفرسان - سيفيهما إلى الأعلى باستخدام كلتا الذراعين كما علّمه جيفري، في وضعية الاستعداد للاشتباك مع الخصم، وعندما أصبح الرجل الغامض أخيراً في مدى ضربتهم لوّح وويليام بسيفه باتجاهه أولاً فأصاب حدّ سيفه الفجوة التي تفصل بين الرقبة والكتف والتي تشبه حرف (ل)، فارتطم سيفه بشيء قاس جداً تحت العباءة، ولا بدّ من أنه درع ما، فاهتزّ سيفه بيده مجلجلاً في أثناء الارتداد إلى الخلف وأفلت من يده وسقط على الثلج. ولم تسبب الضربة للرجل أكثر من اختلال طفيف في الحركة وتألّق سيفه الضخم في الهواء ولوّح به باتجاه عنق وليم. مات وويليام الشاب في الحال، قبل أن تنشني ساقاه ليقع أرضاً، وسقط رأسه بجانبه على الثلج الأبيض الهش وعيناه ما تزالان ترمشان تحت وطأة المفاجأة. لوّح جيفري بسيفه بطريقة متهورة منحنية آملاً أن يشطر الرجل نصفين أو أن يفقده توازنه على الأقل، فانتهت حركته باشتباك فجائي وعلا صوت رنين احتكاك السيوف ببعضها فشتمه جيفري. لا بدّ من أن عدوهم هذا كان يرتدي درعاً معدنياً كاملاً يغطي كل جسده تحت تلك العباءة، ومع ذلك فقد كان يتحرك برشاقة وخفة كما لو كان عارياً تقريباً.

ما كان من الرجل إلا أن فاجأه بضربة خاطفة شتت انتباهه، وقبل أن يفهم جيفري ما جرى نظر إلى النصل المغروز بإحكام في منتصف صدره تماماً. ووسط الدهشة الناتجة عن عدم إدراك ما جرى للتو، وجد نفسه مستلقياً على الثلج وعيناه معلقتان نحو الأعلى باتجاه السماء الرمادية المكفهرة بينما راحت ندفات الثلج الرقيقة تسقط على أنفه وخديه بنعومة، وعقله ما زال يحاول استيعاب غبائه الذي صوّر له بأن القتال سيكون قصيراً، وأن المعركة انتهت بالنسبة إليه في الواقع، مرة واحدة وإلى الأبد. وبالنسبة إلى

شخص مثله حارب المسلمين الفاتحين طوال حياته وقتل مئات الرجال، فإن المطاف قد انتهى به على يد رجل واحد بعد ضربة واحدة ليتكوم جثة هامدة مثيرة للشفقة تلتطخ طهارة الثلج الأبيض المتراكم بالدماء.

من بعيد، تناهت إلى سمعه أصوات الصراخ، صيحات الخوف والغضب وارتطام المعادن بعضها ببعض واحتكاكها وصليلها، وانتهاء النزال بالسيوف بسرعة مرعبة. انحسرت الأصوات بالتدريج بعد أن فرّ الخدم هرباً للنجاة بحياتهم، وربما هرب مثلهم الضباط المرافقون لجيفري.

عمّ الصمت أخيراً على الرغم من أنه ما زال يميّز صدى بعض الصرخات من بعيد، وسمع معها صوت الثلج المتكسر تحت قدمي الشخص الغريب وهو يقترب منه.

انحنى الرجل فوقه فحجب عنه نور النهار واعتقد جيفري أنه لمح بريق الدرع المعدني اللامع تحت العباءة. وتساءل في قلبه.. كيف يمكن لرجل مُدرّع أن يتحرك بمثل هذا الخفة والسرعة؟ عندها، أدرك بآخر ما تبقى من وعيه وجود شخص ثانٍ منحنٍ فوقه، والذي سأله:

“أين هو؟”

بصق جيفري بعضاً من الدّم المتخثر فسأل على خدّه وقال: “نحن.. لا نملك.. المال”.

“لا أبحث عن مالكم، أريد الحصول على الأثر المقدّس. لا يهمّ، سنجدّه بأنفسنا”. قال الرجل.

حاولت عينا جيفري الرماديتان التركيز عليه وقال: “هل.. تعرف حقيقته؟”

فتحدّث الرجل بلطف وكأنه يحاول أن يكون ودوداً مع جيفري وقال: “نعم، أنا أحد أعضاء الأخوية”. شعر جيفري بوجود يد تمتدّ تحت رأسه لترفعه عن الثلج وقال له شخص ما:

”تناول هذه لتخفيف الألم“، ورفع الرجل الآخر ذو الوجه النحيل والشعر الطويل واللحية، زجاجة إلى شفتيه فشعر بطعم المادّة القوية في فمه. وقال له وهو يدفع بالسائل في فمه ويتنهد:

”أنا آسف جداً، لا بدّ لنا من الحصول عليه“.

”الـ.. الأثر المقدّس... لا بدّ من أن يتمّ نقله إلى سكوتلاندة، ولا بدّ.. من المحافظة على سلامته من أجل...“.

”من أجل أجيال المستقبل“. ساعده الرجل على إنهاء الجملة. ثم قال: ”نعم، أنا أدرك هذا جيداً وهذا هو سبب مجيئنا إلى هنا“. ثم ابتسم وتابع كلامه: ”نحن أجيال المستقبل، ولقد أتينا للحصول عليه“.

شعر جيفري باقتراب شبح الموت منه، شعر به فاتحاً ذراعيه لكن عقله يريد أن يعرف المزيد عن حقيقة ما جرى، فقد فشلت مهمته، وكان لا بدّ من أن تُسحب منه ولهذا فهو يحتاج إلى علامة تؤكد له صحة كلام الرجل الغامض فسأله: ”هل.. أنت.. و..؟“

”فارس من فرسان المعبد؟ نعم“.

لكن جيفري لم يسمعه، لأنّ عينيه هامتا في تلك اللحظة بعيداً بحثاً عن الملائكة المرحّبين به لمرافقتهم إلى مملكة السماء.

”لقد أتينا من زمن قريب من وقت حدوث الأمر... ولا بدّ لنا من معرفة الحقيقة. لقد حضرنا لاكتشاف ذلك، وسيكون الأثر المقدس بأمان يا أخي، أنا أعدك بذلك. سنحافظ عليه بأرواحنا“.

لم تعن الكلمات أي شيء للفارس جيفري الآن، لأنّ أنفاسه القصيرة المتسارعة والمتهدّجة توقفت أخيراً بعد غرغرة ناعمة.

أرجع الرجل رأس الفارس برقة إلى الخلف ووضع أرضاً على الثلج ورسم بسيفه في الهواء إشارة الصليب فوق الصليب الأحمر المرسوم على رداء جيفري الأبيض، ثم نظر إلى الرجل الغامض ذي العباءة، الذي ركع على الثلج بجانبه وأشار إليه أن يذهب لتفتيش عربة الأمتعة قائلاً: ”لا بدّ من أنه هناك في مكان ما، ابحث عنه“.

وقف الرجل ذو العباءة بصمت وتقدم باتجاه العربية. فهمس فارس
المعبد مجدداً لجثة الفارس الميت وهو يغمض عينيه المفتوحتين بلطف:
”أنا آسف.. لكننا مضطرون لمعرفة ما جرى“.

الفصل الخامس

نيويورك، ٢٠٠١

أجفل ليام من شدة الصوت الذي كان عالياً إلى درجة أنه شعر بشيء ما يهتز في أذنيه، ولا بدّ من أنه صوت ضار جداً. سحبته مادي إلى أمام ساحة الرقص الصغيرة داخل الملهى الليلي وجرتّه من يده إلى أن وجدا فسحة ملائمة تكفيهما تماماً أمام المنصة. وكان قد جهّز نفسه للوقوف هناك والاستماع إلى الفرقة وهي تؤدي أغنية أكثر هدوءاً وأكثر بهجة. وعندها ومن دون أي إنذار، بدأوا يعزفون أغنية مقبولة لكنهم حولوها إلى نشاز متنافر صارخ أصاب أذنيه بالألم. لكن جميع الفتيان المتواجدين حوله بدأوا بالقفز إلى الأعلى لسبب ما ودفعوه بوقاحة وسط تدافعهم المجنون هذا.

لم يمض وقت طويل حتى اكتفى من الأمر وترك مادي وسأل تقفزان بحمق كما تشاءان وشقّ طريقه بين الحشود بصعوبة وسرعة وهو يعتذر من الأشخاص الذين يدفعهم هنا وهناك إلى أن وجد بيكس واقفة في آخر الملهى بهدوء، وهي تدرس سلوك المحيطين بها كما لو كانت باحثة تدرس سلوك فئران تجارب محتجزة في قفص. فكلّمها صائحاً:

”إنهم يسمّونها موسيقى... موسيقى... هل تصدّقين هذا؟“

”صحيح. تشير تحاليل الطيف للتردّات والنبض المنتظم في الدقيقة إلى أن هذه الموسيقى تطابق الأغاني التي يطلّق عليها العامّة اسم: Death Metal.“

”هل أنت واثقة من هذا؟ أعتقد أن اسمها يجب أن يكون Deaf-and-Mental.“ فنظرت إليه بنظرة يشوبها الشكّ وقالت:
”لا. لقد قلتُ Death، كنت تحاول ممازحتي، أليس كذلك يا ليام؟“
فابتسم قائلاً: ”نعم“.

اصطنعت الفتاة ضحكة كانت تتدرب عليها منذ فترة، فجاءت فظة غليظة لا تشبه بأيّ شكل ضحكة الآنسات، وكان وقعها على خلفيّة كلّ ذاك الصخب الذي تسبّبه الفرقة الموسيقيّة أسوأ بكثير من وضعها الحقيقي. فهزّ الفتى رأسه والتفت مجدداً إلى رقعة الرقص التي بدت له من بعيد كسجادة هائجة متقافزة تتألف من رؤوس الفتيان والفتيات المتعرّقين، من الناس الذين ثبتوا الحلقات في أنوفهم ووشموا أكتافهم بينما راح خمسة شبّان ممشوقو القوام ينتفضون ويهتزون بعنف برفقة آلاتهم الموسيقية، وبدوا له وكأنهم مجانيين يقومون باستعراض جنونهم على الملأ.

يا إلهي... أهذا هو العالم الحديث؟
”آه... تعال معي وامرح يا ليام، أنت تبدو كجدي العجوز“. قالت
مادي ضاحكة.

”نعم، فهذا ليس هياج المجانين الذي أعرفه، لكنهم عزفوا بشكل جيد عموماً“. قالت سال.

”هل استمتعتما؟“ سألها ليام الذي تنشق كميّة كبيرة من هواء الليل المنعش وهم يخرجون من ضباب الملهى الرطب والحرار إلى الساحة وسط ليل أيلول البارد، وتابع قائلاً: ”لقد سمعتُ من قبل أصوات آلات مرفأ ليفربول العملاقة وأعتقد أنها تصدر جلبة أقلّ إزعاجاً من هذا الضجيج في الداخل“. ثمّ تذرّ قائلاً: ”والآن، أما زلتِ مصرّة على أن هؤلاء الشبّان يعزفون بشكل جيد؟“ فأجابته مادي:

”لا نتكلم عن جودة عزفهم يا ليام، بل عن... لا أعرف ما أسميه، إنه العنفوان... إنه الموقف الذي تُعبّر عنه تلك الموسيقى. هل تفهمني؟“

”موقف؟ هل تعتقدين ذلك حقاً؟“ وخرجوا من الشارع الغربي الحادي والخمسين إلى شارع برودواي مخلفين وراءهم حشد راقصي الروك الحمقى المتجمهرين الذين راحوا يتفرقون في كل الاتجاهات.

”نعم، هناك موقف في ذاك النوع من الموسيقى. وأنا أرى أنه يرسل نوعاً من الشعور أو الطاقة إلى الجمهور، وهذا يتوقف على الطريقة التي يتلقى بها السامع هذه الألحان.“

فكرت بيكس بهذا الكلام وقالت: ”هذا يعني أيضاً أن الموسيقيين كانوا يشعرون بمستويات من الانزعاج تتراوح ما بين المعتدلة والشديدة“. فضحك ليام من ملاحظتها هذه. فما كان من مادي إلا أن صحّحت لها قائلة:

”بل إنه الغضب، وليس هو مجرد الانزعاج.“

”وهذا كل ما يحتاج إليه الأمر، أليس كذلك؟ لا تحتاج هذه الموسيقى إلى أكثر من أن تكون غاضباً بشدة وأن تتمكن من إصدار الضجة العالية؟“

”مم... ليس بالضبط“. قالت مادي.

”نعم، الغضب والضجيج هما السمتان اللتان ميزتا تلك الموسيقى بالضبط هناك“. قالت سال.

مشى الرفاق باتجاه ساحة التايمز الهادئة في مثل هذا الوقت أكثر من أي وقت آخر على طول شارع برودواي. ثم تفقدت مادي ساعتها.

”هل أنتِ واثقة من أن فكرتكِ ستنجح؟“ سألها ليام. فأومأت بالإيجاب وقالت:

”لسنا بحاجة إلى بوابة للعودة إلى مكبتنا، وقد قارب الوقت على منتصف الليل، مما يعني أن بوابتنا ستُفتح آلياً في خلال دقائق معدودة. وما أن نعود ونعبر الجسر سنجد أنفسنا على بعد ساعة من الإثنين.“

”ولكن، ألن نلتقي في هذه الحالة نُسخاً من أنفسنا؟“

”هذا غير ممكن الحدوث، لا توجد نُسخ منّا. لا يوجد سوى نحن وإما أن نكون هنا أو هناك. لا يمكن أن نوجد في مكانين في الوقت ذاته“. أجابتها مادي. فقالت سال فوراً:
”أنا لن أفهم هذا أبداً على ما يبدو“.

وضع ليام يديه في جيبه وقال:

”في الحقيقة، لم أفكر من قبل بموضوع السفر عبر الزمن هذا.. لم أفكر سوى أننا سنمشي كثيراً لنصل إلى هدفنا“. ضحكت الفتيات لهذا، مما دفع بيكس إلى تقليدهما كما لو كان ذلك واجباً عليها. ثم سأله مادي:
”لقد اعتقدت أنك معتاد على مشي المسافات الطويلة؟“

”لماذا؟ هل يعود هذا إلى أنني كنت أعيش قبل مئة عام ، هل يجعلني هذا شخصاً معتاداً على المشي لمسافات طويلة؟“

”لا لم أقصد هذا بالضبط. لكنني أعتقد أن السيارات والحافلات لم تكن منتشرة في ذلك الوقت“.

”يا إلهي... لم نكن نعيش كالمتوحشين في الغابات. كان لدينا... الترام والقطارات وحيوانات الركوب. لم أكن أحب المشي كثيراً في ذلك الوقت، كما لا أحب المشي الآن تماماً“.

قادهم شارع برودواي إلى ساحة التايمز المزدهمة أكثر من ذاك الشارع، إذ كان الناس يخرجون من عروض صالات السينما المتأخرة، وكانت أفلام الليلة هي: *Shrek* و *Monsters Inc*، بينما اصطفت سيارات الأجرة في رتل طويل في الحارة الوسطى لالتقاط رواد السينما المتأخرين بعد عرض فيلم *Mamma Mia*. ترددت سال مترنحة للحظة فسألته مادي:

”هل أنت بخير؟“

”أنا أشعر بدوار“.

”أعتقد أن الضجيج كان عالياً جداً هناك، لأن الطنين لم يفارق أذني بعد“.

هزت رأسها ونظرت إلى الأعلى ثم قالت: ”لا ليس ذاك.. لقد شعرت

بحركة في الأرض تحت قدمي.. ألم تشعروا بها؟ ونظرت إليهما.
فهزّ ليام ومادي رأسيهما نفياً. إلا أنّ مادي تلفتت حولها متفحصة
الشارع العام فلم تجد أي شيء يدعو للشك.
”سال؟ هل كان ما شعرت به...؟“
”نعم موجةً ضعيفةً على ما أعتقد“. بينما راحت عيناها تتفحصان
المباني من حولهم والناس وسيارات الأجرة.
”هل ترين شيئاً؟“

”ليس بعد... ليس بعد. انتظري دقيقة“. كان الأمر صعباً لأنها كانت
معتادة على إجراء المسح الدقيق في الثامنة والنصف من صباح يوم الثلاثاء،
وهو الإجراء الروتيني الذي حددته لنفسها. وهي تستطيع وصف هذه
اللحظة من الزمن في هذا المكان بأدق التفاصيل. لكنهم موجودون الآن
في ساحة التايمز قبل اثنتين وعشرين ساعة من المسح الذي أجرتة، مما
يعني أنها لا تعرف أي شيء عن الناس الموجودين في الساحة ولا عما
يفعلون. وفي تلك اللحظة، حطت عيناها على ملصق إعلاني على حائط
سينما غولدن سكرين.

”هناك“، قالت وهي تشير إلى هناك وتتقدم باتجاه الملصق عبر الطريق
المزدحم بالسيارات والمشاة لتصل إلى الطرف الآخر من الساحة. لحق بها
رفاقها بعد دقيقة ووجدوها تشير إلى الإعلان المعلق على الحائط وقالت:
”هذا جديد... لا يفترض بهذا أن يكون موجوداً هنا، لا يمكن له أن يوجد
صباح الثلاثاء، أليس كذلك؟ أنا متأكدة من هذا“.

تفحصت مادي الإعلان، فوجدت أنه يحكي عن شاب هارب تطارده
طائرات الهيلوكوبتر وسيارات الهمفي العسكرية الضخمة في شوارع
إحدى المدن الأوروبية، وربما كانت باريس أو براغ، إلا أنها عرفت ما
يقصده. وقرأت عنوان الفيلم بصوت عالٍ: ”المخطوط، لم أسمع به من
قبل“.

قرأ ليام مختصر قصة الفيلم: ”لقد حُلّت أعظم شيفرة في التاريخ

بأكمله". ثم قرأ أسماء الممثلين المكتوبة على أعلى المُلصق، فسألهم: "إذا أخبروني.. من يكون ليوناردو دي كابريو؟"
تجاهلت مادي سؤاله ووجهت كلامها إلى سال: "هل أنت واثقة من هذا الأمر يا سال؟"

"لقد شعرتُ بشيء ما، كما أنه لا يُفترض بهذا أن يوجد هنا في هذا الوقت". وأومات برأسها وهي تنقر بأصابعها على المُلصق. ثم خطر لها أمر آخر فقالت: "إلا إذا أخذوها قبل الثلاثاء وأحضرنها إلى هنا" فتفقدت مادي التاريخ ووجدت أنه لا يفترض بالفيلم أن ينزل إلى الصالات قبل الخامس عشر من أكتوبر، أي بعد شهر من الآن. ومع ذلك، قالت للجميع: "إنهم يعلقون هذه الملصقات قبل عرض الفيلم إلى أن يحين أسبوع عرضه الأول". والتفتت إليهم قائلة: "على أيّ حال، لم أسمع في حياتي بهذا الفيلم، وأنا شبه متأكدة من أن ليوناردو لم يُمثل يوماً فيلم جاسوسية أو تشويق كهذا. وسأتأكد من الأمر عند عودتنا".

هزت بيكس رأسها بحزم موافقة فقفزت خصلة من شعرها الداكن وغطت وجهها وهي تقول: "هذا ليس صحيحاً. هناك خطأ ما".
راقبهم وهم يرحلون متقدمين بعزيمة وهمّة عبر ساحة التايمز.
لا تفقد أثرهم.. لا تفقدهم الآن، بعد مرور كل ذلك الوقت.

لم يتعرف سوى إلى اثنين منهم: الفتاة التي تضع نظارات طبية ولها شعر أجعد، والفتاة الرشيقة ذات الجسد الرياضي والشعر الداكن، أما الآخرون فقد بدوا له مجرد أصدقاء للفتاتين، هم أصدقاء مقربون بسبب تقارب حركاتهم ومشيتهم ومن خلال تفاعلهم الجسدي بعضهم مع بعض. وقد توقفوا لقراءة ملصق فيلم على جدار السينما، ألم يفعلوا؟

لم يكن الفيلم سوى إصداراً جديداً من أفلام هوليوود، فيلم إثارة وتشويق يزخر بالانفجارات وإطلاق الرصاص الذي يصوّرونه بطريقة التصوير البطيء السخيفة، ويحتوي بالتأكيد على الشرير ذي اللكنة البريطانية.
إنهم يتجهون إلى بروودواي الآن، وقد عبرت الفتيات الثلاث والفتى

الذي يرافقهـن بجانب مجموعة من السيدات الكبـيرات في السن، واللواتي يسبـبن الكثير من الضجيج، مما يعني أنهـن سائحات على الأغلب، وهذا واضح من مظهرهـن. وعندها أصيب بالهلع، لأنه فقد أثر الأصدقاء لوهلة من الزمن.

لا يتفقد هـم، مهـما كلفك الأمر!

بحث بعينه عن هـم فوجد الفتاة الطويلة ذات الشعر الداكن مرة أخرى، كما لو كانت رياضية ترتدي حذاء بكعب عالٍ مما أضاف لطولها عشر سنتيمترات أخرى لا داع لها، فتنهّد بارتياح وراقب ظهور الباقيـن من خلف جماعة السيدات. وعندها قرر أن يقلّص المسافة التي تفصله عن هـم لأنه لا يريد المخاطرة بفقدان هـم بسبب ضوء كاشف يصيبه في عينيه أو فقدان هـم في أحد الشوارع الفرعية قبل أن يحدد مسار هـم. لقد انتظر رؤيت هـم زمناً طويلاً، طويلاً جداً إلى درجة أنه لا يريد أن يفقد هـم الآن، بعد كل ذلك العناء.

الفصل السادس

نيويورك، ٢٠٠١

كما وعدته مادي، كان المستودع على حاله كما تركوه تماماً، ولم يكن خالياً أو مهجوراً، كما لم يجدوا فيه نُسخاً منهم، ولهذا تلاشى قلقه من التسبب بتناقض زمني غريب يتلاقى فيه الشخص مع ذاته في غرفة عمليات السفر بالزمن.

أغلقت الفتاة البوابة ما أن أصبحوا جميعاً في الداخل وقالت: "أحتاج إلى القهوة، أظن أنني بحاجة إلى جرعة من الكافيين". "أنا معك". قالت بيكس.

"سأتفقد وضع بوب وأرى كيفية سير الأمور". قال ليام. أومات مادي برأسها إيجاباً مع أن فكرها مشغول بأمر آخر واتجهت إلى لوحة التحكم الالكترونية، وهمست وهي تجلس على كرسيها وتستدير لتواجه الشاشة:

"والآن، لنر ما حقيقة الأمر".

< مرحبا يا مادي، كيف كانت الحفلة الموسيقية؟

"نحن نسَمّيها gig يا بوب"

< كيف كانت الـ gig ؟

”لا بأس بها، كانت جيدة جداً وسأخبرك عنها فيما بعد، أما الآن فأنا أحتاج إلى الاتصال برابط الانترنت الخارجي للقيام ببحث مهم.“
< حسناً. تم تشغيل التغذية الخارجية.

فتحت مادي محرك البحث الخاص بالنظام واتصلت بالانترنت وهي تسأل نفسها: ”ما كان اسم ذاك الفيلم؟“
”المخطوطة“، قالت سال وهي تجلس إلى جانبها. فعضت مادي على شفتها وقالت:

”لم أسمع به من قبل كما قلت، يا إلهي.. أنا أعشق دي كابريو.“
عرض لها محرك البحث أول صفحة من النتائج التي تحتوي على معلومات حول الفيلم من مقالات نقدية ومراجعات له، بعضها جيد وبعضها سيء، لكن الغالبية كانت سيئة، والكثير من مواقع الأخبار الفنية والترفيه الالكترونية التي تتحدث عن ليوناردو دي كابريو. اختارت مادي موقعاً كانت تدخله عادة بانتظام في أثناء وجودها في غرفة نومها عندما كانت تعيش في بيتها عام ٢٠١٠ لأنه يعرض الكثير من الأخبار المشوقة عن الفنانين، لكنها ابتسمت عندما اكتشفت بدائيته عام ٢٠٠١.
النسخة: ١,٥٠ يالها من نسخة رائعة لشبكة الانترنت.

< وقد أخرج الفيلم دون روني، ويعتبر هذا الفيلم تحولاً في مسار المخرج الذي اعتاد على تقديم الأفلام الخفيفة الرومانسية. يبدأ فيلم المخطوطة بمقدمة مشوقة مبنية على فكرة جهنمية مُحكمة قبل أن يتحول مع تقدم الحوادث إلى فيلم مطاردات ممل آخر. ففي خلال العشرين دقيقة الأولى من أحداثه يعرفون المتفرج بما يُسمونه: أكثر المخطوطات غموضاً في التاريخ، وهو شيء اعتقدت بأنه مجرد قصة فيلم إلى أن قمت بالبحث ووجدت أنها

موجودة بالفعل تحت اسم: مخطوطة فوينتش، التي يقارب عدد صفحاتها حجم كتاب كامل، والتي ذُكرت لأول مرة في خلال القرون الوسطى. كُتبت هذه المخطوطة بالغاز لم يتم حلها حتى اليوم. ويمثل دي كابريو - الذي ما زال متألفاً بعد بطولته لفيلم جيمس كاميرون التايتانيك - في هذا الفيلم دور آدم ديفيز، وهو قرصان كمبيوتر واختصاصي بحل الشيفرات. يقوم آدم ديفيز بابتكار برنامج يحلّ ألغاز المخطوطة ويقرر بحمق شديد منه التفاخر والتبجح بإنجازه هذا أمام أفراد العائلة والأصدقاء وزملاء عمله القراصنة. وكما يحدث دوماً في الحياة، لا يطول به الأمر حتى يبحث عنه الأشرار، والذين يكونون في هذا الفيلم من أشدّ عناصر الحكومة شراً وسريّة في نفس الوقت. يبحث عنه هؤلاء الأشرار لأن برنامجه بحسب اعتقادهم قادر بنفس الدرجة على فكّ شيفرات أعمق أسرار المخابرات وأشدها شراً وإجراماً. تعتمد قصة الفيلم على قصة حقيقية نشرتها الصحف البريطانية في ما سبق، وبطلها الحقيقي هو قرصان الكمبيوتر البريطاني آدم لويس، الذي تمّ اعتباره مجرد باحث عن الشهرة بعد أن ظهرت القصة في صحيفة الصن البريطانية عام ١٩٩٤....<

قرأت مادي كل ذاك المقال ثم نظرت إلى سال وقالت: ”هذا مشير للاهتمام“.

”أسألك إن كان ذاك الممثل هو نفس الرجل العجوز الذي ابتاع قسماً كبير من أراضي القارة القطبية في أوائل هذا العام ، أعني السنة التي أتيتُ

منها، لا سنواتكم أنتم“. ونظرت إلى الباقيين في فضول. ثم تابعت: ”ذهب إلى هناك عام ٢٠٢٦ ليمضي ما بقي من سنوات حياته بين طيور البطريق فيحميها من المنقّيين عن النفط وما شابه“.

”لا بدّ من أنك تمزحين، هل أنت جادة؟“

ابتسمت سال وقالت: ”قد يكون ذاك شخص آخر، إلا أنني متأكدة من الاسم: دي كابريو“.

هزت مادي رأسها موافقة على الفكرة قبل أن تعود إلى مهمتها وكتبت على سطر البحث: ”آدم لويس، ١٩٩٤، مخطوطة فوينتش“. وبينما راحت تتفحص نتائج البحث التي حصلت عليها، قامت بيكس بإفساح مجال على المكتب المزدهم بالأغراض لتضع أمامها كوباً كبيراً من القهوة الداكنة.

”أشكرُك“.

تفحصت مادي نتائج البحث واختارت أخيراً رابطاً لأحد المواقع ونقرت على اسمه لتدخل إليه، وفي خلال لحظات تحولت الشاشة إلى اللون الأسود يتوسطها رمز عين حمراء ملتهبة.

”انظروا... بينغو بانغو بونغو.. لنكتشف إلى أين سيقودنا كل هذا“.

قالت مادي وهي تتناول فنجان القهوة.

اتضح لها أن المقالة لم تكن سوى عملاً فاشلاً اعتمد كاتبها على النسخ واللصق مستمداً فقراتها من إحدى صحف الفضائح ليحوّلها إلى موقع إلكتروني بليد عن نظرية المؤامرة وسّمّاها: العين الشريرة. يقول الموقع:

”آدم لويس هو طالب في جامعة أنجليا الشرقية يقوم بدراساته للحصول على إجازة جامعية في هندسة الكمبيوتر، وهو يبدو أشبه بمدافع عن حقوق الحيوانات بلحيته ومظهره المهمل من أن يكون مبرمجاً مستقبلياً لدى شركة مايكروسوفت. وقد ادعى في مقالة صادرة عن مجلة (العلماء الجدد) أنه قام بمفرده بالمهمة التي عجز عنها علماء التاريخ ومحللوا الشيفرات وأهم الأنظمة الحاسوبية الأميركية الكبرى، وهي الخروج بعبارة مقروءة

مفهومة من الكتاب الغامض المعروف لدى المؤرخين ومحليي الشيفرات باسم مخطوطة فوينيتش.

يعترف لويس ذو التسعة عشر عاماً بأن مفتاح الشيفرة يبدو أشبه بالألعاب الالكترونية التي يعشقها ويحب لعبها مع رفاقه المهووسين بالكمبيوتر مثله. وقد أخبرنا بالعبارة التي يُفترض بأنه استخرجها من المخطوطة والتي لا يريد الإفصاح عنها بالطبع، لكن حلّها هو:

باندورا هي الكلمة. والكلمة ستقودكم إلى الحقيقة، أيها الرواد.. لقد حان الوقت لإيجادها.

سكبت مادي القهوة على يدها عندما قرأت هذه العبارة فنظرت إليها سال باهتمام وسألتها: "هل أنت بخير يا مادي؟"

استندت مادي إلى ظهر الكرسي وراحت تمسح عدسات نظارتها جاحظة العينين مما وجدته وأفقدها تركيزها.

"مادي؟ ماذا وجدت؟ ما الأمر؟"

هزّت رأسها وعَضَّتْ على شفتها فترة من الوقت، ثم التفتت إلى سال ولاحظت ارتباك بيكس وهي تنتقل ما بينهما بكعبها العالي، ثم قالت:

"أظن... أشعر بأن موضوع فوينيتش هذا ليس سوى رسالة لنا من فريق آخر".

"فريق آخر؟" وفتحت سال فمها باندعاش، ثم قالت: "هل تقصدين

فريقاً آخر مثلنا؟ رواد زمن مثلنا؟"

حنّت مادي كتفيها إلى الأمام وقالت:

"أعتقد أننا لسنا وحدنا يا رفاق".

الفصل السابع

نيويورك، ٢٠٠١

”هل أنت واثقة من هذا يا مادي؟ أقصد أنها مجرد جملة، هذا كل ما في الأمر. كما أنها لا تحتوي على أي شيء مهم بكل الأحوال“.

جلس الرفاق الثلاثة على الكراسي القديمة البالية ذات الذراعين حول طاولة المطبخ الخشبية وأمام كل منهم نسخة من المقالة التي قرأتها مادي على الموقع الإلكتروني. وعلى الرغم من أنها شرحت وجهة نظرها بوضوح كما اعتقدت إلا أن ليام لم يفهم الموضوع.

”القضية يا ليام هي أن مخطوطة فوينتش هذه قد تكون مستنداً يستعمله فريق آخر للتواصل بين الماضي والمستقبل، كما فعلت أنت بكتاب زوَّار المتحف المهمين والرسالة المتحجرة. والآن...إذا تمكن أحدهم من فكّ جزء من شيفرة فلا بدّ من أنه سيتمكن من فكّ المزيد منها، أو فكّها كلها. وحده الله من يعلم ما هي رسائل الوكالة الخطيرة التي تمّ إرسالها من الماضي إلى المستقبل. إذا كانوا يعتقدون بأن شيفرتهم مستحيلة الحل، فهذا يعني أنهم يقولون بوساطتها لبعضهم كل شيء“.

”كما يجب على الوكالة أن تبقى فائقة السريّة“. أضافت سال لكلام

مادي.

زَمْ لِيَام شَفْتِيهِ وَقَالَ: "حَسَنًا، أَظَنَّ أَنِّي فَهَمْتُ مَا تَرِيدِينَ قَوْلَهُ... عَلَى مَا أَعْتَقَدُ".

تَنَهَّدَتْ مَادِي، إِذْ لَمْ يُحْبِطْهَا بَطْءُ الْفَهْمِ لَدَى لِيَام بِقَدْرِ مَا أَحْزَنَهَا السَّرُّ الَّذِي تَخَبَّئَتْ عَنْهُ وَعَنْ سَالٍ أَيْضًا، وَقَدْ شَعُرَتْ بِأَنَّ الْوَضْعَ غَيْرَ صَحِيحٍ وَغَيْرَ عَادِلٍ لَهَا. أَمَّا أَسْوَأُ مَا فِي الْأَمْرِ فَكَانَ شَعُورُهَا بِالْوَحْدَةِ بِسَبَبِ احْتِفَازِهَا بِالسَّرِّ لِنَفْسِهَا. تَذَكَّرَتْ كَلِمَاتِ الرِّسَالَةِ الْحَرْفِيَّةِ الَّتِي وَجَدَتْهَا فِي صَنْدُوقِ الْإِيدَاعِ السَّرِيِّ عَامَ ١٩٠٦ كَلِمَةً كَلِمَةً، وَهِيَ تِلْكَ الْكَلِمَاتُ تَبْدَأُ بِاقْتِحَامِ أَحْلَامِهَا وَتَحْوِلُهَا إِلَى كَوَايِيسَ.

مَادِي، احْذَرِي مِنْ بَانْدُورَا، فَالْوَقْتُ يَنْفُذُ مِنَّا... انْتَبِهِي لِنَفْسِكَ وَلَا تَخْبِرِي أَحَدًا آخَرَ بِهَذَا السَّرِّ.

بَدَتْ لَهَا أَشْبَهُ بِالْتَحْذِيرِ مِنَ الرِّسَالَةِ. لَا... إِنَّهُ تَحْذِيرٌ بِالْفِعْلِ، وَلَكِنْ مِنْ مَآذَا بِالضَّبْطِ؟

"حَسَنًا، لَسْنَا مُضْطَرِّينَ لِلذَّهَابِ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ... هَلْ يَجِبُ عَلَيْنَا الْإِنْطِلَاقُ الْآنَ؟" قَالَ لِيَامُ، ثُمَّ تَابَعَ كَلَامَهُ مُتَذَمِّرًا: "لَقَدْ تَأَخَّرَ الْوَقْتُ، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ الطَّنِينَ فِي رَأْسِي لَمْ يَتَوَقَّفْ بَعْدَ مِنَ الضَّجِيجِ الَّذِي تَعْتَبِرُونَهُ مُوسِيقَى، كَمَا أَنَّنِي مُتَعَبٌ...". فَقَاطَعَتْهُ مَادِي:

"سَنَذْهَبُ فِي الصَّبَاحِ إِذَا، نَحْنُ جَمِيعًا بِحَاجَةٍ شَدِيدَةٍ إِلَى النَّوْمِ بِكُلِّ الْأَحْوَالِ. كَمَا أَنَّنِي مَا زِلْتُ مُتَرَدِّدَةٌ بِهَذَا الشَّأْنِ". فَوَافَقَهَا لِيَامُ قَائِلًا:

"هَذَا مَخْطُطٌ جَيِّدٌ".

"وَلَكِنْ، لَنْ تَذْهَبِ أَنْتِ إِلَى الْمَاضِي هَذِهِ الْمَرَّةَ يَا لِيَامُ".

فَنَظَرَ رَفِيقَاهَا إِلَيْهَا بِاهْتِمَامٍ وَقَالَا: "مَآذَا؟"

هَلْ سَتَخْبِرُهُمْ عَنْ بَانْدُورَا يَا مَادِي؟ هَلْ أَنْتِ مُسْتَعِدَّةٌ لِهَذَا؟

قَرَّرَتْ أَنَّهَا لَيْسَتْ جَاهِزَةٌ لِإِخْبَارِهِمْ، لَيْسَ الْآنَ عَلَى الْأَقْلَى. لَنْ تَخْبِرَهُمْ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ أَكْثَرَ عَنْ تَفَاصِيلِ هَذَا الْمَوْضُوعِ.

"سَأَذْهَبُ أَنَا، وَسَوْفَ أَصْطَحِبُ بِيَكْسٍ مَعِيَ تَحَسُّبًا بِالطَّبْعِ، أَمَّا أَنْتِ يَا لِيَامُ فَعَلَيْكَ أَنْ تَبْقَى هُنَا لِمُرَاقَبَةِ بَوْبٍ، فَإِذَا مَا تَأَخَّرَتْ وَبَاتَ هُوَ جَاهِزًا

للخروج من أنبوب التوليد فلا بد من أن تكون هنا لاستقباله حين خروجه، لكي تكون أول شخص يراه. هل تذكر ما قاله فوستر؟ الوليد المستنسخ سيتماهي مع أول شخص يراه حين خروجه، وسيتشكل بينهما رباط. لا بد من أن تكون هنا لحضور ولادته“.

”هذا صحيح“. وأوما برأسه موافقاً على كلامها، كما أنها متأكدة أنه لا يريد تقويت هذه اللحظة المهمة.

”بالإضافة إلى أنني لست مسافرة إلى مكان شديد الخطورة، سأتجه إلى انكلترا عام ١٩٩٤“. ثم استدارت باتجاه بيكس ونهضت بهدوء عن كرسيها وسألتها: ”أين يقع العنوان بالضبط؟“

”معلومات: آدم لويس هو طالب في السنة الثانية في جامعة إيست آنجليا التي تقع في مدينة نورويتش“.

”إنه حرم جامعي... أي أنه مكان غير خطر على الإطلاق. على العكس من ذلك... ربما كان الأمر ممتعاً“. وابتسمت.

فقالت سال آملية في مرافقتهما: ”ربما ذهبت معكما“.

”آسفة، لن أتمكن من اصطحابك هذه المرة يا سال. بقاؤك هنا سيفيدنا أكثر على الأرجح، عليك البحث عن إشارات أخرى، فقد شعرنا بموجة بسيطة أدت بنا إلى هنا، مما يعني أنه من الممكن أن تحدث المزيد من هذه الموجات“.

أثارت إجابتها حنق سال فقالت:

”لماذا تقررين كل شيء وحدك دائماً؟“

”آسفة، لقد... لقد عيّني فوستر رئيسة للفريق يا سال. ولهذا يفترض بي أن أقودكم، هذه هي الطريقة التي تسير بها الأمور. أتمنى حقاً لو كان الأمر مختلفاً، أتمنى أن يقوم شخص آخر باتخاذ القرارات عوضاً عني، كما أتمنى من قلبي لو كان فوستر ما زال بيننا. لكن الأمور جرت بهذا الشكل ولا نملك أن نغيرها“.

”هذا يبدو لي ظلماً“.

”كل هذا مجحفٌ وجائرٌ! لم أرغب في المجيء إلى هنا، لم أرغب بأن أموت في تحطم طائرة وأنا شابة في الثامنة عشرة من عمري. كانت لدي مخططات وآمال، هل لديك فكرة عن هذا؟ كنت قد خططت لفعل كثير من الأمور في حياتي تتجاوز الجلوس هنا لمراقبة مجموعة من شاشات الكمبيوتر والعيش في مستودع القمامة هذا“.

بإمكانها أن تقول أشياء أخرى لتصف بها حالها... لكنها تعلم أنها ستندم على أقوالها لاحقاً ولهذا لم تتفوه بها. كان استلام زمام القيادة سيء بما فيه الكفاية بالنسبة إليها لأنها لا تكاد تعرف كيفية سير الأمور في ذلك الوقت، بالإضافة إلى وجود شخص ما في مكان وزمان ما يحاول تحذيرها من شيء ما وهي أكثر غباءً من أن تفهمه وحدها.

شعرت مادي بالمرارة لوهلة، لكنّ الإرهاق باغتها فنظرت إلى ساعتها لتجد أن الوقت تجاوز الثانية فجراً، فقالت:

”اسمعا.. أنا ذاهبة للنوم، ربما يجدر بنا جميعاً الذهاب لنيل قسط من الراحة الآن فقد تأخر الوقت ولدينا كثير من الأعمال التي يجب القيام بها غداً“.

نهضت واتجهت إلى المقصورات الصغيرة التي تحتوي على أسرة النوم وسحبت الستارة لتغيّر ملابسها وترتدي بيجامتها.

نظر ليام إلى سال وابتسم وقد أصابتهما الحيرة من سلوكها هذا، فقال:

”ألا تظنّين معي أنها تشتاق إلى حياتها؟“

”ألا نشتاقي جميعاً لذلك؟“ أجابته سال.

الفصل الثامن

نيويورك، ٢٠٠١

نزلت مادي وبيكس إلى داخل الحوض الشفاف المصنوع من مادة البرسبكس البلاستيكية القاسية جداً، والمليء بستين غالوناً من السائل المعقم، وبعد لحظة واحدة اختفتا. انكمش الحوض البلاستيكي إلى الداخل وصدر عنه صوت تقلص عال جداً تردّد صدهاء في أرجاء المكان. "يا إلهي، هل يحدث هذا كل مرة؟" فأومأت سال إيجاباً وقالت: "يحدث هذا بسبب اختفاء ضغط كل الماء المحصور في الداخل بلمح البصر".

"صحيح". قال ليام ونظر إليها. جلست سال من دون حراك بجانبه وقد عقدت يديها على حضنها، فسألها:

"وكيف تسير الحياة الطبيعية هنا بعد مغادرة الرفاق عادة؟" فابتسمت سال وقالت: "لم نحظى بحال - طبيعية - بعد هنا. فإما أن نكون مختبئين من المتحولين المتوحشين، أو أن نجد عملاء الشرطة السرية على بابنا". ثم ضحكت ضحكة خبيثة وتابعت كلامها: "يبدو الأمر لك وكأننا نتقل من مشكلة إلى أخرى منذ لحظة وصولك إلى هنا.. أليس كذلك؟"

أوما ليام برأسه إيجاباً وقال: "حسناً إذاً.. بما أن السماء لم تسقط بعد على رؤوسنا، وبينما ننتظر شحن هذه الآلة من جديد، ربما ترغب الآنسة فيكرام بتناول الإفطار في أحد المطاعم الإسكوتلندية الفاخرة".

"مطعم اسكوتلندي؟"

"الذي يسمّى مطعم ماكدوكال، أليس هذا اسمه؟"

"هل تقصد ماكدونالدز؟"

"نعم.. هو ذاك. الذي يبدأ اسمه بحرف - M - أصفر كبير".

برقت عيناها بفكرة أفضل وقالت: "الفطور اقترح جيد منك، لكننا سنتناوله في مكان آخر".

الفصل التاسع

نورويتش، حرم الجامعة، أيار ١٩٩٤

اختارت مادي وهي لا تزال في غرفة عملياتهم أن تفتح بوابة الزمن داخل بركة سباحة الجامعة بعد وقت إغلاق النادي، وقد اختارت المكان لأن الفكرة بدت لها جيدة باعتبار أنهما ستصلان إلى هناك مبلتين أصلاً، ولا بدّ من أنهما ستجدان أماكن خاصّة لتغيير ملابسهما وتأمل أيضاً بأن تجداً مجفّفاً للشعر أو مناشف على الأقل. ولكن بعد وصولهما، راحتا تتخبطان تحت الماء وسط الظلمة الدامسة من دون أن تعرفا أين هو اتجاه سطح الماء، وأدركت مادي عندها أن هذا الاختيار سيتصدر قائمة الأماكن التي لا ينبغي عليها تجربتها مرة أخرى كبوابات للوصول.

شعرت مادي فجأة بيد بيكس تمسكها وتجذبها بعنف فارتفع وجهها فوق سطح الماء، سعلت وبصقت الماء الذي ابتلعه وشعرت بالغثيان بينما سبحت بيكس إلى طرف البركة وسحبتها معها.

”التوصيات المقترحة: هذه ليست فكرة جيدة.“

”لا، ليست جيدة على الإطلاق“. قالت مع تنهيدة.

فأومات بيكس موافقة برأسها بعزم وقالت من دون سخرية:

”نعم، كنت على وشك الغرق“.

خرجت مادي من الماء البارد بالتدريج وارتمت متعبة على طرف البركة، ونظرت حولها فتأكدت من أن مركز الجامعة الرياضي مغلق، ولهذا كانت البركة معتمة تماماً ولم يكن هناك من أضواء تكشف ما حولهما سوى ما يصلهما من توهج أضواء الشارع الصفراء الضعيفة ولمعان الشرائط البرتقالية التي تمتد على طول القسم المخصص لإجراء مسابقات السباحة في البركة، وهي تطفو وتعود لتختفي تحت سطح الماء بسبب الحركة التي تسببت بها الفتاتان.

”حسناً، لقد وصلنا. ولدينا أربع ساعات، ولهذا دعينا نُجفّف أنفسنا ونغيّر ملابسنا، ثم سنبحث عن آدم لويس هذا“.

أما آدم.. فقد كان يفقد أعصابه ويحتاج إلى شيء يرفع معنوياته.

”هيا.. تماسك“. خاطب آدم نفسه في المرأة بصوت هامس. نظر إلى وجهه الهزيل المليء بحبّ الشباب والنمش، وإلى لحيته التي تدعو للثناء، تلك الشعيرات المتباعدة التي لا يكاد يمكن لها أن تُسمّى باللحية، وإلى لونها المائل للاحمرار. كان دائماً يصحّح للناس بأن لونها ليس لون الزنجبيل بل هو بني مائل للاحمرار. ثم نظر إلى شعره الدهني المتماوج الذابل والمتقصف المربوط إلى الخلف على شكل ذيل حصان واكتشف أنه يميل إلى الاحمرار أيضاً.

أمعن الشاب النظر في نفسه في المرأة من خلال النظارات المماثلة لتلك التي كان يضعها لينون المغني الشهير.

”شكلك مريع“. قال لنفسه.

لَمْ لَا؟ أنا حرّ... أبدو مريعاً كما أشاء. ردّ على نفسه.

لماذا لا بالفعل... وشعر بالخوف، بخوف حقيقي يجتاح أوصاله، فهو لم يخرج من الغرفة منذ وقت طويل لا يذكره.. منذ أربعة أو خمسة أيام.. وتخلّف عن حضور نصف دزينة من الحصص الدراسية والمحاضرات، وبدأ رفاقه في المهجع يتهايمسون عنه في الرواق وراء بابه بالذات، وقد

بدأوا يعتقدون بأنه مجنون إلى أن... حسناً... إلى أن حصل هذا... الساعة الآن هي الحادية عشرة ليلاً، ويتناهى إلى سمعه ضجيج الموسيقى الآتي من الطابق الأسفل له وهي فرقة معروفة له واسمها Chili Peppers. بينما كان رفاقه في نفس الطابق يلعبون لعبة ماريو الإلكترونية. شعر آدم بأن الضجيج عال جداً.. وقد زاد صوت فتح زجاجات البيرة والضحك الشديد من انزعاجه، لأنه متأكد من أنهم يضحكون عليه. لكنه لم يعد يكثر بكل هذه الأمور الآن، التي كانت ستحبطه كثيراً لو حصلت الأسبوع الماضي، باعتبار أنه انطوائي وأنهم يعتقدون بأنه أبله المهجع، تجاهل آدم كل التعليقات الساخرة والضحكات المكبوتة كما يفعل أي مهووس بالدراسة والعلوم، وتصرف كما لو أن الأمور التي تشغل باله أكثر أهمية بما لا يقاس بهذه السخافات، أمور لن يفهمها شاربوا البيرة الجاهلون هؤلاء يوماً في حياتهم.

يوماً ما، سأسافر جواً في درجة رجال الأعمال، بينما تقومون أنتم بتقديم البطاطس المقلية في المطاعم أيها الجهلة.

هذه هي الأمور التي كان يقولها عادة بصوت عالٍ لزملائه الذين يقابلون تنبؤاته هذه بهز رؤوسهم ضاحكين ساخرين من إجاباته الضعيفة والمترددة. لكنه ابتسم الآن بهدوء لأنه عرف بأن حلمه قد أصبح حقيقة، لأنه شعر باقتراب اليوم الذي سيقبض فيه شهرياً مبلغاً خيالياً سينسيه كل السخریات التي تعرض لها.

لكن أموراً مهمّة جداً تشغل باله الليلة.

لماذا اختاروني أنا؟ كيف عرفوا اسمي؟ يا إلهي... من يكونون؟ وعلى حين غرة، توقفت الموسيقى العالية وانقطعت همهمات السكارى وأدرك أن جرس المهجع قد رنّ في الأسفل، فلعق بلسانه شفثيه الجافتين المتشقتين وحبس أنفاسه المتهدجة ليتمكن من معرفة الشخص الذي قرع الجرس في مثل هذا الوقت المتأخر.

تناهى إلى سمعه صوت لانس غلاسويغيان وصوتاً نسائياً هامساً بتهذيب

وهدوء كما تبدو عادة لهجة رجال الأعمال.

حاول لانس استمالتها بدعاباته الظريفة المبالغ بها بسبب البيرة التي ذهبت بعقله، واستعمل سحره البريطاني الواضح جداً الذي ينجح عادة مع طالبات السنة الأولى المستجدات اللواتي يبحثن عن أصدقاء أكبر منهن سناً وأكثر رزانة. لكنه اكتشف بأن الزائرة الغامضة لم تستجب لاغراءاته من صوت الهمهمة الذي سمعه.

تغيرت لهجة لانس معها فوراً بعد أن واجهته بالرفض لأول مرة في تاريخ حياته مما دفعه للتصرف كطفل عدواني سيء الطباع وقال: "حسناً، إذا كنت ترغبين حقاً في مقابلة الأبله فعليك الصعود إلى الطابق الأعلى، إنه في الغرفة الثانية من الجهة اليمنى".

سمع آدم خطواتها تتقدم في البهو الذي لا يغطيه السجاد، ثم صعد الدرج الخشبي، فخفق قلبه بشدة في صدره وتقلّصت معدته متحركة بعنف كما تفعل مجففة الملابس.

"يا إلهي.. إنهم..."

إنهم هم.

حارّ ذهنه بين خيارين: الأول هو أن يهرب من النافذة ويقفز خارجاً ويركض للنجاة بحياته، والخيار الثاني الذي لا يملك غيره هو أن يبقى ويقابلهم ليعرف ماذا يريدون منه.

يا إلهي... يا إلهي... يا إلهي...

وقفت مادي أمام بابه والتفتت لتتأكد من وقوف بيكس بجانبها ثم قرعت الباب بيدها بلطف وقالت: "آدم لويس؟"

لم يجبها أحد لكنها سمعت صوت شيء يتحرك في الداخل، ثم سمعت وقع خطوات تقترب. فنادته مرة أخرى بنعومة:

"آدم.. هل نستطيع التحدث معك؟"

ساد الصمت التام فترة من الوقت، وسمعت من الأسفل صوت الشبان وهم يتهايمسون، ولا بدّ من أنها وبيكس محور الحديث. في الواقع.. ربما

كانوا يتهايمسون حول ييكس فقط، لأنها تعرف بأن مرافقتها- وحدة الدعم - تجذب عادة أنظار الشبان المتهيجين بسبب هرمون التستستيرون الذي يفور في أوردهم. ثم سمعت أخيراً صوتاً من خلف الباب:

”من ... من أنتم؟“ قال آدم من خلف الباب.

”اسمي مادي“.

”هل ... أنت ... هل آيتٍ لتأخذيني ...؟“ قال آدم بصوت مثير للشفقة وقد قوّضه الخوف.

”لا، لم أحضر إلى هنا لآخذك. أريد التحدّث معك فحسب“.

”أنا ... قمْتُ بما طلبتموه مني ... فحسب. قمْتُ به بالضبط ... فعلْتُ ما أخبرني بأن أفعله تماماً“.

لم يكن لدى مادي أي فكرة عما يتحدث عنه، لكنها عرفت بأن الوسيلة الوحيدة لتدفعه ليفتح الباب هي أن تذكر له شيئاً مألوفاً له لتشعره بالاطمئنان. فقالت:

”آدم .. أنا هنا لاتحدث معك عن باندورا“.

فسمعت صوت القفل ثم فتح آدم الباب بمقدار بوصة واحدة، رأت أمامها وجهاً مليئاً بالثور ولمعت نظارته في الفراغ ما بين الباب والحائط. ثم سألتها:

”هل أنت ... هل أنت ... الشخص المنتظر؟“

العبى بأعصابه يا مادي ... هيا. ابتسمت له بثقة وقالت:

”بالطبع، أنا هو الشخص المنتظر“.

”ال ... الشخص الذي سيشرح لي كلّ شيء؟ لأنني أريد أن أعرف ... أنا ... أنا ...“.

”سأقوم بكل ما بوسعي يا آدم، إذا سمحت لنا بالدخول“.

فتح الباب نصف بوصة أخرى ليتفحص ييكس، فسألتها:

”و من تكون مرافقتك؟“

”إنها صديقتي. لن تسبّب لك أيّ إزعاج. إنها صديقة“.

”هل... هل تعرف بالأمر؟ عن... باندورا؟“
”نعم“

تمعن آدم في وجهيهما بضع لحظات أخرى قبل أن ينسحب إلى الداخل المعتم ويفتح الباب ببطء بينما تعالي صوت مفصلاته البالية القديمة، ودعاهما للدخول.

الفصل العاشر

نورويتش، ١٩٩٤

كانت الغرفة أكثر ظلمة من أن يتمكن المرء من تمييز أي شيء فيها، لكن رائحة العفن والثياب المتسخة والملابس الداخلية القذرة التي لا بدّ وأنها متكومة فوق بعضها حول أرجاء المكان. فسألته:

”هل يمكنك إشعال النور؟“

”نعم.. بالطبع“. وبعد لحظات، قام آدم بإشعال ضوء الأباحورة المجاور لسريره. اكتشفت مادي بأن الغرفة الصغيرة غارقة في الفوضى كما تخيلتها بالضبط، إلا أن جدرانها... خطف منظر الجدران أنفاسها. حضرت مادي فصلين دراسيين في الجامعة قبل أن تتركها لتصبح مبرمجة كمبيوتر، وقد حظيت بغرفة كهذه من قبل وغطت جدرانها بصور أفلام الخيال العلمي التي تحبها مثل فيلم *Aliens*، *Predator*، *Serenity*، وألعاب الكمبيوتر والفرق الموسيقية والأمور المشابهة. لكن ما شاهدته هنا... غريب جداً جداً.

إذ غطت الجدران الأربعة أوراقاً مليئة بكتابة هيروغليفية غير مألوفة مكتوبة بخط اليد.

”أنت تحاول فكّ ألغاز هذه ال... ما هذه؟ هل هي لغة هيروغليفية

مصرية؟“ قالت لتكسر الصمت.

”آه... نعم. لا!! ليست هيروغليفية. أنا أحلل الرموز، والكتابات المشفرة“. ثم التفت إليها وسألها:

”لقد قلت بأنك الشخص المنتظر.. صحيح؟ هل أنتِ هو حقاً؟ هل أنتِ من سيأتي ليشرح لي كل هذا؟“

قرّرت مادي أن تصارحه، باعتبار أنه قام أخيراً بفتح الباب لهما وأدخلهما، وبأن تعترف له بأنها لا تعرف شيئاً عن الموضوع الذي ذكره. فقالت:

”آدم... لقد حضرنا إلى هنا بسبب رسالة قمتِ بإرسالها على الانترنت.“

”الانترنت؟“

فأومات مادي برأسها. لن يفهم آدم قصدها بالطبع لأنهم في عام ١٩٩٤ كانوا يسمّونها بالشبكة، وهو مجرد اسم قديم لهذه التقنية ومختلف عما هو متعارف عليه في عام ٢٠١٠. فتابعت كلامها لتشرح له:

”لقد كتبت في موقع منتدى الجامعة الإلكتروني أنك حللت جملة كاملة من...“، ونسيت مادي اسم المخطوطة، فذكرتها بيكس قائلة: ”مخطوطة فوينتش“.

فأوما برأسه بحوية وقال: ”نعم.. بالطبع لقد حللتها، وهذا بالضبط ما أمروني بفعله... قمتُ تماماً بما قيل لي بأن أفعله، نفّذت...“.

”أمروك؟ من الذي أمرك بهذا؟“

نقل آدم ناظريه ما بين مادي وبيكس عدة مرات وقد أصابته الحيرة التامة والارتباك الشديد وقال: ”أنتِ من أمرني؟.. لقد اعتقدتُ بأنكِ أنتِ من كان يوجّه لي الأوامر“.

”لستُ أنا“، وهزت مادي رأسها نافية، ثم قالت: ”لم أسمع بمخطوطة فوينتش هذه قبل الليلة الماضية“.

ظهر التوتر والقلق الشديداً على وجه آدم وتوجّس خوفاً من الفتاتين

فسألها: "ألم تسمعي بها من قبل؟"
"لا"

بلل شفتيه بلسانه وقال: "هذا يعني أنك لا يمكن أن تكوني الشخص المنتظر... لأنك لن تستطيعي إخباري عن سبب وجود اسمي في ال..."
رفعت مادي يديها لتهدئ من روعه وقالت: "أنا أعرف كل شيء عن باندورا يا آدم. أعرف كل شيء".

فظر إليها مرتاباً بكلامها. ممّا دفعها لمتابعة كلامها بلطف: "أنت جزء من هذه القضية يا آدم.. معنا، مهما كان ما يعنيه هذا. كل ما أحاول فعله هو فهم ما يجري ولهذا لا بدّ لي من فهم ما تعنيه تلك المخطوطة. أرجوك... أرجوك يا آدم، لماذا لا تخبرني بكل ما تعرفه عن مخطوطة فوينتش هذه لنفهم محتواها معاً".

نظر إليها بريبة ثم نظر إلى بيكس، ثم عاد ينظر إليها من جديد والشك يملأ عينيه، فتوسلت إليه مرة أخرى:

"أرجوك" وفتحت ذراعيها أمامه إعراباً له عن صداقتها، ثم تابعت قولها: "وربما نتمكن نحن الثلاثة معاً من فهم الموضوع لو تعاونّا على ذلك؟ ما رأيك؟"

"لَمْ لا.. بالطبع". وبدا آدم مرتاحاً لاقتراحها هذا... مرتاحاً لوجود شخص يستطيع مشاركته المعلومات التي يعرفها.

بعد هنيهة بدا أنه استدرك ما فاتته، فأشار إلى مقعدين باليين ودعاهما للجلوس. فابتسمت مادي وشكرته، ثم خلعت معطفها ووضعت على السرير وأشارت إلى بيكس لتجلس على المقعد الآخر، كي لا تثير في نفسه الرهبة وهي واقفة فوق رأسيهما مثل كلب الحراسة. وبعد أن استقرّ الوضع، نظرت مادي إلى آدم باستفهام بانتظار شرحه للقصة. فجلس على السرير وقال:

"تلك المخطوطة هي أعظم تحدّي يواجهه مفككي الشيفرات، فهي مستند طويل يتألف من مئات الصفحات ويعود للقرن الثاني عشر حسب

اختبار الكربون المشع، كما أنها كُتبت بالكامل بلغة مجهولة تماماً. أقصد أن المجلد بكامله مكتوب بلغة مؤلفة من أحرف رمزية تصويرية لم تُستعمل في أي مستند آخر.“

١

بدأت أعصاب آدم الهائجة تستقرّ مع الوقت وهو يتابع كلامه.

”حاول المؤرّخون والعلماء فك طلاسمها ورموزها عند اكتشافها في القرن السابع عشر لأول مرة، ومنذ ذلك الحين وهي تنتقل من أرشيف إلى آخر من دون جدوى. وقد أمضت في مكتبة الفاتيكان في روما قرناً من الزمان إلى أن احتاج الرهبان الجزويت إلى مبلغ من المال وباعوا قسماً كاملاً من مكتبتهم عام ١٩١٢، وقد اشترى تاجر مخطوطات أثرية يدعى ويلفريد فويتش كل تلك المستندات ووجد بينها مخطوطتنا هذه داخل صندوق يحتوي على أوراق قديمة للفاتيكان. احتفظ التاجر بها لفترة من الوقت ثم حاول بيعها لعدة أشخاص يهوون جمع الآثار، وقد عرف أنها على درجة كبيرة من الأهمية، وعلى الرغم من ذلك، لم يتمكن من بيعها.“

”ماذا حلّ بها بعد ذلك؟“

”مات التاجر عام ١٩٣٠ وتركها لزوجته التي ماتت عام ١٩٦٠ وأورثتها لصديقة لها، والتي باعتها لتاجر آخر يُدعى هانز كراوس. وكما فعل فويتش، عرضها مالِكها الجديد على جامعي تحف كثيرين آملًا في حصد مال وفير من صفقة بيعها، لكنّ أحداً لم يشتريها منه. وفي النهاية وهبها كراوس لجامعة يال عام ١٩٦٩.“

توقف آدم عن حديثه وتناول علبة بيبسي وفتحها ورشف منها شفة كبيرة، ثم قال: ”وعندها، أصبحت المخطوطة معروضة للعلن، ومنذ ذلك اليوم، يحاول محلّلو الشيفرات وعلماء اللغويات أن يفكّوا رموزها“. وقدّم علبة البيبسي إلى مادي فأومأت برأسها وأخذتها وتناولت منها رشفة صغيرة. فتابع آدم:

”إنها حقاً المستند المشفّر الأعظم في التاريخ كله... لم يتمكن أحد... وأعني كلامي تماماً.. لم يتمكن شخص واحد من ترجمة جملة واحدة ذات معنى منها، ولا حتى كلمة واحدة.“

”إلى أن قمتَ أنتَ بذلك“.

أوما برأسه بالإيجاب وقال: ”إلى أن تمكنتُ أنا بشقّ النفس من حلّ تلك التفتة الصغيرة منها“.

عندها قالت بيكس: ”معلومات: تبدو على وجه آدم لويس مؤشرات توتر سلوكي، إنه يخفي عنك شيئاً يا مادي“.

نظر آدم إليها بارتياح وسألها: ”هل تنتميان لأحد أجهزة المخابرات؟“ ضحكت مادي وقالت: ”يا إلهي لا، بل أنّ بيكس تتابها الشكوك، هذا كل ما في الأمر. وهي ماهرة في الإحساس بمثل هذه الأمور. ولكن... هل هي على حق هذه المرة؟ هل هناك ما تخفيه عني يا آدم؟“ قالت وهي ترفع أحد حاجبيها. فأجابها وهو يتلعب لعابه بصعوبة:

”أنا... حسناً... لقد حللتُ من المخطوطة، حللتُ جزءاً يزيد بقليل عن الجملة التي نشرتها علناً“.

”كم حللت بالضبط؟“

نظر إلى مادي والشك يملأ عينيه وقال: ”ما الذي يؤكد لي أنني أستطيع الوثوق بك؟“

فهزّت مادي رأسها وقالت: ”لن أتمكن من مساعدتك في فهم ما يجري ما لم تطلعنا على ما تخبئه يا آدم“. أمعنت النظر في عينيه الخائفتين، ثم دارت بنظرها في أنحاء الغرفة، والتي يبدو عليها بوضوح أن صاحبها المسكين لم يغادرها منذ عدة أيام، وقد عرفت في قرارة نفسها أن خوفه هو ما منعه من الخروج. فتابعت قائلة: ”أنت تحتاج إلى شخص يشاركك مواجهة هذا الأمر، أليس كذلك؟“

هزّ رأسه بحيوية شديدة وقال: ”نعم... أنا... في الحقيقة... أنا مرعوب تماماً... هذا الأمر شديد الخطورة... أنا... يا إلهي... أرجوك أخبريني بأنك تستطيعين حلّ هذه الأحجية...“.

”سنقوم بما بوسعنا يا آدم. أخبرني فقط بكل ما تمكنت من حلّه من المخطوطة“.

لعق شفّتيه مجدداً وأخذ نفساً عميقاً وهذا من روعه وقال: "حسناً... سأخبرك". ثم تناول رشفة أخرى من علبة البيبسي وقال: "عليك يا آدم لويس أن تنشر علناً الجزء الأخير من هذه الرسالة، وأعدك بأن فتاة ستأتي إليك لتشرح لك كل شيء. وعندما تحضر إليك، لا بد لك من أن تخبرها بالتالي: "ابحثي عن كابوت في كير كليس عام ١١٩٤" لا تكشف أيّاً من كلمات هذه الرسالة لأي شخص آخر. أما الجزء الأخير الذي عليك نشره للناس فهو: باندورا هي الكلمة، والكلمة ستعودكم إلى الحقيقة. أيها الرواد.. لقد حان الوقت لإيجادها".

"هل هذا هو كل شيء؟"

أوما برأسه موافقاً. التفتت مادي إلى بيكس وسألته عن رأيها فأجابت بيكس:

"ليست لدي أي معلومات في الوقت الحالي حول هذا الأمر". فوقف آدم وقال:

"أنا مضطر للذهاب إلى الحمام. لن تذهبا إلى أي مكان، أليس كذلك؟" طمأنته مادي بإشارة من رأسها وراقبته وهو يقفز على رؤوس أصابع قدميه بين الأكوام المنتشرة على الأرضية ويدخل إلى حمام قدر تماماً كحال الغرفة، وانتظرت إلى أن أغلق الباب وأقفله على نفسه من الداخل لتقول لبيكس:

"يا إلهي... مخطوطة فوينتش هذه يا بيكس هي طردّ زمني، لا بد من أنها كذلك.. لا بدّ من وجود فريق آخر يعمل مثلنا... ألا تعتقدين ذلك؟" رمشت عينا بيكس وهي تحلل المعلومات التي تدور في ذهنها وقالت: "هذا ممكن... كما أنها قد تكون مستندا مرسلًا إلى فريقك ليتم استعماله في وقت لاحق".

نفث مادي برأسها وقالت: "لا.. لن أتمكن من استعمالها الآن. لأنها... انظري... أنا أعرف الآن بأن فريقاً آخر قد حلّ شيفرتها، ولن أسمح لليام بالطبع باستعمالها ليخاطبنا عبر الزمن، لن أسمح بذلك بعد أن تم التلاعب

بها واختراق شيفرتها. وسأخبر ليام بالطبع عندما نعود بكل شيء... لذا... نحن متأكدون من أنه مهما حدث في المستقبل يجب علينا ألا نستعملها تحت أي وضع.. نحن نعرف أنه لا يجدر بنا استعمالها أبداً. ولهذا... لا بد من وجود فريق آخر غيرنا“.

”كلام منطقي جداً“. قالت بيكس.

”كل ما علينا فعله الآن هو أن نعود إلى زمننا في عام ٢٠٠١ وسأقوم بإرسال رسالة تحذيرية إلى عام ٢٠٥٦ في المستقبل أقول فيها بأن مخطوطة فوينتش ليست آمنة بالنسبة إلى أي فريق آخر ويجب عدم استعمالها“.

وافقتها بيكس بحركة من رأسها. ثم سمعتا صوت الماء يتدفق في الحمام وفتح القفل والباب بعد لحظة وعاد إليهما آدم، فتناولت مادي معطفها عن السرير بسرعة وقالت:

”علينا أن نغادر يا آدم... يجب أن نركب القطار ولا نريد أن نتأخر“.

فأصابته الدهشة وقال:

”لكنك... لكنكما قلتما...“

”لا نستطيع البقاء أكثر من هذا... أنا آسفة حقاً“.

”لكنني أحتاج إلى شخص ما.. أحتاج إلى شخص يشرح لي معنى هذا كله“.

هزت مادي رأسها بأسف وقالت: ”أعتذر منك“. وأشارت إلى الباب فسبقتها بيكس وفتحت الباب. مما دفع آدم للتوسل:

”أرجوك لا تذهبي، فأنا مرعوب هنا وحدي... من الذي كتب الرسالة في الماضي؟ لماذا حللتها بنفسي؟ لماذا أنا؟“ وأمسك آدم بذراعها بإحكام. ”لا أعرف يا آدم ولكن... علينا الرحيل الآن، وعندما سأفهم معنى ما يجري سأعود إليك... اتفقنا؟ سأعود إلى هنا لأخبرك. أعدك بذلك“.

”أرجوك لا ترحلي...“، وازدادت قبضته إحكاماً على ذراعها فألتمتها. لاحظت بيكس ذلك فانتزعت بحركة سريعة أحد أصابعه عن ذراع مادي وأرجعته إلى الخلف بعنف، فصرخ من الألم وأفلت مادي من قبضته.

”آاه يا إلهي.. لقد كسرت إصبعي“.

ولسبب ما، أجفلت مادي وقالت:

”أنا آسفة حقاً حقاً... سنعود حتماً، أعدك بذلك“. وخرجت من الباب المفتوح إلى الرواق وهبطت الدرجات التي تحدث الكثير من الصرير ومرّت أمام الشاب الذي فتح لهما الباب، فسألها وهما تمشيان باتجاه الباب الخارجي:

”هل كل شيء على ما يرام يا فتيات؟“

أجابته مادي بسرعة: ”لا بأس“.

مدّ الشاب أحد ذراعيه أمام بيكس ومنعها من التقدم أكثر وقال وهو يتسم بأكثر ما يمكنه من لطافة ليسحرها بوسامته التي لم تخذله يوماً: ”هل أنتما واثقتان من أنكما لا تريدان البقاء لتناول بعض من البيرة معي أنا والشباب؟ قد نقيم حفلة ونستمع بوقتنا... ما رأيكما يا حلوتين؟“

ثبتت الفتاة عينيها الرماديتين الباردتين عليه لتقدّر بهدوء القوة اللازمة التي يجب عليها استعمالها لإزالة هذا الحاجز من طريقها، لكن مادي تدخلت ودفعت ذراعه بعيداً عن طريق بيكس وقالت:

”لا أنصحك بفعل ذلك... لمصلحتك الشخصية. لأنها... سريعة الغضب“.

الفصل الحادي عشر

نيويورك، ٢٠٠١

مكتبة الرمحي أحمد ٩٩

قررت معدة ليام وهي تحاول هضم دزينة البانكيك التي أشبعها بعصير القيقب الحلو، فتجشأ بصوت عالٍ أرعب سال. "يا للهول.. أنت مقرف جداً".

"آسف"، قال الفتى وعلائم الخجل بادية على وجهه وهو يجلس أمام شاشة الكمبيوتر وقال: "مرحباً يا بوب".

< مرحباً يا ليام، هل استمتعت بإفطارك؟
"كان إفطاراً لذيذاً بالفعل، شكراً على سؤالك. مع أنني أشعر بالغثيان والألم أكثر من كلب الجزار".

< معلومات: عندي لك إخطاران. ١- آلة الزمن مشحونة بالكامل وجاهزة لإعادة الإقلاع لفتح بوابة العودة. ٢- وحدة الدعم المتشكلة في كبسولة التوليد جاهزة لكي تخرج إلى الحياة.

"شكراً لك يا بوب. يبدو أنك ستعود للتنقل بين الناس أخيراً".

< أنا مسرور للغاية لأنني استمتعت بعملتي معك في الماضي يا ليام أوكونر.
"لقد استمتعت أنا أيضاً برفقتك. من الجيد أن أحظى برفقة شاب آخر

هنا لأن المكان تحول إلى غرفة فتيات وردية“.

< لا أفهمك.

”إنه تعبير مجازي يا بوب“. والتفت إلى سال وهو يحاول استرضاءها بنظرة من عينيه فقالت متنهدة:

”أنا لست فتاةً سخيفة ترتدي اللون الوردي يا ليام“.

ضحك ليام من قلبه وقال: ”حسناً يا بوب، ماذا يجدر بنا أن نفعل أولاً؟ هل نُعيد السيدات إلى البيت أولاً أم نُخرج المستنسخ الجديد من كبسولته؟“

< نصائح: أقترح أن تفتح بوابة العودة أولاً.

”أنت على حق. لنقم بذلك أولاً“.

الفصل الثاني عشر

نورويتش، حرم الجامعة، ١٩٩٤

تفقدت مادي الوقت على ساعتها ووجدت أنها تملك بضع دقائق قبل موعد انفتاح البوابة التي تقع إحداثياتها في الخارج، بجانب باب الخدمة الذي يقع في الجانب الخلفي من نادي السباحة الجامعي. لقد اختفت تماماً دلائل الحياة الليلية التي تنشط عادة بعد هبوط الظلام في المدينة الجامعية بعد أن تجاوز الوقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولم يعكر ذاك الصمت سوى ثعلب يحاول العثور على ما يأكله في بعض أكياس القمامة وصفارة إنذار سيارة شرطة بعيدة.

”بيكس؟“

”نعم“

”يجب أن أبحث معك أمراً. إنه شيء...“، سكنت مادي وعبست وقد بدا عليها منظر من يحاول إيجاد الكلمات المناسبة ليقول شيئاً مهماً، ثم قالت:

”هناك شيء أخفيه عن رفاقي، لأنني... حسناً، لأنني مضطرة لفعل ذلك. لكنني أحتاج إلى شخص لأتحدث معه عن هذا الموضوع، فهو يشير جنوني.“

”هل تريدین إجراء حدیث سرّی معی“؟

”نعم، لكنی أعرف أن کل ما أقوله لك یتحول إلى معلومات تدخل النظام، كما یتحصل مع کل ما تشاهدینه أو تسمعینه.. کل ما تتعرضین له یتحول إلى معلومات متاحة أمام الآخرين“.

”أستطیع أن أقسم ذاكرتی وأخصص لك ملفاً لا یمكن دخوله إلا بعد استعمال كلمة سرّیة محدّدة. كما سیتم تخزين المعلومات الخاصّة بتقسیم الذاكرة داخل نفس الملف. عند الانتهاء من الحدیث یمكنك إغلاق الجزء السري من الذاكرة الخاصّة بك وتستطیعین اختیار كلمة مختلفة للإغلاق أو استعمال ذات الكلمة التي استعملتیها للدخول، هذا الأمر یعود لك“.

”هل تقصّدين أن کل ما ستسمعینه أو ترینه...؟ وإذا ما أجرینا أي حدیث فی خلال تشغيل هذا القسم السري فإنك ستحتفظین بذاكرة خاصّة داخل الملف نفسه ویبقى الكلام سرّاً بیننا وحدنا“؟

”تماماً، كما أنّ ذاكرتی الإلكترونيّة النشطة لن تُسجل أي شيء إلى أن تقومي أنت بإغلاق القسم السريّ بكلمتك السريّة الخاصّة“.

فهمت مادي كيفية سیر العملية وبدت لها أشبه بانفصام فی عقل یمكس الإلكتروني، وهو مرض نفسي یعنی إصابة الشخص باختلال فی الذهن یؤدي به إلى ازدواج فی الشخصیة، حیث تقوم كل شخصیة بأفعال لا تدري بها الشخصیة الأخری، وهو أمر غریب نوعاً ما فی الحقیقة. لكن مادي بحاجة إلى شخص یساعدها على فهم الأمر ویساعدها على جمع هذه النقاط الغامضة فی وحدة متكاملة. إنها متأكّدة أن شیئاً مریاً ما یجری فی مكان ما، من وجود شخص یريدها أن تعرف شیئاً ما... و یريدها هی بالذات.

”قومي بذلك یا یمكس من فضلك، افتحي لی قسماً خاصاً من ذاكرتك“.

”تمّ تأکید الأمر“.

رمشت عینا یمكس بسرعة واختفت نظرتها الباردة الخالیة من العواطف وغابت لبضع دقائق، ثم قالت:

”معلومات: الذاكرة الجزئية جاهزة للعمل، أرجو تزويدي بمفتاحك السري للدخول“.

”ماذا؟ هل يمكنني تخصيص أي شيء لهذه المهمة؟ أي كلمة؟“
”توصيات: خصّصي لهذه المهمة ثلاث كلمات لا تترافق مع بعضها عادة في سياق الكلام المعتاد، فهذا سيزيد من صعوبة الكلمة السرية كثيراً“.
”دعيني أفكر... هل تقصدين الشكل التالي مثلاً: موزة - مخلوق فضائي - أحجية؟“

”تماماً. هل سيكون تسلسل الكلمات هذا مفتاحك السري؟“
”لا، انتظري قليلاً، فأنا قد أنسى هذه الكلمات بسهولة. دعيني أفكر بالأمر“. وفركت مادي ذقنها بينما اختفت تدريجاً صفارة إنذار الشرطة التي سمعتها منذ قليل ليعم الهدوء من جديد.
”حسناً، لقد اخترت ثلاث كلمات مناسبة: آياد- رجل الكهف- فطور“.

”هل هذا هو مفتاحك السري؟“
”نعم“.

رمشت عينا بيكس بسرعة مجدداً وقالت:
”تمّ تشغيل الإجراءات الأمنية وافتتاح القسم السري“. ثم استدارت ببطء لتتظر مباشرة إلى مادي وقالت: ”أنا أنصت إليك يا مادي“.
تنهّدت مادي بعمق وقالت: ”حسناً.. الأمر الذي كنتُ أخفيه عن سال وليام هو أننا عندما ذهبنا لإحضار أجنّة جديدة للاستنساخ قبل سفرنا إلى الماضي السحيق والفوضى التي تسببنا بها بموضوع الديناصورات، وقبل ولادتك يا بيكس، ذهبنا إلى نقطة متفق عليها موجودة في سان فرانسيسكو عام ١٩٠٦، حيث وجدنا هناك صندوق إيداع يحتوي على علبة أجنّة مبرّدة، لكننا وجدنا برفقتها ملحوظة مكتوبة بخط غير واضح كما لو أن كاتبها كتبها بسرعة شديدة، وقد كانت الرسالة موجّهة إليّ أنا وحدي، لأقرأها وحدي. لم يقرأها ليام مما يعني أنني الوحيدة التي أعرف بشأنها“.

أومات بيكس برأسها وقالت: ”هل ترغبين إخباري بمحتويات الرسالة؟“

”هل تعديني بأن كل ما سأقوله الآن سيكون محصوراً بيننا نحن الاثنين فقط؟“

أومات بيكس برأسها بالإيجاب وقالت: ”المعلومات محمية بكلمة سرّ، وعندما تنتهين من الكلام معي حول هذا الموضوع وتفوهين بكلمتك السرية سيعتبر ذهني الإلكتروني العادي أن فترة زمنية مرت من دون تسجيل أي ذكريات أو معلومات من أي نوع.“

”طيب. حسناً... تقول الرسالة: مادي... احذري من باندورا، الوقت ينفذ منا، حافظي على سلامتك ولا تخبري أحداً بالأمر.“

أومات بيكس برأسها ونظرت إلى مادي وقالت: ”ولهذا منعت ليّام من مرافقتنا إلى هذه المهمة؟“

”صحيح. ومن الواضح أنني عندما رأيتُ الجملة التي فككها آدم من المخطوطة والتي احتوت على كلمة - باندورا- ونشرها على الإنترنت... يا إلهي يا بيكس... لا أجد لهذا تفسيراً سوى أن أحدهم يحاول الاتصال بي من خلال قصة مخطوطة فوينتش هذه.“

”مخطوطة فوينتش تعود إلى حوالى تسعة قرون.“

”أعرف، أعرف. وهذا أكثر ما يخيفني، هناك شخص ما موجود قبل ألف عام يحاول الاتصال بي.. لماذا؟“

”لا أملك أي معلومات مفيدة لإجابتك على هذا السؤال.“

”ما هي الجملة الغريبة التي قال آدم أنه مضطر لإخباري بها؟“

”ابحثي عن كابوت في كير كليس عام ١١٩٤.“

”ما هو كابوت؟ أو من هو؟“

”لا أملك أي معلومات حوله الآن.“

”لا بدّ من أن نذهب إلى هناك يا بيكس، إذا كان رقم ١١٩٤ يعني سنة محددة فلا بدّ من أن نعود إلى ذلك الوقت لنكتشف معنى باندورا وكل ما

يتصل بها، كما أنني يجب أن أعرف السبب الذي يجعلني أنا، أنا من دون كل الناس، مَنْ يجب عليها أن تعرف حقيقة باندورا هذه“.

”إنها تبدو الخطوة المنطقية التالية التي يجب القيام بها“ ورفعت بيكس يدها إلى الأعلى وقالت: ”أنا أقوم بتجميع التاكيونات“

نظرت مادي إلى ساعتها، لقد داهمهما الوقت وهما يتحدثان ولا يفصلهما عن فتح بوابة العودة سوى لحظات معدودة.

”هل نستطيع مناقشة هذا الأمر في وقت لاحق يا بيكس؟“

”بالتأكيد. عليك التفوّه بمفتاحك السري لإغلاق قسمك الخاص من ذاكرة النظام، وعندما تريدان متابعة الحديث أعيدي على مسمعي الكلمة السرية لتشغيل هذا القسم من جديد.“

”حسناً.. ها هي: آياد- رجل الكهف - الفطور.“

رمشت عينا بيكس بسرعة عدة مرات ثم مال رأسها إلى الجانب وقالت بفضول:

”مرّت دقيقتان واثني وثلاثين ثانية من الوقت دون تسجيل أي شيء.“
فالتفتت إلى مادي وسألتها: ”هل تعطل نظامي في هذه الأثناء؟“

تحرك الهواء من حولهما فجأة فدفع الأكياس البلاستيكية والجرائد المرمية أرضاً بسرعة في الظلام، لكنها رأت أمامها أشكال زملائها المتوهجة، رأت سال تلوح لها وليام يقلد أذني الأرنب وهو يضع يديه خلف رأسه فقالت لبيكس:

”لا.. لقد كنت على ما يرام يا بيكس. كل شيء على أحسن ما يرام.
لنعد إلى المنزل، هيا بنا.“

الفصل الثالث عشر

نورويتش، ١٩٩٤

ارتجفت يد آدم من الألم عى الرغم من أنه تأكد أن أصبعه غير مكسور، وأن الفتاة الطويلة ذات القبضة الرهيبة ضغطت على أوتار إصبعه، لا أكثر. وفي الأحوال العادية، كان أي ألم مماثل سيدفعه للذهاب إلى مستوصف الحرم الجامعي ليقوم بتجبيرها أو لوضع كيس من الثلج عليها أو حتى تناول بعض مسكنات الألم، لكنه مشئت الذهن الآن إلى أبعد الحدود فنسي كل ما يتعلق بالألم القاتل في إصبعه.

هذا غير معقول.. هذا غير معقول أبداً.

لم يتوقف عقله عن ترديد هذه الجملة، واستعاد في ذهنه الجملة الأخرى التي قالتها الفتاة ذات النظارة بينما كان داخل الحمام وهو يحبس أنفاسه ويستمع إليهما: علينا العودة إلى زمننا، إلى عام ٢٠٠١. وسأقوم بإرسال رسالة تحذيرية إلى عام ٢٠٥٦ في المستقبل.

كان على وشك أن يضحك بالنسبة إلى كلامهما بصوت عالٍ وهو مختبئ في الحمام، ولو ضحك فعلاً لصدرت عنه ضحكة صاخبة حادة تشبه ضحكات المجانين، لأن كلامهما هذا هو محض جنون... أليس كذلك؟ سبع سنين تفصلهم عن عام ٢٠٠١، إنه المستقبل.

عاتبه ذهنه هامساً له: من غرفة القيادة إلى آدم، هل تحدثك نفسك
أنهما مسافرتان عبر الزمن؟ هل هذا ما فهمته؟ هل وصل بك الجنون حقاً
إلى هذه الدرجة؟

هزَّ آدم رأسه وابتسم لنفسه قائلاً: "نعم.. أنت على حق. لقد أصبت
بالجنون بالفعل".

كان آدم على وشك القبول بأنه تحول إلى شخص مجنون، فزائرتاه
وإصبعه المرتجف ألماً وكل ما جرى قبل قليل هي مجرد هلوسات صادرة
عن ذهن مختل كلياً. ألم يصبه الاختلال بالفعل بعد اختبائه أسبوعاً كاملاً
تقريباً في غرفته كما لو كان ناسكاً... لقد بدأت الروى الخيالية تنتابه
بالفعل.

قرر الشاب أن صوت العقل الضئيل في رأسه على حق وأن كل ما جرى
دافع قوي ليذهب لمقابلة مستشار نفسي في الجامعة، وربما يتمكن ذلك
الاختصاصي من أن يشرح له بأكثر من طريقة منطقية موضوع الرسالة
التي وجدها مكتوبة بلغة سليمة معاصرة داخل مستند مخطوط عمره ألف
عام تقريباً، وأن يؤكد له على أن زائرتيه المسافرتين عبر الزمن ليستا سوى
خيال في خيال.

ضحك آدم لشدة جنون تفكيره.

كان على وشك الاعتراف بأنه جنّ تماماً عندما لاحظ وجود ورقة
مطوية على سريره حيث كانت الفتاة التي اسمها مادي تضع معطفها،
مادي... أليس ذاك هو اسمها؟ هذا ما أطلقت زائرتيه الخيالية على نفسها.
مدَّ يده المترددة ليلتقط الورقة آملاً أن تكون مجرد لعبة ذهنية أخرى يلعبها
عقله المريض وأن تختفي مع كل الأوهام السابقة قبل أن يلتقطها.
لكنها لم تختف.

"آآآآ... من آدم إلى غرفة القيادة.. إنها... آه.. إنها". تمتم آدم وهو
يقلب الورقة الملونة بين أصابعه وقال: "هل هذه حقيقية؟ إنها حقيقية أليس
كذلك؟ أنا لا أهلوس ولا أتخيل وجودها... أليس كذلك؟"

لم يكن لدى القيادة أي شيء مفيد تقوله في هذه اللحظة.
نظر إلى الورقة المطوية في يده ليجد أنها تذكرة دخول لما يبدو أنه ناد ليلي أو بار ما، وقد كتب عليها عنوان المكان: نيويورك، الشارع ٥١ الغربي. كما أنه وجد تحت العنوان تاريخاً ووقت دخول مختوماً بختم باهت، وكان التاريخ هو: الساعة الثامنة والثلاث، ٢٠٠١/٩/٩.
شعر بالدوار المفاجئ يستولي على رأسه، وانتابه الغثيان وتملكه الحماس والرعب... تصارعت في نفسه كل تلك الأحاسيس، فنظر مجدداً إلى التاريخ والوقت الباهتين المسجلين على الورقة، إنه التاسع من أيلول عام ٢٠٠١... بعد سبع سنوات من الآن، مما يعني أن الفتاة التي خرجت من عنده ستذهب إلى هذا النادي الليلي في نيويورك.
إن هذا كثير عليه... فقد الشاب توازنه وانهار على سريره ودفن وجهه في غطاءه.

سمع صوت أقدام ثقيلة تقترب صاعدة السلالم وبعد لحظة واحدة دقت قبضة قوية على بابه وتناهى إلى سمعه صوت زميله لانس وكأنه قادم من مكان بعيد جداً وعصي على الفهم: "آدم.. من تلك الفتاتين؟" وعندما لم يتلقَ لانس أي إجابة قال:

"اختبئ في الداخل كما تريد أيها المخبول، ولكن أخبر أصدقاءك المعتوهين الغربي الأطوار أن لا يزوروك في وقت متأخر كهذا في المرة المقبلة".

لم يسمع آدم أي كلمة من كلمات زميله لأنه كان مشغولاً في التخطيط للسنوات السبع القادمة من حياته.

الفصل الرابع عشر

نيويورك، ٢٠٠١

”حسناً، تراجعوا إلى الخلف يا رفاق“.

انحنى سال وضغطت على أيقونة صغيرة على الشاشة للمسمة الخاصة بأنبوب التوليد، فارتفع صوت محرك ناعم في أسفل الأنبوب وفُتحت نافذته العليا إلى الخلف بزاوية مقدارها خمس وأربعون درجة، وبعد لحظات، فُتحت أرضية الأنبوب الداخلية وانطلق السائل اللزج المحبوس في الداخل كما لو كان طوفاناً صغيراً واجتاح الغرفة الخلفية بكاملها وفاحت رائحته التي تشبه رائحة الوقود في المكان.

انزلق بوب بجسده اللامع ذي البشرة الناعمة كما هي بشرة الأطفال حديثي الولادة خارج الأنبوب وتكوّم في منتصف الغرفة كما لو كان سمكة زرقاء رائعة خرجت من الماء لتوها واستقرت على متن سفينة صيد. ”إنه صبي“. قال ليام معلناً بمزاح. فتابع مادي المزحة قائلة: ”على سبيل التغيير فقط“.

ارتعش المستنسخ الوليد وفتح عينيه الرماديتين ببطء ونظر إلى الأشخاص المتجمعين حوله والذين يتأملونه بفخر وبهجة كما يفعل الآباء لحظة ولادة أبنائهم، ثم قال ليام مشيراً إلى نفسه: ”أنا ليام“.

فتح المستنسخ فمه ليتكلم لكن قيثاً وردياً من سائل التوليد اللزج الذي كان يسبح فيه خرج من فمه وسال على صدره. فقالت سال:

“آه.. هل هذا يعني أن صديقنا بوب على ما يرام؟”

“خطأ”، قالت بيكس واقتربت لتتحري جسده النحيل العاري وقالت: “وحدة الدعم الذكية المسماة - بوب - لم تحصل على معلوماتها الشخصية بعد، علينا تحميل الشخصية والذاكرة أولاً.”

قالت مادي: “إنها على حق، فهو لم يتحول إلى صديقنا العزيز بوب بعد، ما زال مجرد وحدة ذكاء اصطناعي مستولدة من اللحم البشري.”

فوافقها الكائن المستنسخ بغرغرة غير مفهومة:

“أغ غاب بير سموه.”

فقالت سال:

“إنه أحق كما عهدناه سابقاً... هيا بنا، لننظفه ونلبسه بعض الثياب، وبعدها نقوم بتحميل كل المعلومات اللازمة على دماغه الالكتروني.”

وضع ليام يده تحت ذراع بوب وتناولت بيكس الذراع الأخرى وساعدها ليقف على قدميه فغمزه ليام قائلاً:

“أهلاً بك من جديد يا بوب”. وهو يتأمل قامته الطويلة المدهشة.

بعد نصف ساعة، جلس بوب بلا حراك على سرير ليام، وقد اغتسل وفارقه رائحة اللحم الفاسد، وارتدى ملابساً خاصة بذوي المقاسات الكبيرة. رمشت عيناه بسرعة شديدة بينما تملأ المعلومات رفاقته السيليكونية الفارغة المزروعة في جمجمته والتي لا يمكن قياسها إلا بوحدة التيرابايت. راحت بيكس تشرف على عملية نقل البرامج بينما دعت مادي رفيقيها للحديث حول مائدة المطبخ.

“كما تعلمون.. لا بد لنا من الذهاب إلى هناك لإلقاء نظرة والتأكد من أن مخطوطة فوينتش هذه لن تفضح أمرنا برمته. لن تبقى وكالتنا سرية إذا فضح عملنا فريق آخر وكتبه في تلك المخطوطة، أليس كذلك؟”

أوما ليام موافقاً وقال:

”بالطبع“.

بينما سألتها سال:

”هل يعني هذا أن ليام مثلاً سيلتقي بنسخة منه تعمل في الماضي“؟
فابتسمت مادي وقالت:

”من المحتمل بالطبع أن يلتقي بشخص ما، وإذا ما التقيت بأحد، فإن أكثر ما يجب أن تحرص عليه هو أن تخبرهم بضرورة التوقف عن استعمال مخطوطة فوينتتش، لأن أمرها قد اكتشف وتم التلاعب بها. اتفقنا.“
”حسناً“.

ثم راجعت مادي ما كتب على الورقة أمامها وقالت:

”لهذا... فإن الزمن الذي سنرسلك إليه في الماضي هو عام ١١٩٤ يا ليام. فهو الزمن الذي قال آدم لويس بأن المخطوطة تعود إليه“. ثم رفعت نظرها وقالت: ”لا أظن أن تحديد العمر باستخدام تقنية الكربون المشع دقيق إلى ذلك الحد... لكنها سنة محددة يمكننا استهدافها. وسنرسلك إلى مكان يدعى كيركليس في إنكلترا“.

”آه.. لقد ذهبت إلى إنكلترا من قبل مع عمي ووالدي“.

”هذا المكان يدعى دير كيركليس، وهو مكان مشهور لأن روبن هود مات ودُفن هناك كما يعتقد الناس“. فارتفع حاجبي ليام دهشة وقال:
”روبن هود.. هل أنت متأكدة؟“

ضحكت مادي بسبب ردّة فعله وقالت:

”لا تبني الكثير من الآمال يا ليام، فهناك الكثير من الأدلة التي تشير إلى أن هود هذا ليس سوى أسطورة حسب ما قرأته، ليس سوى خرافة تم تجميع أحداثها من مصادر عدّة مختلفة، من الأساطير الساكسونية الموعلة في القدم إلى حكايات القرن السابع عشر الخيالية“.

أصيب الفتى بخيبة الأمل وقال:

”آه... وقد كنت آمل في أن أصبح أحد رجاله المشهورين بمرحهم

الدائم“.

”اعتذر منك إذاً. أمّا الآن فاستمع جيداً لما سأقوله... تقول المصادر التاريخية أن هذه الحقبة كانت خطيرة جداً، لأن ريتشارد ملك انكلترا كان خارج البلاد في إحدى حملاته الصليبية، مما زاد من حدة القلاقل والصراعات في بلده وأفسح المجال لقطاع الطرق والإقطاعيين ليفعلوا ما يشاؤون. ولهذا، سأرسل معك وحدثي الدعم للمحافظة على سلامتك الخاصة، اتفقنا؟“

ابتسم ليام وقال: ”سأكون على ما يرام برفقة جيشي الصغير.“
”وتذكر جيداً.. كل ما عليك فعله هو إلقاء نظرة سريعة. وإذا ما استطعت... أريد منك اكتشاف حقيقة الشخص الذي يدعى - كابوت - وأن تتحدث إليه. وحاول إيجاد الشخص الذي كتب هذه المخطوطة لتري إن كانت من عمل فريق آخر مشابه لنا، وعندها، عليك الاتصال بهم وتحذيرهم من أن الشيفرة غير صالحة للاستعمال بعد الآن. اتفقنا؟“
”نعم.“

”هناك هدف آخر من رحلتك يا ليام... إذا تمكنت من إيجاد المخطوطة نفسها أو وجدت الشخص الذي يكتبها... إذا استطعت... حاول أن تجد مفتاح شيفرتها لتكتشف كل محتوياتها“. وغمزتهما وقالت: ”لا أدري ما رأيكما حيال هذا الأمر... لكنني مللت من العمل لدى وكالة مجهولة تماماً بالنسبة إليّ. أريد أن أعرف عنها أكثر وإذا ما كان هناك مزيد من الأشياء التي يمكننا الوصول إليها...“.

”بالطبع... أريد أن أعرف عن الوكالة أكثر“. قالت سال.

صمت الرفاق فترة من الوقت ثم قالت مادي:

”لا أعرف إلى أين سيقودنا كل هذا... لقد تغير التاريخ قليلاً، فهناك إعلان لفيلم لم يكن موجوداً البارحة. ربما هذا كل ما سببته موجة الاهتزاز الزمانية التي حصلت البارحة ولا يجب علينا تصحيح أي أمر. كما قال فوستر مرة... يمكن للتاريخ احتمال بعض التغيير. ربما حالف آدم بعض من الحظ في اكتشاف معنى هاتين العبارتين ولن يتعدى الأمر هذه الحدود،

لكنني أعتقد أننا مضطرون لإلقاء نظرة للتأكد. موافقون؟

أوما ليام موافقاً وقال:

”إنه عصر الفرسان وما شابه... لا أمانع رؤية بعض من ذلك“.

”رائع... لهذا... عندما يصبح بوب جاهزاً يا سال، أريدك أن تذهبي برفقة ليام ووحدتي الدعم لشراء بعض الملابس المناسبة لذلك العصر. وحده الله من يعلم ما كانوا يرتدون في ذلك الزمان“. وابتسمت، ثم تابعت كلامها: ”أكياس بطاطا من الخيش وصنادل من الجبال... هذا ما يخيّل لي“.

”حسناً.. ماذا عنك أنت؟“

”أنا سأزود ذاكرة بوب وبيكس بكل ما يلزم ليكونا على اطلاع بكل أحداث ذلك العصر“. ثم نظرت إلى ساعتها وقالت: ”إنها الساعة العاشرة، لنحدّد وقت المغادرة بساعة الغداء... ما رأيكما؟ لربما تمكنتما من تناول البيتزا قبل أن تغادرا“. ودفعت مرفق ليام لتداعبه.

الفصل الخامس عشر

نيويورك، ٢٠٠١

وقف يتفحص بعينه صفّاً طويلاً من المستودعات لأنه لم يكن متأكداً من المستودع الذي دخلوه الليلة الماضية، فقد تابعهم من مسافة بعيدة مساء البارحة وشاهدهم ينعطفون إلى هذا الشارع الخلفي وعندما وصل إلى المكان وبحث عنهم في الزقاق المليء بحاويات القمامة وأكياس المهملات المنتفخة، كانوا قد اختفوا من دون أي أثر.

خائنه أعصابه واستولى عليه التوتر، ومنعته المسافة الكبيرة التي فصلته عنهم من متابعتهم.

في هذه اللحظة، شعر آدم بأنه قادر على دق كل أبواب المستودعات المطلة على الزقاق لكنه تراجع مهزوماً، وطلع عليه صباح يوم الاثنين وهو يذرع غاضباً غرفة المعيشة في شقته ذهاباً وإياباً من دون أن يذوق طعم النوم بينما راحت مدينة نيويورك تستيقظ من سباتها لتبدأ أسبوعاً جديداً.

سبع سنوات ... سبع سنوات مرّت بانتظار هذه اللحظة، سبع سنوات بانتظار أن يتحدث مع هذه الفتاة مرة أخرى، ومن ثم يمنعه جنبه من اللحاق بهم ويفقداهم دون أن يفصله عنهم سوى شارع واحد.

سبع سنوات من إعادة شريط ذكريات تلك الليلة مراراً وتكراراً،

محاولاً أن يفهم ما جرى هناك، وأن يحتفظ بملاحم وجهي الفتاتين حية في ذاكرته. سبع سنوات من تحضير نفسه لأن يكون ما جرى تلك الليلة حقيقياً وأن تكون تذكرة النادي الليلي طريقته للقاء بشخص قام حقاً بالسفر عبر الزمن.

اتصل بعمله وأخبرهم بأنه مصاب بوعكة صحية وقال أنه قد لا يأتي إلى العمل لبضعة أيام أخرى. إنه متأكد من أن شركة الاستثمارات التي يعمل بها- شركة شيرمان غولدن- قادرة على متابعة أعمالها من دون مستشار أمن أنظمة الكمبيوتر لبضعة أيام.

مرت هذه السنين السبع وكأنها عمرٌ كامل... بما فيها سنوات الجامعة البغيضة. لم يُبقِ على أي علاقة صحية مع أحد من زملاء المدينة الجامعية السكارى والحمقى هؤلاء الذين شاركوه مهجع النوم، ولا يملك ذرة اهتمام بما يفعلونه الآن لأنه كان على ما يرام. فهو يعمل الآن في شركة جيدة في مانهاتن ويحمل بطاقة اكسبرس ذهبية، وهو عضو في نادٍ رياضي خاص عالي المستوى تطل نوافذه على نهر الهدسون، ويجمع من المال في سنة ما لم يكن والده يجمعه في عشر سنوات. لكنه يعرف في قرارة نفسه أنه ليس سوى قرصان كمبيوتر في بدلة أنيقة.

إن كل تفاصيل حياته الآن وعمله وكل مخططاته التي وضعها عندما كان في الواحد والعشرين من العمر لم تكن سوى خطوات يتبعها لتقوده إلى نيويورك، ليكون موجوداً هنا في هذا النادي في هذه الليلة. مهنته وحياته وكل شيء يقوم به موجود فقط للتحقق من التاريخ المبهم المطبوع على تذكرة النادي المجددة هذه.

هو شيء عقلائي تماماً من وجهة نظره. وقف آدم في الشارع الخلفي الذي اختفى به الأصحاب في الليلة الماضية وتأمل في ضوء النهار، فدفعته أفكاره للتقدم قائلة: من غرفة القيادة إلى آدم، لقد آن الأوان للتقدم وإلقاء التحية، ألا تعتقد ذلك؟

تقلصت معدته وهاجت لمجرد التفكير بالأمر.

هيا يا آدم، أنت رجل واثق من نفسه الآن، لم تعد ذلك المخبول الذي لم يكن يعرف شيئاً سوى كتب الجامعة، لم تعد كذلك، أليس كذلك؟ أنت لاعب كبير الآن... لست فاشلاً... بل أنت من الفائزين في هذه الحياة. والفائزون لا يندبون حظوظهم ولا يتذمرون.

شدّ من أزر نفسه وقال: "صحيح".

القيادة تؤكد أننا جاهزون للانطلاق. إنه الوقت الملائم. هيا بنا. عندها رآهم. شاهد أربعة منهم يخرجون من تحت بوابة منزلة لأحد المستودعات. وتعرف فوراً إلى الفتاة الطويلة التي لوت إصبعه وكادت أن تكسره، وهي تبدو كما كانت منذ سبع سنوات من دون أي تغيير في شكلها، بالإضافة إلى أنها ترتدي الملابس نفسها التي كانت ترتديها تلك الليلة، وتبدو وكأنها لم تكبر يوماً واحداً. رافقتها فتاة آسيوية قصيرة في الثالثة أو الرابعة عشرة من العمر وشاب صغير يكبرها ربما بعامين، ومعهم رجل مهول الحجم طويل القامة، ولا بد من أن طوله يبلغ سبعة أقدام وعرض كتفيه ياردة كاملة وربما بلغ وزنه مئتي رطل.

أين الفتاة الأخرى التي تدعى مادي... لقد كانت برفقتهم ليلة البارحة وكانت ترقص وتقفز بجنون تام بين أولئك الفتيان المبللين بالعرق. كان آدم يحب هذه الموسيقى الإيقاعية القوية عندما كان طالباً جامعياً، لكنه لم يعد يستسيغها الآن، ويعتقد أنها موسيقى للهواة والشباب الصغار في السن، إنه يفضل الآن موسيقى الجاز والبلوز والمقطوعات الكلاسيكية، فهي أكثر ملائمة لحياته الجديدة الحالية والإطار الجديد الذي يحيط به نفسه، لمهنته الراقية وسمعته التي اكتسبها باحترافه وتخصصه... إنها مناسبة لآدم الجديد.

القيادة تأمر بالانطلاق... الضوء أخضر يا صاحبي، إنه الوقت الملائم لتطرق الباب وإلا فسيصيبك الجبن كما حصل البارحة.

همس آدم لنفسه: "الحظ لا يحالف الجبان، والنصر لا يُكتب إلا للشجعان".

نعم... هذه هي الروح المعنوية الملائمة.

عرف آدم الآن البوابة المنزلقة التي خرجوا منها، إنه المستودع الخامس، فانتظر إلى أن خرج الرفاق من الزقاق وانطلقوا باتجاه بروكلين، ثم رمى كوب القهوة الخفيفة التي كان يحمله في يده بعيداً إلى سلة مهملات وخطأ خطواته الشجاعة الأولى عابراً ممر المشاة باتجاه الزقاق الضيق الوسخ الذي يقطن فيه الرفاق.

همس لنفسه مجدداً: "ها قد انطلقنا".

سمعت مادي صوت قعقة على البوابة المنزلقة وكان أحدهم يطرق البوابة بنعومة من الخارج، فاعتقدت أن أحد رفاقها قد نسي شيئاً وعاد لأخذه، فنهضت عن كرسي المكتب ومشيت إلى البوابة وهي تفرك عينيها من الإرهاق، ثم لكمت الزر الأخضر لتفتح البوابة فانزلق المعدن نحو الأعلى حوالى نصف المتر ثم أوقفته وانحنت إلى الأسفل لتخرج رأسها وتسال:

"ماذا نسي...؟"

نظرت مادي إلى الخارج فرأت رجلاً أنيقاً ذا بشرة مسمرة قليلاً، وكان يرتدي بذلة يشي مظهرها بأنها باهظة الثمن. خلع الرجل نظارته الثمينة وابتسم قائلاً بلهجة بريطانية وبعض من الخجل:

"آه... مرحباً".

"عذراً... بماذا أخدمك؟" قالت مادي.

ابتسم أكثر وقال:

"أنا وأنت.. التقينا قبل بضع سنوات".

عبست مادي وقد حارت من كلامه لبعض الوقت ثم ردّت:

"لا أعتقد ذلك". وفي هذه اللحظة، أدركت مادي أن شيئاً في هذا

الوجه مألوف بالنسبة إليها.

رفع آدم كتفيه نحو الأعلى وقال:

"أعتقد أنني كنت أبدو مختلفاً جداً في ذلك الوقت. كان شعري طويلاً

هزياً مجعداً مثيراً للشفقة وانتشرت على وجهي البثور المتقيحة وإذا لم تخني الذاكرة، فقد كان لي لحية إذا ما كنا نستطيع إطلاق اسم لحية على تلك الشعيرات المتفرقة في ذلك الوقت. لذا، لا أعتقد بأنك رأيتني في أفضل حالاتي“. وابتسم بجاذبية فلاحت بشرته الصقيلة الناعمة بشكل واضح. ثم تابع كلامه: ”لكن الأمر الذي لا يصدق هو أن لا شيء تغير فيك أبداً“.

اتسعت عيناها دهشة لأنها عرفت فجأة، فهمست:

”يا إلهي... أنت... أنت ذاك الشاب...“.

”آدم لويس“. قال وهو ينحني ليمد يده إليها مصافحاً.

”كيف استطعت...“، وضاعت الكلمات منها لشدة الدهشة.

”كيف وجدتك؟“

هزّت رأسها إيجاباً.

مدّ آدم يده إلى جيبة سترته المقلّمة والمخاطة بعناية فائقة وسحب منها محفظة جلدية وقال:

”احتفظت بهذه الورقة طوال السنوات التي مضت بأمان هنا، وكنت أخرجها بين الحين والآخر لأؤكد لنفسني بأنني لست مجنوناً وأنني لم أتوهم زيارتكما لي في تلك الليلة“. وأخرج ورقة مطوية مجعّدة باهتة وعرضها أمامها على راحة كفّه وقال: ”إنه الشيء الوحيد الذي نسيته من دون قصد منك في غرفتي“.

تمكنت مادي من قراءة اسم النادي الذي سهرُوا فيه بالأمس بصعوبة بالغة وقالت:

”هل نسيْتُ هذه عندك؟“

هزّ رأسه موافقاً، ثم رفع رأسه ونظر نحو السماء الزرقاء الصافية وتنهّد قائلاً:

”أعتقد، بأنك وعدتيني في العام ١٩٩٤ بأنك ستعودين لتخبريني بمعنى الرسالة، ولهذا... أخبريني عن إنجازاتك بهذا الخصوص... هل

عرفت ما تعنيه باندورا تلك؟
”يَا للهول... أظنّ أنه من الأفضل لك أن تدخل“. قالت مادي وهي
تفحص أول وآخر الشارع بنظرها.

الفصل السادس عشر

نيويورك، ٢٠٠١

اعتدل آدم واقفاً بعد أن أصبح في الداخل وراحت عيناه تعتادان ببطء على الضوء الشحيح بعد أن كانا يقفان تحت شمس أيلول المشرقة في الخارج. ثم استدار إليها وهمس:

”يا إلهي... هل هذه هي غرفة عملياتكم؟“
أومأت مادي موافقة وقالت:
”أخشى ذلك“.

تقدّم آدم نحو منصة شاشات الكمبيوتر وكبسولة البيربلكس وكومة الآلات المحاذية لها متردداً ثم سألها:
”وهذه... ما هذه؟“

”إنها آلة الزمن... لا بدّ من أن نتحدث، يا سيد لويس“. قالت له وهي تقف إلى جانبه. فهزّ رأسه وقال:

”ناديني آدم، على الرغم من أنّ زبائني يدعونني بالسيّد لويس“.
”اتفقنا. لا بدّ من أن يكون الحديث حول موضوع باندورا يا آدم“.
”هل عرفت معناها الآن؟“
نفث برأسها وقالت:

”لا... اسمع... رفاقي لا يعرفون أي شيء عن هذا الموضوع بعد، وقد خطّطت لإطلاعهم على الموضوع ولكن ليس الآن، لن أخبرهم حتى أعرف معناها... ربما تمكنت من مساعدتي... لا بدّ من أن أعرف كل ما يتعلق بمخطوطة فوينتش. كيف تمكنت وحدك من فك شيفرتها من دون أن يستطيع أحد غيرك القيام بهذه المهمة وكيف انتهى بك الأمر هنا؟“

”نعم، نعم بالطبع“. أوماً آدم موافقاً.

”لنجلس، وساعد بعض القهوة“. أشارت له للجلوس على أحد الكراسي الجلدية الكبيرة. وعادت بعد دقيقتين مع كوبين من القهوة وعلبة بسكويت

أوريو. مكتبة الرمحى أحمد

”تفضّل“.

”من أين أبدا؟“ خلع آدم سترته وطواها ووضعها بعناية على ذراع الكرسي وحلّ عقدة ربطة عنقه، ثم قال:

”بعد زيارتك لي بفترة قصيرة ذاع نبأ اكتشافي ونشرت الصحف المحلية الموضوع، ثم كتبت عني إحدى الصحف الوطنية مقالة أرفقتها بقصة مخطوطة فوينتش مما جعلها الصحيفة الرائجة في تلك الآونة بين الناس. لكن الضرر وقع... أصبحت مشهوراً في الجامعة بأني المخبول الواهم المثير للشفقة الذي اخترع القصة بأكملها لجذب الأنظار لنفسه“.

وابتسم آدم بمرارة.

”لماذا؟ لقد نجحت بفك الشيفرة، ألم تشرح للناس كيف قمت بذلك؟ لماذا لم تثبت لهم بأنك لست مخبولاً؟“

”لم أتمكن من شرح التقنية التي اعتمدتها لأي شخص لأنني لا أستطيع شرح طريقة فك الشيفرة“.

”لماذا؟“

تناول آدم بعضاً من القهوة وقال: ”لأنه... قد يبدو لك كلامي جنوناً... ربما لأنه جنون بالفعل...“.

”أخبرني فقط عن السبب الذي منعك من شرح طريقة تحليلها للناس“.

”لأنني أعتقد أنها كانت موجهة إليّ وحدي من دون كل الناس.“
”ماذا قلت؟“

”كُتبت الرسالة بشيفرة لا يستطيع فكها سوى شخص واحد.“. وتوسعت عيناه ليبدو أشبه بالطالب المختل الذي عرفته مادي من المستشار الراقى والأنيق الذي هو عليه اليوم وقال:

”أحد سكان العام ١١٩٤ يعرفني... يعرفني بشكل جيد جداً“. وضحك بطريقة هستيرية. ثم تنهّد وقال: ”حسناً.. الموضوع هو التالي: كنت في صغري مهتماً بدراسة اللغات القديمة وتركت الدراسة عام الأذهب إلى أميركا الجنوبية برفقة أشخاص آخرين مهتمين بدراسة الموضوع نفسه، حيث تتبّعنا آثار قبيلة سابقة لعصر حضارة الآزتِك اسمها قبيلة ويندوكرز. وكانت نظريتنا تقول بأنهم عرفوا الكتابة قبل ولادة حضارة الآزتِك. على أي حال... واختصاراً للموضوع، اكتشفْتُ جداراً مغطى بحروف تصويرية خاصّة بتلك الكتابة الميتة في أحد الكهوف العالية المطلّة على الغابة المطيرة الاستوائية. إنّ الرموز التي استعملوها يا مادي فريدة من نوعها، ولم يكتشف أحد آخر وجود ذلك الكهف، لم يكتب أحد ورقة علمية واحدة حول قبيلة ويندوكرز ولغتهم وكتابتهم التي استعملوها.“
”لماذا؟“

”أظن أنّ السبب يعود إلى عدم استكشاف الكهف من قبل أي عالم لغويات تاريخية منذ ذلك الحين.“
”لماذا لم تعلن عن اكتشافك في ذلك الوقت؟ لماذا لم تسع وراء الشهرة والمجد؟“

رفع كتفيه يأساً وقال: ”لأسباب عدّة، أردتُ أن أفهم كل شيء أولاً، وأن أحتفظ به لنفسى لبعض الوقت، كما أن الأحرف التصويرية التي استخدموها فريدة من نوعها ومثالية لتشفير البيانات“. ثم ابتسم بخجل وقال: ”أنا أستعمل بعضاً من رموزها في عملي الذي أمتنه الآن، إذ إنني أضع شيفرات أمنية لبرامج الكمبيوتر، وهذا ما يجعلني أهم الاستشاريين

في مجال أمن المعلومات في نيويورك، إن الشيفرات التي أضعها غير قابلة للاختراق“. لكن الحرج أصابه بسبب الجملة الأخيرة وخشي أن يبدو لها مغروراً متباهياً بإنجازاته فأسرع قائلاً: ”بكل الأحوال، أنا أخبرك بكل هذا لأن... لأنني وجدت رمزين لهما خصوصية شديدة من الكتابة التي وجدتتها على جدار الكهف في مخطوطة فوينتش“.

كادت مادي أن توقع بسكويته في القهوة لشدة دهشتها. فتابع آدم: ”إنها رموز شديدة الأهمية لأن قبيلة ويندتوكرز استعملتها للفصل بين الأفكار في الكتابة، للفصل بين الجمل لتكون أكثر وضوحاً، كما نفعل نحن عندما نبدأ الجملة بحرف كبير ونهيها برمز النقطة. إن أحد هذين الرمزين يظهر دوماً عند بدء الجملة أو العبارة، ويظهر الآخر في نهايتها“. ”ما هذا؟ هل تقترح بأن مخطوطة فوينتش كتبها أحد أفراد المازا؟؟ الآزتك؟“

”لا بالطبع، لم تُستعمل الرموز في كامل المخطوطة سوى مرة واحدة، في مكان واحد. تتألف المخطوطة من مئات الصفحات المليئة بخليط من الرموز، بعضها روماني وبعضها فرعوني وبعضها إغريقي وبعضها الآخر رياضي، وفجأة، نجد بين طياتها هذا المقطع المؤلف من مجموعة من الرموز العشوائية، والذي يبدأ وينتهي برمزين من أبجدية قبيلة ويندتوكرز“. ”يا إلهي“.

أوماً موافقاً وقال: ”نعم، وكأنها إشارات للفت نظري إلى هذا المقطع، كما لو أن شخصاً يقول لي: انتبه وركز على هذا المقطع وحده واركز الباقي، وكأنهم يقولون لي: ركز على هذا المقطع وحده يا آدم لويس“. ابتسمت مادي بتوتر واضح وقالت: ”هذا مخيف جداً“.

وافقها آدم وقال: ”في جميع الأحوال، لن أزعجك بسرد تفاصيل تحليل الشيفرات، لكن الأمر ببساطة، هو أنك عندما تعزلين فقرة معينة تحتوي على كلام له معنى بعيداً عن خليط اللغات والرموز المستعمل في بقية صفحات المخطوطة، فإن الأمر لا يحتاج سوى إلى بعض الوقت

حتى تجددين مفتاح الشيفرة وتعرفين محتواها، وهذه طريقة متبعة عموماً لتشتيت انتباه مفككي الشيفرات عن الرسالة الحقيقية المضمنة داخل أي نصّ مشفّر. إن السبب الوحيد الذي يؤهّلني وحدي لأعرف محتوى تلك الفقرة هو رمزي الويندتوكرز المستعملين في بدايتها ونهايتها“.

وضع كوب القهوة على الطاولة وقال: ”وهذا هو السبب الذي منعني من شرح الطريقة للناس، هذا ما دفعهم لصرف النظر عني واعتباري باحثاً عن الشهرة والانتباه، كيف سأقول لهم بأن شخصاً كان يعيش في القرون الوسطى عرف منذ كل تلك السنين بأنني سأقوم برحلة إلى غابات الأمازون وسأكتشف مفتاحاً لفك الشيفرة في ذلك الكهف؟ ولهذا تحملت كل النقد والسخريات التي طالتني، وقد حاولت جاهداً نسيان تلك الفترة من حياتي بكل ما أوتيت من قوة، وفجأة... صنعوا ذلك الفيلم عن حياتي... من حسن الحظ أنهم غيّروا أسماء الشخصيات“.

”ومن قد يرفض أن يقوم ليوناردو دي كابريو بتجسيد شخصيته“؟ فضحكا كلاهما بتهذيب، لكن مادي راحت تفكر به بصمت لأنها أدركت أنه يعرف عنهم أكثر مما يجب وأنهم في مرحلة لاحقة سيضطرون لتغيير التاريخ والتأكد من أن آدم لن يعرف عنهم أي شيء، وحتى ذلك الحين، بدا لها أنه جزء غامض من هذا اللغز، وأن شيئاً ما يربطه باندورا، وربما يكون مفتاح اللغز كله، كما هو حال تلك الرموز التي يعود تاريخها إلى ما قبل حضارة الآزتك.

”هل تريد بسكويتة“؟ عرضت مادي عليه.

الفصل السابع عشر

نيويورك، ٢٠٠١

”أين يقع ذلك المتجر الذي تأخذيننا إليه؟“ سأل ليام.
”إنه متجر خاصّ لبيع ملابس المسارح العتيقة غير المرغوب باستعمالها
في العروض المسرحية بعد الآن وهم يقبلون أيضاً بتأجير الفساتين الغالية
بأسعار عالية جداً. إن الملابس المعروضة هناك هي الشيء الملائم لمهمتنا،
وليست هذه النفائات المصنوعة من البولستر والأقمشة التركيبية الصناعية
التي ترتدونها الآن أيها المهرجون.“
”بولي... ماذا تقصدين؟“

”إنه أمر فظيع... في الزمن الذي أتيتُ منه كان والدائي يرتديان قمصاناً
فضفاضة زاهية الألوان ويلبسان ملابس الرياضة المستوردة عند خروجهم
لممارسة الجري، وكانت أمي تضع المجوهرات التقليدية في المناسبات،
يا إلهي... هذ هو.“ قالت الفتاة وهي تشير إلى متجر في آخر الشارع، ثم
قالت:

”إنه على بعد مبنيين منا.“

”حسناً... لا مانع من تجريب ملابس مريحة أكثر من التي نرتديها.“
نظرت سال إليه من رأسه حتى أخمص قدميه وقالت:

”ألا يعجبك بنطال الجينز والبلوزة القطنية“؟

لم يتمكن ليام من منع ابتسامة السخرية التي بدت على وجهه وقال:
”البنطال ضيق قليلاً على ساقيّ ممّا يعيقني عن المشي براحة، ويسبّب لي تقرحات جلدية في أماكن خاصة أفضل عدم التحدث عنها معك“.
رفعت سال بسرعة أسفل بلوزته القطنية من الخلف وضحكت مما
رأته وقالت:

”ذلك لأنك ترتدي بنطالاً ذا خصر منخفض وتحاول رفعه إلى
الأعلى... يجب أن يكون مستواه أخفض من ذلك“.

إذ كان بنطال ليام معلقاً بحزام مشدود بإحكام أعلى من مستوى
خصره، وقد وصلت بكتله المعدنية إلى مستوى السرة ودسّ في خصر
بنطاله قميصاً داخلياً قطنياً مما جعله يبدو مع شعره المائل للون الرمادي
وكانه رجل عجوز جداً.

”لا بدّ من أن تحل الحزام قليلاً ليتخذ البنطال مكانه الطبيعي، كما
تعلم... أيها المخبول... أنت ترتدي البنطال كما كان جد جدّي يفعل،
لا ينقصك سوى أن ترفعه إلى مستوى إبطيك“.

”لا بأس، فهذا هو المكان الذي يفترض بالبنطال أن يكون فيه... لا
أن يصل إلى مستوى الركبة“.

تنهّدت سال يأساً منه وأدارت عينيها من شدة الإحباط وقالت:
”أنت لا تلائم العام ٢٠٢٦، وحتى لو ألبستك أكثر الملابس حديثة
وأناقة فستبدو مخبولاً وأحمق كما هو حالك الآن“.

ضغط على نفسه ليتسم لها وقال:
”أظن أنني أفضل طريقة لباس الناس في الماضي على طريقة ناس
المستقبل، وأعتقد أن من يرتديها يحاول أن يبدو فقيراً وبائساً على قدر
المستطاع. أخبريني لأنني لا أفهم... ما السبب الذي يدفع بالناس لفتح
ثقوب في سراويلهم عمداً؟ لقد رأيت أمثلة عدّة على هذا“.

”هل تقصد سراويل الجينز“؟

”تماماً“.

”إنها الموضة لا أكثر. لا أعرف... أعتقد أنها طريقة لجعل البنطال يبدو أقدم مما هو عليه“.

هز رأسه ووضع إصبعه على صدغه وقال:

”بالضبط... هل فهمت قصدي الآن؟ إنه أمر عجيب تماماً، لقد حاولتُ أمي دوماً أن تحافظ على ملابس مدرستي وثياب الأحد لتبدو جديدة على الدوام وكأنها خرجت لتوها من المتجر الذي اشتريناها منه“.

”أظن أن الملابس في زمنك كانت غالية جداً، في الزمن الذي أتيتُ منه، في مدينة مومباي وحتى الآن في العام ٢٠٠١ فإن الملابس رخيصة جداً، مما يدفعك لارتداء القطعة مرتين أو ثلاث مرات ثم رميها هكذا بكل بساطة“.

”هذا يبدو لي تبذيراً“.

استهجنّت سال كلامه، لكنها فكرت بأن هذا ربما يكون سبب ضياع الموارد العالمية ونضوبها... كل شيء كان ينتهي، مادة تلو الأخرى. وفي النهاية سينضب كل شيء. تذكرت أخبار العالم في زمنها والتقارير التي كانوا يثيئون حول نضوب النفط ونقص الوقود، وصور الحروب المشتعلة في بلدان صحراوية بعيدة وأنابيب النفط المحروقة وناقلات النفط المتفحمة. قاطع ليّام أفكارها قائلاً:

”أمّا الآن... من الجيّد أننا حظينا بوجود بوب معنا من جديد. لقد اشتقتُ لمرافقتنا الضخم الكبير“.

نظرت سال إلى بوب وبيكس وهما يسبقانها بقليل كما لو كانا من حراس الرئاسة، لأن عيونهما كانت تجول في جميع الاتجاهات بحثاً عن أي مصدر للخطر، ولجهوزيتهما للموت دفاعاً عن الرفاق. لاحظت سال أن بيكس كانت تمشي برشاقة وخفة، أما بوب فقد كان يمشي متثاقلاً كما لو كان يجر دبابة خلفه، لأنه ما زال يحاول الاعتياد على جسده الجديد.

”أسأل عن المواضيع التي يتحدث عنها حارسانا“.

خزّنت بيكس تلك الملاحظة في ذاكرتها ثم نظرت إليه وقالت: "أنت تبدو... أكثر شبهاً بالبشر في سلوكك وصفاتك مني. مع أنّ كليّنا يستعمل النسخة نفسها من الذكاء الصناعي، أنا أعمل وفق النسخة: ١، ٦٩٠، ٦٧، ٣ من نظام W.G الخاص بنموذج الذكاء الصناعي المدمج".

"صحيح. أنا أعمل وفق النسخة نفسها من البرنامج نفسه".

تابعا مشيهما صامتتين لبعض الوقت، ثم قالت بيكس:

"استنتجتُ من ملاحظاتي أنّ التداخل ما بين الوحدة الكربونية -السيليكونية والعقل الإلكتروني والدماغ العضوي غير المطوّر يؤدي إلى أعراض جانبية غير متوقعة، إلى نتائج جانبية برمجية سلوكية خاصة بالبشر".

"أوكد ما تقولين. لقد لاحظت هذا أيضاً". واستعرض ذاكرته المؤلفة من تيرابايتات من المعلومات حول ما جرى في خلال الأشهر الماضية، ثم قال: "في خلال المهمة التي قمت بها برفقة ليام أوكورنر، ساعدتني المعلومات القديمة الخاصة بدماغي العضوي على إعادة ترتيب أهداف مهمتي. لقد اتخذت قراراً تكتيكياً لحماية حياته".

"صحيح. لقد عرفتُ تلك المعلومة ووصلتُ إلى محتويات ذاكرتك أيضاً. وهذا أمر مهم جداً لي لأن دماغي الإلكتروني هو نسخة من دماغك، وقد استفدتُ من ذاك كثيراً".

استدارت برأسها تجاهه، وارتسمت على وجهها الجامد تعابير التفكير العميق بينما كان يتطاير شعرها الداكن حوله وقالت:

"أعتقد أنّ البشر يتفوّهون بمثل هذه الأحوال بكلمات شكر وامتنان". وتغيّرت معالم وجهها لتصبح أشبه بالعنزة من الحصان الذي بدا عليه بوب قبل قليل. ثم قالت:

"أشكرك".

"نعم".

”لاحظتُ، في أثناء مهمتي الأخيرة، بضع أنواع من السلوك الرئيسة لدى البشر عندما يريدون إشاعة جوٍّ من المرح والفكاهة، هل تريد أن أرسل لك نكتة“؟

”نعم. ملقات الفكاهة في ذاكرتي قليلة جداً“.

أملت برأسها إلى الجانب وأرسلت ميغابايتات عدّة من المعلومات إليه على جهاز البلوتوث، وهما يمشيان بصمت. فرمش بوب بعينه وهو يتلقى المعلومات وخزنها في ذاكرته الدائمة، لكنّ ذكرى ما عادت إليه في هذه الأثناء، إذ تذكّر وجوده في إحدى الأدغال واقفاً على جرف صخري أمام مجموعة من الأطفال المصابين بالرهبة والتوتر.

”لقد أضحكك ليام أكون مرة... هل هذا صحيح“؟

فوافقت برأسها وقالت: ”لقد وصفته ورفاقه في أحد المرّات بالجبّاء، فضحكوا“.

عبس بوب متسائلاً: ”ما الذي أضحكهم في كلامك“؟

عبست بيكس أيضاً حائرة، ثم نظرت إليه وقالت: ”لا أعلم“.

توقفت سال أمام واجهة المتجر الأمامية ونادت وحدتي الدعم اللذين سبقاهما ليعودا إلى الانضمام للفريق وقالت:

”هذا هو المكان“. ثم دخلوا جميعاً فصدمتهم رائحة الغبار والعت الذي فتك بالملابس.

تقدم بوب وبيكس إلى الداخل وتبعهما ليام قائلاً: ”ما هو الشيء الذي قد يلائمني“؟

”أنت تحتاج إلى ملابس صوفية ملوّنة وفضفاضة... لا يوجد أي نمط محدّد“. أجابته سال.

وافقها ليام وومضى في ممر ضيق مكتظ بأزياء من كل الألوان والأشكال والتي تعود إلى مختلف عصور التاريخ، ولفت نظره زيّ قرصان مزين بشرائط من الدانتيل وجدائل جلدية فهزّت رأسها يائسة من حالته، لأنه بدا لها كطفل في متجر ألعاب.

بحثت بعينها عن بائع المحلّ ليساعدها في البحث عن مبتغاها، ولمّا لم تجد أحداً عادت أدراجها إلى مدخل المتجر المغبّر وفي تلك اللحظة، لفت شيء ما نظرها.

رأت شيئاً أزرق مألوفاً بشكل محيّر على كرسي خشبيّ هزاز بجانب واجهة المحلّ الزجاجية، إنه دبّوب قطني. تقدمت سالٍ إليه وقرفت إلى جانبه لتراه بشكل أفضل، ثم همست وهي تصافح كفّه البالي بيدها: "أنا أعرفك".

تذكرت سال هذا الدبّوب الأزرق القديم والصغير ذا العين الواحدة... وفكرت بأنها تعرفه، إنها تعرف هذا الرأس اللطيف المتدلّي فوق تلك الذراعين الباليتين.

من أين أعرفك؟

عصرت ذاكرتها وحصرت تفكيرها في تلك الذكرى الخاطفة التي انتابتها لكن صوت ليام أيقظها من ذكرياتها منادياً من الداخل:

"سال... سال... هل هذا ملائم؟"

نهضت واتجهت إليه عبر ممّرات المتجر الضيقة المزدحمة بكل ما هو عتيق، ونسيت أمر الدبّوب الصغير... ولكن، في هذه الآونة فحسب.

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليغرام

الفصل الثامن عشر

نيويورك، ٢٠٠١

التفتت مادي إلى البوابة المنزلة عندما سمعت صوت تحركها نحو الأعلى ورأت أرجل الفريق، ثم انحنى ليام ودخل المكان المظلم. ها قد بدأنا.

انتصب ليام واقفاً ولوّح لها بيده وقال:

”كان يجب أن تشاهدي أزياء البُلهاء الملعونة التي رأيناها...“ وسكت فجأة عن الكلام وسألها: ”من هذا؟“

دخلت بيكس ووقفت إلى جانبه في اللحظة التي ألقى فيها سؤاله، وتأملت بعينيها الباردتين الزائر الغريب فأجابت:

”هذا الشخص هو آدم لويس، ولا يفترض به أن يكون موجوداً هنا.“ قالت مادي:

”أهه... بإمكانك إعادة الجملة هذه على مسمع الجميع.“

دخل بوب وقال بصوته العميق فكسر الصمت الذي خيم على المكان: ”هناك شخص غير مصرّح به، لا بدّ من أن يغادر في الحال.“

قالت مادي: ”أهدأوا يا رفاق... إنه يعرف كثيراً حتى الآن ولا أستطيع

طرده هكذا ببساطة“.

كانت سال آخر الداخلين فضغطت على الزر وأنزلت البوابة المنزلقة مما سبب ضجيجاً عالياً.

اقتربت وحدتا الدعم من مادي عابستين لرفضهما وجود آدم في المكان وقالت بيكس:

”إن وجود هذا الشخص غير مسموح به هنا... هذا خرق أمني.“
فرفعت مادي يدها نحو الأعلى وقالت:

”أنا أعرف هذا... إنه خرق أمني، لكن الأمر باختصار هو أنه وجدنا بنفسه... لقد... حسناً لقد تصرفُ باستهتار وطيش وتركنا أثراً خلفي في أثناء زيارتي له، فلتبّعني.“

تقدم ليام إلى جانب بوب وبيكس وأمعن النظر في الرجل بحذر وقال:
”أهذا هو الشخص الذي زرته بالأمس“؟ فالتفتت مادي إليه وأجابته:
”نعم، إنه آدم لويس. لماذا لا تسلّم عليه“؟

لكنّ عيني آدم لم تتحركا طوال كل ذلك الوقت عن بوب الذي أخافه بشكله وقامته الطويلة وهو يقف بمحاذاته. ومع ذلك، فقد تمتم:
”آه... مرحباً...“.

كسر ليام صمت القبور الذي انتشر في المكان عندما مدّ يده لمصافحة آدم وقال:

”حسناً... لدينا دوماً متسع لزميل جديد... أنا ليام أوكونر.“
شعر آدم ببعض الارتياح من كلام ليام فتناول يده مصافحاً. تابع ليام مشيراً إلى رفيقته:

”وهذه سال“. فلوّحت بيدها له وقالت:
”مرحباً يا آدم“. فردّ عليها آدم بحركة مماثلة من يده. إلا أنّ عينية عادتا للنظر إلى بوب وقال:

”هل هذا... هل هذه هي وحدة الدعم التي أخبرتيني عنها قبل قليل يا مادي؟ هل أنا بأمان“؟

تتبع ليام نظراته وابتسم قائلاً:

”هل تعني أنك خائف من بوب؟“

أوما آدم برأسه قائلاً: ”لقد سمعت بعض الأمور عن... مآثره البطولية...“.

”هل تعني اقتلاع أذرع النازيين الأشرار؟“

”نعم...“

”لا تقلق بشأن بوب أبداً، إنه شخص جيّد وهو محل ثقة ويمكن الاعتماد عليه. إنه لا يقصد سوى الخير“.

نهضت مادي عن كرسيها وخاطبت بيكس وبوب بشكل مباشر:

”بما أنني رئيسة الفريق الآن، فأنا أسمح له بالبقاء هنا معنا في مكتب

إدارة العمليات. هل هذا مفهوم؟“

هزّا برأسيهما كما يفعل الأطفال الصغار وقالوا بصوت واحد كما لو

كانا جوقة موسيقية:

”تم تأكيد الأمر“.

التفتت إلى آدم وقالت:

”موقتاً فقط. هل هذا مفهوم؟ إلى أن نفهم كل ما يخص مخطوطة

فوينتش“.

”لا أمانع هذا“.

”ما أن ننتهي من هذا الأمر ونكتشف حقيقة الموضوع فسيتوجب

علينا إيجاد حل لوجودك معنا يا آدم. لا يمكنك البقاء ولا يمكننا تركك

تخرج من هنا مع كل ما تعرفه عنا، نحن نخشى أن تفضح أمرنا للناس“.

نفى بحركة من رأسه وقال: ”لن أفعل ذلك... صدقيني“.

ضاقت عينا مادي وهي تمعن التفكير في الأمر. فانتصب واقفاً وقال:

”اسمعي... لقد حافظتُ على سرّكم سبع سنوات ولم أخبر أحداً عن

إمكانية السفر في الزمن طوال كل ذلك الوقت، لم أفعل حقاً. لم أخبر أحداً

حقاً. كان إفصاحي عن مثل هذا الأمر سيدمر حياتي وسمعتي المهنية وكل

شيء آخر بنيته، لن يكون بمقدوري الحصول على عقد عمل جديد لو تكلمتُ عما أعرفه“.

زمت مادي شفيتها وقالت: ”أعتقد ذلك“.

”لقد تعرّضت للدمار من قبل... اعتبروني مجنوناً مختلاً ولم يصدقني أحد لفترة ما... وكنت أضحكة الجميع... لهذا... لا أقبل حصول هذا مرة أخرى معي... لا أتخيل حصوله مرة أخرى“.

وضع ليام يديه على خصره وقال: ”حسناً، أنت تبدو موثوقاً بالنسبة إليّ“.

حافظت وحدثا الدعم على صمتهما ونظرتا إليه بعينيهما الرمادية الباردة من دون رحمة.

التفتت مادي إليهما وقالت: ”و أنتما... لا تقتربا منه ولا تؤذياه ولا تقطّعا إلى نتف عندما أترككما معه، اتفقنا؟“

أجاب بوب نيابة عن كليهما وقال:

”بالطبع لا. فقد حصل آدم لويس على تصريح مؤقت بالبقاء هنا“. ومدّ يده التي يقارب حجمها حجم قفاز لعبة البيسبول لمصافحة آدم وقال مدمداً:

”تسعدني مقابلتك يا آدم لويس“.

سلم عليه آدم برفق شديد وقال:

”آه... بالطبع... تشرفني معرفتك أيضاً“.

ما كان من ييكس إلا أن فعلت مثله ومدّت له يدها النحيلة - القاتلة - مصافحة.

”هل أنت واثقة من أنها لن...؟“

فضحكت مادي باستغراب وقالت:

”من أنها لن تلويّ إصبعك مرة أخرى؟“

فابتسمت بيكس بمودة وقالت وهي تمسك بيده:

”بالتأكيد لن أفعل“.

ابتسمت مادي وصَحَّحت مكان نظارتها على عينيها وقالت:
”حسناً... هذا عظيم. لقد تم التعارف ولا نحتاج الآن سوى إلى تجهيز
وحدتي الدَّعم بالمعلومات اللازمة للرحلة المقبلة: تحميل البيانات...
تاريخ تلك الحقبة الزمنية ولغاتها السائدة... وكل ماله علاقة بالموضوع“.
ثم نظرت إلى آدم وقالت: ”لقد قلت لي أنك تمتلك معرفة جيدة بتلك
الحقبة التاريخية“؟

”نعم.. القرن الثاني عشر، أنا مهووس به“.
”جيد. سأحتاج إلى مساعدتك إذاً في تحليل المعلومات وتوضيحها.
ويمكنك البدء بإعطاء بيكس وبوب لمحة تاريخية عن الوضع في ذلك
الزمن، أخبرهما عن الوضع السياسي الذي كنت تخبرني عنه قبل وصولهم،
عن الملك ريتشارد وجون وكل ما إلى هنالك“.
”حسناً“

ثم التفتت إلى ليام وسال وقالت: ”هل يمكننا الحديث على انفراد“؟
”هل سيموت“؟

راقبت مادي ضيفهم من خلال باب غرفة كبسولات الاستنساخ وهو
يجلس على ذراع كرسي كبير ويشرح لبوب وبيكس كل ما يتعلق بعصور
الظلمات تلك.

توهَّجت الغرفة بلون وردي منبعث من ستة أنابيب استنساخ، يحتوي
كل منها على جنين مجمَّد متكوِّر على نفسه، جاهز لاستئناف عمليَّة
نموِّه لدى إعطائه الأمر بذلك من خلال كبسة زر. وكانت لوحة التحكم
الالكترونية بالأجنَّة تصدر صوتاً خافتاً يشبه صوت أحواض الأسماك
بسبب أجهزة مضخَّات السوائل وأنظمة التنظيف.

”سيموت. لقد تحقَّقت من أمره“.

”متى“؟

”قريباً، قريباً جداً“.

”يا إلهي.. كيف“؟

”هذا لا يهم. المهم هو أنه حتى لو ثرثر وباح بسرنا فلن يصدقه أحد، الاحتمال ضيل جداً. ولن يتمكن من إقناع أحد بتصديقه. تذكروا أن هذا المسكين كان محط سخرية الجميع من قبل.“

”لا أفهم السبب الذي دفعك للسماح له بالدخول“. قالت سال.
عضت مادي شفتها وقالت:

”لم يكن لدي خيار آخر، لقد وقف على بابنا وكله ثقة بأننا من رواد الزمن، لم يكن بوسعي طرده هكذا بكل بساطة... هل كان ذلك ممكناً؟ إضافة لأنه يعرف كل شيء عن مخطوطة فوينتتش والحقبة الزمنية التي سنرسلك إليها يا ليام، وإذا ما حاولنا اكتشاف أي شيء آخر في المخطوطة فسيحالفنا الحظ لأن الشخص الوحيد الذي تمكن يوماً من فهم شيء منها موجود معنا هنا، أعتقد أننا قمنا بخيار ذكي.“

وافقت سال وقالت:

”هذا صحيح.“

تنهدت مادي وقالت: ”لا أريد أن أشعر بأنني أدفعكما دفْعاً للقبول بوجوده، فالأمر لا يشبه المرتين السابقتين، لم يكن لدينا أي خيار في ذلك الوقت سوى التحرك بسرعة. أما هذه المرة... لا أعرف، ربما تمكنا هذه المرة من ترك الأمر لفريق آخر لحل القضية، لكن تغييراً ما قد حصل، مع أنه تغيير طفيف... إلا أنه حصل بالفعل وها هو جاثم أمام أعيننا.“

”لا تقلقي يا مادي... هناك مسؤولية كبيرة تقع على عاتقنا، ولكن لا تقلقي“. قال ليام وهو يضع يده على كتفها مواسياً.

اكفهر وجه سال وبدأت عليها التعاسة وقالت:

”ربما كنت مخطئة... ربما كان الفيلم موجوداً أصلاً وأنا لم أنتبه له من قبل.“

نفث مادي برأسها وقالت: ”لم تخطئي من قبل“. ثم نظرت إلى آدم من جديد وقالت له: ”إن الجملة التي حلل شيفرتها هي...“

أخبريهما يا مادي، أخبريهما عن الرسالة المخبأة في صندوق الإيداع.

”الجملة التي حللها تبدو رسالة شديدة الأهمية، وتبدو كما لو كانت موجهة لنا منذ البداية. لذا.. لا بدّ لنا من التأكد من حقيقة الأمر.“
ابتسم ليام وقال: ”آآه. سيكون الأمر ممتعاً بكل الأحوال... تلك الحقبة تعج بالفرسان والحسنات العذراوات وربما تسنت لنا الفرصة للقاء روبن هود بنفسه. لا أطيق الانتظار للذهاب إلى هناك.“
”تلك أمور فيها متعة حقاً“، قالت سال، ثم أخفضت صوتها وقالت: ”سيكون من الممتع لنا أن نرى الطريقة التي تعمل بها آلتا القتل اللتان سنصطحبهما معاً لأول مرة.“

”من تقصدين؟ بانث وجودي؟“ سألتها مادي. ثم فكرت ملياً بالأمر وقالت: ”ستكون هذه تجربة جيدة لبوب على ما أعتقد.“
”صحيح“

”وآدم هذا... هل نستطيع الوثوق به؟“ سألتها سال.
”ليس تماماً. لكنّه معنا الآن وأعتقد أن المعلومات التي يحملها مفيدة لنا، كما أن... وقد يبدو لكما هذا مؤلماً، لكنه سيموت قريباً جداً.“
”أحقاً“. سألتها سال.

نظر ليام إليها وسألها: ”وهل تركينه يموت؟“
”لا أملك خياراً آخر. إنها الطريقة التي يُفترض أن نعالج بها أحداث الحياة. لا مفرّ... أليس كذلك؟“ وتنهّدت مادي بأسى.

الفصل التاسع عشر

نيويورك، ٢٠٠١

تسلق ليام السلم المتشقق بعد بيكس وبوب الذي سبّب نزوله أولاً إلى داخل الأنبوب دفقة قوية من الماء.

”لماذا يدخلون أنبوباً مليئاً بالماء؟“

لكن مادي كانت مشغولة بإدخال إحداثيات البوابة الزمنية إلى دماغ بوب الإلكتروني عبر حاسوبها فأجابته سال:

”إنه مليء بخليط من الماء والمحلول المعقم كي لا يحملوا إلى العصور الأخرى أي جراثيم من هنا.“
”آه.. جيد.“

”كما أنّ وجود الماء يساعدهم على العوم في النفق الزمني، وهكذا... يسافرون برفقة الماء... لا شيء آخر“. وأشارت إلى تشقق واسع دائري في منتصف المستودع وقالت: ”اضطررنا مرتين لفتح بوابة الزمن من دون استخدام الأنبوب المائي وهذه هي النتيجة، لقد أرسلنا قطعة من الأرضية مع المسافرين إلى زمان آخر. وهذا ليس أمراً جيداً أبداً.“

قفزت بيكس إلى الماء وسبحت لتصل إلى جوار بوب وتابعت تحريك ساقها كي يبقى رأسها فوق الماء وحملت بيدها كيساً بلاستيكياً محشواً

بالملابس.

أنهت مادي إدخال الإحداثيات وبدأ العدّ العكسي للانطلاق، فانضمت إلى سال وآدم ووقفت بجوار الأنبوب.

”كل شيء على ما يرام.. خمس دقائق للانطلاق“.

”حسناً...“، قال ليام وقد جلس على أعلى السلم وترك ساقيه تتدليان في الماء البارد.

”تذكروا يا رفاق... أنتم ذاهبون إلى شهر كانون الثاني في عام ١١٩٤، إنه عصر الظلمات“. فتردّد صدى صوتها في جميع أرجاء المكان.

أوما آدم برأسه وقال:

”مضى على غياب الملك ريتشارد عن البلاد أربع أعوام، إنه في حربه الصليبية في الأراضي المقدسة، وفي غيابه سادت الفوضى وازداد المتمردون على القانون، وقد حاول أخوه جون المحافظة على النظام لكنه أخفق إخفاقاً ذريعاً، ولهذا يتوجب عليكم الحذر... اتفقنا؟ إنه مكان يضجّ بقطاع الطرق واللصوص“.

رفع ليام حاجبه استياءً وقال:

”ألا يشبه الوضع ما رأيناه في الأفلام السينمائية؟“

نفى آدم برأسه وأجاب: ”للأسف لا... لا يشبه الأمر الفيلم أبداً على ما أخشى. لن تجد رجالاً يرتدون السراويل الضيقة ولا عذراوات يضعن على خصورهن أقفالاً ذهبية بانتظار الفارس الذي سينقذهن من العذاب، لن تجد أي قلاع تشبه ما رأيته في أفلام ديزني. إنه وقت يسوده العنف والوحشية، يضجّ بالفرق المحاربة والبارونات المتقاتلين على الحكم، وعصابات قطاع الطرق الجوّالة من مكان إلى آخر والمرترقة والقتلة“.

”احترس، كل ما عليك فعله هو البحث عن مكان يدعى كيركليس وإيجاد الشخص الذي يدعى كابوت، تحرّى عنه من دون أن تفضح أمرك... اتفقنا يا ليام؟ حافظ على...“.

اعتدل وجه ليام وبدت عليه الجدّة أخيراً وقال:

”لا تقلقي يا مادي... أعرف كل ما ستقولينه، عليّ أن أكون متكثماً.“
”لقد زوّدت دماغِي بيكس وبوب باللّغة الفرنسية، ربما قد يحتاجان إليها.“

أضاف آدم:

”إنها اللغة السائدة بين الأرستقراطيين، بينما يتحدّث التجار وعامة الناس شكلاً بدائياً من اللغة الانكليزيّة، تذكر أنّ لفظ الكلمات التي نستعملها اليوم سيكون مختلفاً جداً هناك.“

”بكل الأحوال. ستقوم وحدتي الدعم بالحديث نيابة عنك إذا ما وجدت أي صعوبة، وبإمكانك استعمالهما كترجمين إذا لم تفهم ما يُقال لك.“
”حسناً“

أدركت مادي أنها تتحدّث بإلحاح وتُعطي له النصائح والتعليمات كما لو كانت أمّه، فالتفتت إلى الشاشات الواقعة خلفها لتبين الوقت الباقي وقالت:

”إذا... بقيت ثلاث دقائق وعشرون ثانية.“

”أنتم تحملون معكم كل ما تحتاجون إليه من الملابس الشتوية، سيكون الجو بارداً جداً على ما أعتقد. حافظ على دفء جسدك جيداً يا ليام.“ قالت سال.

رفع ليام الكيس البلاستيكيّ المقفل بسحاب محكم بيده اليسرى وقال:

”ألن يتسبّب هذا البلاستيك بتلوّث البيئة هناك؟ كما تعلمين...“

البلاستيك...”

”ادفن الأكياس في حفرة شديدة العمق وستتحلّل عضويّاً من تلقاء نفسها. ستدوب في خلال سنوات عدّة... لا بدّ لها من التحلل لأنها من ماركة كوشر، وهذه - كما هو مكتوب عليها - أكياس صديقة للبيئة تحلل في خلال سنوات قليلة.“ ثم تفقّدت العدّ العكسي مرة أخرى وقالت:

”حان الوقت لنزولك إلى الماء يا ليام.“

أوما لها برأسه وانساب داخل الماء البارد بهدوء وقال:
”آه.. أنا أكره هذا الجزء من الرحلة“.

تسلقت مادي السلم إلى أعلى الأنبوب وانحنت نحو رؤوسهم الطافية فوق سطح الماء وقالت:

”لا تقلقوا، لقد حددت لكم بوابة العودة في نفس المكان الذي ستصلون إليه، وستفتح كما العادة لبضع دقائق، ثم ستفتح مرة أخرى بعد وصولكم إلى هناك بساعة واحدة. وبعد أربع وعشرين ساعة ستجدونها بانتظاركم أيضاً، وبعدها بأسبوع. وهناك كما العادة بوابة الطوارئ التي ستفتح بعد ستة أشهر. هل كل شيء واضح بالنسبة إليكم؟“

أوما ليام وبوب وبيكس بالإيجاب صامتين. ثم قالت سال:
”بقيت دقيقتان“.

مدّت مادي يدها على كتف ليام العاري وربّت عليه بحنان وقالت:
”أرجوك... لا أعتقد أنّ أعصابي ستتحمل ضياحك مرة أخرى، يكفيني ما أصابني من الرعب في المرة السابقة“.

”سنكون على ما يرام“. قال ليام بصوت مرتجف خارج من بين أسنانه المصطكة برداً، ثم أضاف:

”سنلقي نظرة سريعة وسنجري حديثاً مختصراً مع الشخص الذي يدعى السيد كابوت عن مخطوطة فويتش وسعود إلى البيت لتناول الشاي معكم في الوقت الملائم“.

”هل توجد لديكم أي وسيلة للتواصل معهم... أعني... في أثناء وجودهم في الماضي؟“ نادى آدم من الأسفل.

”نعم... نستطيع إرسال إشارة لهم... لكنهم لا يستطيعون الرد“. أجابت مادي من فوق كتفها.

”ألا يمكنني استعمال مخطوطة فوينك؟“ سألهم ليام.

”معلومات: اللفظ الصحيح هو فويتش“. صحّحت له بيكس.

نفث مادي برأسها وقالت: ”لا. أرجو أن تكون هذه زيارة سريعة

للماضي كما فعلنا البارحة من دون أن تتركوا أي أثر خلفكم ليتحوّل إلى آثار متحجرة مثيرة للعجب“.

”نعم... أرجو ذلك. أراكم قريباً إذا“.

وضعت يدها في يده وتأنب الضمير يتعاضم في نفسها لأنها سترسله إلى الماضي مرة أخرى... هل يحتاجون إلى هذه الرحلة حقاً؟ ما هو مدى الضرر الذي سيصيب جسمه من هذه الرحلة وحدها؟ صافحيه يا مادي.

شدّت قبضتها على يده من دون أن تزعجه وقالت:

”أراك قريباً يا ليام...“، ثم وجّهت الكلام إلى بوب وقالت: ”حافظ على سلامته... اتفقنا؟“

”تم تأكيد الأمر. ليام أوكونر هو عضو الفريق المسؤول“.

بدا لها أنها سمعت في صوت بوب الأجنش نبذة حنان وعطف على الفتى الشاب. ثم قالت لبيكس:

”هل كل تعليمات الرحلة جاهزة لديك؟“

”نعم“. أجابت بيكس بهدوء.

نادت سال:

”مادي... لا بدّ لك من النزول بسرعة... بقيت عشرون ثانية“.

نزلت مادي عن السلم وابتعدت عن أسفل الأنبوب خطوتين إلى الوراء بينما تعالّى صوت سال وهي تعدّ الثواني العشر الأخيرة قبل الانطلاق.

راقب آدم بتعجّب وحيرة طريقة عمل آلة الزمن لأنه لم يشاهد سوى مجموعة من الأسلاك والدارات الكهربائية المتشابكة، ثم علا صوت همهمة تجميع وضغط الطاقة اللازمة للانطلاق وملاً أرجاء المكان، إلى أن وصلت إلى حدّها الأعظم. فسأل آدم:

”هل هذه الضجة طبيعية؟“ لكنّ صوته ضاع وسط الضجيج الكهربائي الذي يصمّ الآذان. وتابعت سال العدّ من دون توقف:

”سبعة... ستة...“

قاومت مادي الرغبة الملحة التي تعاظمت في داخلها بإيقاف الرحلة، فلربما لم تكن هذه المهمة لهم من البداية، لربما وجب عليها التشاور مع فوستر قبل اتخاذ هذا القرار... ربما وجب عليها إرسال رسالة إلى المستقبل للتأكد من أن أحداً آخر لم يتولّ الأمر... كان بإمكانها التفكير بعشر احتمالات واردة أخرى في بالها تمنع استمرارهم في ملاحقة الأمر. "أربعة... ثلاثة..."

لكن الحقيقة المرة هي أن سال شعرت بموجة تغيير زمانية، وفي هذه الحالة لا يمكنهم تجاهل الموضوع هكذا بكل بساطة. والواقع المؤلم أيضاً هو أن هناك رجلاً غريباً يقف في هذه اللحظة في غرفة عملياتهم من دون أن يفترض به الوجود هنا أصلاً، ولا أن يعرف بوجودهم ولا بما يقومون به.

ونعم... أكثر ما يؤلمني هو أنني أحتاج إلى أن أفهم معنى باندورا... ما الذي تعنيه هذه الكلمة؟ من الشخص الذي يريدني أن أعرف مغزاها؟ "اثنان... واحد!"

تأخر الوقت على إعادة التفكير بالأمر... يا مادي. نبضت الطاقة الكهربائية المخترنة في الآلات المجاورة للأنبوب واختفى ليام وبوب وبيكس وغالوات عدّة من الماء في لمحة عين من دون أن يتركوا أي أثر سوى جلدجلة تقلص الأنبوب البلاستيكي نحو الداخل. صفر آدم بفمه مشدوهاً ممّا جرى أمامه ثم كسر الصمت قائلاً: "هذا أمر لا يصدّق... نهائياً"

الفصل العشرون

مقاطعة يوركشاير، دير كيركليس، ١١٩٤

حطّ المسافرون المبلّلون بعنف على الأرض، وترنّح ليام محاولاً الوقوف لكنه بقي جاثماً على ركبتيه بينما تبخرت غمامة الفضاء العشوائي البيضاء من حوله بسرعة.

”آه..“ صرخ وهو يحاول النهوض على قدميه العاريتين. كان يقف على أرض طينية داكنة، لكنها قاسية كالصخر بسبب صقيع الفجر، والتفت حوله - وهو لا يرتدي سوى لباسه الداخلي القصير - فاكتشف أنهم يقفون في منتصف حقل صغير مجذب تعصف به الرياح من كل جانب. وبددت السحب الضبابية نور الشمس الباهت الضعيف بسرعة ليبدو هذا الصباح الشتوي بائساً كثيباً وكأنه ساعة المغيب.

ارتعد جسد ليام برداً وهو يحيط نفسه بذراعيه وقال: “هذا رائع”.

نصحه بوب: “يجب أن ترتدي ملابسنا بسرعة”.
أجابه بصوت مرتعش: “هذا صحيح”.

انحنى الفتى ليفتح كيسه وسحب منه رداءً صوفياً خشناً زيتوني اللون ورفع ليغطّي به نفسه من الرأس حتى أسفل القدمين متجاهلاً شعور الوخز

الذي سببه له الرداء، ثم أخرج زوجاً من الجوارب السميكة القطنية لا تنتمي إلى ذلك العصر لكنها أقرب ما وجدوه للجوارب السائدة آنذاك في ذلك الوقت القصير. وقد قصّت سال عنها الورقة التي تحمل الماركة وتعليمات الغسيل. بدت تلك الجوارب مقنعة بما فيه الكفاية بالنسبة إلى ليام وأمل أن لا يمعن أحد النظر في ما يرتديه تحت ملابسه. وأخيراً أخرج حذاءً جلدياً ذا نعل خشبي اشتراه من نفس محل الأزياء المستعملة وحبلًا مضفوراً ربطه حول خصره ليحكم إغلاق الرداء على جسده.

بينما كانوا يرتدون ملابسهم بسرعة، بدّد نعيق مجموعة من الغربان صمت الفجر، فنظر ليام إلى الأعلى وشاهدها تدور في السماء الرمادية الكثيفة فوقه كما لو كانت تحاول تحذيره من خطر محقق. أنصت الشاب لصوت النسيم الحزين الذي ذكره بالموت، وحفيف أوراق الأشجار اليابسة المتساقطة على الأرض التي تطايرت من أخدود إلى آخر.

“لا يبدو المكان كما توقعتة”. قال من بين أسنانه المرتجفة وهو يحكم شدّ الحبل حول خصره.

ظهر رأس بيكس من ياقة ثوبها البني الملطخ بالطين وقالت:
“ما الذي كنت تتوقعه بالضبط يا ليام أو كونر؟ فأجابها باستغراب:
“غابات خضراء... مروج تستحتم بنور الشمس... أزهار وورود...“
عبست بيكس وأشاحت بوجهها عنه وقالت:
“لماذا؟ إنه فصل الشتاء“.

أجابها: “لا أعلم حقاً... هذا ما تخيلته“. ثم راقب أنفاسه الخارجة من فمه وكأنها غيوم صغيرة تتلوى وتنساب بعيداً في الهواء.
“نصائح: يجب علينا التخلص من هذه الأكياس بالسرعة القصوى“.
قال بوب.

“أوافقك“.

ضرب بوب الأرض بقدمه فأزاح بها كومة من التربة الداكنة، ثم انحنى فوقها وبدا الحفر بيديه الكبيرتين كما لو كان كلباً في رحلة تنقيب عن

العظام. ناول ليام كيسه إلى بيكس وانتهر الفرصة لفحص المكان بتمعن أكبر، فلاحظ أنّ الحقل الذي يقفون فيه ينتهي على طرف غابة، ثم التفت إلى الخلف فوجد أن الحقل يمتد إلى ما وراء هضبة صغيرة، ومن وراء تلك الهضبة رأى خيطاً رفيعاً من الدخان يرتفع إلى السماء فعرف أنه قادم من موقد أو مدفأة حجرية في أحد البيوت. فقال لرفيقه:

”انظروا! هناك شيء ما“.

”صحيح“. قالوا ذلك معاً كالجوقة الموسيقية. فقال لهما مؤنباً:

”ألم أنبهكما حول هذه النقطة؟ ألم أقل لكما أن إجابتهما معاً بهذه الكلمة تثير الشبهات؟ وهي أكثر خطورة الآن في هذا المكان“.

انتصب بوب واقفاً فبدت عضلات صدره المشدودة واضحة من تحت رداءه الرمادي الضيق، ووضعت بيكس الأكياس في الحفرة وبدأت تهيل عليها التراب.

”علينا اعتماد اللغة العامية الدارجة في عام ١١٩٤ ابتداءً من هذه اللحظة“.

وافقت بيكس على كلام بوب، فتجمّدا كلاهما لوهلة من الزمن ورمشا بعينيهما وهما يعالجان البيانات لتحويل اللغة، ثم عادا إلى الحياة من جديد.

”هل أتما جاهزان؟“ قال ليام باستغراب. فأوماً بوب برأسه وقال:

”أي، أيها السيّد... سوف نتكلم الإنكليزية القديمة ابتداءً من الآن“.

”En outra“ قالت بيكس بالفرنسية وهي تضع آخر ما تبقى من التراب فوق الحفرة ثم ضربت المكان بقدميها القاسيتين للتأكد من عدم ظهوره للعيان وتابعت بالفرنسية أيضاً:

”ستحدث فيما بيننا بالفرنسية الخاصة بمنطقة النورماندي“.

ابتسم ليام وقال: ”حسناً، هذا جيّد“. ثم أوماً برأسه باتجاه عمود الدخان الرفيع المتصاعد من مدفأة ذلك المكان. تمكن في تلك اللحظة من تمييز رائحة الخشب المشتعل تدعوهم للاقترب والدخول لأول مرة

منذ لحظة وصولهم. فقال: "هل هذا هو الاتجاه الذي ينبغي علينا أن نسلكه إذا؟"

فوافقت بيكس برأسها وقالت بالفرنسية:

"نعم، إنه اتجاهنا الصحيح. لا بدّ لنا من التقدم إلى الأمام مئة وستة وخمسين قدماً للوصول إلى وجهتنا".

"آي... وعلى بعد متّي ياردة من ورائك سنجد..."

رفع ليام يده وقال: "لا أفهم أي كلمة ممّا تقوله الآن".

"علينا التقدّم ثلاثمئة وستة وخمسين خطوة بهذا الاتجاه، وسنكون بعدها داخل محيط دير كيركليس وفقاً لحدود ذلك التاريخ" قالت بيكس.

"حسناً، هذا أفضل بكثير. هل لي أن أقترح... أن نتحدثا معي بشكل طبيعي عندما نكون وحدنا؟" قال ليام وهو يحكّ جسمه بسبب القماش الخشن الذي يرتديه.

تبادل بوب وبيكس نظرة وأوماً إلى بعضهما موافقين. فقال لهما ليام:

"هيا بنا لننطلق، وفرك يديه الباردتين ببعضهما. ثم تابع كلامه: "ربما وجدنا هناك من يكرّمنا بشطيرة لحم أو ما شابه".

١ يتكلم بوب اللغة الانكليزية القديمة التي كانت ألفاظها وكتابتها في بعض الأحيان تختلف عن الانكليزية الدارجة في وقتنا هذا. وهذا هو السبب في أن ليام لا يفهم كلام بوب.

الفصل العشرون

نيويورك، ٢٠٠١

”ماذا يفترض بنا أن نفعل الآن؟“ سأل آدم. فأشارت مادي إلى آلة الزمن وقالت:

”نستعد لفتح بوابة العودة مجدداً بعد نصف ساعة... إنه الوقت الكافي لإعادة شحن الآلة بالطاقة اللازمة“.

أصابته الحيرة آدم من كلامها فسألها:

”اعتقدت أنك قلت أننا سنعطيهـم ساعة من الوقت ثم نقوم بفتح البوابة لإعادةتهم؟“

”لا يمضي الزمن بنفس المعدل هنا وهناك... لقد أربكني هذا الأمر في البداية أيضاً“. قالت سال.

قالت مادي موضحة: ”ستمضي عليهم ساعة هناك، لكن هذا لا يعني بأننا سنتنظر ساعة قبل فتح البوابة... فالآلة ستكون جاهزة بعد نصف ساعة. أستطيع إرسالك إلى نقطة ما في الماضي ونقلك بعدها إلى تاريخ يلي ذلك بأسبوع. في اللحظة التي أنتهي فيها من إرسالك إلى الماضي أستطيع إدخال إحداثيات مستقبل يأتي بعده بأسبوع وأفتح لك البوابة هناك. بالنسبة إلى المسافرين فإن أسبوعاً كاملاً قد مضى من عمره، أما

بالنسبة إلينا فلم تمض سوى لحظات معدودة. إنها المفارقة الزمنية، أمل أن تفهم ما أعنيه“.

هز رأسه إيجاباً وقال: ”لقد فهمت“.

استدارت إلى مكبر الصوت المثبت على المكتب وقالت: ”بوب، هل يمكنك إرسال بيانات بوابة العودة الأولى؟“
< تلقيت الأمر يا مادي.

استدارت إلى ناحية آدم من جديد وقالت:

”بحسب معرفتي بهم، فإنهم لن يعودوا على الأرجح من خلال البوابة الأولى، ولهذا لا أعرف السبب الذي يدفعني لتكبد عناء إعدادها“. وضحكت.

نظر آدم إلى المكتب المزدهم بعلب الصودا والبيتزا الفارغة وقصاصات الورق المرمية هنا وهناك وقال لها:

”الفوضى تسود هذا المكان كما هو حال شقتي تماماً“.

تنهدت سال وقالت:

”أنا أنظف المكان عادة، مادي هي الشخص الفوضوي هنا“.

جلس بجانبها ونظر إلى الشاشات وقال:

”أنت متصلة بالانترنت الآن إذا؟“

نقرت مادي على الماوس وصغرت نافذتي محادثة كانتا مفتوحتين على أحد الشاشات وقالت:

”آها... أنا أستطيع دخول أي قاعدة بيانات متصلة بالانترنت في العالم... على ما أعتقد“.

”يا إلهي...“، قال وهو يشير إلى أحد الشاشات:

”هل تلك هي ما أعتقد أنها..؟“

”شبكة البيت الأبيض الداخلية؟ نعم، إنها هي“.

”هل تمكنت من اختراقها... حقاً؟“

”أحب أن أعبر عن الموضوع بالطريقة التالية: لقد تدبرت فعل ذلك

وحدى". وضحكت بسعادة وتابعت: "لكن الإدارة الميدانية تتابع الأمر منذ اللحظة التي اخترقت بها الموقع، وأنا أطلع على صندوق البريد الإلكتروني الخاص بالرئيس بوش كلما أصابني الملل ورغبت في بعض من المرح، إنه يحب إرسال صور ققط تقوم بأشياء مضحكة إلى أصدقائه، انظر إلى هذه مثلاً".

أطلق آدم ضحكة مفاجئة لدى رؤيته لصورة قطعة صغيرة نائمة على حافة نافذة وهي تضع قبعة فريق البيسبول - اليانكيز - على رأسها. "لا بد من أنك تمزحين". تمتم آدم.

ابتسمت مادي وأغلقت صندوق بريد الرئيس. إنها تعرف أن هذا الصندوق يحتوي على رسائل مهمة تخص أحداث الغد، وهي أحداث لا ينبغي على شخص من الحاضر أن يعرف عنها أي شيء، ليس اليوم. وبكل الأحوال لا ينبغي عليها القلق لأن تفكير آدم يسبح بعيداً جداً عن ما تراه عيناه على الشاشة. التفت آدم إلى أنبوب البيربلكس والأسلاك المتشابكة أرضاً بجواره.

"لقد قلت يا مادي أننا نستطيع التكلم معهم في أثناء وجودهم في الماضي... هل هذا صحيح؟"

"آه... هذا ممكن فقط إذا كنا نعرف تماماً المكان والزمان الذي يوجدون فيه، أعني أننا نستطيع إرسال برقية دقيقة من التاكيونات إلى تلك النقطة المحددة التي يقفون فيها، قبل ثمانمئة ولا أعلم كم من السنوات. وتقوم وحدتي الدعم..."

"المصارع الضخم والفتاة الطويلة التي كادت أن تكسر إصبعي؟" ضحكت وقالت: "نعم، هما... يلتقط كل منهما التاكيونات التي أرسلها. لديهما أجهزة مزروعة في دماغيهما... إنهما شخصان مستسخنان يحملان دماغاً إلكترونياً مزروعاً في جمجمتيهما".

"لكنهما لا يستطيعان إرسال برقية تاكيونات إلينا". قالت سال. "لماذا؟"

”يحتاج إرسالها إلى طاقة كبيرة لا تتوافر لديهم. كما يحتاج الأمر إلى جهاز إرسال، وهو جهاز لا يمكن زراعته بجانب الدماغ الإلكتروني الفائق داخل الجمجمة“. قالت مادي.

”كيف يمكن للمسافر الحديث معكم إذا؟“

”لا يستطيع ذلك. إننا كالعميان فيما يخص تلك النقطة. كل ما يمكننا فعله هو أن ندعو لهم آملين ألا يخرجوا عن الخطة التي رسمناها لهم.“

”لكنهم يستطيعون إرسال رسائل إلينا... نوعاً ما.“

فكرت مادي قليلاً... إنها لا تريد لآدم أن يعرف كثيرًا عنهم. فقالت

سال:

”لقد قام ليام في المرة الماضية، إذ ترك لنا رسالة في العصر الكريا...“

”هذا صحيح، لقد استعملنا إشارة زمنية أكثر من مرة من قبل. قد

تكون مستنداً أو أي شكل من الأدوات أو المصنوعات اليدوية التاريخية

التي نكون متأكدين من أننا سنصادفها في وقتنا الحاضر“. قاطعتها مادي

وداست على قدمها بهدوء لتسكتها لأنها لا تريد لآدم أن يعرف المدى

الذي وصلوا إليه في العودة خلفاً في الزمن.

قطب آدم جبينه متفكراً في كلامها قليلاً ثم قال:

”أهذا ما تعتقدن أنه حقيقة مخطوطة فوينتش؟ هل تعتقدن بأنه وسيلة

يخاطبكم بها أحد من الماضي؟“

أومأت برأسها موافقة وقالت:

”آه... قد تكون كذلك بالفعل. لهذا يجب علينا التأكد.“

هز رأسه بصمت وقال:

”أنا... فقط... كل ما أحاول فعله هو... أنا أحاول فهم كل هذا...“

قالت مادي: ”الأمر معقد جداً.. لقد أصابني الارتباك مثلك تماماً في

البداية.“

فقالت سال: ”وأنا أيضاً.“

عبس آدم وقال: ”كنت أعرف... كل ذلك الوقت كنت متأكداً من

أنكما... حقيقتان.. من أنني لستُ مجنوناً. لكن هذا أمر... من دون شك...“

”لا يصدّق“؟

ضحك آدم من قلبه كما لو كان طفلاً ثملاً من شدة السعادة وقال:
”نعم... يا إلهي... إنه كذلك. إنها الكلمة الوحيدة التي تفي الموضوع
حقه. إنه أمر لا يُصدّق“.

تنهّدت سال وقالت: ”لكنّ المرء يعتاده بعد فترة من الوقت، كما هو
حال أي شيء آخر“.

الفصل الواحد والعشرون

مقاطعة يوركشاير، دير كيركليس، ١١٩٤

تقدم ليام محاطاً من الجهتين بوحدتي الدّعم على الطريق الموحد المؤدي إلى بوابة الدير الرئيسة. وعلى جانبي الدرب توزّع عدد من الرهبان بين شجيرات الكرمة المتباعدة بسبب البرد. لفت منظر الرفاق أنظارهم فراقبهم بأفواه مفتوحة لشدة الدهشة.

”صباح الخير“. صاح ليام بخجل.

رمى أحد الرهبان السلة التي يحملها وجرى بين شجيرات الخضار باتجاه حظيرة قريية وتمتم باللاتينية بأدعية خاصة راجياً الرحمة لنفسه. ثم تراجع البقية من دون أن يرفعوا أنظارهم عن الرفاق الثلاثة، وخصوصاً عن بيكس.

على باب الدير وقف شاب لا يفوق ليام سناً إلا بعام على الأكثر كما فكر ليام ذاته، وكان يراقبهم وهم يقتربون بعينين واسعتين من شدة الخوف مما جعلها تبدو دائرية الشكل بشكل مثير للضحك.

”لا... يمكنكم... الدخول... إلى... هنا“. تتمم الفتى.

التفت ليام إلى بيكس وسألها:

”هل قال بأننا لا نستطيع الدخول إلى الدير؟“

”تماماً“.

”حسناً... ليست اللغة الإنكليزية القديمة صعبة جداً كما كنت أتصور“.

ثم التفت مرة أخرى إلى الشاب الذي يرتدي الرداء الأبيض والمِئزر الأسود الخاص بالأخوية وقال له ببطء:

”هل... تفهم... كلامي؟“

بلغ الصبيّ لعابه وبحث بعينه يميناً وشمالاً ثم تفحص وجه بوب القاسي الخالي من التعابير، ثم أوماً برأسه أخيراً وقال:

”آي...“

شعر ليام ببعض من الراحة وفكر بأن الأمور ستكون أسهل مما اعتقد قبل قليل. فقال للشاب:

”نحن نبحث عن شخص نعتقد أنه يعيش هنا ويدعى كابوت، هل تعرفه؟“

ضاقت عينا الشاب من دون أن يتفوّه بكلمة.

”هذا دير كيركليس، أليس كذلك؟ ألم نصل إلى المكان الصحيح؟“

”كيرك-لاي“. قال الشاب مصحّحاً الاسم.

”نعم، إنه دير كيركليس، هل هذا هو المكان؟“

فأوماً الشاب برأسه ببطء وقال: ”آي... دير كير-لاي“.

”وهل يعيش الرجل الذي يدعى كابوت هنا؟“

عبس الشاب مرة أخرى.

”معلومات“. همست بيكس بصوت منخفض.

”ماذا؟“

”قد يكون لفظ الاسم خاطئاً“.

”حسناً إذاً... كيف هو اللفظ الصحيح برأيك إذاً؟“

”جرّب أن تقول: كار-بو“.

اتسعت عينا الشاب لدى سماعه باللفظ الصحيح وقال: ”هل تبحثون عن سيباستيان كابوت؟“

ابتهج ليام وقال: "آي، ذاك هو".

أشار الفتى بإصبع مترددة مهزوزة إلى إسطلب منخفض السقف ومغطى بالقش على الجانب الآخر من الحقول وقال: "ستجدونه هناك، الأخ سياستيان يعتني بالخيول".

أجابه ليام بابتسامة عريضة قائلاً: "أشكرك".

عبروا الحقول وهم يراقبون الرهبان الخائفين منهم باستغراب شديد، إذ كانوا يتراجعون خلفاً كلما اقتربوا من أحدهم. وعندما وصلوا فتح ليام باب الحظيرة القاسي فصدر عنه صرير يصم الآذان واخترق سكون الصباح الرمادي الهادئ من حولهم، ليجد مجموعة من الدجاجات السعيدات بحريتهن وهنّ يطلقن الصيحات من دون اكتراث بأي شيء مما يجري في العالم من حولهن، فبدد صوتهن الصمت السائد في المكان. كان الاسطلب معتماً ولا تتخلله سوى بعض من أشعة الشمس التي نجحت في التسلل إلى المكان من خلال بعض الثقوب في قش السطح. ولم يسمع ليام أي صوت سوى أنفاس الحيوانات المتلاحقة. فسأل متعثراً بصعوبة اللفظ الجديد للاسم:

"هل أنت هنا يا سياستي ين كاي بو؟"

"آي... من يبحث عني؟" أجاب صوت عميق من الداخل.

"آه... اسمي ليام..."

سمع ليام صوت حفيف ثوب شخص يشق طريقه بصعوبة ويتجه نحوهم من بين الأكشاك المظلمة. وعندما وصل الرجل إلى المدخل استطاع ليام رؤيته بفضل نور الشمس المتسلل من البوابة المفتوحة.

كان كابوت يرتدي ثوب الأخوية والمئزر كما هو حال الجميع، إلا أن وجهه كان مختلفاً عن وجوه الرهبان الشاحبة الذين خلفوهم وراءهم بين ممرات الشجيرات في الحقول، والذين كانوا أشبه بالأشباح البائسة من البشر العاديين، وهم يقلبون التربة بلا جدوى. كان الراهب أقصر من ليام بحوالي الإنش، لكنه كان سميناً جداً وله كتفان عريضان وذراعان

قويّتان، ووجه حفرة مرض الجدري وجلد سميك ولحية رمادية بعض الشيء، ولمعت عيناه الخضراوان اللتان زادتهما المعارك خبرة وقسوة من تحت حاجبيه الكثين، وبدت للعيان ندبة عرضية وردية اللون تقطع أنفه من المنتصف وتمتد حتى خدّه الأيمن.

”هل قلت أن اسمك هو ليام“؟ قال بصوت منخفض.
”ليام أوكونر، أرجو أن تناديني ليام“.

”ليام... هل أنت متأكد“؟ كرّر كلامه وهو يتفكّر في الاسم، ثم قال:
”إنه اسم جديد لم أسمع به من قبل“. ثم التفت إلى بوب وقال:
”أنت تبدو مقاتلاً يا سيدي، هل هذا صحيح“؟

أجابه بوب: ”لا“. لكن صوته الجمهوري أثار أعصاب الخيول المتوارية في الظلام.

”هل يمكننا التحدث معك على انفراد في مكان ما؟... في مكان منعزل“؟ ونظر ليام بطرف عينه إلى الخلف نحو الرهبان اللذين ما زالوا مشدوهين بالضيوف الغرباء من دون حراك حتى الآن وأدوات البستنة متجمدة في أيديهم وهم يراقبون الأحداث وينصتون لكل ما يجري بفضول شديد.

نظر إلى بيكس نظرة سريعة وقال:

”لا يمكنها دخول الدير أبداً، أخوتي ممنعون عن ملذات الدنيا، ولهذا سيّفي الاسطبل بالغرض“.

أوما الرجل برأسه وأشار لهم بذراعه ليتفضلوا إلى قلب الاسطبل المعتم. وفي الطرف المقابل البعيد من المبنى شاهدوا حجرات صغيرة لإيواء المسافرين والضيوف، ولم تتألف كل حجرة من أكثر من أربع جدران حجرية تحتوي على فراش خشبي مغطى بكيس محشو بالقش ونافاذة صغيرة مستطيلة في أعلى الجملون الذي يغطي كل حجرة، مما لا يسمح بدخول سوى شعاع بسيط من الضوء إلى الداخل. جلس الراهب على فراش إحدى الحجرات وأشار لهم بالجلوس. ثم بدأ بحديثه بهدوء:

”في العصور المظلمة المشابهة لهذا يا سادة يسيطر الخوف على عقول الناس ومنهم أخوتي الذين شاهدتموهم في الخارج... الأشرار منتشرون في كل الغابات المحيطة بنا وفي كل أرجاء بلادنا، ولهذا فنحن نخشى الغرباء...“. وفتح ذراعيه للتعبير عن فكرته بشكل أوضح، وضافت عيناه فتغضنت ندبة أنفه وتابع كلامه: ”أنت تعرف اسمي يا ليام أو كونر... أرجو أن تشرح لي سبب بحثك عني“.

قال ليام بطريقة دفاعية بعض الشيء:
”إنّ شرح الأمر صعب بعض الشيء يا سيد كابوت، لكنني... لكننا حضرنا إلى هنا لأننا نحمل لك رسالة“.

”رسالة؟ ممن؟“

”تلك هي القضية... نحن لا نعرف من هو الشخص الذي أرسلها“.

”ولهذا تبحثون عني؟ وما قد وجدتموني... ما هو فحوى الرسالة؟“

قطّب ليام جبينه وقال:
”لا أعرف محتواها تماماً أيضاً“.

أصيب كابوت بالحيرة، ثم ضحك وقال:
”ما نفع زيارتكم إذا؟ اعذروني لأنني مضطر للعناية بالخيول الآن“.

وكان على وشك النهوض من مكانه فقرّر ليام اللعب بورقته الراححة الوحيدة فقال بسرعة:

”هل سمعت عن شيء يدعى مخطوطة فوينتش يا سيد كابوت؟“

توقف كابوت عن النهوض وعدّل جلسته مجدداً متفكراً بكلمات ليام لبعض الوقت ثم نفى برأسه وقال:

”فوينتش؟ لم أسمع بها من قبل“.

”طيب... هل قمت بنفسك بكتابة مخطوطة مهمّة ما؟“

”بالطبع لا... فأنا أمهر بحمل السيف من ريشة الكتابة. أجابه الراهب ضاحكاً“.

”حسناً.. هل من شخص آخر هنا يقوم بكتابة أي مخطوطات من أي نوع كان؟“

نفى برأسه مجدداً وقال: ”نحن لا نكتب ولا نحفظ سوى بمخطوطات الصلوات ويوميات الأخوية فقط. هذا المكان مكرّس للعبادة فقط يا سيد. أما الآن... إذا كان هذا سؤالك الأخير فلا بد لي من أن أطلب منك ومن رفاقك مغادرة المكان لمتابعة شؤونكم“. ثم استوى واقفاً على قدميه.

شتم ليام الأمور هامساً بصوت خافت، ثم قرّر أن يقوم بمحاولة أخيرة وقال: ”سيد كابوت... ماذا تعرف عن باندورا؟“

أوقفت الكلمة كابوت عن التقدّم في مشيته، ثم التفت الراهب إلى ليام وأمعن النظر به وبرفيقيه وقال بصوت أقرب إلى الهمس: ”هل تعرف بشأنها؟“

رائع.. ماذا سأفعل الآن؟ ارتأى ليام أنّ التصرف الصحيح الوحيد الذي يمكنه فعله هو خداعه للاستمرار، فقال:

”نعم يا سيد كابوت... أنا أعرف كل شيء حول موضوع باندورا“. فسأله الراهب متخوفاً من بوب وبيكس: ”وهذان الاثنان؟“ فاتبعا محاولة ليام وأوما الاثنان برأسيهما موافقين.

نظر كابوت وهو يعبث بلحيته إلى ليام ودرسه بصمت ثم قال: ”أنت لا تبدو أحد رجال التنظيم يا فتى، ولست في سن تؤهلك لتكون أكثر من مرافق لهم.“

تنظيم... أي تنظيم؟ يا إلهي... ماذا أفعل الآن؟ ”لكنك تبدو كذلك يا سيدي... أنا أعرف المحارب عندما أراه. هل عدتم من رحلتكم؟“ قال الراهب متوجّهاً بالكلام إلى بوب.

نظر بوب بطرف عينه إلى ليام مستنجداً لكنّ ليام لم يملك سوى أن يومئ له بالاستمرار بالحديث فقال:

”أي... لقد... عدت“.

”هل لديك أيّ معلومات عن وضع الملك ريتشارد الآن؟ هل عاد من حملته؟“

رمشت عينا بوب لوهلة من الزمن ثم أجاب:

”سيعود الملك ريتشارد بعد خمسة أشهر“.

فتفوّه كابوت بشتيمة وقال:

”لن يكون لغضبه حدود في تلك الحالة... ستراق الكثير من الدماء وسيقتل كل من يراه في طريقه حتى يجده مرة أخرى، لا يسعنا سوى أن نطلب الرحمة من الله ما لم نجده قبل عودة الملك“.

نجده؟

نظر ليام إلى كابوت بعينين يملأهما الضياح متمنياً لو كانت لديه أدنى فكرة عن حقيقة هذا الشيء ليتمكن من الاستمرار بهذا الحديث من دون صعوبات، وسأله: ”نجده؟“

”نعم، لقد فقدناه... يقولون أنّ الرجل المقنّع هو من استولى عليه“.

”الرجل المقنّع؟“

”نعم... ألم تسمع شيئاً عن الأمر؟“

نفى ليام برأسه وقال: ”لقد... آه... لقد وصلنا للتو“.

”من الأرض المقدّسة؟“

رأى ليام أن أفضل خطوة يتخذها الآن هي مجاراة الراهب، فوافقه بحركة من رأسه وقال: ”هذا صحيح... نعم“.

”إذاً من الممكن أنكم لم تسمعوا بالأمر بعد. كان الصندوق بحماية فرقة من فرسان أخويتنا قبل شتاتين، كان بأمان، كان بعيداً عن جيوش المسلمين وعيون صلاح الدين، بعيداً عن كل الأخطار، لكنهم هوجموا في إحدى الغابات القريبة من هنا، لقد كانوا نخبة من أفضل فرسان الأخوية وأشجعهم على الإطلاق“.

صمت كابوت ورفع نظره إلى النافذة الصغيرة واستأنف حديثه:

”لقد روى لنا أحد المرافقين الذين تمكّنوا من الفرار بأرواحهم أنّ رجلاً مقنّعاً هاجمهم وحيداً... رجل واحد... باغتهم وقتلهم فارساً تلو الآخر وقتل العديد من الضباط المسلحين المرافقين لهم. لقد أخبرنا بأنه رأى بأم عينه السهام والرماح الكثيرة وهي تصيبه تماماً إصابات قاتلة وتمزق جسده... لكنها لم تقتله لأنه لم يتوقف إلى أن انتهى منهم جميعاً وأشبع أرض الطريق بدمائهم... نحن متأكدون من أنه ليس بشراً مثلنا... ذلك الرجل الغامض“.

”هو.. الـ.. باندورا؟“

”نعم... لقد استولى عليه. لقد أخذ ”كلمة الله“ معه. وهي مفقودة منذ ذلك الحين، أي منذ عام ين“.

نظر ليام إلى رفيقه متفكراً في ما قاله الراهب: كلمة الله؟
”إخوتي في التنظيم لا يعرفون ما الذي قد يكون أكثر خطراً عليهم... هل هو غضب الملك ريتشارد لدى عودته أم هذا... الشبح المقنّع. لكنني شخصياً أخشى غضب ريتشارد قلب الأسد أكثر، فقد حاربت معه... رأيت بأم عيني الدماء التي يخلّفها وراءه... لقد قُطعت رؤوس آلاف السجناء بسبب نزواته وأهوائه بعد أن ارتكبت بحقهم باسم الدين فظائع لا توصف... سيحرق ريتشارد غابات انكلترا ويحيلها إلى رماد، سيسوي القرى بالأرض ويُسلح كل رجل وامرأة وطفل يجده في طريقه إلى أن يستعيد الكأس من جديد، إنه لا يكثر بمصلحة بلاده أبداً“.

قاطعت بعض الأصوات الغريبة القادمة من الخارج حديث كابوت فقال: ”إخوتي هنا غير مرتاحين لوجودكم هنا، ووجود امرأة في المكان سيثير اضطرابهم“. نظر إلى بيكس بسرعة ثم قال: ”سوف أعود... أنا أثق بأنكم لا تشكلون أيّ خطر علينا... أليس كذلك؟“

قال بوب بصوته الخشن: ”لقد جئنا بسلام“.

”نحن أصدقاؤكم“. قال ليام، فشرع بأن كلماته هذه طمأنت كابوت

أكثر من أي شيء آخر، فراقبه وهو يتعد خارجاً عبر الاسطبل المظلم وانتظر حتى خرج من الباب، ثم التفت إلى صاحبيه وسألهم: "هل قال كلمة "كأس" للتو؟" "نعم". أجاب بوب.

مال رأس بيكس قليلاً وهي تبحث في بياناتها ثم قال: "معلومات: هناك العديد من المراجع المسيحية التاريخية التي تربط فرسان المعبد المعروفين هنا بالتنظيم أو الأخوية، بشيء غامض يُدعى الكأس المقدسة".

"الكأس المقدسة؟ وما هي؟"

"تشير العديد من المراجع إلى أن الكأس المقدسة هي الكأس التي شرب منها السيد المسيح في أثناء العشاء الأخير الذي أمضاه مع تلامذته، ويُعتقد بأن لهذه الكأس قدرات سحرية. لكن كل هذه المعلومات غير منطقية بالطبع... الأرجح أن الكأس تشير إلى نص ديني مقدس".

"كما أننا نملك معلومات مفصلة عن فرسان المعبد، تقول أنهم تنظيم ديني عسكري تم تأسيسه لحماية الحجاج المسيحيين من قطاع الطرق المسلمين في أثناء وجودهم في الأرض المقدسة، لكن العديد من المراجع الأخرى غير المدعومة تدعي أن السبب الحقيقي وراء إقامة هذا التنظيم هو البحث عن الكأس وإيجادها وحمايتها". قال بوب.

رفع ليام حاجبه بدهشة وقال:

"انتظر... هل... هل يعني كلامك بأن باندورا والكأس المقدسة هما الشيء ذاته؟"

أوما كلاهما موافقين: وأضافت بيكس: "هذا محتمل".

تقلصت عينا ليام متفكراً وقال:

"أعتقد بأن الأوان قد فات على العودة من البوابة الأولى التي فتحت بعد مرور ساعة على وجودنا هنا".

"لقد أغلقت البوابة منذ دقيقتين وسبع وعشرين ثانية".

”حسنًا... هذا يعني بأنّ الركض عبر الحقول كالمجانين لن يجدينا
نفعاً. سنعود عبر بوابة الغد. أفترض بأن السيد كابوت سيسمح لنا بالنوم
هنا الليلة مما سيفسح لنا المجال للاستفهام منه عن هذه الكأس المقدسة
بشكل أكثر تفصيلاً“.

الفصل الثاني والعشرين

نيويورك، ٢٠٠١

أمعنت مادي وسال وضيفهما آدم النظر في الصورة المتموجة التي بدت أمامهم أرضاً في منتصف المكان. فسألها آدم:

”هل تلك... هل أرى السماء هناك؟“ وحملق بالسراب اللامع الذي بدا كأنعكاس صورة السماء التي يمكن أن يراها المرء في ماء البئر عادة... كانت صورة خافقة متحركة ومتألثة وكأنها لمحة لا أكثر، ولا يمكن لها أن تريك شيئاً من قلب العالم النابض الذي تسترقّ إليه النظر عبرها. فأجابته مادي:

”نعم... وهذا يبدو لي كحقل أو ما شابه...“

”يا إلهي... أنا أنظر إلى حقل وسماء حقيقيين... يعودان إلى تسعمئة عام مضت.“

”لكننا لا نرى ليام ولا وحدتي الدعم.“ قالت سال.

”حسناً.“ قالت مادي واتجهت من فورها إلى لوحة التحكم على مكتبها وضغطت على زرّ ما وقالت: ”لقد فتحت البوابة لوقت كافٍ، مما يعني أنهم قرروا إمضاء الليلة هناك.“

تبخّرت البوابة في الهواء واختفت.

”أنا أكره حدوث هذا. أتمنى لو كانوا يستطيعون الاتصال بنا بأي شكل ليخبرونا عما قرروا فعله.“ قالت مادي، ثم نقرت بإصبعها على طرف المايكروفون لتوقظ الدماغ الإلكتروني المستنسخ عن دماغ بوب الموجود على جهاز الكمبيوتر الرئيس ونادته:
”بوب“؟

< نعم يا مادي.

”أعد شحن الآلة لفتح بوابة العودة بعد أربع وعشرين ساعة.“

< حاضر.

انضم إليها آدم وقال:

”لكنك قلت من قبل بأنكم تملكون طريقة للتواصل مع المسافرين؟ ما هو اسم الطريقة... ذكريني بها؟“
مكتبة الرمحي أحمد
”إشارة زمنية على شكل مستند“.

”تلك هي. لماذا إذاً لا نخبرهم بأن يستعملوا مخطوطة فوينتش؟ إذا وجدوها... ما رأيك؟“

”لا. لا نستطيع“. ورفعت نظارتها إلى أعلى أنفها وقالت:
”لقد تمكنت من اختراقها، مما يعني أنّ شخصاً آخر قد يتمكن من فعل ذلك أيضاً، وإذا ما كانت وسيلة اتصال خاصة بفريق آخر من رواد الزمن وبدأننا نحن أيضاً باستعمالها وكتابة رسائلنا فوق رسائلهم فقد نتسبب في وقوع الكثير من المشكلات من دون قصد“.

”حسناً... ماذا عن استعمال شواهد القبور؟“

فنظرت إليه الفتاتان متسائلتين بدهشة وقالتا: ”ماذا؟“
”أقصد... لا أقصد أن يقتلوا أحداً لاستعمال شاهدة قبره، بل أن يستعملوا شاهدة قبر من المقبرة التي تقع خلف دير كيركليس“.

”وضح كلامك“. قالت سال.

”أقصد قبور الماسونيين الحجرية المنقوشة. هناك عشرات منها خلف مبنى الدير، وبإمكاننا إيجادها إذا ما حفرنا قليلاً...“.

”ماذا تقول... هل تريد مني أن أرسل فريقاً آخر منا إلى إنكلترا للبحث عن نقش أثري على أحد القبور؟“

”لا حاجة إلى ذلك... لقد سافرت إلى هناك من قبل. ذهبت قبل بضع سنوات بعد أن نسي الناس أمر مخطوطة فوينتش. أردت أن أكتشف بنفسي سرّ دير كير كليس هذا، فذهبت واستكشفت المكان. بالطبع لا يوجد فيه أي شيء مثير. لم أجد سوى مبنى الدير القديم وبستاناً محاطاً بسور مغطى بنبات العليق الشائك والقرّاص المزعج، لكنني اكتشفت بضعة بلاطات ماسونية تحمل نقوشاً لاتينية، وهي شواهد قبور منهارة أو مكسورة كما تعلمون بفعل مرور الزمن، لكنها لا تزال بوضع جيد يسمح لنا بقراءة النقوش المحفورة عليها. وقد صوّرت بعضاً منها.“

ضحكت مادي وقالت: ”وماذا بعد؟ هل تقترح أن ينقشوا لنا تطوّرات رحلتهم على إحدى تلك البلاطات الحجرية؟“

أجابها بثقة: ”هذا ممكن بالفعل. أليس كذلك؟ إذا سبّب النقش على إحدى تلك البلاطات موجة زمنية فلا بدّ من أنّ أيّ تغيير طفيف في التاريخ سيتسبّب في تغيير محتوى الصور التي التقطتها من قبل“. صمت آدم ونظر إلى الفتاتين بتمعّن ثم أردف قائلاً: ”أم أنني لم أفهم طريقة عملكم كما يجب؟“

حدّقت مادي به بصمت لبرهة قبل أن تعضّ إصبعها وتقول: ”نعم... نعم... أعتقد أن هذا ممكن“. والتفتت إلى سال وقالت: ”إذا... احتاج الأمر إلى ذلك. لكن أعرف ماذا... لا أتمنّى فقدان ليام في الماضي مرة أخرى... ليس هذه المرة بالتأكيد“. ونظرت إلى الشاشة لتتفقد إعادة شحن آلة الزمن.

”سنفتح البوابة بعد ثلاثين دقيقة. أنا متأكّدة من أنهم سيكونون في انتظارنا.“

الفصل الثالث والعشرون

مقاطعة يوركشاير، دير كيركليس، ١١٩٤

سمع ليام صوت خطوات شخص يقترب وحركة مفاجئة بين الخيول في الاسطبل قبل أن يسمع قرعاً خفيفاً على باب غرفتهم الخشبي فأجاب:
”من؟“

”لقد أحضرت لكم بعض الطعام“. إنه صوت سياستيان كابوت.
”آه“. كانت معدة ليام تقرر جوعاً طوال الساعة الماضية وقد مضى النهار كله من دون أن تتسنى لهم الفرصة للحديث مع كابوت مرة أخرى، وراح ليام يتساءل في قرارة نفسه ما إذا كان قرارهم بإمضاء الليلة في عام ١١٩٤ سيعود عليهم بأيّ منفعة حقيقية. فقفز واقفاً بلهفة وفتح الباب المؤدي إلى بهو الضيوف الذي ينزلون فيه.

أحضر الراهب الشاب الذي التقوا به سابقاً على بوابة الدير وعاءين خشبيين ورغيف خبز لهم، وتبعه كابوت حاملاً وعاء خشبياً آخر وإبريقاً طافحاً بسائل ما مما تسبّب بوقوع بعض منه حين وضعه الراهب على الأرض القذرة.

”مرق حار ملائم لمثل هذا اليوم البارد، وبعض من خمر العسل لبعث الدفء في أطرافكم“.

قال كابوت وصرف الراهب المرافق ثم جلس على أحد الأسرّة الخشبية، وقد بدا أكبر سناً على ضوء الشمعة التي تنير المكان ممّا كان عليه في الصباح، فقد جعلته التجاعيد وانشئات الجلد بسبب السمّة والندبة الكبيرة يبدو عجوزاً، وبدا أيضاً أنه لم يمضِ الكثير من حياته الطويلة في مثل هذا المكان المنعزل والموحش.

”لقد أمضي إخوتي الرهبان يومهم هذا في الثرثرة كما تفعل النساء المسنّات بدلاً من التأمل والصلاة المعتادة“.

تناول ليام أحد القدور وغمس قطعة كبيرة من الخبز في المرق السميكة الحار من شدة جوعه وقال:

”قلت لنا من قبل يا سيّد كابوت أنك كنت من رجال الملك ريتشارد وأنك حاربت معه؟“
”آي“.

”هل خضت العديد من المعارك؟“

”خضتُ كثيراً منها يا فتى“.

”لكنّك راهب كما أرى. لا أظنّ بأنّ الرهبان يخرجون للمشاركة في الحروب والقتال“.

”لم أكن راهباً طوال حياتي يا فتى. كنت أحد فرسان المعبد... وقد انضمت إلى هذه الأخوية قبل شتاءين“.

”كنتُ أحد فرسان المعبد؟“ سألته بيكس.

”لم أكن فارساً بالمعنى الحقيقي للكلمة... فأنا لا أنتمي إلى طبقة النبلاء... لكنّي كنتُ ضابطاً نقيّاً“.

”نقيّاً؟“ قال ليام متسائلاً وهو يغمس قطعة خبز أخرى في المرق.

”معلومات: النقيب هو جندي محترف لا يحمل دماء نبيلة يقوم بأدوار مساعدة داخل التنظيم، كالمحافظة على المعدّات والممتلكات“.

قال بوب.

أصيب كابوت بشيءٍ من القلق وقال:

”هناك شيء غريب فيك يا سيد“.

حدّق به بوب لبعض الوقت ثم رسم على وجهه ابتسامة ودودة وسأله:
”هل حاربتَ حقاً مع الملك ريتشارد كما قلتَ لنا؟“

”خرجت معه في حملته الأخيرة، وقد كانت الرحلة الأسوأ. فقد خدمت الفرسان عشر سنوات في الأراضي المقدسة... أمضينا منها خمس سنوات في فترة سلام، فقد عم السلام والسكينة الأراضي المقدسة بعد استيلاء صلاح الدين على القدس“.

أوما ليام برأسه، فقد أعطاهم آدم درس تاريخ من هذا النوع قبل انطلاقهم في رحلتهم هذه، وقد عرف منه بأن القائد صلاح الدين وجيشه الضخم قد استولى على القدس عام ١١٨٧، وأنها سقطت بين أيدي المسلمين وأن السلام قد عمّ بعد ذلك. مما يعني بأنها عادت إلى أيدي المسلمين بعد تسعين عام^٢ من حكم المسيحيين لها. وقد اختار صلاح الدين أن يتصرّف بحكمة وتعقل شديدين، وبدلاً من أن يذبح كل المسيحيين المتبقين في المدينة، قرر أن يمنحهم الحرية ليعيشوا كما يشاؤون وقيموا شعائر دينهم كما يحبّون، وأن يسمح للحجاج المسيحيين بدخول المدينة كما يرغبون لزيارة كل المواقع المقدسة، وقد فعل كل هذا آملاً في امتصاص موجة الغضب العارمة التي اجتاحت أوروبا بعد سقوط القدس، لكن هذا لم يلائم الملك ريتشارد وفيليب الثاني ملك فرنسا المتعطشين للمعارك والمجد والذين استغلوا هذه الفرصة لجمع المحاربين من كل حذب وصوب. وكانت حملة الملك ريتشارد الثالثة محاولة مغرورة من قبله لاستعادة القدس وعكا ويافا أيضاً اللتين استولى عليهما صلاح الدين بالمثل.

”هكذا كانت حملته الأخيرة مجرد رحلة لسفك الدماء، أكثر من أي شيء آخر“. ولمعت عينا كابوت في الظلام حزناً، ثم استطرد قائلاً:

”استعاد عكا بعد أن استسلم له المسلمون فقطع رؤوسهم جميعاً. وقام ببناء تلة من رؤوسهم.. تلة تضخمت مع الوقت إلى أن تجاوزت ارتفاع الخندق وبدأت الرؤوس تندرج على السهل المنبسط أمام المدينة“.

نظر ليام إلى قطعة بطاطس تطفو في صحنه ففقد شهيته.
تنهد كابوت وعاد إلى القول: "أنا أعرف في داخلي بأن الملك ريتشارد
لم يذهب إلى هناك من أجل عكا ولا من أجل القدس نفسها... بل ذهب
لاستعادة ما تركوه هناك".
"ما الذي تركوه؟"

"آي... ما تركوه بسبب مغادرتهم على عجل لدى وقوع القدس وعكا
بيد صلاح الدين... لكنك على علم بهذا، أليس كذلك؟ فقد ادعيتَ بأنك
أحد رجال التنظيم مسبقاً، لكنني أعرف أنك لست واحداً منهم". ثم نظر
إلى بوب وقال: "وأنت يا سيد... أنت تبدو كواحد منهم، لكنّ سلوكك
مختلف عن طريقتهم. ولهذا دعوني أسألكم... كيف توصلتم إلى معرفة
أخطر أسرار التنظيم؟"

عاد كابوت إلى النظر في عيني ليام وسأله:

"كيف حصل أنكم تعرفون بوجود باندورا؟ أرجو أن تخبروني... من
أنتم حقاً؟"

نظر ليام إلى وحدتي الدعم طالباً المساعدة لكنهما حملقا فيه من دون
أن يتمكننا من تقديم أي مساعدة له.
هذرائع..

وضع ليام القدر الخشبي على الأرض الوسخة وقال:

"لقد... من المحتمل أن يكون أفضل شيء أقوم به هو أن أخبرك
الحقيقة".

أوما كابوت برأسه موافقاً وقال: "أظن أن هذا سيكون خيارك الأفضل".
"لقد أتينا من ال... حسناً... أتينا من مكان بعيد جداً بحثاً عن مستند
يدعى مخطوطة فوينتش، وقد يبدو كلامي غريباً جداً يا سيد كابوت...
لكن اسمك مقترن بها، ولا بدّ من أنه موجود فيها لسبب ما".
"لم أسمع بها من قبل".

"أعلم. أنا أعلم... أصدقك... لكنّ شيئاً آخر قد ذكر في المخطوطة..."

إنها باندورا التي أطلقت عليها اسم - كلمة الله - عندما تحدّثنا سابقاً".
ونظر إلى وحدتي الدعم اللذين لم يبدُ عليهما أنهما سيقاطعانه في حديثه.
صمت الراهب وبدأ أنه متحفظ في الإجابة فقرّر ليّام دفعه للتكلم بأي
شئ، فقال:

"لقد أطلقتَ عليها أيضاً اسم - الكأس المقدسة؟"
"لا يمكنني التحدّث عن هذه الأمور معك يا فتى، إنه شأن خاص
بفرسان المعبد وحدهم".

"لكن... لم يعد الأمر هكذا بعد الآن... أليس كذلك؟" ولم يتمكّن
ليّام من منع ابتسامة خبيثة من الارتسام على وجهه فقال:
"لقد فقدتها إخوتك... ألم تقل ذلك سابقاً؟"

زَمّ كابوت شفّتيه بعناد وقال: "لا يُسمح لي بالحديث عن هذا الأمر".
"لكنك تحدّثت عنه من قبل". وانحنى ليّام باتجاهه وقال بهدوء:
"اسمعني... أعتقد أننا بحاجة إلى إيجاد الكأس المقدسة هذه... وإذا
ما سرقها أحد من إخوتك الفرسان فلربّما استطعنا مساعدتهم للحصول
عليها من جديد؟"

ضحك كابوت وأجاب: "أنتم الثلاثة؟ هل ستجوبون غابات نوتنجهام
الشاسعة بحثاً عن الرجل المقنع لاستعادتها منه؟"
"بالضبط". أجاب بوب.

خبت ضحكة الرجل وهو ينظر إليهم على ضوء الشمعة المتراقص ما
بينهم وقال: "هناك بعض الحمقى الذين يعتقدون بأنه الشيطان بنفسه،
لقد أغوى بعض الرجال الفقراء للغاية لاتباعه وجذبهم للانضمام إليه في
الغابات... وقد تبعوه كما لو كان ملكاً، إلهاً... لأنه يبدو عصياً على
الموت ولأنه يهاجم جامعي الضرائب، فيحصلون على النقود والطعام
الذي يحتاجون إليه ويقاثلون من أجله في الوقت نفسه. ويتناقل الناس
الروايات عنه، يقولون أن قوته عظيمة وأنه قادر على تمزيق رجل إلى نصفين
بيديه العاريتين، وأنه يركض بسرعة تفوق سرعة الحصان، لكن أكثر ما

يحيكون حوله القصص هو الخلود... إنه خالد ولا يمكن قتله". ابتسم كابوت بامتعاض واستطرد قائلاً:

"إنه زمن خطير مليء بالاضطرابات مما يدفع الناس لنشر الحكايات... إنهم يتشوقون للقصص الشيطانية المماثلة لهذه".

ثم تنهد وعاد إلى القول: "لكن الحقيقة هي أن الرجل المقنع يثير الشغب والاضطراب بين صفوف الناس البسطاء والفقراء، وسواء كانت الحكايات عنه صحيحة أم لا... فإن أسوأ ما في الأمر هو أن الكأس بحوزته".

مضغ ليام قطعة خبز مبلة بالمرق الدافئ وفكر في الجملة التي قالها الراهب قبل قليل... إنه قوي لدرجة تسمح له بتمزيق رجل يديه العاريتين، ونظر إلى بوب... لا بد من أنه وحدة دعم أخرى. هناك فريق آخر من رواد الزمن في المكان.

نظر كابوت فجأة إلى بوب وبيكس وقال: "ألن تأكل؟ ألا تشعران بالجوع؟"

نفيا برأسهما وقالت بيكس: "نحن على ما يرام".
تنحج ليام وقال: "لقد أردت أن تعرف من نكون يا سيد كابوت، أليس كذلك؟"
"آي".

"حسناً... لقد أتينا من نفس المكان الذي أتى منه الرجل المقنع".
حدق كابوت به بدهشة وسأله: "هل تعرفه؟"
"لا أعرفه شخصياً... لكنني أعتقد بأنني أعرف حقيقته".
"أخبرني بها إذا".

"لا أعتقد بأنني أستطيع إخبارك يا سيد كابوت... فالأمر معقد جداً... ولكن... أعتقد بأننا إذا تمكنا من تعقبه في الغابات بمساعدة ما يكفي من الرجال، فإن صديقي هذين قادران على إجباره على إعادة ما أخذه من التنظيم". ونظر إلى بوب وبيكس.

أمعن كابوت النظر فيهم لفترة طويلة من الوقت ثم قال:

”لم أقابل في حياتي أشخاصاً يشبهونكم من قبل، هناك شيء غريب ومختلف فيكم أنتم الثلاثة... وأنا أقرب لتصديق ما قلته قبل قليل.“

”سيد كابوت... لا يمكنك أن تتخيل مدى غرابتنا“. قال ليام بابتسامة. شعر الرجل بالفكاهة الكامنة في كلمات ليام على الرغم من صدقها فابتسم بدوره وقال: ”إذا سأضحبكم إلى الشخص الذي في بالي... إنه رجل يقتله القلق الناتج عن الاضطرابات السائدة في هذه الأنحاء... وأكثر من أي شيء آخر... القلق من أنه سيواجه غضب الملك ريتشارد لدى عودته واكتشافه ضياع الكأس. وإذا ما آمن بكم... إذا ما آمن بأنكم قادرون على استعادة الكأس، فأنا واثق من أنه سيزودكم بكل ما تحتاجون إليه لتنفيذ الأمر“.

”ومن يكون؟“

”إنه رجل قمْتُ بتدريبه على القتال بالسيف عندما كان صبياً... وهو رجل محارب مسكين بكل المقاييس... لكنّ طيبة قلبه ثروة كبيرة...“.

”من هو؟“

”إنه أخ الملك الأصغر... إيرل كورنوال وغلوشتستر... والمشهور باسم جون لاكلاند“.

الفصل الرابع والعشرين

مقاطعة يوركشاير، دير كيركليس، ١١٩٤

التفت ليام إلى الخلف ليتأكد من أن أحداً من رهبان الدير لم يتبعهم إلى الحقل. لقد ابتعدوا عن الأنظار بعد أن وصلوا إلى أسفل المنحدر. ولحسن حظهم، تالأت البوابة أمامهم تماماً ورأى مادي وسال وذلك الرجل الانكليزي، آدم. وتموّجت أضواء المستودع الخافتة مترافقة كما لو كانت خيطاً من الزيت الطافي على سطح ماء متحرّك.

عبروا البوابة ووصلوا بعد لحظات إلى مقرّهم الدافئ بسلام، ففرك ليام ذراعيه المرتجفتين، ليمدها بالدفع بعد البرد الذي قاساه هناك طوال الأربع وعشرين ساعة الماضية. بينما غمر التعجب آدم بسبب آلية عملهم المدهشة هذه.

سألته مادي:

”ماذا وجدتم؟“

”لقد وجدنا رجلِك - كابوت، وجدناه بالفعل... لكنني على وشك ارتكاب جريمة للحصول على كوب من الشاي الساخن.“

”بالطبع“

”وللحصول على ما آكله أيضاً.“

نظرت مادي إلى ساعتها فوجدت أن النهار شارف على نهايته، إنه يوم الإثنين وقد تجاوز الوقت فترة بعد الظهر ممّا يعني بأن أغلب المقاهي والمطاعم التي يرتادونها ستكون هادئة في مثل هذا الوقت، فقالت: "بالطبع.. لم لا؟ من الأفضل أن تغيّروا ملابسكم إذاً، لأنكم تبدون كجماعة من أتباع الإله كريشنا".

نيويورك، ٢٠٠١

"اقترح علينا صديقنا كابوت بأن يأخذنا لمقابلة الرجل المدعو جون". وقعت الشوكة من يد آدم وأصدرت صوتاً عالياً لدى ارتطامها بصحن السلطة، وتساءل:

"جون؟ جون لاكلاند؟ الملك جون الملعون؟"

فأوما ليام برأسه إيجاباً وقال:

"نعم.. ذاك هو الرجل".

"يا إلهي... هذا... أتمنى لو..." ثم التفت آدم إلى مادي وقال: "لا بدّ لي من الذهاب إلى هناك. يجب أن أذهب معهم... آه".

نظر ليام إلى بوب وبيكس الجالسين بعضهما بجوار بعض وهما يلتهمان صحنين من حساء الدجاج. فنادتاهما مادي:

"أيها الأخ الأكبر والفتاة المجنونة؟" فتراجع خائفاً منهما وهزّ رأسه بالطاعة، فعادت مادي للقول: "أسفة... لا أعرف عدد القوانين التنظيمية الخاصة بالوكالة التي خرقتها بسماحي لك بمعرفة ما نقوم به حتى الآن... ولن أرسلك إلى الماضي بالتأكيد".

"لكنني أحفظ هذا التاريخ كراحة يدي، لقد قرأت ال..."

"أسفة. لا. لا يمكنني المجازفة أكثر من ذلك معك، وحده الله من يعرف ما قد يقوله فوستر لو علم بما يجري منذ الصباح".

“فoster”؟

“سأشرح لك لاحقاً”. ثم التفتت إلى ليام وسألته: “هل تظنون بأننا نفّذنا التعليمات التي وصلتنا في الرسالة التي تقول: “ابحثوا عن كابوت في كيركليس” هذا ما تقوله... هل تظنون بأن شخصاً ما استعمل مخطوطة فوينتش واستخدم آدم لإيصال هذه الرسالة إلينا... ولكن... من أجل ماذا؟ من أجل أن تتوصلوا إلى الكأس المقدسة”؟

“باندورا”؟ سألت سال.

“باندورا... الكأس المقدسة... إنهما الشيء نفسه”. أجابتها مادي من دون اهتمام وتابعت: “هل تستطيعون استعادة هذا المستند أو اللقافة أو الكتاب... أياً تكن حقيقته، من هذا السارق المقنع الذي تعتقدون بأنه وحدة دعم تابعة لفريق آخر من رواد الزمن”؟

“هذا هو الأمر باختصار”. قال ليام.

أسندت سال ذقنها بأصابع يدها وقالت: “ماذا لو كان ضياع الكأس مقدراً؟ أعني... أليس ضياعها أسطورة كبيرة؟ لأنها اختفت عملياً من الوجود”.

“هل تقصدين أن نتركها ضائعة ونترك الحال على ما هو عليه”؟ أجابها ليام.

“نعم.. انظر حولك... لم يتغيّر التاريخ إلى ذلك الحد، وبعيداً عن الفيلم الذي قام دي كابريو بدور البطولة فيه نقلاً عن قصة حياة آدم... ربما يجب علينا أن نترك الأمور كما هي”.

قضم ليام لقمة من شطيرة اللحم وقال: “لقد أطلق السيد كابوت عليها اسم - كلمة الله - وهذا يجعلها شديدة الأهمية بالنسبة إليّ. وفي جميع الأحوال... سيعود الملك ريتشارد من حملته ليجد أنها سرقت، لأن أخاه الأصغر جون لم يتمكن من الحفاظ على الأمن والنظام في البلاد، لم يتمكن من المحافظة عليها... ويقول كابوت بأنه سيقته من أجل هذا”.

“أعتقد ذلك... هناك أمر آخر. إذا كان هناك وحدة دعم أخرى تجوب

ذلك المكان في الماضي فلا بد من أن خطر تغيير التاريخ قائم ما يعني بأننا لا نستطيع تجاهل الأمر". ثم التفتت إلى آدم وقالت:
"أخبرنا أيها الخبير في التاريخ... ماذا جرى مع الملك ريتشارد؟ ماذا حصل عام ١١٩٤؟"

"انتهت حملة الملك ريتشارد بالفشل في عام ١١٩٢ لأن الجيش الذي رافقه لم يكن مجهزاً بما يكفي لاستعادة القدس والمحافظة عليها. وعندما عرف بأن صلاح الدين قادر على استعادة المدينة منه بسهولة إذا احتلها، أدرك أن أي محاولة لمهاجمتها فاشلة قبل أن تبدأ، فوافق على هدنة بينه وبين صلاح الدين، وعاد بما بقي من جيشه الممزق إلى أرض الوطن على دفعات. وعاد ريتشارد نفسه إلى إنكلترا بحراً لكن العواصف العاتية حطمت سفينته وانتهى الأمر به مع حطامها على جزيرة مالطا، فاضطر للعودة إلى بلاده مشياً على الأقدام، ثم قاده حظه السيء المتعثر إلى المرور في أثناء عبوره أوروبا في إحدى ممتلكات دوق حاقده عليه فاختطف واحتجزه الخاطفون ثمانية عشر شهراً على ما اعتقد ريثما دُفعت الفدية للخطافين. ولهذا، سيطلق سراحه في عام ١١٩٤ أو سيكون على وشك ذلك... وسيصل إلى البلاد هائجاً غاضباً بسبب إخفاق حملته الذريع وعودته إلى إنكلترا المفلسة التي تقف على شفير الثورة".

"صحيح... ممّا يعني بأنه ليس ملكاً سعيداً". قالت مادي.
"لكنه حصل على ما خرج من أجله... حصل على الكأس". قال ليام.
"وفقدتها مجدداً. سيفقدها من جديد في إنكلترا وسيلوم أخاه على ذلك".

فقال آدم:

"إذا قتل أخاه حقاً، فهذا سيغيّر كثيراً من الأمور. إذا لم يعد هناك من وجود لجون... للملك جون في التاريخ... فهذا يعني أنه لن يكون لـ"ماغنا كارتا" أي وجود".

نظر الرفاق إليه متشوقين بانتظار أن يكمل حديثه.

”آه... ما بكم... ما غنا كارتا هي أساس القانون الإنكليزي... إنها هوية إنكلترا. وربما تكون أهم ما يميّز أميركا أيضاً“.

”يا إلهي... أنت على حق“. سيسبّب تغيير مثل هذا الأمر موجة زمانية كبرى تقلب كل ما حولنا رأساً على عقب. ونظرت الفتاة حولها، إنه مطعم باهظ دعاهم إليه آدم بما أنه سيدفع بوساطة بطاقة المصرفية الذهبية، لا يعكر هدوءه سوى صوت الصحون كلما فُتح باب المطبخ، ولم يكن هناك أحد غيرهم وطاولة أخرى يجلس إليها رجلي أعمال على الطرف الآخر. ألقت مادي نظرة أخرى من النافذة المطلة على ساحة التايمز وقالت بعد تفكير:

”لا بدّ لنا من اتباع الأثر... إذا ما أصرّ كابوت على اصطحابكم لمقابلة الملك جون“.

”لم يصبح ملكاً بعد“. تدخل آدم.

فتضايقت مادي من مقاطعته لها، لكنها تابعت كلامها:

”أقترح أن تقوموا بذلك الآن. لأنّ... هناك شيئاً ما يدور هناك. لقد تكبّد أحدهم الكثير من العناء ليدفعنا للسفر إلى الماضي والبحث عن كابوت للاستفهام منه عن كل ما يجري... رسالة باندورا...“

”ما الذي يجعل باندورا مهمة إلى هذا القدر بالنسبة لك يا مادي؟“ سألتها سال.

حسناً... ربما أنّ الأوان لتخبريهم بالحقيقة... إنها الحقيقة المرّة مرة أخرى. لقد أمرتها الرسالة بأن لا تخبر أحداً مهما كان... أمرتها الرسالة بأن تحافظ على سلامتها ولا تخبر أحداً. لكن مادي اعتقدت بأن إخبار سال وليام لن يشكل خطراً على حياتها وعلى الدور الذي يقومون به. راقبها ليام باهتمام، ثم سألتها:

”مادي.. ما الأمر؟“

لكن آدم لويس هو شخص غريب عنهم، وليس سوى ضحية بائسة قليلة الحظ تقاذفته الأحوال ورمته بينهم.. وكلما كان ما يعرفه عن الموضوع

أقلّ، كلما كان الحال أفضل.

”هل من الممكن أن تعذرنا قليلاً يا آدم؟“

بدالها أنها قد جرحت مشاعره، لكنه أوماً برأسه أخيراً وقال: ”حسناً. سوف ... أذهب لدفع الفاتورة“.

راقبته الفتاة وهو يتتعد عبر المطعم الفارغ من الناس قبل أن تلتفت إلى رفاقها وتقول بصوت منخفض: ”أنا اخفي عنكم شيئاً منذ بعض الوقت، أنا آسفة“.

”ما هو؟“

”هل تذكر رحلتنا إلى سان فرانسيسكو يا ليام، إلى العام ١٩٩٤ ... عندما ذهبنا لإحضار أجنة جديدة للاستنساخ؟“
”آي“

”وجدت في صندوق الودائع في البنك رسالة مكتوبة بخط اليد موجّهة إليّ. وقد كتبت بخط غير واضح تماماً وكأن من كتبها قد قام بذلك على عجل“. وأخذت نفساً عميقاً لأنها لم تكن واثقة كلياً بعد بأنها تقوم بالتصرف الصحيح.

فقالت سال بنفاذ صبر: ”أخبرينا يا مادي!“

”حسناً، حسناً... لقد قالت الرسالة: مادي... احذري من باندورا، الوقت ينفذ منّا... حافظي على سلامتك ولا تخبري أحداً“.

تبادل ليام وسال النظرات وعبس وجهه بوب ومال رأسه بيكس إلى جانبها كما تفعل عندما تفكر عادة.

”إنه تحذير لم... لم أمنحه الكثير من الاهتمام في الحقيقة لأننا كنا نحلّ قضية الديناصورات. وكما تعرفون... كأنني كنت أحاول أن أنسى الأمر لاشعورياً عبر محاولة عدم التفكير به بكل بساطة. وعندها... عندها قام صديقنا ذاك بفك شيفرة الرسالة الأخرى من المخطوطة“. وأشارت إلى آدم.

”الأمر يبدو معقولاً أكثر بالنسبة إليّ الآن، لقد حاولت الحفاظ على

سلامتنا بعدم إرسالنا لاكتشاف ما يجري هناك". قال ليام.
"أنا آسفة... أعذر لكم بشدة على عدم مشاركتكم بالأمر من قبل.
ولكن... أمرتني الرسالة بذلك. لم أعرف كيف أتصرف".
"لا بأس... نحن نعرف الآن. الأمور على ما يرام الآن". قالت سال.
"آي... هل تخبّئين عنا شيئاً آخر؟" قال ليام وعلى وجهه نصف ابتسامة.
"الاحتفاظ بسرّ واحد سيئ بما فيه الكفاية". قالت مادي متنهّدة.
أنهى آدم لويس دفع الفاتورة وتأهب للعودة إلى الطاولة. فقالت:
"سنحافظ على محتوى الرسالة سرّاً ما بيننا... اتفقنا؟ إنه أحد أسرار
الوكالة".

أوما الآخرون موافقين.
اقرب آدم من الطاولة ببطء وقال: "هل أستطيع الانضمام إليكم الآن
من جديد؟"
أومات مادي وابتسمت: "كلّ شيء على ما يرام. أظنّ أنه يجدر بنا
مغادرة المكان، هناك الكثير من المهمّات تنتظرنا لإكمالها".

الفصل الخامس والعشرون

نيويورك، ٢٠٠١

وافق ليام على ارتداء الملابس الداخلية الحرارية التي اختارتها له سال، فقالت: "اشتريتها من متجر معدات رياضية، ستبقيك دافئاً إذا ما ارتديتها تحت ملايسك".

"شكراً لك". ووضعتها في كيسه البلاستيكي.

"انتزعت الأوراق عنها طبعاً... وكالعادة، يجب ألا يراها أحد لأنها تنتمي إلى هذا العصر".
"بالطبع".

انضمت إليهم مادي وجلست معهم على طاولة المطبخ وقالت وهي تنظر إلى ليام:

"سأرسلكم يرافق إلى الوقت الذي أتيتم منه بفارق بضع دقائق لتتلافى خطر اصطدام التاكيونات". وقالت هامسة: "لن أقترف ذلك الخطأ مجدداً". ثم التفتت إلى آدم وقالت:

"آدم... تفضل وأخبر ليام ورفيقه عن فكرتك". وأشارت بيدها إلى بوب وبيكس اللذين وقفا خلف الناحية المقابلة من الطاولة كحارسين من العصور الوسطى، بشياهما الداخلية.

أوماً آدم برأسه وقال: "لقد توصلنا إلى طريقة تبقيكم على اتصال بنا".
"لكنّ مادي قالت بأننا لا نستطيع استخدام مخطوطة فوينتش"؟ سأله
ليام.

"لا، ليست تلك هي الطريقة. هناك مقبرة خلف دير كيركليس تعود إلى
وقت إنشاء الدير، وقد زرتها بنفسي من قبل واستكشفتها بدقة، وكانت
نباتات القراص والعليق الشائكة تخفي تحتها بلاطات شواهد القبور التي
تعود لأعضاء تنظيم الماسونية القديمة، وإذا بحثتم، ستجدونها هناك. لقد
قمت بالتقاط العديد من الصور الفوتوغرافية لها، ونحن مهتمون بوحدة
منها كانت جزءاً من شاهدة قبر رجل كان يدعى روبرت هاسكيت توفي في
عام ١١٩٢، مما يعني أنه سيكون ميتاً الآن... أعني... في ذلك الوقت...
أنت تفهمني... في الزمن الذي ستعودون إليه".

لوح ليام بيده قائلاً: "لا تقلق، أنا أتعثر في حديثي غالباً بهذه المفارقات،
بين الآن وذلك الأوان وما إلى هنالك".

فتابع آدم كلامه: "سيكون ميتاً آنذاك وستكون شاهدة قبره جديدة على
ما آمل... كل ما عليكم فعله هو البحث عنها".

قاطعته بيكس: "لدي سؤال".

"تفضّلي". قال آدم وهو يتمعن في جسدها الرياضي، فانتبه إلى احمرار
خديها خجلاً من نظراته فقال: "آه... ما بك يا بيكس؟"

"لا يجب أن نتواصل عبر الزمن بواسطة أداة عامّة بمتناول يد كل
الناس... هذا يعرّض الزمن لخطر الاختلاط والتغيير".

"لا. لا بالطبع. لا بدّ لرسائلكم من أن تكتب بالشفيرة، ونظرياً...
يجب أن تستعملوا شيفرة لا تلفت الانتباه وتتلاءم مع سياق المكان
والزمان، يمكن أن تكون أشبه بزخرفة للزينة".

"هل لديك شيفرة جاهزة؟" سألته بيكس.

"بالطبع نعم... حسناً، إنها ليست من تألّفي، لكننا نستطيع استخدامها
بسهولة، هل لديكم ورقة؟"

أسرعت سال إلى طاولة الكمبيوتر وعادت تحمل ورقةً وقلمًا.
 ”شكراً لك. حسناً... إنها شيفرة ماسونية ويسمونها شيفرة بيغ بن.“
 ورسم آدم على الورقة بعض الخطوط المتعامدة والنقاط ثم ملأ الفراغات
 بالأحرف

A	B	C	J	K	L						
D	E	F	M	N	O						
G	H	I	P	Q	R						

	S	
T		U
	V	

	W	
X	.	Y
	Z	

”كل ما عليكم فعله هو استعمال الشكل الهندسي الذي يحتله الحرف
 من الرسالة، وسأعطيكم مثالاً.“
 ثم رسم رسالة مشفرة فانحنى ليام ليراقب الأمر عن قرب لكنه لم
 يفهم منها شيئاً وكما قال آدم... بدت بالفعل كنموذج زخرفي غير مثير
 للاهتمام.

➤ > 7 6 5 4 3 2 1 > ➤

”والآن... هل ترون قصدي؟ إذا أخذنا حرف x... هل ترون مكانه
 من الشيفرة؟ ما هو الشكل الذي يحتله؟ إنه القسم الذي يحتوي على
 نقاط من الصليب الكبير... الجزء الأيسر... هل رأيتم؟“ فأوما الآخرون
 بالإيجاب. تابع آدم: ”انظروا الآن إلى الرسالة المشفرة... الحرف الأول
 يطابق ذلك الجزء من بيغ بن، إنه الجزء الذي يحتوي على حرف x. ولهذا
 فإن الحرف الأول من الرسالة المشفرة هو x. هل عرف أحدكم الحرف
 التالي؟“

أجابت سال أولاً: ”إنه حرف m.“

”تماماً. لقد فهمت الأمر. استمري... فكّري بالباقي.“

تناولت سال قلماً عن المكتب مقبلة الجبين وتمكنت بسرعة وسهولة من حل شيفرة الرسالة.

> 3 1 4 5 6 7 > 8 9 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9
 ↓ ↓ ↓ ↓ ↓ ↓ ↓ ↓ ↓ ↓
 X MARKS THE SPOT

”أحسننت... إنها سهلة جداً“.

رفع ليام يده ليتحدث وقال: ”ولكن... هذه رموز ماسونية... أليس كذلك؟ ألا يعني هذا أن أي ماسوني يراها على شاهدة القبر سيكون قادراً على فهمها؟“

”طبعاً. ولهذا علينا تغييرها قليلاً. إذا غيرت مواضع الحروف الآن... على الشكل التالي“. ورسم آدم الشكل من جديد لكنه وضع الحروف بطريقة عشوائية في الفراغات.

C	W	F	K	N	R	 Z O I D 	 P Q L G
M	J	S	E	B	U		
A	V	Y	H	X	T		

”والآن... إذا ما قمت بكتابة رسائل قصيرة باستخدام هذه الشيفرة الجديدة بحيث لا يمكن استخدام أي تقنية تحليل معتادة لفهمها، فسيكون تحليلها مستحيلًا ما لم يتم إدخالها كمبيوترًا قويًا جدًا لفك شيفرتها“.

”تقنية تحليل“؟

أوشك آدم على شرح معنى العبارة إلى ليام لكن مادي قاطعته قائلة:

”ربما شرحت الأمر له لاحقاً“، والتقطت الورقة من يده ورفعتها أمام أنظار بوب وبيكس ليحفظاها جيداً وقالت: ”هل حفظتماها؟“

”نعم... قمتُ بتخزين صورة رقمية عنها“. قال بوب.

”نعم“. قالت بيكس.

”حسن. هذه هي الطريقة التي ستستعملونها للاتصال بنا“. وطوت

الورقة ودستها في جيبها لحمايتها من الضياع وقالت:

”عليكم أن تخبرونا بزمان فتح بوابة العودة ومكانها. سنقوم

بالبروتوكولات المعتادة ونخطط لعودتكم بعد يوم من رحيلكم، ثم بعد

أسبوع، ثم بعد خمسة عشر يوماً، وبالطبع ستكون هناك فرصتكم الأخيرة

في العودة عبر البوابة التي ستفتح بعد ستة أشهر من سفركم“.

”وما هو الشيء الخطر في بوابة الستة أشهر تلك؟“ سأل آدم.

”في تلك الحال ينفجر دماغا بوب وبيكس“.

”ماذا؟ هل تقصدين...؟“

”إنها معايير السلامة الخاصة بنا، علينا التأكد من عدم وقوع التقنية

الخاصة بنا في الأيدي الخاطئة“. تغصن وجه مادي ثم استطردت قائلة:

”داراتهما الكهربائية تتوقف في الحقيقة عن العمل، ولا تنفجر... يكون

الأمر أشبه باحتراق الدارات“.

”فهمت“.

تابعت مادي تعليماتها المعتادة:

”هذه هي أوقات البوابات كما تعرف يا ليام... ولكن... بما أننا لا

نملك خطة واضحة للمهمة فسيعود الأمر لك في إخبارنا بزمان البوابة

ومكانها الذي ستعود منه، هل يلائمك هذا؟“

”آي... أنت تقول بأن صور قبور الدير معك؟“ سأل ليام.

فأجابه آدم: ”نعم... ليست بحوزتي الآن... سأعود إلى شقتي لأحضر

نسخة منها عن حاسوبي“.

زمت شفتيها وقالت: ”ينبغي على إحدانا أن تذهب معك لإحضارها

إذا“.

”ماذا لو لم يجدوا شاهدة القبر تلك؟“ سأله سال.

”لا بدّ من أنها ستكون موجودة“. أجاب آدم.

حبست مادي أنفاسها في خديها وقالت:

”ممم، حسناً... اسمعوا... إذا لم تجدوها لأيّ سبب من الأسباب عودوا عبر البوابة الأولى. لا تخاطروا بأنفسكم، لا تذهبوا للقاء الملك جون إلا بعد أن تتأكدوا من قدرتكم على التواصل معنا“.

”اقتراح: يجب أن يكون هدف الرحلة الأول إيجاد شاهدة القبر المعنية وإرسال رسالة اختبار بوساطتها“. قال بوب.

”هذا صحيح حقاً... تفكير منطقي يا بوب“. أجابته مادي، ثم نظرت إلى رفاقها وقالت:

”أظنّ أننا تكلمنا عن كل شيء. ستخرجون الآن بحثاً عن شيء لا نعرفه ولا نعرف مكانه، بالإضافة للبحث عن مجرم مقنّع يسكن الغابات، مما يعني أنها مهمة غير واضحة وغير معروفة العواقب كما هو الحال دوماً، إنه عملنا المعتاد على ما أظن“.

أشارت لهم بالنهوض فخرجوا من المطبخ تبعاً، لكنها لحقت بليام ووضعت يدها على كتفه وقال: ”ليام“؟

”نعم“؟

نظرت إلى بعض الشعرات الرمادية على صدغيه وإلى التجعيده الأولى الرقيقة التي بدأت تظهر حول عينيه، ثم قالت:

”أنا مسرورة لأنني بحثتُ لكما بالحقيقة، فقد كان السر جاثماً على قلبي كالجبل“.

”كل الهموم تصبح أقل شدة عندما نبوح بها إلى الآخرين، هذا ما اعتادت خالتي دو أن تقوله دوماً“. قال ليام وهو ينحني باتجاهها ليطمئنهما.

”توخّي الحذر دوماً... مرة أخرى... اتفقنا“؟

ابتسم لها وقال:

”سأكون بخير دوماً برفقة بانث ووجودي“.

استدار ليمضي في طريقه لكنها أوقفته مرة أخرى وقالت هامسة:

”ليام... هذه الرحلة مهمة جداً... حدسي يخبرني بهذا... كما أنني أشعر بأن سفركم هذا سيفتح علينا العديد من الأبواب التي لم نحسب لها حساباً... فإذا عرفنا حقيقة باندورا فلربما عرفنا حقيقة الأشخاص الذين نعمل لحسابهم“.

”من المؤكد أنه السيد والدستاين... أليس كذلك؟“
”هذا ما أخبرنا به فوستر مرة من المرات، لكنني أتساءل حقاً عن الحقيقة“.

”لدي فكرة...“

”ما هي؟“

”ما رأيك أن تسألني صاحبنا العجوز فوستر عن حقيقة باندورا في أثناء غيابنا؟“

”كنتُ أفكر بفعل ذلك“. ثم صمتت قليلاً وقالت بعد تفكير: ”أظن أنني لا أخطئ بإخباره بعد أن أخبرتكم أنتم أولاً... أليس هذا صحيحاً؟“
”أنا أثق به“. قال وهو يطرق رأسه إلى الأسفل.

ابتسمت له، ورأت في تلك اللحظة بالذات العينين المدوّرتين وغمّازة الخد الخجولة التي تعرفها في وجه فوستر، فقالت: ”نعم... وأنا أيضاً“.
تردّد صدى صوت ارتطام بوب بالماء فعرفا بأنه قفز إلى أنبوب آلة الزمن.

(

الفصل السادس والعشرين

يورك شاير، دير كيركليس، ١١٩٤

وجد الرواد المقبرة خلف الدير بالفعل، ولم تكن أكثر من مساحة خالية مهجورة لا تحتوي سوى على نصف دزينة من القبور ونصف دزينة أخرى من الصليبان الخشبية التي تتزاحم عليها مجموعة من الغربان السوداء الجائعة وهي تبحث بعيونها عن أي إشارة لوجبتها التالية على الأرض المغطاة بالصقيع.

لاحظ الرفاق وجود قبر حديث غير مغطى بالحجارة وما زالت تربته طرية ولا يميزه عن بقية محتويات المقبرة سوى صليب خشبي بسيط، مما يعني بأن الشخص المدفون تحته لا يستحق بلاطة حجرية ماسونية مزخرفة كالآخرين.

انحنى كل منهم بجانب أحد القبور ليتمكنوا من قراءة الأسماء، ووجد ليام أخيراً قبر هاسكيت بجانب شجيرة بلوط صغيرة شقت طريقها حديثاً من التربة بحثاً عن ضوء الشمس وتمايلت بنعومة مع نسيم الصباح البارد. غطي القبر بحجر غرانيتي باهت طوله ثلاثة أقدام حُفر عليه الاسم وتاريخ الوفاة بخشونة واضحة تشي بأن من حفرها ليس فنناً محترفاً بل هو واحد من رهبان الدير.

مكتبة الرمحى أحمد

”اقتراح: يجب علينا ألا نحفر أكثر من رمز الحرف L لنخبرهم بأننا وجدنا القبر“. قال بوب فوافقه ليام لأنه على حق، من الأفضل لهم أن لا يحفروا أكثر من حرف واحد، فقال:

”آه.. هل فكر أحدكما بإحضار إزميل لإنجاز المهمة؟“

”لا“.

غضب ليام وراح يطلق الشتائم، ثم بحث حوله عن أي شيء قد يساعدهم، لكنه لم يجد سوى الأعشاب اليابسة ونباتات القراص فوق التربة المتجمدة من شدة البرد وبعض كسرات من الصوان والجرانيت المرمية هنا وهناك.

صوان... قد يفني هذا بالغرض.

بدأ ليام بالحفر في محاولة منه لانتزاع حجر صواني كبير بما فيه الكفاية ليستعمله كأداة مرتجلة لإنجاز مهمته عندما اقتربت بيكس منه ونقرت على رأسه بأصابع يدها وقالت: ”هذا غير ضروري يا ليام أوكونر“.

”ماذا؟“ فرفع رأسه ورأى بوب ينتزع مسماراً من الصليب الخشبي المثبت فوق القبر الجديد، وصدر عنه صوت صرير جنائزي حزين ثم وقعت العارضة الخشبية على الربوة الترايبية الصغيرة فأخافت الغربان القريبة منهم فطارت بعيداً نحو السماء الرمادية الفسيحة متذمرين من إزعاج الرواد لهم وهي تصيح بنعيقها البشع.

قال ليام وهو يصلب يده على جسمه لا شعورياً:

”لا يمكنك أن تفعل ذلك بهذه البساطة...“

لكن بوب لم يكثرث وتقدم نحو الشاهدة المطلوبة وقال:

”لم لا؟“

”لأنه... لأنه لا يجوز؟؟ هذا تدنيس... إنه انتهاك لحرمة الصليب“.

لكن كلماته ضاعت في الهواء لأن بوب كان قد انحنى في هذا الوقت فوق البلاطة الحجرية وبدأ بالفعل بحفر رمز الحرف L المتفق عليه من شيفرة بيغ بن على السطح الغرائتي. فنظر ليام إلى السماء وقال: ”سامحنا

يا الله على ما نقوم به... إذا كنت ترانا...”

”كنت آمل بأن نطلق في وقت أبكر من هذا، إذا ما زلتم تريدون مني اصطحابكم لمقابلة جون“؟ صاح كابوت بتوتر وهو يربط حصانين إلى العربة.

”نعم، لم نغيّر رأينا“. أجابه ليام.
”أين كنتم“؟

”خرجنا لاستنشاق بعض من هواء الصباح المنعش“. قال ليام وهم يتجهون إلى الاسطبلات من خارج حقول الخضار، وأوماً إلى بيكس وقال:

”شعرت السيدة ببعض الغثيان“.

سألها كابوت:

”هل أنت أفضل حالاً الآن يا عزيزتي“؟

نظرت بيكس بسرعة إلى ليام ليرشدها إلى الجواب فقال نيابة عنها:

”إنها بخير الآن... أليس كذلك يا ليدي ريبيكا“؟

فما كان منها إلا أن أومأت برأسها بصمت واقتربت من العربة وكابوت متبينة طريقة مشي أنثوية مختلفة تماماً عن المشية الرجولية المترنحة المعتادة.

”هل أنت من طبقة النبلاء يا سيدة“؟ قال كابوت وهو ينظر إلى ثوبها البني وحذائها الخشبي الريفي، ثم عاد ليسألها بنبرة غير المصدق لادعاءاتهم:
”أجيبيني يا سيدة... من أي دوقية تنحدرين“؟

نظر ليام إليها راجياً أن تتمكن بيكس من إقناع الراهب بكلامها.
رمقته بيكس بعينيها الرماديتين ببرود لبعض الوقت متحدية نظرة الشك الواضحة في عينيه وطال الصمت أكثر مما ينبغي فكاد ليام أن يندم على تقديمها لكابوت على أنها من الطبقة الأرستقراطية. وعندها أجابت بيكس باللغة الفرنسية الرفيعة:

”أنا دوقة ألفينيون التي تقع في منطقة النورماندي“.

تغيرت ملامح كابوت سريعاً واتسعت عيناه القاسيتان وقال:

“عفوك يا سيدتي، سامحيني على وقاحتي، لكنني لم...”

ابتسمت بيكس وأجابته بلطف بالانكليزية:

“لا بأس أيها الرجل العجوز”.

“إن مهمتنا لاستعادة هذا ال... الغرض... تتطلب السرية التامة”.

يا لكائك يا بيكس... أنت عبقرية بالفعل...

ابتسم لها ليام وودّ لو كان باستطاعته احتضانها لشدة فرحه من أجوبتها

لكن هذا ليس ممكناً بالطبع الآن بعد ما قالته عن أصلها.

أشار كابوت للعربة بالاقتراب، ولم تكن تلك العربة أكثر من عربة

خشبية بسيطة على دولابين مغطاة بستارة قماشية عادية ويجرها حصانان

صغيران نحيلان، وقد حاولا بكل عزمهما الانطلاق بها بسرعة على

الأرض المتجمدة بفعل الصقيع.

“إنها لا تليق بمقامك يا سيدتي لكنها العربة الوحيدة التي نملكها هنا

في الدير”.

أومأت برأسها بهدوء شديد وقالت:

“إنها ملائمة”.

“من الأفضل لك يا سيدتي أن تسافري بعربة بائع متواضعة كي لا تلفتي

انتباه قطاع الطرق”.

“بالطبع”.

ابتسم ليام وتدخل في الحديث:

“يبدو أنّ سيدتي راضية”.

نظر كابوت إلى السماء الملبدة بالغيوم المثقلة بالثلوج وقال:

“لا بدّ لنا من المغادرة بسرعة لأننا نحتاج إلى ثلاثة أيام للوصول إلى مقر

إقامة الأمير جون الشتوي، لكننا سنحتاج إلى أكثر من ذلك إذا هطلت علينا

الثلوج”. ورفع القماش الذي يغطي مؤخرة العربة ومدّ يده إليها ليساعدها

على الصعود وقال: “تفضلي يا سيدتي”. لكنها تجاهلته وقفزت إلى العربة

باندفاعها المعهود المثير للإعجاب كما لو كانت جندياً يقفز إلى شاحنة الجنود، فرمّ ليّام شفتيه وقال:

”السيدة ريببكا امرأة مستقلة ولا تحب الاعتماد على الآخرين في القيام بأي عمل“.

فأجابه كابوت: ”آي... لقد لاحظت هذا“.

صعد بوب خلفها فتمايلت العربة وانغرزت في الطين تحت ثقله.

”من الأفضل لنا أن ننطلق حالاً، وآمل أن نتجاوز الغابات مساءً قبل حلول الظلام“. قال كابوت إلى ليّام.

الفصل السابع والعشرون

نيويورك، ٢٠٠١

”لن أهرب منكم لأسارع إلى أقرب محطة إخبارية لأنقل لهم ما عرفته عنكم“.

تبعته مادي آدم ودخلت وراءه عبر الباب الدوّار إلى بهو بناء راق وهادئ حيث رأت أمامهما حارس المبنى جالساً خلف مكتبه وهو يقرأ جريدة، فرفع أنظاره إليهما وابتسم لآدم بحفاوة وقال:

”مساؤك سعيد يا سيد لويس، الطقس جميل هذا المساء“. فأجابه آدم ببهجة:

”أليس كذلك، لكنه لا يلائم هذا الوقت من العام“.

بدا جيرى لها كشخص عمل سابقاً في قسم الجنايات لدى الشرطة وتم الاستغناء عنه فيما بعد. استند إلى ظهر كرسيه فناء الكرسي بثقله وصدر عنه صرير عال فضحك وقال:

”هذا هو ما أحبه فيكم أيها البريطانيون... لديكم دائماً ما تقولونه لانتقاد الطقس مهما كان حاله“.

لوح له آدم بمودة واجتاز مكتبه باتجاه المصاعد الكهربائية التي تقع في الجانب الآخر من الرواق. طلب آدم المصعد ووقف ينتظران وصوله

ويراقبان بصمت أرقام الطوابق وهي تتناقص ببطء وتناهي إلى سمعهما صوت حركة السير المعتادة في مثل هذا الوقت المبكر من المساء في الخارج وصوت الجريدة في يد جيري.

فُتح باب المصعد مع رنين جرس فدخلوا وضغط آدم على رقم الطابق المطلوب فأغلق الباب من جديد.

”لا يمكنني المجازفة“. أجابته مادي أخيراً على كلامه السابق.

”أما زلت لا تثقين بي؟“

”لا... سيكون ذلك حماقة مني... بما أننا لم نلتق سوى صباح اليوم“.

ضحك آدم وقال:

”في الواقع... التقينا لأول مرة قبل سبع سنوات“.

ابتسمت له بالمقابل وقالت:

”أظن ذلك“. ثم ألقت نظرة على المكان من حولها ولاحظت الخشب

الشمين والنحاس اللامع اللذين يزخران قلب المصعد فسألته:

”أعتقد أنّ تكلفة السكن في مثل هذا المبنى باهظة الثمن“.

”جداً“.

قُرِع جرس ناعم معلناً عن وصولهم إلى الطابق الرابع عشر وفتح الباب

على ممر يكسيه نفس الخشب الشمين ومفروش بسجاد سميك فقال آدم:

”إذا كنت تعتقدين بأن هذه المظاهر باهظة الثمن فانتظري حتى

تشاهدي مكّتي“.

”مكّتك“.

سبقها آدم عبر الرواق وتوقف أمام آخر باب وأخرج حزمة مفاتيح من

جيب سترته الداخلي وفتح الباب ثم أشار إليها مرحباً بالدخول قائلاً:

”من بعدك سيدتي“.

”آه، أنت سيّد مهذب“. قالت مادي وهي تدخل مبتسمة لكنها حبست

أنفاسها لدى رؤيتها للمنظر الذي باغتها في الداخل... كانت الجدران

الزجاجية الممتدة من الأرضية إلى السقف تطل على ناطحات سحاب

مانهاتن المظلمة بألوان الغروب البديعة. عبرت صالوناً فسيحاً إلى أن وصلت إلى الحائط الزجاجي وكاد أنفها أن يصطدم به فقالت: "يا إلهي... هذا رائع جداً".

"أنا أدفع مبلغاً كبيراً لقاء هذا المشهد". أجابها آدم ولحق بها ورمى سترته على كرسي بجانب بار معدني من الكروم وضغط بسرعة على آلة الرد على الهاتف.

استدارت مادي لتراقب ما يقوم به. وقد وجد آدم رسائل عدة بانتظاره في العمل ورسائل عدّة أخرى من فتيات عديدات تسألن عن مخططاته لهذه الليلة فاطفأها وقال لمادي بابتسامة خجولة:

"أعتذر عن هذا..."

ابتسمت له ببهجة وقالت:

"لا تقلق... يبدو أنك محبوب جداً يا آدم".

"والآن... لا بدّ لي من البحث عن ذاكرة الكمبيوتر القديمة". ومضى باتجاه مكتب مجاور للنوافذ الهائلة تلك ومرّ بجانب دراجة ثابتة خاصة بالتمارين الرياضية وقال:

"أنا أحتفظ بمعظم أشياء الجامعة القديمة في مكان ما هنا". ورفع الغطاء وأخرج صندوقاً قديماً وابتسم قائلاً:

"لا يمكن للمرء أبداً أن يرمي آثار أحلام سنوات صباه وشبابه، لا يمكنك التخلي عنها... ألا توافقيني؟ وخصوصاً بعد أن يكون قد أولاها كل ذلك الاهتمام والوقت".

بحث آدم داخله وأخرج منه أغراضاً متنوعة، ولأول مرة منذ اللحظة التي رآته فيها صباحاً شعرت مادي بأنها تعرّفت إليه، تعرّفت إلى الشاب النحيل ذي الشعر المحزن الذي زارته مع بيكس في عام ١٩٩٤، وبدا لها الآن أشبه بنفسه القديمة... بوحدته وهوسه بمجالات العلم الغريبة كالأحاجي والأرقام والشفيرات والمؤامرات.

أمعنت النظر في شقته وأدركت أنها انعكاس لشخصيته، لمحاولة إعادة

اختراع نفسه... إنه لا يريد أن يراه العالم الآن كما كان يبدو في الجامعة، بكتفيه النحيلين وبشرة وجهه المتعبة ورائحة أنفاسه الكريهة... إنه يريد أن يقدم للآخرين آدم الناجح والذكي والواثق بنفسه.

”لا بدّ من أنه هنا في مكان ما... لقد وضعتُ كل ما يخص مخطوطة فوينتش هنا وكل شهاداتي التي حصلتُ عليها في مجال اللّغات الميتة... لم أرم أي شيء منها... لأنني عرفت دوماً بأنني سأحتاج إليها يوماً ما“. ونظر إليها.

عبرت مادي الصالة الفسيحة وتسلمت الدراجة الثابتة وجلست عليها ونظرت داخل صندوقه وسألته:

”وارهامر... هل تقتني ألعاب وارهامر؟“ وضحكت.

رفع كتفيه وأجاب:

”بالطبع... لكنني لا أفصح عن هذا لأحد... فجميع الناس الذين أعمل معهم أو أستقبلهم هنا في بيتي لا يفهمون هذه الأمور... أنت تفهميني أليس كذلك؟“

”بالطبع لا... لأنني أعتقد بأنّ معظم صديقاتك لن يكرثن لهذا الأمر“. سحب آدم كيساً بلاستيكياً مليئاً بمجموعة متشابكة من الأسلاك والوصلات الكهربائية. فقالت مادي:

”كان إخوتي الصبيان يمتلكون منها وكنتُ ألعب بها عندما كنت صغيرة، وقد وضعت قوانين الحرب الخاصة بي لأن قوانين اللعبة كانت متشدّدة جداً بالنسبة إليّ“.

”هذا صحيح“. أجاب آدم وهو يسحب مزيداً من الأسلاك بحذر شديد.

استمرّت مادي بمراقبته بصمت فشعرت بأنه يذكّرُها بشدة بقريبها جوليان الذي كانت تعتبره مثالها الأعلى... فهو ذكي ولطيف ودائماً ما كان يحتل المراكز العليا في المدرسة وكان مميزاً عن كل الناس الآخرين الذين عرفتهم، متسلحاً بثقة قوية بالنفس تحيط به كدرع واقٍ يمنعه من

انحنى آدم بملابسه الأنيقة الغالية فوق صندوقه كصبي صغير فوق صندوق ألعابه فآلمها قلبها بشدة لأنها تخيلت قريبها جوليان بدلاً عنه، لقد كانت في التاسعة من عمرها عندما وقعت تلك الكارثة، عندما توقف العالم عن الدوران لبضع ساعات وجلس الناس أجمعين لمراقبة ما يجري على شاشات التلفاز وكأنه فيلم سينمائي، مات يومها ثلاثة آلاف شخص. كانت في التاسعة فقط... ولم يخطر في بالها في ذلك الوقت بأنها لن ترى جوليان مجدداً بعد انهيار برج التجارة العالمية الثاني.

”آه... أعتقد بأني وجدته“. قال آدم وسحب سواقة كمبيوتر كبيرة تقارب حجم علبة حذاء وقال ضاحكاً وهو يقف من جديد: ”عشرين جيجابايت.. انظري إلى حجم هذا الشيء الملعون...“ وتوقف عن الكلام عندما وقع نظره على مادي وسألها: ”ما الأمر؟“

لم تدرك مادي بأنها تبكي وأن دموعها تسيل من تحت نظارتها على خديها وتنهمر على بلوزتها، فعضت شفتها غضباً من نفسها لأنها سمحت له أن يراها على هذه الحال.

اقترب منها آدم وأحاط كتفيها المرتجفين بذراعيه وقال:
”ما الأمر؟“

هزت رأسها وفكرت... ماذا أقول له؟ هل أقول بأنك تذكرني بالشخص الذي كنت أعبدته في طفولتي؟ بالشخص الذي سيموت غداً صباحاً؟ شعرت مادي بأنها تنهار... لماذا لم ينقذه فوستر بدلاً عنها؟ كان بإمكان جوليان أن يصبح رائد زمن أفضل منها بكثير، أن يكون قائداً قديراً لمجموعتها... وأدركت في هذه اللحظة بأنها لو كانت تملك الخيار في الخروج من غرفة عملياتها لتعود إلى بيت أهلها في بوسطن... الخيار في أن تترك وتنسى كل ما له علاقة بالسفر عبر الزمن والمنظمة التي تجند شبانا صغاراً وترمي بهم في مجاهل الزمن من دون أي مساعدة من أي نوع، وأن تتوقف عن القلق حول أحداث التاريخ... إذا ما امتلكت حق تقرير مصيرها

وترك كل هذا ورائها... فستتركه بالفعل من دون أي تفكير.
انتحبت مادي بين ذراعي آدم وانسابت دموعها فوق قميصه الأزرق
الباهظ.

همس آدم لها بنعومة: "لا بأس... كل شيء على ما يرام... إنه يوم
صعب وحسب..." وربّت على كتفيها المتهدجين من شدة البكاء.
"لقد أيقظت في داخلي..."، تمتمت وهي تتنشق مخاطها ورأسها ما
زال على كتفه، ثم ابتعدت عنه وبحثت بعينيها المنتفختين عن أي شيء
يمكنها تركيز النظر عليه بدلاً من عيني آدم.
شارفت الشمس في الخارج على المغيب وبدأت أنوار مانها تن
بالاشتعال واللمعان.

"أنا حقاً لا أعرف السبب... الذي دفعني... للبكاء..."، قالت بتردد
من يريد تبرير أفعاله.

"لا بأس... أنت غير مضطرة بتاتاً لتقديم أي شرح لي". قال آدم.
عدّلت نظارتها على وجهها وقالت: "لا... لا بدّ من أن أشرح لك.
العمل... والتوتر الذي يسببه... نعم ذاك هو الأمر... التوتر..."،
وتنهدت مادي عندما أدركت فجأة بأنها إذا لم تتوخّ الحذر وتحكم
بأعصابها فستعود للبكاء من جديد، فأخذت نفساً عميقاً وقالت: "أنا
أعتقد حياتي القديمة. وأشعر بأننا انضمنا للمنظمة منذ سنوات... على
الرغم من أنني أعرف بأنني لم أنضم إليها إلا منذ بضعة أشهر". وضحكت
بغربة ثم قالت: "أعتقد أننا نبدو لك كمجموعة فاشلين أكثر من رواد من
المستقبل".

"لا..."، وأثار كلامها استغرابه فعاد للقول: "أعتقد أنّ الزوار الغرباء
الذين قدموا من المستقبل هم بشر مثلنا تماماً أليس كذلك؟ إنهم يقلّمون
أظافرهم ويمضغون العلكة وينزلقون على قشور الموز... مثلنا تماماً".
أومات برأسها موافقة وأغمضت عينيها برفق وقالت: "آه... لقد تعبنا
جداً وقمنا بكثير حتى الآن".

مدّ آدم لها يده فأمسكت بها وعندما حاولت إفلاتها تمسّك بها آدم بنعومة وقال: "لقد تبيّن لي أخيراً أن تاريخ البشرية في عهدة أشخاص عاديين... أشخاص مثلك". وابتسم لها بحنان وقال: "أتعرفين... أعتقد أنني أفضل هذا على الاعتقاد بأن مصير البشرية في يد أبطال خياليين يعتقدون بأنهم يعرفون كل شيء".

الفصل الثامن والعشرون

غابات نوتنجهام شاير، ١١٩٤

فرقت النار المتأججة بسبب اشتعال أكواز الصنوبر والعيدان اليابسة والأغصان الجافة التي جمعوها قبل حلول المساء، وقد أبطأ تساقط الثلوج الناعمة مسيرة العربدة مما اضطر كابوت للتنازل والاعتراف بأنهم مضطرون للتوقف والتخيم في الغابة المقفرة بدلاً من البحث عن مكان ملائم لقضاء الليلة في قرية ما كما فعلوا البارحة، وقد بدا كابوت وهو يصدر الأوامر أشبه بجندي قاس من الراهب الوري الذي كان عليه في الدير.

تمنى كابوت لو أنهم قاموا برحلتهم هذه في شهر أكثر دفئاً لأنه من الأفضل لهم أن لا يشعلوا ناراً كي لا يخاطروا بلفت انتباه قطاع الطرق كما تتجمع الفراشات حول مصدر الضوء.

بصق كابوت على ألسنة النار بعد أن انتهى من تناول قطعة من الخبز البائت وقال: "سنصل إلى أوكسفوردشاير غداً وإلى مقر الإقامة الملكي في بيومونت قبل العصر".

"هل أنت واثق من أننا ستمكّن من مقابلة جون؟"

"آي.. أنا واثق من هذا. ذلك الأحمق المسكين يفقد سيطرته على البلاد، وقد قام بكثير من الخطوات السيئة التي ستشعل أخاه غضباً، بما فيه

تعليماته الغيبية التي أعطاها لفرسان المعبد بإرسال الكأس المقدسة شمالاً إلى اسكوتلندا بدلاً من المحافظة عليها في مخبئها في بيومونت.“
”لماذا أمرهم بذلك؟“

”لا أعرف. ربما خطط لإخفائها هناك، ليقايض أخاه على شيء ما فيما بعد؟ إلا أن...“ وتجمدت أنظاره على ليام وقال: ”إذا لم تكونوا من فرسان المعبد كما اعتقدت من قبل، فكيف تعرفون كل تلك المعلومات عن الكأس؟“

ابتسم ليام وأجاب:
”لن تصدقني إذا أخبرتك“،
فتح كابوت ذراعيه وقال:
”جرّ بني، سأسمعك حتى النهاية.“

نظر ليام إلى بيكس وبوب اللذين كانا يقفان صامتين على بعد عشرة ياردات منه في أبعد نقطة تصلها نار المخيم ليحرساه. وتساءل عن كمية المعلومات التي يمكنه أن ييوح بها إلى الراهب، وعن المدى الذي سيذهب إليه في مساعدتهم لو عرف الحقيقة. وبالطبع عن مدى التغيير الذي سيطرأ على سيرورة الزمن بسبب ذلك.
”لقد... لقد أتينا من المستقبل.“

حافظ وجه كابوت على جموده ولم يظهر عليه التأثير بما سمعه وسأله:
”المستقبل؟“

”أتينا من زمن بعيد في المستقبل... وهناك مخطوطة قديمة ذكرت باندورا بين صفحاتها وقدمنا إلى هنا لنعرف أكثر عن هذا الموضوع.“
”المستقبل؟ هل تعني الشيء الذي أعتقد أنك تشير إليه؟“
”نعم... المستقبل، وأعني بهذه الكلمة السنوات والأيام التي لم تقع بعد... لكنها ستأتي تباعاً.“

بدا الشك جلياً في عيني كابوت وسأله:
”وكيف قمتم بهذا؟ إذ لا يمكن لحياة الإنسان أن تسير سوى باتجاه

واحد... الشمس تشرف ثم تغيب... ولا يمكنها التحرك بالاتجاه المعاكس“.

”إنه إنجاز علمي... ولا أعرف الطريقة التي تعمل بها هذه الآلة، لكنها قادرة على ذلك بالفعل“.

”إنجاز علمي؟ وماذا تعني بهذه الكلمة“؟

صُعق ليام من سؤال كابوت وأجاب:

”العلم هو التعرف إلى الطريقة التي تجري بها الأشياء على ما أعتقد... وهو يحتل مكانة كبرى في الزمن الذي أتيت منه، وقد منحنا العلم أنواعاً كثيرة من الآلات وفسّر لنا الكثير من الحوادث“.

وضع كابوت يده لا شعورياً على ندبة وجهه وقال:

”لقد أخبرني بعض المسلمين الذين التقيت بهم بشيء يشبه هذا... عن أرقام وأمور مشابهة... عن أشياء لا يمكن إمساكها ولا وزنها، لا يمكن شراؤها ولا بيعها، إنها أفكار... أفكار تعتبرها كنيسة هراطقة وتعاقب عليها بالموت“. لكنه ابتسم فجأة قليلاً وقال: ”هل تصدّق... يعتقد معظم المسلمين المتعلّمين بأننا نعيش على كرة ضخمة“.

أوما ليام.

”آي... هل تصدّق مثل هذه الحماقات؟ كرة! وملاً صوت فقههته العالية أرجاء المكان.

”لكنهم على حق. العالم كروي حقاً“. اختنقت ضحكة كابوت واختفت الابتسامة عن وجهه فجأة وقال:

”يمكن للمرء أن يحرق إذا ما تفوّه بمثل هذه الأقوال أمام الأشخاص الخطأ“.

”لكنهم على حق يا سيد كابوت. العالم كروي وهناك كرات أخرى اسمها كواكب، هناك الملايين منها في الفضاء وهي تدور حول شمس أخرى في ما يسمى بالمنظومات الشمسية“.

”عالمنا... يدور... حول... الشمس...“؟

”نعم“.

”وهل تقول بأن هناك شمساً أخرى؟“

رفع كابوت نظره إلى السماء ولم يتمكن من رؤية أي نجم فيها وبدأ أنه يفكر بردة الفعل الملائمة على هذا الكلام... هل هو الضحك أم التجهم من شدة احتقاره للكفر الذي تقوّه به هذا الأبله. ثم نظر أخيراً بحذر إلى ليام وهزّ رأسه وقال:

”أنت شاب غريب يا ليام أوكونر... لديك طريقة غريبة في سلوكك وكلامك... وقد أخبرتني حكاية خيالية لطيفة... مع أنّ حدسي يحذّرني منك... لكنك تعجبني. وأحذرك بشدة من التفوّه بالمزيد من قصص المستقبل هذه والعالم الكروي والشموس العديدة... احتفظ بها لنفسك“.

تجهم وجه ليام... ربما كان كابوت على حق، فقد قرأ ما يكفي من تاريخ العصور الوسطى ليدرك أن أوروبا في ذلك الوقت كانت بعيدة قرنين من الزمان عن معرفة مثل هذه الحقائق والقبول بها. إنهم ما زالوا يعتقدون بأن العالم رقعة مسطحة تنتقل الشمس فوقها من جانب إلى آخر لأنها مشيئة الله بكل بساطة، وأن عالمهم الصغير هذا هو الكون كله، هو العالم الأوحّد، ولا يعرفون بوجود العوالم الأخرى والشموس الأخرى. فكر ليام بأن محاولته هذه لشرح إمكان السفر عبر الزمن له لن تزيد الأمور سوى تعقيداً على الرغم من معرفته بأنه يستطيع محو هذا الحدث من الوجود وإعادة الأمور لما كانت عليه بينه وبين كابوت... إنه أمر صعب الفهم حتى على ليام الذي يعرف بأن التاريخ الذي سيحدث في المستقبل موجود أصلاً وتغييره أمر ممكن.

رمى ليام عوداً يابساً إلى النار وقال:

”بكل الأحوال... هذا ليس أمراً مهماً... لقد قدمنا لتعرّف أكثر إلى حقيقة باندورا والكأس، وعرفنا بأنها سُرقت، ولذلك فمهمتنا الآن قد تغيّرت وبات علينا استعادتها من سارقها أولاً“.

حدّق كابوت في ألسنة النار وقال: "آي... ستكون العواقب وخيمة إذا لم نسترجع الكأس قبل..."

"اسمعوا..!" صاح بوب ولوّح بذراعه ليسكتهما.

صمت كابوت وأنصتوا جميعاً لدقيقة طويلة مفعمة بالقلق إلى هسيس الريح وحفيف الأغصان الناعم ونعيب بومة بعيدة إلى أن سمع ليام شيئاً ما، سمع صوت شيء قريب وخافت، وخيل إليه أنه صوت احتكاك أشياء معدنية ببعضها، وهمس له كابوت:

"هل سمعت؟ لسنا وحدنا هنا."

ثم سمع الجميع نغمة خفيفة صادرة عن حبل كيس قماشي وتبعها صفير سهم انطلق مسرعاً، وسمع ليام بوضوح صوت ارتطامه ورأى بوب يتراجع خطوتين إلى الوراء. تلاًّلاً النصل المعدني الذي اخترق صدر بوب وبرز من بين كتفيه من الوراء بسبب نار المخيم، ثم استدار بوب إلى ليام فبدا له السهم الخشبي الأبيض الباهت المغروز في منتصف صدره.

دوى صوته الأجش في الغابة وهو يصيح:

"نحن في خطر."

انهمرت عليهم عدة سهام أخرى من عدة جهات وأصاب واحد منها جانب بوب الأيمن وكاد أحدها أن يلامس رأس ليام إلى درجة أنه شعر بحركة الهواء بقرب أذنه.

صاح كابوت وهو ينهض واقفاً ويسارع إلى مؤخرة العربة:
"لصوص"

برز المهاجمون العشرة المقنعون من الظلام بأقواسهم وسهامهم وسيوفهم التي لمعت وتلألأت على ضوء اللهب. أدرك ليام بعد أن رآهم بأنهم لا يريدون نهب مقتنياتهم الثمينة، بل أنهم يريدون قتلهم أولاً ثم الاستيلاء على العربة طمعاً بما يمكن أن يجذوه فيها.

تحرك بوب وبيكس في نفس اللحظة تقريباً لأن الثواني القليلة التي يحتاج إليها الذكاء الصناعي لحساب كل المخاطر والفرص المتاحة للنجاة

هي واحدة لدى كل وحدات الدعم. قفز بوب باتجاه أقرب رجل رآه وانحنى في اللحظة الأخيرة ليتفادى ضربة سيفه السريعة، ثم قفز مجدداً وكسر رقبته بيده الضخمة المضادة للرصاص. وعندما وقع الرجل على الأرض وتهدد ولفظ الدم من فمه وأنفه تناول بوب سيفه وقلبه في يده وقتل الرجل بضربة واحدة بسرعة البرق من سيفه نفسه.

في تلك الأثناء، كانت بيكس قد تخلصت من رجل آخر وجردته من قوسه واستعملت القوس لتجذبه إليها من قدميه فوق أرضاً، فهاجمته وسارعت لخنقه بركبتها على صدره وأمسكت برأسه ولوت عنقه بسرعة إلى أن سمعت صوت كسر العظام.

هاجم رجل آخر بوب وانهال عليه بسيفه فصدده بوب بالسيف أيضاً واشتبك السيفان فسحبه بوب بحدة فطار سيف الرجل من يده في الهواء وصدر عنه صوت رنين موسيقي إلى أن حطّ فوق أغصان شجرة عالية. وفجأة، صاح أحدهم، وهو رجل وردي الوجه له شعر رمادي متسخ: "أنا أستسلم".

رفع ذراعيه عالياً في الهواء مستسلماً لكن بوب لم يفهم حركته ولوّح بسيفه نحو الذراعين الممدودتين في الهواء فأطاح بهما وسقطتا على الأرض المغطاة بالثلج... صرخ الرجل ألماً واستدار هارباً وابتلعه الظلام ولم يترك وراءه سوى آثار الدماء على الأرض.

سمع ليام صوت فتح جعبة سهام جديدة ورأى بيكس تنتشل بعضاً من السهام من إحدى الجثث المرمية أمامها وترميها إلى الاتجاه المقابل منهم فخرج من الظلام رجل كان يحاول الالتفاف ومهاجمة ليام وكابوت من الخلف وقد أصابته سهام بيكس في الجبهة وفي الجذع مترنحاً وانهار فوق النار فتصاعد منها الشرر نحو السماء.

رأى اللصوص الباقون ما يكفي ففروا هاربين كالأرانب البرية المرعوبة واختفت أصوات خطواتهم المسرعة وقعقة جعب سهامهم بسرعة وابتلعهم عتمة الليل. وانحسرت آهات الرجل العجوز الذي فقد يديه

بسرعة وكأنَّ شخصاً ما يسحبه وسط نواحه وعويله ولم يبقَ من كل تلك الأصوات العالية سوى الصدى المبهم المختلط بصراخ اللصوص الباقين الذين يحاول بعضهم إيجاد بعضهم الآخر في عتمة الغابة.

في هذه اللحظات القصيرة الحافلة بالأحداث المتسارعة والتي حصلت جميعها في خلال الوقت الذي احتاج إليه كابوت للوصول إلى العربة لإحضار سيفه والتأهب للقتال باعتبار أنه محارب خبير، واتخاذ وضعية الهجوم التي لا يمكن له أن ينساها مهما طال الزمن، كان أربعة من اللصوص قد قُتلوا على يد بيكس وبوب.

”يا إله السموات! شهق كابوت.

اقترب بوب من ليام وسأله:

”هل أنت بخير يا ليام أوكونر؟“

”أنا بخير يا بوب. يجب عليك الاهتمام بهذه الإصابات... وأشار إلى السهام البارزة من صدره وجانبه.

”حاضر.“

انضمت بيكس إليهما وقالت:

”سأساعدك يا بوب“. ومدّت يدها إلى رأس السهم الحاد البارز من بين كتفيه وانتزعت به حركة خاطفة من ذراعها ثم دارت لتواجه بوب وسحبت السهم من صدره فصدر عنه صوت امتصاص غريب.

جحظت عينا كابوت وهو يراقب ما تقوم به بيكس وراقبها بأنفاس مقطوعة وهي تسحب السهم من جسد بوب من دون أن يرفَّ له جفن.

”الدم يسيل من الجرحين، لكنني أرى بأن قدرتك القتالية تبلغ ٩٥ بالمئة من طاقتك الكاملة على الرغم من الجراح“. قالت بيكس.

”أوافقك“. ردَّ بوب.

”من أنتم بحق القديسين؟... ما أنتم؟“ همس كابوت.

رماه بوب بنظرة سريعة وأجابه بجملة غير مقنعة:

”نحن بشر أقوياء للغاية يا سيد.“

”وأنتِ؟... لم أشاهد في حياتي سيّدة تقاتل مثلكِ!“ سأل كابوت بيكس.
”أنا قوية مثله أيضاً“.

ضحك ليام قليلاً على الرغم من أنه ما زال يرتجف بسبب مستويات الأدرينالين المرتفعة في دمه بعد الهجوم الذي تعرّضوا له وقال:
”لا بأس... لقد أخبرته بأننا قادمون من المستقبل ولهذا يمكنكم التوقف عن التحدّث بالإنكليزية القديمة“.

عبست بيكس وقالت:
”سيسبّب هذا تلوثاً زمنياً لا داعي له“.
هزّ ليام رأسه وقال:

”صحيح... لكنّ الرجل لا يصدق أي كلمة مما قلت له“.
كان كابوت ما زال يرفع سيفه في وضعية الهجوم فأرخی ذراعيه وأنزل
السيف إلى أن لامس الأرض واتكأ على مقبضه وتأملهم بصمت وقال:
”حسناً يا ليام أوكونر... أعتقد أنني أصدقك الآن“.

الفصل التاسع والعشرون

نيويورك، ٢٠٠١

”يا إلهي... نعم... نعم! لقد تغيّرت بالفعل!“

حدّقت سال بالصورة المشوّشة الماثلة أمامها على شاشة الكمبيوتر، التي تحتوي على البلاطة الحجرية المتأكّلة والبالية بفعل مرور الزمن والمغطّاة ببقع الطحالب الخضراء والتي تحمل اسم هاسكيت، والتي أصيبت بثلم حيث يبدو أنه أحدهم قد رماها بحجر أو أصابها بطلق ناري في خلال الثمانية قرون الماضية من عمرها.

رأت الفتاة في أسفل الصورة، وبجانب نبات العليق المتسلق على الحجر نقشاً صغيراً، وكان من الممكن أن لا يظهر في الصورة من البداية لو أن الإضاءة لحظة التقاطها كانت أقل... كان من الممكن ألا يروها أبداً.

”إنها الإشارة من دون شك... هل ترونها؟“ قال آدم.

وافقته سال ولم تقل مادي أيّ شيء.

تتبّعت سال الخط على الشاشة وقالت:

”سيكون هذا رمز الحرف L في الشيفرة، أليس كذلك؟“

”نعم... نعم... إنه هو“. وفغر فاهه دهشة ممّا رآه على الرغم من أنها

ليست المرة الأولى التي تصيبه أمورهم بالدهشة. ثم قال: "لا أصدق ما أرى... لقد زرتُ آثار دير كبير كليس منذ ستة أعوام والتقطت صور كل شواهد القبور فيها وخزنتها على ذاكر كمبيوتر الرقمية القديمة في صندوقي... يا إلهي... أنا لم أستعمل هذه السواقة لمدة سنتين وكل ما كان يتغير فيها هو كمية الغبار المتراكم فوقها... ومع ذلك فقد تغير في الصورة شيء ما... لقد تغير شيء مخزن على سواقتي الصلبة القديمة... الصورة هنا مختلفة عن الصورة التي التقطتها قبلاً... إن هذا... إنه... حسناً... لقد ذهب هذا بصوابي".

"لقد حصلت موجة تغيير زمني صغيرة جداً، لم يشعر بها أحد سوى سال، ولم يتجاوز طولها الدقيقة الواحدة".

بالطبع لا تمنى سال أن تشعر بهذه الاهتزازات الصغيرة، التي تشبه ارتجافات الحمى والدوار الذي يصيب الإنسان وهو مغمض العينين.

"هل تريد أن تقول أن هذه الموجة قد عبرت القرون والسنين ووصلت إلينا عبر ثمانمئة عام من الزمن؟"

"نعم، إن التغييرات البسيطة تصلنا بهذا الشكل وتطول كل شيء يقع خارج حقل الطاقة المعزول الخاص بنا". وشاهدت مادي نظرة ارتباك على وجه آدم فتابعت حديثها: "لهذا وضعت سواقتك الصلبة في الرواق خارج هذه الحجرة، لأنها تقع خارج نطاق حقل الطاقة ولهذا يمكن للموجة الزمانية أن تؤثر فيها وتغيرها. هل فهمت؟"

أوما برأسه إيجاباً وقال:

"نعم... ولهذا... عندما شعرت سال ب... موجة... لهذا قمت ب...؟" أومات مادي برأسها موافقة واندفعت مسرعة إلى الخارج وفي يدها "كابل" بيانات وذلك عندما باغت الدوار سال وشحب وجهها وقامت بتنزيل صور المقبرة الخاصة بآدم من جديد، من دون أن يتوقف آدم عن الشعور بالدهشة ومن دون أن يتحرك من مكانه في وسط الرواق.

هز رأسه مجدداً وكأن ذلك كان سيساعده على استيعاب ما يجري

بشكل أفضل، ثم انحنى إلى الأمام وأمعن النظر في الصورة الماثلة أمامهم جميعاً وقال:

”عقلي يكاد ينفجر... فهذا أغرب شيء رأيته في حياتي“. وضحك آدم.

”بالطبع... ولهذا يجب على السفر عبر الزمان أن يبقى سراً“.
”ولكن... فكري بالمدى الذي يمكن لهذا الكشف العلمي أن يؤثر فيه على التاريخ، فهذه الطريقة سيتمكن المؤرخون من زيارة الوقائع التاريخية لدراسة حقيقتها، ليروا بأنفسهم الطريقة التي جرت فيها الحوادث بدلاً من الاعتماد على المصادر التاريخية“.

”في تلك الحالة، سيتأثر هذا التاريخ ويتغير ويتعرض لتحويلات مختلفة مع صدى كل موجة تغيير زمانية تنتج عن سفر هؤلاء العلماء الفرحين... ستؤثر هذه الأمواج الارتدادية الصغيرة في القرارات الصغيرة التي ستسبب بدورها أمواجاً زمانية أكبر تؤثر في قرارات أكبر وهكذا... وفجأة، ستجد أننا في العام ٢٠٠١ مثلاً نتحدث الصينية... لا أعلم... أو سنجد أنفسنا جميعاً أنصاف زواحف أو أنصاف داينصورات، أو يمكن أن لا تجد نيويورك أو يمكن لك أن تجد آثارها المشعة بدلاً عن المدينة الحية نفسها. كل هذا قد يجري بسبب شخص واحد فكر بالقيام بشيء ممتع وسافر إلى الماضي لمشاهدة التاريخ بنفسه“.

مكتبة الرمحى أحمد

نظرت سال إلى مادي وشاهدت وجهها المتورّد بسبب الغضب، أو الشعور بالإحراج.

ماذا جرى لها؟

”أسف... معك حق... تصوّرتُ أنّ...“، قال آدم متراجعاً.
التفتت مادي إليه وقالت: ”هذا هو سبب وجودنا هنا يا آدم. لهذا نعيش في هذا المستودع، ونراوح في مكاننا وزماننا ونشاهد الأشياء نفسها تتكرّر مراراً وتكراراً... لأنّ المستقبل مليء بالمجانين، بالحمقى، بالمهووسين بالسلطة وبالمتعطّشين للسيطرة على العالم، الذين يعتقدون

بأن السفر عبر الزمان مجرد لعبة بسيطة، مجرد فكرة عبقرية أخرى... نحن نعيش هنا لنراقب سير التاريخ ولا أعرف كم من الوقت سنبقى هنا... أنا وسال وليام...، ثم نظرت إلى سال وهمست: "ربما إلى الأبد؟"

شعرت سال بالضيق وقالت:

"لا أتمنى أن أقضي بقية حياتي هنا".

ساد بينهم صمت ثقيل لم يتخلله سوى أصوات الكمبيوتر وهمهمة الكبسولات الحاضنة في الغرفة الخلفية.

"هل أنت بخير؟" سألتها سال.

عضت مادي على شفتها السفلى لبرهة ثم أومأت برأسها وتنهدت قائلة: "نعم... أنا على ما يرام".

"اعذريني... فكل شيء هنا جديد ومثير بالنسبة إليّ". قال آدم.

هزّت مادي رأسها وقالت:

"لا... يجب عليّ الاعتذار منك على عصبيّتي... لم أقصد ازعاجك... كل ما يحيط بنا هنا يدفعنا إلى هذه الحالة... لقد تعبنا من كل هذا..."

قرّرت سال أن تغيّر مجرى الحديث إلى موضوع أكثر بهجة فقالت:

"من حسن حظنا أنهم وجدوا شاهدة القبر الصحيحة... أليس كذلك؟"

"نعم"، وافقتها مادي ثم همست: "سنكون على علم بما ينوون القيام

به هذه المرة".

الفصل الثلاثون

أوكسفورد، قصر بيومونت، ١١٩٤

توقفت العربّة أمام مدخل الممرّ المؤدّي إلى القصر الملكي المرصوف بالحجارة، فقفز كابوت من كرسي قيادة العربّة وارتطمت قدماه بالأرض المفروشة بالحصى بقسوة، وخاطب مجموعة الحراس الذين يعترضون الطريق.

لم يتمالك ليام نفسه من الضحك أمام مشهد القصر المرتفع أمامه خلف الأسوار القصيرة، بأسقفه المائلة المنحدرة وقنوات تصريف المياه الخارجة منه وفتحات الدفاع عن القصر الضيقة الطول، والمداخن التي تتصاعد منها أعمدة الدخان ورايات الملكية ذات الشعارات الحربية الخافقة على سطحه، إنه مشهد آخر من المشاهد المستحيلة التي لم يكن يمكن لهذا الشاب الآتي من عام ١٩١٢ أن يراها في حياته.

”ما الذي يضحكك؟“ سأله بوب.

”آه... أنا لا أضحك على شيء محدّد يا بوب، بل إنّ الأمر برمته مثير جداً بالنسبة إليّ... فأنا أرى أمامي... قصرأ ملكياً حقيقياً يعود إلى العصور الوسطى“.

انتهى كابوت من الحديث مع الجنود الذين راقبوا مشيته المتأقّلة في

أثناء عودته إلى العربية من دون اكتراث، وهم يلتحفون بعباءاتهم الثقيلة لعلها تقيهم بعضاً من برد الشتاء القارس.
”ما الأمر يا كابوت؟“

”جون ليس هنا... لقد انتقل إلى قلعة أوكسفورد“. أجابه وهو يصعد إلى مكانه على العربية.

انطلق الرفاق مجدداً وفكر ليام بأنهم قد داروا حول أسوار مدينة أوكسفورد قبل قليل، التي تبعد عنهم مسافة تتجاوز الميل ولم يدخلوا بوابتها المقنطرة الضخمة إلى الساحة المزدهمة التي لمحها ليام من البوابة، مما سبب له خيبة الأمل. إلا أنه تمكن من ملاحظة أعمدة دخان صاعدة من عدة أسطح مائلة تقع خلف الأسوار العالية التي قد تصل إلى ثلاثين قدماً، ولمح أيضاً بعضاً من الجنود في الوسط.

”يقول الحراس أن الاضطرابات في المنطقة قد دفعته لتغيير محل إقامته والبقاء في القلعة للمحافظة على سلامته“، قال كابوت.

التفت ليام إلى الخلف ونظر إلى الجدران الحجرية المنخفضة والأرض المنبسطة خلفها وأشجار الكرز المتناثرة في الداخل وإلى شكل القصر نفسه... وبدأ له أشبه بكاتدرائية... فهو طويل ومسقوف بعدة قناطر خشبية منحدرية... ممّا لا يؤهله ليكون مخبأً مناسباً لحاكم في خلال فترة اضطرابات.

”قلعة أوكسفورد... أنا أعرفها جيداً، إنها حصن منيع، كما أن المدينة نفسها محاطة بسور جيد. إنه مكان ملائم لاختباء جون. إلا إذا انقلب سكان المدينة نفسها عليه“. قال كابوت وهو يقود الأحصنة في الاتجاه الجديد ويضحك من وراء قلبه.

وصلت العربية إلى بوابة مدينة أوكسفورد مع غروب الشمس واختفائها خلف السحب السميكة المترامية في الأفق، ودخلوا المدينة من دون أي عقبات ووصلوا إلى سوق مزدحم بالمارة والتجار وكل منهم يتحضر للعودة إلى بيته قبل حلول الظلام.

جلس ليام إلى جانب كابوت مبتسماً أمام المشهد والروائح التي تخرق أنفه... لم تكن أكشاك التجار سوى عربات بسيطة تكدست فوقها البضائع كالملفوف البائت والقرنييط المتعفن ورأى ليام بائعاً يكدس جثث حيوانات للبيع كالطرائد البرية والأرانب فوق بعضها بقسوة رهيبة، وخبازاً يجمع أرغفة الخبز اليابسة التي لم يتمكن من بيعها، وشاهد عدداً من المتسولين المتجمعين، شيوخاً وشباناً بأسماهم الفقيرة، وهم يستجدون كل ما لم يتمكن الباعة من بيعه بدلاً من رميه للخنازير.

”إنه زمان صعب جداً بالنسبة إلى الفقراء“. قال كابوت.

شعر ليام فجأة بأن البهجة البادية على وجهه في غير محلها ولا تلائم المأساة المحيطة بهم... إنه الفقير... الفقر الكافر. وقد شاهد ليام أموراً مشابهة من قبل، فهو يذكر وجود متسولين في كورك بالطبع، لكنهم كانوا يتسولون المال الذي يمكن أن يشتروا به الكحول... لكن هذا... هذا تسول للحصول على طعام لا يليق سوى بالخنازير.

”آي“. قال ليام بهدوء.

عقب السوق بغيمة من الدخان الأسود المتصاعد من المواقد المشتعلة أمام الأبواب ومن ضباب أنفاس آلاف الناس الموجودين حولهم في هذا الطقس القارس. كما انتشرت في الهواء رائحة أخرى إلى جانب رائحة الحطب المشتعل، إنها رائحة روث الحيوانات. لكن ليام لاحظ أنّ رائحة الحطب تفوح من كل شيء، من كل مكان، مما سيجعل هذه الرائحة أبرز ما يمكن أن يذكره برحلته إلى القرن الثاني عشر، وهي في الحقيقة الرائحة التي غطت على رائحة البراز المتعفن التّن المرمي هنا وهناك بسبب الحيوانات والبشر على حد سواء إلى درجة التخمة.

لاحظ كابوت أن ليام يسدّ أنفه فقال له:

”إنها أحد الأسباب التي دفعتني لاختيار حياة الرهبة والدير بعيداً عن المدينة...“، وأشار برأسه إلى الأمام وقال: ”قلعة أو كسفورد“.

حلّ المساء وتحولت السماء الرمادية إلى لونها الشتائي الكحلي الداكن

وغابت الشمس تماماً خلف أسوار المدينة على الرغم من أنها لم تكن مشرقة طوال الوقت، بل كانت تشرق تارة وتغيب تارة إلا أنها كانت أفضل من ظلام الليل بالطبع. وشاهد ليام برج الحراسة المربع الطويل التابع لقلعة أوكسفورد خلف أعمدة الدخان المترقصة في الأفق. ولمح ضوء المشاعل ومجامر التدفئة العنبرية من خلف النوافذ الزجاجية الطويلة الضيقة.

أوقف كابوت العربية أمام الطريق الضيق المفروش بالحصى والمؤدي إلى القلعة، التي تحيط بها أكواخ الفقراء البسيطة كما تحيط أنسجة الجسم المتقرحة بالجراح المفتوحة. ولاحظ ليام وجوه الناس الفقراء الفضولية الشاحبة من خلال الأبواب والشغرات... وجوهاً متسخة وناتئة العظام لشدة الفقر والجوع، عيوناً تبرق يائسة بلا أمل على ضوء الشموع المتقدمة في الداخل، ولم يستوقفها منظر العربية المارة سوى هنيهة لرؤية الطريق الذي سيسلكونه.

وبدت آمال ليام في رؤية المروج الخضراء والعدارى الحسنات والفرسان الشجعان ذوي الدروع اللامعة، والرجال السعداء الراقصين والفلاحات البدينات المتوردرات مجرد أحلام ساذجة. هذا محبط.

عبرت العربية فوق جسر خشبي يعلو نهراً ملوثاً متجمد الأطراف ثم وصلوا إلى بوابة القلعة الحجرية المقنطرة العالية. ولاحظ ليام أحد الحراس يقترب باتجاههم.

”ماذا تريدون؟“ قال الحارس لكابوت عندما شاهد ثوب الراهب الذي يرتديه، ثم أضاف بعد لحظة من التفكير: ”يا أخي؟“
”أريد لقاء جلالة إيرل كورنوال وغلوشتستر.“
”لا وقت لديه لمواعظ رجال الدين.“

”أخبره بأن أستاذه في القتال بالسيف موجود هنا لمقابلته، وأخبره باسمي: كابوت.“

أمعن الجندي النظر في كابوت بسبب النور الشحيح وقال: ”انتظر

هنا". ثم عاد إلى مكانه ونادى أحد الجنود الآخرين ليبلغ الخبر.
"أسرع. فالبرد قارس هنا وسيغضب الملك منكم عندما يعرف بأنكم
تركتم صديقه القديم في الانتظار خارجاً". قال له كابوت.
نظر الجندي إليه بارتياح وقال: "صديقه؟ هه". ودار حول العربة
وسألهم:

"ماذا لديكم هنا؟"

"ضيوف". قال كابوت.

رفع الجندي الستارة القماشية برأس سيفه وقال:

"آه... لقد أحضرتم لجلالته بائعة هوى... أليس كذلك؟" وابتسم
لييكس ابتسامة عريضة ومدّ يده ذات القفاز ليلمس ساقها وسألها: "أنت
جميلة على الرغم من أنك فلاحه أيتها الفتاة..."

"لن ألمسها لو كنت مكانك". قال ليام وهو يسترّق النظر من تحت
الطرف الآخر للستارة، وعندما نظر إلى ييكس لاحظ عضلاتها المشدودة
استعداداً للقتال، لكنّ آخر شيء يحتاجون إليه الآن هو أن تطيح برأس أحد
حراس الملك جون فخطبها بهدوء: "بيكس... لا تؤذيه".

"حاضر". أجابته باستياء وغيظ واضحين فضحك الحارس وقال:
"تؤذيني أنا؟ هل أنت قادرة على ذلك؟ أني أحبّ رؤيتك وأنتِ تؤذيني
يا فتاة".

سمع الجميع أصوات اهتياج وفوضى عالية من خلف البوابة والجدران
الحجرية فترجع الحارس إلى الخلف وسحب يده عن ييكس وأوماً لها
بأدب هامساً: "خسارة؟" ثم سحب رأسه من تحت ستارة العربة.
"ما الأمر؟"

تناهى إلى سمعهم صوت شاب حاد وقال:

"دعوه يدخل... الملك يعرف الراهب".

ابتسم كابوت بمكر لقائد الحرس وقال:

"ألم أقل لك هذا؟"

تنحى قائد الحراس ووقف باستعداد مفسحاً الطريق للعربة للمرور بينما اقتربت منهم خطوات عسكرية قوية وامتلاً المدخل فجأة بأنوار المشاعل التي يحملها الحراس القادمون من الداخل في عتمة المساء ولاحظ ليام في وسطهم ظل رجل قصير له شعر طويل.

”ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟ دعوه يدخل بسرعة“. صاح الرجل القصير فتردد صدى صوته بسبب الجدران العالية التي بناها البناؤون الأحرار الماسونيون.

انطلق كابوت بالعربة تحت مدخل القلعة المنخفض ولم يتوقف إلى أن باتوا في أمان خلف أسوارها، ووقف إلى جانب كابوت ذلك الرجل القصير الغامض ذي الملامح المبهمة بسبب الظلام ولم يد منه سوى أنفاسه التي تخرج من فمه بسبب البرد الشديد.

”أنا سياستيان كابوت“.

”آي، يا سيدي... آخر شيء سمعته عنك هو أنك كنت في الخارج تقاتل الأتراك“.

فضحك كابوت وقال:

”نعم... لكنني تعبت من تلك الأمور“.

سارع أحد حاملي المشاعل الذين يلحقون بالعربة واقترب منهم فأضاء أخيراً وجه جون باللون العنبري الأحمر المنبعث من وهج النار وشاهد ليام ملامحه المختثة الواضحة على وجهه النحيل المرهف ذي اللحية الناعمة والشارب المضحك الذي كان يهتز مع كل نفس يخرج من أنفه، وشعره النحاسي الداكن الطويل المنسدل على كتفيه. ابتسم جون لكابوت مبتهجاً بزيارته وقال: ”سياستيان...“ بعد أن أمعن النظر لفترة أطول من المألوف بوجهه وندبته الظاهرة على أنفه ثم أردف قائلاً: ”لا يمكنني أن أصف لك فرحتي برويتك مجدداً يا صديقي القديم“.

قفز كابوت عن العربة وسارع جون لاحتضانه بذراعيه ثم قال مجدداً: ”أنا سعيد لرؤيتك يا صديقي“.

عائقه كابوت بخجل أيضاً وقال:

”كيف حالك يا تلميذي؟“

ابتعد جون خطوة إلى الخلف وابتسم قائلاً:

”ما زلتُ الأحرق الأخرق الذي تعرفه، الذي لا يستطيع قطع رأس أي

رجل مهما كان“. ثم أشار بعينه إلى ليام وقال: ”هل هذا ابنك؟“

”لا، ليس ولدي، إنه هنا لكي...“ والتفت إلى ليام باحثاً عن الكلمات

الملائمة.

”من أجل ماذا يا سياستيان؟“

”سيدي... أعتقد أنّ هذا الشاب وصاحبيه الجالسين داخل العربة

قادرين على مساعدتنا لاستعادة الشيء المفقود“.

شهق جون بدهشة وقال: ”هل سمعت بالأمر أيضاً؟“

ساد بينهما صمت ثقيل وتلاقت عيناها وإدراكهما المشترك لحجم

القضية الكبيرة التي تجثم على قلوبهم جميعاً.

ثم قال جون بأدب:

”تفضّلوا إلى الداخل، لا يجب علينا التحدث بهذا الأمر هنا في

الخارج“. وأشار إلى ليام ليدخل وقال له: ”تعال“.

الفصل الواحد والثلاثون

قلعة أوكسفورد، ١١٩٤

تبع ليام جون وكابوت اللذين راحا يتحدثان عن الأيام الخوالي في أثناء مرور الموكب عبر بوابة القصر الكبيرة، ثم دخلوا جميعاً إلى البهو الرئيس البارد المظلم، وبدأت عيناه تعتادان على الظلام بالتدريج وصوت صدى الخطوات الذي تعكسه الجدران الحجرية والدرج اللولبي.

همست له بيكس من الخلف:

”هل تثق بكابوت؟“

”لا نملك خياراً آخر“. همس لها، وشعر بأن كلماته ستصل إلى جون والراهب اللذين يتقدمانهم على الدرج ويتكلمان بمرح عن ذكرياتهما، بسبب الجدران التي تعكس كل شيء بوضوح.

وصلوا أخيراً إلى قاعة ضخمة مضاءة بنار عظيمة مشتعلة في الوسط وثریات عدّة متدلية من السقف العالي تحمل عدداً كبيراً من الشموع المشتعلة أيضاً والشمع السائل يسيل منها، وخمن ليام أنها القاعة التي رأى نورها عندما كانوا يقفون خارجاً.

وجه جون اهتمامه إلى ليام وبيكس وبوب وقال:

”هل قلت يا سياستيان أن أصدقاءك الثلاثة... أظن أننا نستطيع التكلم

من دون حرج أمامهم، أليس كذلك؟

أوما كابوت موافقاً:

”إنهم موثوقون تماماً“.

رفع جون يده مُرحباً وقال لهم:

”تفضلوا بالجلوس“. ورمى نفسه على كرسي خشبي مجاور للنار الكبيرة المتقدة فلاحظ ليام للمرة الأولى كم هو ضعيف البنية ونحيل القوام وأشبهه برجل مريض.

قال جون بعد فترة من الصمت:

”إنه وقت عصيب... لقد ثار شعب إنكلترا ضدي وتآمر عليّ البارونات... وكل ذلك بسبب الضرائب“. ولمعت عيناه وهو ينظر إلى ألسنة اللهب. ثم عاد للقول: ”لقد اضطررتُ لرفع الضرائب عليهم لدعم تلك الحملة الغبية التي قام بها أخي المجنون، ولأدفع الفدية التي طلبها خاطفوه“. ثم نظر إلى كابوت وقال: ”صدّقني... كنتُ على بعد خطوة واحدة من تركه ليتعفن في الأسر“.

”المجنون“؟ سأل ليام وهو ينحني باتجاه جون.

”سيدي... هذا الشاب هو ليام أوكونر، وهؤلاء المرافقان هما بوب وبيكس“. قال كابوت.

حنى جون رأسه احتراماً لليام ونظر لمرة أولى إلى وحدتي الدعم. ففكر ليام بأن ملابسهما القروية هي السبب بكل تأكيد، لأن هذا ما بدا أنه حال الناس في هذه الأيام، إنهم يعتبرون الفقير كائناً أدنى مرتبة من البشر، لا يختلف عن الكلاب والقطط والدجاج التي تتجول حرة في أنحاء المدينة المعتمدة ذات الروائح المشرقة بين أكواخ المعدمين، إن فقرك الظاهر من ملابسك يكاد يجعلك شخصاً غير مرئي بالنسبة إليهم.

سأل جون بوب: ”هل أنت جندي؟“

”خط...“ ثم صحح بوب عبارته بسرعة وقال: ”لا يا سيدي... أنا مجرد رجل عادي“.

ارتفع حاجبي جون بدهشة من الإجابة وقال:

”أراهن بأنك قادر على جرّ عربة بيدك بسهولة كما تفعل الثيران“.
عبس بوب وهو يحاول فهم تلك العبارة ليقرّر إن كانت مديحاً أو إهانة.
”تلك... بيكس... أليس كذلك؟“ وحطّت عينا جون على بيكس.
”لقد عرّفوني إليها على أنّها الليدي ريبكا“. قال كابوت.

”آه... هل هي ليدي حقاً؟“ نظر جون بارتياح إلى ثيابها المبقّعة
بالطين. فما كان من بيكس إلّا أن أجابته بالفرنسيّة النورماندية الممتازة:
”نعم... أنا دوقة ألفينيون التابعة للنورماندي“.

اختفت نظرات جون الخبيثة الساخرة وابتسم كابوت قائلاً:
”نعم يا سيدي، أنا أعتقد أنّها من طبقة النبلاء الكريمة... لكنّي لم أسمع
من قبل بالإمارة التي ذكرت اسمها“.

حنى جون رأسه لها احتراماً بطريقة رسميّة وقال بالفرنسية أيضاً:
”مدام... تقبّلي اعتذاري الشديد“.

”أنا أستطيع التحدّث بالإنكليزية أيضاً“. قالت بيكس.
”إذاً اقبلي اعتذاري يا عزيزتي... لقد خدعتني ملابسك“. وأشار إلى
الخرق البالية المتسخة التي ترتديها.

”لقد قرّرنا ارتدائها كي لا نلفت الأنظار“. قالت بيكس بشكل قاطع.
اتسعت عينا كابوت بدهشة وقال لها:

”أيتها الليدي ريبكا... من العيب أن تقاطعي كلام جلالته...“
نفى جون برأسه وقال مبتسماً:

”هذا غير مهم... الأمور التي تشغلني هذه الأيام أهم بكثير من هذه
الشكليات الملكيّة“. ثم نظر إلى ليام وسأله: ”هل تريد أن تعرف الشخص
الذي أشرتُ إليه بالمجنون؟“
”نعم. من هو المجنون؟“

”إنه أخي الأكبر“. قال جون متنهّداً، ثم أردف: ”الملك...“ وبدأ
أنه بصق تلك الكلمة بصقاً بدلاً من لفظها، ثم تابع: ”لقد دمرنا جميعاً“

بخروجه المتهوّر في هذه الحملة التي أجمع الكل على إخفاقها. ما زالت القدس في أيدي المسلمين، ووقع أخي الأحقق في الأسر مما زاد الأمور سوءاً لأنهم يطلبون فدية لإطلاق سراحه، وعبث بليحته البائسة المثيرة للشفقة وقال: "ووقعت مسؤولية عصر دم الفقراء والنبلاء للحصول منهم على مزيد من الضرائب على رأسي، في الوقت الذي لم يعد أحد منهم قادراً على تقديم أي شيء آخر". وأشار بيده إلى نافذة طويلة رفيعة مقوّسة تطل على المدينة وقال: "لا بدّ من أنكم شاهدتموهم... شاهدتم الشعب... إنهم يتضوّرون جوعاً ويلومونني على ذلك... لا يلوموه هو. لا يلومون ريتشارد قلب الأسد".

تنهّد وعاد إلى القول: "لقد دمّرنا هذه الحملة وقضت علينا جميعاً... تخيلوا أنني لم أدفع رواتب الحرس الواقفين في الخارج منذ مدة طويلة، وكل ما يقيهم هنا لحراسة القلعة هو توافر الطعام". "الأمور ليست أفضل حالاً خارج الأسوار يا مولاي... القرى والبلدات تتضوّر جوعاً". قال كابوت.

تعمّم جون بصوت منخفض: "وكلّ هذا من أجل ماذا... من أجل حملة عسكرية حمقاء غير محسوبة".

"ما الذي تعنيه؟" سأله ليام ثم لاحظ نظرة حادة على وجه كابوت فتدارك نفسه وقال: "يا مولاي؟"

"أخبرني سياستيان أنك على علم بأمور لا يعرفها سوى فرسان المعبد". قال جون له.

"لا بدّ من أنك تعني بكلامك... باندورا".

عبس جون لأن الكلمة لم تعن له أي شيء. فاستدرك ليام كلامه وقال: "هل تعني الكأس؟"

"نعم، الكأس". وضحك جون قائلاً: "ما هي؟ هل هي كوب... أم كأس؟ هل تستحق كل هذا الاهتمام؟ إنها قد تكون الكأس التي شرب بها السيد المسيح مرة... لكن ريتشارد... كما هو حال بقية فرسان المعبد

الحمقى الآخرين... يعتقد أنها تنطوي على قدرات سحرية عظيمة... ذلك الأحمق المجنون يعتقد بأن حمل تلك الكأس معه إلى ساحة المعركة سينصره دوماً وسيحوّله إلى شخص لا يمكن التغلب عليه. إنه الهدف الذي خرجت هذه الحملة من أجله... هل توافقني؟ لم يخرج أخي لتحرير القدس من المسلمين، بل ليستعيد ما تركوه هناك عندما سقطت المدينة... ليستعيد تلك القطعة الأثرية التافهة“.

لفظت النار كسرة فحم مشتعلة على الأرض فراقب جون وهجها الخافت المتلاشي رويداً رويداً وقال: ”إنها رحلة للحصول على كنز رجل مجنون... إنها سبب خروج أخي في حملته هذه.“

”وهل وجد أخوك الكأس يا مولاي؟“ سألت بيكس.

فأوما جون برأسه وقال: ”نعم، لقد وجدها بالفعل، وأرسلها إلى هنا لتكون بأمان برفقة مجموعة من أفضل فرسان المعبد“. وضحك بتوتر ثم قال: ”لكني... أنا... سيلومني على ما جرى... أنا متأكد من هذا. سيقتلني“. ولاحظ ليام يد جون المرتعشة، ثم عاد للقول: ”أمرتُ رجاله الفرسان بأخذ الكنز إلى كنيسة روسلين في اسكوتلاندا زيادة في الحرص، كما تعرفون، لتكون بأمان هناك. فالقصر الملكي غير آمن... هذه القلعة غير آمنة... ورأيت أن ذلك المكان ملائم أكثر لحمايتها“.

”لكنهم تعرضوا للكمين وسرقها اللصوص منهم“. قال كابوت.

”لهذا السبب... أعتقد بأن رأسي سيعلق على الخازوق بعد عودة ريتشارد بلا شك“. تمتم جون وأخفى يده المرتعشة في ثنايا ثوبه عندما لاحظ ارتجافها.

”مولاي... لهذا السبب بالذات أحضرت هؤلاء الأشخاص الثلاثة إليك... إنهم يدّعون بأنهم قادرون على مساعدتك للحصول عليها من جديد“.

نظر إلى ليام ثم بوب ثم بيكس وقال: ”وهل أنتم قادرون على ذلك حقاً؟... لقد سمعت الشائعات أيضاً... سمعت عن هذا الرجل المقنع

الذي لا يمكن قتله... يبدو بأنه شيطان كما يقول بعضهم... أو ملاك شرير كما يقول الفلاحون والقرويون الذين يتدفقون على الغابات للانضمام إليه، وأنتم تظنون بأنكم قادرون على استعادتها منه؟“ لم تظهر علامات الاقتناع على وجه جون.

رمى ليام بيكس بنظرة آملًا في أن يكون لديها شيء مفيد تقوله لكنها نظرت إليه أيضاً من دون أن تنفّسه بكلمة، وبقي بوب على حاله في تسجيل الحوار كما يمليه عليه واجبه من دون التدخل فيما يجري.

”أعتقد يا مولاي... أنّ من سرق الكأس أتى من ال... نفس المكان الذي أتينا منه“.

”وما هو ذلك المكان؟“

عزّ ليام شفته من شدّة الحيرة، لقد شرحوا الموضوع لكابوت بأفضل وأبسط طريقة، لكنّ هذا على الأغلب سيلوث مجرى التاريخ مما سيضطّرهم لتصحيح مساره مستقبلاً، وتساءل في قرارة نفسه عن النتائج التي يمكن أن تجدها مادي وسال في عام ٢٠٠١ إذا ما قام الآن بشرح آلية السفر عبر الزمن لملك انكلترا المستقبلي. فقال:

”إنه مكان بعيد جداً يا مولاي... وغريب أيضاً... ولكن اسمعني... هذا الرجل المقنّع ليس شيطاناً ولا ملاكاً... بل هو على الأغلب رجل مميّز كصديقنا بوب... هذا هو كل الموضوع“.

”مميّز؟ ماذا تعني بذلك؟“

”إنه رجل قوي... قوي جداً جداً، صلب وذو مهارات قتالية فائقة غير عادية“.

”يتناقل الناس فيما بينهم بأن الرجل المقنّع ينتزع الرماح والسهام من جسده من دون أن تصيبه بأي أذى، وأن أحداً لا يستطيع إيقافه وبأن الكأس المقدسة هي من تمده بكل تلك القوى“. وهزّ جون رأسه ببطء ثم قال: ”هل تعلمون... ربما كان هناك بعض من الحقيقة في كلام فرسان المعبد عن الكأس“.

”مولاي... لقد شاهدت صديقنا بوب يقوم بالأشياء نفسها التي يتناقلها الناس عن الرجل المقنع“.

فنظر جون إلى بوب بدهشة.

”هذا صحيح... أنا قادر على تحمل الأضرار الكبيرة والحد من تأثيرها“. قال بوب.

التفت جون إلى كابوت من جديد وقال: ”سيباستيان... هذا الثور المشابه للإنسان يتكلم لغة تشبه الإنكليزية لكنني لم أفهم ما قاله توأ“.

”لقد قال يا مولاي بأنه قادر على القيام بكل ما يقوم به الرجل المقنع، وقد رأيته بأم عيني، لقد تلقى بوب في جسده سهاماً قد تقتل أي رجل عادي... لكنه تلقاها من دون أن يهتز له جفن“.

”نعم يا سيدي... إنها ليست الكأس... ليس في الأمر أي سحر أو قوى إلهية أو أي شيء من هذا القبيل... هذا الرجل المقنع هو مجرد... حسناً... أظن أنه رجل آخر مماثل لبوب“.

أمعن جون النظر فيهم لبعض الوقت وهو يعث بطرف لحيته من دون أن يُسمع أي صوت آخر غير طقطقة النار وهسيس الأخشاب المشتعلة، ثم قال أخيراً: ”وتقولون بأنكم حضرتم لمساعدتنا“.

أوما ليام: ”تماماً... سنستعيد الكأس من أجلك من جديد“.

الفصل الثاني والثلاثون

قلعة أوكسفورد، ١١٩٤

خُصص لهم في البرج العالي جناح لاستقبال النبلاء يتألف من أربع غرف مزينة بالسجاد المزخرف والوسائد الوثيرة، مما يعني بأن جون يقدرهم حقاً لأنه وضعهم في أبعد الغرف عن روائح مدينة أوكسفورد الممتنة الكريهة القادمة من الأسفل.

ووجد ليام في غرفته مجمرة مشتعلة مخصصة للتدفئة مما مدّه بالدفء المطلوب للراحة ومنضدة خشبية عليها طبق كبير مليء بالخبز واللحوم المقددة وبعضاً من النبيذ المستورد من الخارج.

ملأ كابوت لنفسه كأساً من النبيذ وقال: "لقد علّمته القتال بالسيف... في الواقع قمتُ بتعليم أبناء الملك جميعاً: جيفري وريتشارد وجون، كانوا صبياناً صغاراً في ذلك الوقت، قبل أن تفرقهم الأطماع السياسية، وكان أكبرهم جيفري الولد المفضل لأبيه، أما ريشترارد فقد تمتع منذ طفولته بالشخصية القيادية القوية... وقد عرفنا منذ ذلك الوقت بأنه سيحفر اسمه بحروف من ذهب على صفحات التاريخ."

"وماذا عن جون؟" سأله ليام.

"كان ولداً لطيفاً. لكنه لم يكن بالتأكيد محارباً بالفطرة كأخيه... مع

أنني رأيت في ريتشارد ما أخافني منه على الرغم من سنّه الصغير... لقد عرفتُ أنه سيتحوّل إلى رجلٍ عظيم... وقويّ. ولمستُ فيه ما يكفي من الضراوة والقسوة التي تمكنه من احتلال كل ممالك أوروبا وتوحيدها تحت راية واحدة. وعندما مات جيفري وكان من الطبيعي أن يخلف ريتشارد أباه على العرش، أدركتُ أنه سيريق الكثير من الدماء إلى أن يحقق كل طموحاته“. وتغصّن وجه كابوت بابتسامة مكسورة وقال: ”كنتُ أنا أيضاً شاباً في ذلك الوقت وطمعتُ أيضاً في نيل أمجاد الحروب“.

”كم بقيت فارساً من فرسان المعبد؟“

”انضمت للسير غودفري كوتلي قبل خمسة عشر عام أعضابط مرافق وسافرت معه إلى الأرض المقدسة للقيام بواجبنا هناك... لحماية الحجاج المسيحيين... وفي أثناء سنوات السلام الحقيقي الذي ساد قبل سقوط القدس والذي عايشته بنفسي هناك، عرفتُ بأمر أسرار التنظيم“.

”أسرار؟ هل تقصد الكأس؟“

”والعديد من الأسرار الأخرى“.

أمعن كلّ من بوب وبيكس النظر في الراهب، واشتبه ليام بأنهما يقومان بفحص معالم وجهه وحركات جسده ليكشفوا أي أدلة على صدقه أو كذبه. ”ماذا؟“

نظر كابوت بعينين يملأهما القلق والهمّ إلى ليام لشعوره بأنه يخون العهود السرية التي قطعها قبل زمن طويل. ”ماذا تخفي أيضاً يا كابوت؟“

”هل تفهمون موقعي؟ إذا أخبرتكم فسأتحوّل إلى خائن لتنظيم فرسان المعبد... هل تفهمون هذا؟“

”لكنك تركتهم منذ زمن بعيد بكلّ الأحوال، أليس كذلك؟“ ”صحيح...“ وشرب كل ما تحويه كأسه من خمر دفعة واحدة وقال: ”بعد سقوط القدس وإعلان ريتشارد عن حملته لاستعادتها، أدركتُ بأنّ كمية كبيرة من الدماء ستراق باسم الرب، وعندما وصل الملك ريتشارد مع

جيشه إلى الأرض المقدسة، رأيتُ في عينيهِ الهوس بالسلطة، وهو هوس خطر جداً... وقد سمع بما اعترف به تريارك... وأتى بجيشه لاستعادة الكأس“.

نظرت بيكس إليه بامعان وقالت: “لا أملك أي معلومات حول اعتراف تريارك هذا الذي ذكرته... ما هي حكايته؟”

“إنه تقرير كتبه رجل يدعى جيرار تريارك، وقد كان وأخوه جنديين في الحملة الصليبية الأولى التي استولت على القدس عام ١٠٩٩، هل سمعتم به من قبل؟”

لم يكن لدى ليام أي فكرة، فالتفت إلى وحدتي الدعم وسألتهما: “بوب؟ بيكس؟”

“أطلق البابا أوربان الثاني الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٥، والتي هدفت إلى احتلال مدينة القدس وطرده المسلمين منها، وقد نجحت تلك الحملة بالفعل ودخل الصليبيون المدينة عام ١٠٩٩ بعد حصار قصير، وقام الجنود بذبح كل مسلم وجدوه في الداخل في خلال الأيام التالية...”. صمت كابوت وهز رأسه بأسى ثم استطرد كلامه: “كل رجل وامرأة... وطفل”، فتابع بوب الحديث: “بقيت القدس والأراضي المقدسة في أيدي الصليبيين لفترة تقارب القرن من الزمن تحت حكم الملوك الصليبيين الوصاة على العرش، وعُرفت القدس بمملكة السماء في ذلك الوقت ودام السلام حوالي التسعين عام أ. وفجأة، وفي عام ١١٨٧، قام المسلمون باستعادة المدينة بقيادة زعيمهم صلاح الدين“.

“صلاح الدين؟” سأله ليام.

أوما بوب وقال: “وكان صلاح الدين رحيماً بالسكان المسيحيين وسمح لهم جميعاً بالبقاء في المدينة وأمر رجاله بعدم الاقتراب من الأماكن المسيحية المقدسة وعدم نهبها أو سلبها“.

“فما هي قصة هذا التقرير إذاً يا كابوت؟” سأله ليام.

فبدأ كابوت بالحديث بحذر: “في خلال القرن الذي دام فيه السلام

في أثناء الحكم الصليبي، ادعى جيرارد وريموند تريارك بأنهما وجدا شيئاً مهماً في السرايب والأقبية المنتشرة تحت القدس. واعترف تريارك هو تقرير جيرارد حول الأمر.

”وماذا اكتشفا بالضبط؟“

”وجدا شيئاً قديماً جداً.“

زَمَّ كابوت شفثيه بقوة وكأنه لا يريد منهما أن تنطقا بشيء آخر، فسأله ليام: ”ماذا وجدا؟“

”تقول القصة... أنهما وجدا لفافة ورقية عمرها أكثر من ألف عام، تعود إلى عصر السيد المسيح نفسه.“

”يا إلهي“ !!! تتمم ليام.

عبس كابوت في وجهه وقال: ”بالتأكيد... إلى عصر السيد المسيح.“

”وما هي محتويات اللفافة؟“

”لم يُسمح لي بقراءة اعتراف تريارك، لكنني سمعت من الآخرين بأنه يحتوي على ما فعلوه باللفافة، من دون ذكر أي شيء عن محتوياتها.“

تناول كابوت تفاحة وقضم منها قطعة وقال: ”وسمعت في ما بعد بأنهم نسخوا محتويات اللفافة بلغة مشفرة ثم قاموا بإتلافها.“

انتصب ليام وعدّل جلسته بدهشة وقال: ”أتلفوها؟ لماذا؟“

”لا أعرف.“ ثم انحنى كابوت إلى الأمام وهمس: ”ربما قاموا بذلك لأن الحقيقة التي تحتويها اللفافة أخطر من أن يعرفها الناس العاديين... ربما احتوت على الكلمات الحقيقية التي تقوّه بها الله نفسه... والتي تمتلك ربما قوى عظيمة لا يمكن لنا فهمها.“

”وهل هذه النسخة المعدّلة... هذه النسخة المشفرة... هل هي الكأس المقدسة؟“ سأله ليام.

”لقد عرفتَ نصف الحقيقة يا فتى... تلك النسخة من اللفافة، ومفتاح الشيفرة هما مع بعضهما الكأس المقدسة، وقد فعلوا خيراً بفصلهما عن بعضهما والاحتفاظ بكل جزء في مكان بعيد عن الآخر.“

”هل تؤمن بأنّ للكأس قوى خارقة يا سيد كابوت“؟ سألته بيكس.
”أعتقد أنه تملك ما يكفي من القوى الخارقة لأنها دفعت كل من
الأخوين تريارك إلى الجنون التام“.

”آه... هل أنت جاد فيما تقول“؟ سأل ليام بدهشة.

”قتل ريموند تريارك نفسه في القدس وقضى جيرارد سنوات عمره
الأخيرة في دير منعزل في منطقة الأكويتين، حيث قام بكتابة اعترافه
وأصيب بالجنون بعد انتهائه منها كما تقول القصة“.

كادت النار أن تخبوتناول ليام مزيداً من العيدان الجافة ووضعها بلطف
فوق الجمرات الأخيرة المتوهجة وقال: ”لقد عرفنا الآن بأن الرجل المقنّع
وعصابته سرقوا نصف الكأس المقدسة فقط...“

”نعم... لقد سرقوا النصّ المشفّر“.

”أين النصف الثاني إذا؟ أين مفتاح الشيفرة“؟ سأله ليام.

”بقي النصّ الأصلي تحت حراسة فرسان المعبد في القدس في أثناء
الحكم الصليبي واحتفظوا بمفتاح الشيفرة في عكا تحت حراسة تنظيم
آخر، وتقع هذه المدينة على بعد مئة ميل شمال القدس. سقطت كلا
المدينتين في يد صلاح الدين في ما بعد وخرج ريتشارد في حملته لاستعادة
كل من الكنزين“.

غرقت عينا كابوت في الذكريات البعيدة وقال: ”كنتُ هناك عندما
استولى ريتشارد على عكا... كنتُ هناك... وشاهدتُ بأمّ عيني احتفاله
باستعادة مفتاح الشيفرة في ذلك اليوم... لقد احتفل بقطع رؤوس كل
جنود الحامية المسلمة الذين حاولوا الدفاع عن المدينة، وكانوا ثلاثة آلاف
جندي“.

ارتجف ليام عندما سمع هذه الكلمات وقال: ”لقد كان يريد الحصول
على الكنزين، وتمكّن من الحصول عليهما بالفعل... ومع ذلك أرسل
النصّ المشفّر فقط إلى انكلترا“؟

”لديّ سؤال... لماذا قام بذلك“؟ سألت بيكس.

”زيادة في الحرص على سلامة المعلومات. أنا أعرف الملك ريتشارد جيداً، إنه يخشى المنافسين، وربما خاف من الملوك الآخرين الذين يعرفون بشأن اعتراف تريارك. وقد أدرك أن جيشه قد أصابه الضعف وتناقص عدده ولن يكفيه لحصار القدس واحتلالها. وبدأ رجاله يعودون إلى بلادهم كما فعلت أنا قبل عام ين. لقد أرسل نصف الكأس إلى الوطن للمحافظة على سلامتها واحتفظ بالنصف الآخر، بمفتاح الشيفرة معه.

تأخرت عودته إلى أرض الوطن بسبب تحطم سفينته في البحر ووقوعه في الأسر بعد ذلك، وانتظر عام ين كاملين ليعود إلى البلاد، انتظر عام ين كاملين، وهو يعلم أنه يملك مفتاح فك شيفرة كلمات الله، وها هو على وشك الوصول...”

”ليكتشف أن الرجل المقنّع قد سرق النصّ من أخيه جون.“
وافق كابوت بحركة من رأسه. وفهم ليام أخيراً البؤس الذي كان يبدو على وجه جون المسكين كلما ذكر اسم أخيه.
”سيقتله الملك ريتشارد لدى عودته من دون شك. أنا أعتقد بأنّ الهوس بالكأس سيمنعه تماماً من التفكير بالمنطق في ما يخص أخاه.“
قال كابوت.

عمّ الصمت ولم يُسمع سوى صوت اشتعال الأعواد الجافة وهسيس النيران المتأجّجة. ثم قالت بيكس بعد فترة: ”ما علاقة اسم باندورا بالكأس المقدّسة؟“

بدا التردّد واضحاً على وجه كابوت وكأنّه لا يريد الإجابة على سؤالها، فطالبه ليام بالإجابة: ”أجبنا يا سيد كابوت؟“

بدأ كابوت الحديث بصوت منخفض جداً أعلى قليلاً من الهمس: ”إنها الكلمة التي حملتها الرسالة الأصلية، وهي الكلمة الوحيدة التي سُمح لفرسان المعبد بمعرفتها.“

فرك ليام ذقنه متمعّناً في كلام كابوت وقال: ”بيكس؟... بوب؟“
استدارت عيناهما الرمادية واستقرت عليه فقال: ”إذا حصلنا على نصّ

الكأس المشفّر، هل تعتقدان بأنكما قادران على حل شيفرته؟
”لا يمكننا الإجابة“. قالت بيكس.

”لأننا لا نملك أيّ معلومات حول التقنيّة التي استعملوها لتشفير النصّ في ذلك الوقت“. أضاف بوب.

”لنفترض أننا حصلنا عليه... وتمكّنا من إعادته إلى...“ ونظر إلى كابوت وفكّر بأنه سيفعل خيراً بعدما ذكر العام المحدّد الذي أتوا منه وتابع: ”إذا أعدناه إلى أرض الوطن، هل تعتقدون بأن صديقنا آدم قادر على فك شيفرته؟“
”هذا احتمال وارد“، قالت بيكس.

”هذا ليس لغز أطفال يا فتى...“، تدخّل كابوت بانفعال، ثم أردف: ”إنها كلمات الرب... إنها حقائق قدسيّة... وأنت أيها الفتى تتكلّم عنها وكأنها لعبة بين يديك“.

بادره ليام بنظرة قاسية وقال: ”إنها ليست لعبة بالنسبة إليّ يا سيد كابوت بكل المقاييس... لقد حضرنا إلى هنا لأجل... لأننا نعتقد بأنها قد لا تكون كلمات الرب... بل يمكن لها أن تكون كلمات أناس عاديين مثلنا... رواد زمن آخرين مثلنا تماماً“.

جمل بروابط مباشرة صفحة فيسبوك مكتبة الرخي أحمد

فغر الراهب المُسنّ فمه دهشة وصعقته الحيرة مما سمع، فتابع ليام: ”لقد تلقينا تحذيراً يا سيد كابوت، وطلب منا أن نبحث عن هذه الباندورا أيّاً تكن حقيقتها، وأنت تقول الآن أنّ اعتراف تريارك ينصّ على أن اللقافة كُتبت في زمن السيد المسيح أليس كذلك؟“
فاوما كابوت برأسه وقال: ”هذا ما سمعته“.

”هذا يعني بأنّ التحذير الذي وصلنا قد سافر ألفي عام ليجدنا عبر الزمن...“ وثبّت أنظاره على عيني كابوت وقال بحزم: ”أي أنها ليست لعبة يا سيد كابوت“.

”لا بدّ لنا من الحصول على الكأس“. قالت بيكس.
”أوافقك... يجب أن يصبح الحصول على الكأس هدفنا الرئيس في رحلتنا هذه“. قال بوب.

الفصل الثالث والثلاثون

نوتنجهام، غابة شيروود، ١١٩٤

أنصتَ إلى صوت أتباعه ورجاله المتردّد عبر أشجار الغابة وهم يتبادلون الأحاديث ويثرثرون حول النيران والمواقد، لقد ارتفعت معنوياتهم لأنهم كانوا محظوظين اليوم، فقد اعترضوا طريق عربة تجارية محملة بالأطايب ومتوجهة إلى أحد البارونات، وقد انتهوا الآن من شرب كل النبيذ الفاخر الذي وجدوه على متن العربة، وبدأت أغانيهم تخفت الآن وأصبحت أصواتهم أكثر خشونة.

إنهم كالأطفال..

راقبهم جيمس لوك من كوخه المعتم، تأمل جيشه من اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا جميعاً من الفلاحين فيما سبق، الذين اعتادوا الفقر المدقع في خلال السنوات الأخيرة، اعتادوا التضور جوعاً والبحث عن فئات الطعام، والذين وجدوا هنا أنهم قادرون على شوي الطرائد والغزلان الملكية لأن الجنود يخافون اللّحاق بهم إلى داخل الغابات، فكانوا هنا كالأطفال من شدة فرحهم بالطعام .

ذكره هذا كثيراً بالمكان والزمان الذي أتى منه... من عالم الفقر الذي كاد الانفجار السكاني أن يقضي عليه، من المدن المزدهمة والمحيطات

الملوثة التي لا ترى فيها سوى جزر النفايات البلاستيكية العائمة وبقع النفايات السامة. ذكروه بالعالم المحتضر الذي أتى منه، من العالم المحتضر.

نظر إلى العلبة الخشبية المزخرفة التي يحملها بين يديه وتفحصها جيداً. في داخلها تختبئ الحقيقة الضائعة، النبوءة والتحذير الذي انتظرت أخويته أكثر من ألف عام لاستعادتها. إنها باندورا.

لقد نظر لوك إلى داخل العلبة ولمسها بيده، وقام بفتحها قليلاً لعلّه يفهم شيئاً مما تقوله الكتابة، ممّا سبّب له القشعريرة، لأن الكلمات المكتوبة على الرق والمخبأة عن عيون الفضوليين، الكلمات العشوائية وغير المفهومة كانت أبعد ما يكون عن الفهم بسبب شيفرتها الصعبة.

نظر بعيداً مجدّداً، من خلال باب كوخه القماشي إلى لصوصه السعداء المتحلّقين حول النيران. ستدفع اعتداءاتهم على محاصيل البارونات ومزارعهم وعربات تحصيل الضرائب الملك ريتشارد إلى مهاجمتهم في هذه الغابات لدى عودته إلى إنكلترا، بالطبع بعد أن يعرف بأن كنزهِ الثمين، كأسه المقدّسة قد سُرقَت.

أوما لوك برأسه متفكراً.

سيأتي، وسيحضر معه النصف الثاني من الكأس، سيحضر المفتاح معه من دون شك.

مكتبة الرومي أحمد @ktabpdf تليجرام

الفصل الرابع والثلاثون

قلعة أوكسفورد، ١١٩٤

”ستضمن لك هذه الرسالة تعاون ذلك الأحقق المتلثم بشكل كامل.“
قال جون.

نظر ليام إلى لفافة الرقّ المختومة بختم جون لاكلاند الملكي الأحمر،
فسأله: ”ما هذا يا مولاي؟“

”إنها أوامر لعمدة نوتنجهام لإمدادكم بأي شيء تطلبونه أو تحتاجون
إليه للإلقاء القبض على الرجل المقنع وعصابته“. ثم زمّ شفّتيه بسخرية لعب
وقال: ”إذا اعترض العمدة ويليام دي ويندينال على هذا أو وضع أمامكم أي
عقبات فقد أصدرت أمري في هذه الرسالة نفسها على أن تتولوا بنفسكم
أمر مكتب العمدة، والرسالة تفوضكم بذلك“.

”هل تعني أن أصبح أنا... عمدة نوتنجهام؟“

”قم بذلك إذا ما اضطررك الأمر“.

”هذا رائع“. قال ليام مبتسماً.

”نعم إنه كذلك بالفعل“. قال جون ونظر إلى الساحة حيث تقف
الأحصنة في انتظارهم تحت السماء الملبّدة بالغيوم والواعدة بليلة مثلجة
أخرى. ثم قال مجدداً: ”سيتحسّن الطقس قريباً مع أنني أشك في ذلك“.

وقف الجنود العابسون من شدة البرد إلى قربهم وهم يفركون أيديهم المحمية بالقفازات بعضها ببعض ويحركون أرجلهم بانتظام ليحافظوا على الدفء.

”لقد خصصت لكم عشرة من أفضل جنودي ليرافقوكم إلى نوتنجهام، إنهم جميعاً رجال صالحون وأنا أثق بهم للغاية. سيطيعون أوامرك كما لو كانت أوامري أنا“. ثم نظر جون إلى بوب الذي تزود الآن بدرع معدني مجنزr وخوذة معدنية لحماية رأسه الكبير وسيف طويل مثبت إلى خصره بواسطة حزام جلدي مشدود على خصره. فقال له: ”أعتقد بأنك لن تحتاج إلى كل هذه العدة إذا كان غريمك بنصف قوتك“.

نظر ليام إليهم وقاوم ابتسامة الفخر التي كادت أن تظهر على وجهه. إنه جيشي المعدني الصغير.
”أود الاكتفاء بهما من فضلك“. قال ليام.

عبس جون لوهلة من الزمن ثم فهم قصده وقال واضعاً يده على كتف ليام: ”كما تريد، أرجع إليّ ما سُرّق مني يا ليام قبل فوات الأوان“. فأوماً له ليام قائلاً: ”حاضر يا مولاي، سنستعيد ما سُرّق منك“. ”لدي شرط وحيد مهم جداً... يجب أن تبقى الليدي ريبكا هنا في أوكسفورد معي“.

فترجع ليام قليلاً إلى الخلف وقال: ”ماذا؟“

أشار جون برأسه بحركة صغيرة فأحاط بها جنديان بشكل فجائي وأمسكا بذراعيها، وعلى الفور سمع ليام صوت سيف بوب وهو يخرج من غمده ويستعد لقتالهما به فصاح: ”توقّف يا بوب“. ثم استدار لينظر إلى بيكس التي كانت قد أحاطت بذراعها اليمنى عنق أول جندي وخنقت أنفاسه فغابت نظراته وارتجفت قدماه وضربت الأرض.
”بيكس، دعيه وشأنه“.

حدّقت بيكس بالرجل لحظة ثم أفلتته قائلة: ”كما تريد“. فتنهّد الجندي

وسقط على ركبتيه وهو يسعل ويلتقط أنفاسه بصعوبة ويلفظ اللّغاب والبلغم على الأرض.

”إنها صعبة المراس، وهي قادرة على القتال كأَيِّ رجل آخر“. قال كابوت.

”هذا ما يبدو، ومع ذلك فأنا أصرّ على بقائها هنا إلى أن تعودوا مع ال...“ قال جون.

إنهم يستطيعون الخروج من هنا والتخلّص من الحراس والجنود جميعاً ومن سيطرة جون، وعرف ليام بأنّ بوب وبيكس قادران على قتل الجنود جميعاً ورمي جثثهم لتملأ جثث القتلى والرجال المحتضرين أرض الساحة في خلال دقيقة واحدة، لكنه أدرك بذكائه أنه بحاجة إلى حلٍ أكثر حنكة من هذا.

”هل يمكنني التحدّث مع رفاقي على انفراد يا مولاي؟“ فأخذ جون نفساً طويلاً من أنفه وقال: ”لَكَ هذا“. وأشار بيده إلى جنوده فاقربوا وساعدوا زميلهم الملقى أرضاً بجانب بيكس ليقف على قدميه وعبروا به الساحة للانضمام إلى بقية الحراس، وأعقب ذلك هرج ومرج من شدة الضحك على حارس الملك المسكين الذي ضربته امرأة.

تراجع جون بضع خطوات بعيداً عن ليام وبدأ يتمتم ببضع كلمات غير مفهومة. فاقرب بوب وبيكس وكابوت من ليام وتجمعوا وبدأوا يتحدّثون بصوت منخفض جداً.

”يجب أن نبقى معاً... إذا تركناك هنا فلن تتمكّن من اللحاق ببوابة العودة“. قال ليام.

”ستُفتح بوابة العودة بعد ثلاثة أيام وساعة و...“ قال بوب فقاطعته بيكس:

”ستُفتح بعدها بساعة بوابة أخرى وتليها بوابة أخرى بعد عشرة أيام، كما لدينا واحدة أخرى بعد خمسة أشهر وستة وعشرين يوماً وساعة وسبع عشرة دقيقة من الآن“.

أدرك ليام أن بيكس يهدف إلى شيء ما من كلامها فسألها: "هل تقترحين أن تبقي هنا؟"

"تماماً. سيفسح هذا لي الفرصة للحصول على معلومات مفيدة إضافية حول اعتراف تريارك".

أوما بوب وقال: "إنها على حق... إضافة إلى أننا قادرون الآن على التواصل مع غرفة العمليات، ممّا سيسمح لنا بتزويدهم بزمان ومكان فتح بوابة جديدة من أجل بيكس".

إنه على حق أيضاً... سيتمكنون من فتح بوابة لها هنا في القصر من دون الحاجة إلى الذهاب إلى دير كيركليس فنظر إليها ليام: "هل توافقين على هذا؟"

"إنه الخيار العملي الصحيح في حالتنا هذه".

ألقي ليام نظرة على جون ووجدته يتمتم كما كان يفعل قبل قليل وينظر بفارغ الصبر إلى السماء فقال لرفاقه: "أعتقد أنه معجب بك يا بيكس".

"معجب؟"

"نعم... أعتقد أنك فتنته بجمالك".

ضحك كابوت ضحكة خشنة ثم تدارك نفسه وبارك نفسه بحركة الصليب خجلاً من الرب على الأفكار التي راودته.

"نعم... لا بد لك من توخي الحذر".

"أنا قادرة على التعامل معه، وسأستغل عواطفه هذه لتحقيق أهدافي".

"يجب ألا يعرف تحت أي وضع أنك رجل آلي قادم من المستقبل، هل

هذا واضح؟ لأن هذا سيؤدي إلى تلوّث زمني كبير". قال ليام.

أمعنت بيكس النظر في وجه ليام بعض الوقت، ثم بدأت ملامح وجهها الباردة الخالية من المشاعر بالتحوّل إلى وجه باسم دافي، وأصلحت وضع شعرها، فشعر ليام للمرة الأولى بأنه يقف أمام امرأة مغرية وجميلة وفاجأه شعوره تجاهها فنبّه نفسه... إنها مجرد امرأة آلية يا ليام... ماذا جرى لك؟ "لقد زوّدت دماغي الإلكتروني بكثير من المعلومات عن السلوك

الأثويّ وقرأتُ قصة هاري بوتر، وأعرف ما يمكن للغة الجسد ونبرة الصوت الناعمة أن تفعل بالرجال“.

حافظت بيكس على ابتسامتها المُشجّعة والمغرية وغمزت بعينها بطريقة خرقاء لكنها قادرة على الرغم من ذلك على سلب قلوب الرجال. ثم طمأنته قائلة:

”سأكون بخير يا ليام أوكونر“.

هي تريد أن تكون هكذا.

أوما ليام موافقاً وقال: ”اتفقنا إذًا، ابقِ هنا واجمعي المعلومات، وسنخبر مكتب إدارة العمليات عن مكانك بالضبط ليفتحوا لك بوابة العودة هنا. وإذا ما ساءت الأمور يا بيكس... إذا لم تتصل بك مادي لسبب من الأسباب ولم تفتح لك بوابة، فاذهبي إلى كيركليس بعد ستة أشهر للعودة من خلال البوابة التي ستفتح وقتها. هل كل شيء واضح بالنسبة إليك؟“

”نعم. لا رغبة لديّ في تدمير نفسي“.

”اتفقنا إذًا“، قال ليام ونظر إلى بوب وكابوت بعزم ثم استدّار إلى جون وقال: ”لقد وافقت الليدي ريبكا على البقاء هنا“.

”بالطبع ستوافق، وسأحرص على راحتها كل الحرص“. قال جون.

”سننطلق الآن يا مولاي“. قال ليام ومشى باتجاه جون.

”أرجو أن لا تضيّعوا وقتكم أكثر من ذلك، ولكن... يجب أن أقول لكم... لقد سمعت إشاعات تفيد بأن الملك ريتشارد وصل إلى فرنسا“.

وبدا التوتّر واضحاً على وجهه.

”سنعود قبل أن تكمل كلامك يا مولاي“.

عبس جون من جديد محتاراً مما سمعه وزمّ شفّيته كما لو أنه يحاول منع نفسه من قول شيء ما، فبادره ليام قائلاً: ”أعتذر منك، إنها جملة مجازية نستعملها في موطني“.

”حسناً“. وأشار بيده إلى ليام بطريقة فظة فانصرف الأخير واتجه إلى عربة كابوت وتسلقها ثم تبعه بوب فناءت العربة تحت ثقله.

”سررتُ كثيراً برؤية صديقي القديم... ويعلم الله أنني لم أحظ بصديق مثلك منذ وقت طويل“. صاح جون مخاطباً كابوت.

”لن نعود خاليي اليدين يا مولاي، كن واثقاً من ذلك“. وحثّ كابوت أحصنة العربى على الانطلاق بقسوة فطارت العربى مسرعة باتجاه بوابة القلعة الأمامية.

رفع ليام الستارة القماشية ونظر إلى رتل الجنود الذين يتبعونه بشكل صفّ طويل، إنهم رجاله... وكانوا يسرون بثقل بسبب الدروع المعدنية التي يرتدونها وقد احمرت وجوههم لشدة الجهد الذي يبذلونه للحاق بالعربى.

ألقي نظرة أخيرة على بيكس التي فتنته بابتسامتها العصىّة على النسيان، وشاهدها تودعهم بإيماءة من رأسها من فوق الشرفة الملكية وهم يعبرون الجسر باتجاه خارج القلعة.

الفصل الخامس والثلاثون

نيويورك، ٢٠٠١

راقبت سال آدم وهو يصنع لهم بعضاً من الشاي في المطبخ وسألت مادي: "ألم يعرف كثيرًا عنا حتى الآن؟ ألم نخبره بكثير من الأمور؟ لقد أمرنا فوستر بالتكتم وقال بأننا منظمة سرية".

حوّلت مادي نظرها عن الشاشة التي أمامها ونظرت إليه وقالت بنبرة مفعمة بالذنب: "أعرف، أعرف... لكنني... إنه مفيد لنا في الوقت الحالي، نحن بحاجة إليه".

"ما الذي تنوين فعله إذا؟ كيف ستصلحين الأمور معه إذا؟"

لم تجبها مادي بأي شيء، ففسّرت سال صمتها خطأ وابتهجت وقالت فجأة: "سيبقى معنا؟"

"لا.. لا، لا يمكننا تجنيده". قالت مادي بسرعة.

"آه"

"لا يمكنه البقاء يا سال، لا يمكنه ذلك. لا يمكنني تجنيد شخص... فقط لأننا... لأنه يعجبنا".

"لم لا؟"

"لأننا فريق كامل متكامل، من أربعة أشخاص كما أمرنا فوستر. تتألف

المنظمة من مجموعات رباعية، لكل شخص فيها عمله الخاص الفريد، ولا...

”لكننا أصبحنا خمسة الآن بوجود بوب“.

”أعرف، وهو سبب إضافي يمنعنا من زيادة عددنا“.

نظرت الفتاتان إلى آدم الذي يسكب الماء الساخن من الغلاية الكهربائية في عدة أكواب ويحرك الشاي بالملعقة بصوت عالٍ.

”ماذا ستفعلين إذاً يا مادي؟“

فتنهّدت وأجابتها: ”لا شيء“.

”لا شيء؟“

”لأنه... لن يبقى حياً لفترة طويلة“. وعضت على شفتها حزناً وحولت نظرها عن رفيقتها.

”ماذا تعنين؟“

”لقد تحققت من اسمه يا سال، وجدته بين أسماء ضحايا حادث الغد...“

أشاحت سال بنظرها عن مادي وبحلقت في المكتب، ثم نظرت إليها من جديد وهمست: ”لا... الغد؟ هل تقصدين أنه سوف...؟“

أومأت مادي برأسها موافقة وقالت: ”إنه يعمل في شركة استثمارية تدعى شيرمان غولدن، تقع في الطابق التسعين في برج التجارة العالمي الشمالي“. وشعرت مادي بارتجاف صوتها. ثم قالت: ”إنه واحد من الأشخاص الذين لن تكتب لهم النجاة“.

سمعت الفتاتان خطواته تقترب منهما فالتفتتا إليه وراقبتاه وهو يحمل كوباً من الشاي الساخن في كل من يديه وقال: ”تفضلاً أيتها الآنستان... هذان كوبان من الشاي...“ عبس آدم حائراً من معالماً وجهيهما الحزينتين وسأل: ”ماذا جرى لكما؟“

اصطنعت مادي ابتسامة عريضة وقالت: ”لا شيء... شكراً على الشاي“. وتناولت منه كوبها.

أشار برأسه إلى طاولة المطبخ وقال: "سأعود لأحضر البسكويت، كانت أُمِّي تقول دوماً أن كوب الشاي يحتاج دوماً إلى قطعة من البسكويت إلى جانبه".

راقبته الفتاتان وهو يتعد عنهما، وفكرت بالتحول العميق الذي طرأ على شخصيتها بسبب عملها الغريب هذا، بأنها باتت قادرة على السكوت وترك شخص لطيف مثل آدم ليلاقى حتفه من دون التفوّه بأي كلمة أمامه عن موته القريب.

الفصل السادس والثلاثون

نوتنجهام، ١١٩٤

توهجت مدينة نوتنجهام في عتمة الليل، لكن أنوارها تلك لم تكن صادرة عن القناديل أو نيران حراس المناوبين، بل من عدة مبان أشعلت فيها النيران وتساعدت منها ألسنة اللهب.

وبينما كانت العربة ومرافقوها من الحراس يقتربون من مدخل المدينة ببطء، تناهت إلى أسماعهم أصوات القتال وجلبة المشاجرات والأسلحة بين الجماهير الغاضبة.

دخلوا المدينة من خلال بوابة مهجورة من حراسها ووجدوا كثيراً من قطع الأخشاب المتناثرة على الطريق مما منعهم من التقدم بسهولة، ومحرقة عظيمة في المنتصف رميت فيها أكثر من عشرة جثث، وفاحت رائحة اللحم المحترق في الجو مما أصاب ليام بالغثيان واستفرغ كل محتويات بطنه.

التفت كابوت الجالس بقربه على مقعد السائق وقال له: "هل أنت بخير يا فتى؟"

"يا إلهي... الرائحة... ما الذي يجري؟" قال بصوت أجش وهو يمسح خيطاً سائلاً متدلياً من ذقنه.

”إنه تمرّد، على ما أعتقد“.

لاحظ ليام بضعة نساء وعدداً من الأطفال المتدثرين بقليل من الأسمال البالية راكعين بجانب النار، فافترض بأنهم حزينون على موتاهم المرميين في النيران، ولاحظ أيضاً عربة محملة بما بدا له للوهلة الأولى ألواحاً خشبية مكدسة فوق بعضها، وفروعاً غليظة تشبه أغصان الصفصاف، ثم أدرك أنها لم تكن سوى أذرع وسيقان بشرية، أنها جثث مكدّسة بعضها فوق بعض. ”لقد وصلت المجاعة والأوبئة إلى نوتنجهام“. قال كابوت وهو يحرك رأسه أسفاً، ثم أردف قائلاً: ”لقد رفض الفلاحون مؤخراً أن يستمروا بزرع محاصيلهم وقطف ثمار تعبهم ليدفعوها في ما بعد بالكامل للدولة على شكل ضرائب، فامتنعوا عن قطف المحاصيل وتركوها لتتعفن على أغصانها، والمدن كهذه هي أول من سيشعر بوطأة هذا الأمر“.

”أين الناس إذا؟“

أشار كابوت برأسه إلى مركز المدينة حيث تتراقص بعض الأضواء الشاحبة وتنبعث العديد من الأصوات العالية وجلبة المعركة التي سمعوها من الخارج وقال: ”أراهن بأنهم يهاجمون قلعة عمدة نوتنجهام الآن“. دخل كابوت العربة وأحضر سيفه واستله من غمده ووضع على حضنه ثم قاد العربة من جديد سالكاً طريقاً جانبياً مليئاً بالطين وتحيط به الأكواخ الفقيرة وقال: ”ربما اضطرنا الوضع للقتال للنجاة بأنفسنا“.

اقتربت العربة من مصدر الضجيج والضوء بشكل مفاجئ بعد أن انعطفت بهم الطريق بشكل إجباري وشاهدوا أمامهم جدران القلعة الحجرية التي احتشدت عند أسوارها جموع غفيرة من الناس المزوّدين بالمشاعل. وبدا لهم أن الناس متجمعون حول بوابتين كبيرتين من خشب السنديان تقع كل منهما أسفل برج للحراسة. وشعر ليام بحدسه أن سكان نوتنجهام يحاولون قصارى جهدهم لإشعال محارق كبرى أمام البوابتين بسبب ظلال الناس الذين رأهم يتحركون باضطراب وسرعة ويتناقلون المشاعل فيما بينهم. بينما راح الحراس الواقفون في الأعلى يرمون الحشد

بسهام مشتعلة، ويتراجعون إلى الخلف هرباً من الحجارة والرماح التي يرميها الناس عليهم من الأسفل.

هرول أحد الحراس الذين عينهم جون لمرافقتهم ولحق بالعربة، واسمه إدوارد أو إيدي كما كانوا ينادونه لأنهم جميعاً كانوا بنفس الرتبة كما يبدو. نادى إيدي ليام:

”مولاي... إذا لاحظوا وجودنا هنا فسيهاجمونا“.

وكان على حق، لأنّ الحشد المتواجد أمامهم لم يلاحظ بعد العربة ومرافقيها بسبب وقوفها على طرف الزقاق المعتم بين مخزن الجيوب المغطى بالقش والطاحونة.

”لا نملك خياراً آخر غير الهجوم لشق طريقنا إلى الداخل“. قال ليام. ”ماذا قلت يا مولاي؟“ وحملق به إيدي وقد غمرته الدهشة، فقد شهد بضع معارك في خلال حياته، وتركت تلك الأيام آثارها على جسده ووجهه كما جرى مع كابوت، ومع ذلك فقد أصابه الأمر الذي تلقاه من كابوت بالارتباك، فأعاد السؤال: ”مولاي؟... سيكون ذلك انتحاراً“.

أوما ليام برأسه وخامره الشك بالفعل لأنّ الوضع ليس جيداً حتى بوجود بوب معهم، فاستدار في مكانه ونادى: ”بوب“. فشعر بجفاف في فمه وارتجاف صوته بسبب التوتر، ومقت في أعماقه شعوره أنه الوحيد الذي لا يعرف كيف يتدبر أمره كالآخرين الذين لا يبدوون كالأطفال الخائفين، بعد أن سمع بأذنيه صوته المرتجف كما لو كان صبيّاً صغيراً.

مدّ بوب رأسه الكبير من خلال ثنايا الستارة فقال له ليام:

”عليك أن تقوم بعملك“.

فأجابه بوب بصوته الجهوري: ”حاضر“. واختفى وراء الستارة ثم قفز بعنف من مؤخرة العربة فانتفضت بكاملها عندما تخلصت من وزنه الكبير، ومشى إلى المقدمة وسط قعقة ورنين درعه المعدني ووقف إلى جانب مقعد السائق فكاد رأسه أن يصل إلى مستوى رأس ليام الجالس في الأعلى ومسح بعينه المشهد المائل أمامه وسأل ليام: ”هل تريد منا أن

نخترق الدفاعات المنصوبة أمامنا؟

تقلّصت معدة ليام ووخزه الألم فأوماً قائلاً: "ما رأيك يا بوب؟ هل نستطيع القيام بهذا؟"

فكر بوب بالأمر قليلاً ثم قال: "نسبة النجاح عالية بتقديري، تبلغ ثمانية..."

"لا أريد أن أسمع أرقاماً من فضلك".

أطاعه بوب، ثم رفع كفّ يده المماثلة لحجم يد الغوريلا وربت على كتف ليام مطمئناً وقال: "لا تخف يا ليام. سوف أفسح لك الطريق لتدخل". ثم ألقى نظرة على الجنود المرافقين لهم، ووجد أنهم قد استلوا سيوفهم من أغمدتها ورفعوا دروعهم استعداداً للمعركة.

"قل للجنود أن يشكلوا صفين ويسيروا على جانبي العربة وابقوا على مسافة قريبة مني". ثم نظر إلى ليام وغارت عيناه تحت حاجبيه العابسين وطرف خوذته الحاد.

"هل فهمت ما قاله؟" قال ليام لكابوت.

فأوماً برأسه بعزم وقال: "بالطبع... سأبقى بقربه".

أصدر ليام أوامره إلى أيدي ليقسم الجنود إلى قسمين لحراسة جانبي العربة، يتألف كل منهما من ستة أفراد. ثم أشار برأسه إلى بوب، فاستدار بوب باتجاه الحشد وتقدّم نحوهم شاهراً سيفه الكبير بإحدى يديه تلحق به العربة، فحرن الحصانان بسبب الضجيج والنيران لكنهما تابعا التقدم وسط الجنود المدرّعين.

عندما انتبه لوجودهم بعض من المتمردين صاحوا لرفاقهم لتحذيرهم ولاحظ ليام انتقال الخبر بين الجميع كالنار في الهشيم، لأن الجماهير الغاضبة رأت فيهم هدفاً أسهل بكثير من قلعة العمدة، معتقدين بأنهم جماعة صغيرة يمكن لهم بكل سهولة صب جام غضبهم عليهم من دون جهد يذكر، فبالنهاية لم يتجاوز عدد جنودهم العشرة حراس إضافة إلى هذه العربة المحمّلة بلا شك بالنقود الذهبية، أو ربما تحمل ما هو أفضل من

ذلك، ربما حملت الطعام الفاخر المخصص لمائدة العمدة.
هدرت حناجر الناس بصيحات الإثارة والغضب ونسوا موضوع إشعال
النار في القلعة تماماً.
يا للهول...

شعر ليام الذي لا يملك أي سلاح بأنه قد يدفع عمره لقاء الحصول على
بندقية ألمانية في هذه اللحظة، سيشعره وزنها وملمسها بالأمان حتى لو
كانت فارغة من الرصاص، بدلاً من انتظار الآخرين ليدافعوا عنه.
تحولت مشية بوب إلى هرولة بطيئة وصاح كابوت بالحصانين فازدادت
سرعة العربة وجرى الحراس للحاق بها، وعندما اقتربوا من جدار القلعة
سمع ليام أصوات حراسها من الأعلى، الذين لاحظوا على الأغلب خوذات
الجنود المرافقين له فأدركوا أنهم من حراس الملك فتحضروا لفتح البوابة
لهم. إلا أن الناس لم يتعدوا عن طريقهم ولم يكثرثوا حتى ببوب المدرع
الذي يتقدمهم من دون هوادة بطوله المخيف.

تجمع عشرة رجال لملاقاة بوب، ولم يند عليهم أنهم من سكان المدينة
لأنهم لم يكونوا يحملون مثلهم العصي والحجارة، بل كانوا أشبه بقطاع
الطرق الذين هاجموهم في الغابات من قبل. وفي تلك اللحظة شاهد ليام
سيفاً يطير باتجاه رأس بوب الذي تلافاه بمرونة وسرعة واندفع بكامل قوته
نحو الرجل الذي رماه بالسيف فأطاح به بعيداً إلى الناس المتجمهرين خلفه
فأوقع عشرة منهم أو أكثر أرضاً.

انتهاز أحد المهاجمين فرصة انشغال بوب باستعادة توازنه وطعنه بشدة
برمح في بطنه فاخرقه على الرغم من أن الدرع خرج من ظهره، فلوّح بوب
بسيفه وانهال على الرجل فقطعه نصفين بضربة قاضية وشديدة أطاحت
بكتف رجل مجاور للرجل الأول أيضاً. سقط الرجلان أرضاً فانترع بوب
الرمح من بطنه ورفع ليرمي به على أي هدف محتمل آخر إلا أن الناس
تراجعوا إلى الخلف بسرعة مشدوهين بما رأته أعينهم.

في تلك الأثناء، كان الحراس يدفعون الناس المتحلقين حول العربة

من الجانبين لأنها توقفت بسبب قتال بوب مع مهاجميه، وانهارت عليهم الحجارة والعصي وقطع البلاط المكسور، فأصابت إحدى القذائف ليّام في كتفه فصرخ متألماً ووضع يده على مكان الإصابة فوجد دماً يسيل منه. وناداه إيدي الذي كان يسير بمحاذاة تماماً: "مولاي... علينا متابعة التقدم". ولوّح بسيفه لالتقاء خطر أقرب المتمرّدين إليه.

الفصل السابع والثلاثون

نوتنجهام، ١١٩٤

لَوْح بوب بسيفه الدامي في وجه الناس فأصاب به رجلاً بديناً قصير القامة تأخر في الابتعاد عن بوب بسبب حركته البطيئة. وقد قام حد السيف الطويل بدوره جيداً، إذ أفسح مسافة لا بأس بها أمام بوب، فاستأنف المشي باتجاه بوابة القلعة، ولم تفصله عنها سوى عشر ياردات. أمر كابوت الحصانين بالتقدم بسرعة فشخرا وأسرعوا وراء بوب برفقة الحراس، الذين حافظوا على سرعتهم وحمايتهم للعربة بدروعهم المعدنية التي انهالت عليها الحجارة مصدرة أصواتاً عالية، كما لو كانوا شرنقة تحيط بفراشة في داخلها. وعلى الرغم من ذلك، مرّت إحدى الحجارة على بعد شعرة من خَدّ ليام، فشعر بخفق الهواء بجانب وجهه وعرف أنه ليس بمنجى من الخطر، فانحنى إلى الأمام وأحاط رأسه بذراعيه وصاح من بين أسنانه: "يا إلهي... ساعدنا للخروج من هنا".

أمسك كابوت بزمام الأحصنة بيد واحدة ورفع الذراع الأخرى لحماية وجهه.

أخيراً، وصل بوب بفضل رمحه وسيفه إلى البوابة الخشبية الكبيرة، حيث كانت الجموع قد بدأت بتكديس الجذوع وخشب المواقد لإشعال

النار لكن العربـة وصلت قبل أن يتمكنوا بالفعل من إشعالها. وشاهد بوب أمام البوابة عدة جثث مرمية على الأرض وقد انغرزت فيها السهام. أدرك ليام بأنهم لن يستطيعوا الدخول ما لم يعدوا الجذوع والأخشاب جانباً. وهذا بالطبع، إذا ما قرر أحد سكان القلعة السماح لهم بالدخول. وألقى نظرة على بوب فعرف أنه مشغول بإبعاد المتمردين لتتمكن العربـة من متابعة التقدم مما يعني أنه لن يتمكن من التخلص من تلك العقبة، وعندما دخلت العربـة المساحة التي أخلاها لها بوب تحرك الجنود وانتشروا بشكل نصف دائري ليحموا مدخل البوابة.

عندها، لاحظ ليام أن المتمردين لا يريدون الالتحام معهم في قتال، كما لا يريدون الاقتراب من سيف بوب، على الرغم من أن هياتهم تشي بأنهم جنود أو تجار وليسوا من سكان البلدة. وما كان منهم إلا ان تراجعوا إلى الخلف واستمروا في رميهم بكل شيء يرونه أمامهم على الأرض وشمهم ولعنهم والصراخ عليهم.

لم يجد ليام بداً من القفز من العربـة وإبعاد الجذوع الخشبية من الطريق بنفسه. ثم صاح إلى أقرب الجنود إليه: "ساعدني!!"
فنظر الجندي بسرعة إلى إيدي الذي أشار له موافقاً برأسه وقال: "اذهب... افعل كما يقول لك".

رمى الجندي درعه وسيفه وانضم إلى ليام في حمل كل ما يستطيعون التقاطه من كومة الحطب هذه ورموا بها جانباً، وتمكنوا من فتح ثغرة فيها أخيراً في اللحظة التي شعر فيها ليام باصطدام شيء حاد وثقيل بأسفل ظهره، فانهار على ركبتيه من شدة الألم وسقط على وجهه فوق الأخشاب المتراكمة ممزقاً كخرقة قماشية بائسة عالقة على مجموعة من الأسلاك المتشابكة. حاول المسكين التقاط أنفاسه المتحشجة مذعوراً ومصعوقاً مما جرى له. ثم شعر بأحد الجنود من خلفه يحاول مساعدته للوقوف على قدميه لكنه أحس بالألم لا يحتمل بين كتفيه، وحاول الالتفات ليعرف الجندي الذي يحاول مساعدته، وفي تلك اللحظة، انهار الجندي الذي

كان يساعده لفتح الطريق، على ركبته ثم تكوّم محتضراً على الطين والحصى وعيناه المتسعيتين بدهشة تدوران في محجريهما بضيا ع تام. وعندها شاهد ليام سهماً قصيراً مغروزاً في خوذة الجندي، ونهراً من الدماء الداكنة السمكة يسيل من تحت حافتها.

ساعدنا يا الله، لأننا سنموت جميعاً هنا لا محالة.

وصل كابوت فجأة إلى ليام وسحبه من فوق الأخشاب وكان يكلمه بصوت عالٍ لكن ليام لم يفهم شيئاً بسبب ضجيج المتمردين وارتطام مقذوفاتهم بدروع الجنود الذي يصم الآذان.

نظر كابوت إلى الورا من فوق كتفه فانحنى بسرعة كبيرة لاتقاء حجرة ثقيلة مرت من فوق رأسه تماماً وأصابت الأرض بقربه. وعندها، التفت مجدداً إلى ليام وصرخ بكلمات أخرى وهو ينقر رأسه بأحد أصابعه. فاستدار ليام على الرغم من الألم الشديد وتلّوت قسما ت وجهه بسبب تحرك ظهره المصاب ليجد أن البوابة فتحت من الداخل قليلاً بما يكفي لدخول رجل واحد من خلالها. وعندها صاح كابوت مرة أخرى، لكنه صاح هذه المرة في أذن ليام: "انسَ أمر العربة".

أوما ليام برأسه ورفع كابوت ليقف على قدميه، ورأى في تلك اللحظة إيدي ومن تبقى من رجاله وقد باتوا أقرب للانهيار داخل دروعهم المشوهة المتداعية لكثرة ما تعرضوا له من ضربات.

شكر ليام ربه وقال: "لقد فتحت البوابة". لكن كلماته ضاعت وسط ضجيج المتمردين فصاح كابوت عال هذه المرة: "لقد فتحت البوابة". سمعه إيدي هذه المرة واستدار إليها ليرى بنفسه فأمر رجاله بالتراجع إليها للدخول.

بحث ليام عن بوب فوجد رأسه الكبير بخوذته بارزاً فوق مستوى رأس الحصانين وهو ينحني ويلوح بسيفه ورمحه بطريقة مروحية لحمايتهم من جميع الجهات.

"بوب". صرخ ليام.

توقف بوب وتأهب باستعداد وبحث بعينه عن ليام بذعر شديد. فلوح له ليام بذراعه إلى أن عثر عليه بوب وأشار له ليرى بوابة القلعة المفتوحة. ثم قال مرة أخرى: "لقد فتحت".

أوماً له بوب برأسه ولفّ حول العربة المهجورة والحصانين الهائجين وهو يلوح بسيفه ويطلق صيحات الحرب من دون توقف ليبعد عنه الحشود الغاضبة. وأسرع الجنود بالدخول إلى القلعة واحداً إثر الآخر عبر الفتحة الضيقة إلى أن لم يبق منهم في الخارج سوى إيدي واثنين آخرين فصاح إيدي إلى ليام وكابوت: "ادخلوا أنتم أولاً". فدفع ليام بكابوت باتجاه البوابة وقال: "سأنتظر بوب". فوافقه كابوت وتبع الجنود إلى الداخل.

وصل بوب أخيراً إلى صديقه على الرغم من أن الحجارة لم تتوقف عن التساقط على رؤوسهم، وصاح: "ادخل" وسقط على كتفه الأيسر حجر كبير فارتدّ عنه وانتهى على الأرض، فعاد بوب للصياح: "هيا". "حسناً، حسناً". قال ليام وأشار لبقية الجنود للحاق بهم.

ازدادت حدة المقدوفات باتجاههم، فانحنى ليام وحمى رأسه بذراعيه في انتظار دوره للدخول خوفاً من إصابته بحجر كبير قبل أن تسنح له فرصة الدخول.

دعاه إيدي بإشارة من يده فلم يضيّع الوقت وتقدّم بين الجذوع الخشبية ودفع نفسه عبر شق البوابة الرفيع المفتوح والقذائف تهبط عليه بلا توقف، فوجد نفسه فجأة داخل مدخل البرج المعتم وسقط أرضاً منهكاً يلهث ويتنفس بصعوبة، وعلى ضوء المشاعل الأصفر الباهت التي كانت تُقذف باتجاههم تمكن من رؤية وجوه الرجال المذعورين الواقفين خلف البوابة، والمستعدين لمواجهة المتمردين إذا قرروا دفعها لفتحها عنوة.

أطل رأس بوب من خلال الفتحة الضيقة فصاح بصوته العريض: "افتحوها أكثر قليلاً لو سمحتم". فاستجاب له الحراس على مضض وفتحوا البوابة عدة إنشات إضافية فتمكن من الولوج أخيراً والانضمام إلى الباقين. وعندها أغلق الحرس البوابة بسرعة وأقفلوها بلوح خشبي غليظ.

استلقى ليام على الأرض منهاراً بينما انهمرت القذائف على البوابة من الخارج بشكل هستيري مسببة دويّاً عالياً لفترة من الوقت ثم بدأ الصوت بالتناقص تدريجاً وشعر الجميع بأن المتمردين قد أصيبوا بالتعب وسئموا لأن ضجيجهم بدأ يصبح متقطعاً مع الوقت وتضاءل إلى أن فقد الشدة التي شعروا بها في الخارج. ثم نادى أحد الحراس من أعلى البرج أخيراً: "إنهم يرحلون".

تنهّد أحد الحراس المسؤولين عن لوح القفل الخشبي خلف البوابة بجانب ليام وقال: "كما حصل البارحة".

قبض ليام على ذراعه وسأله: "هل جرى هذا البارحة أيضاً؟"
أجابته الحارس: "هذا يحصل في معظم الليالي يا سيدي".

مكتبة الرمحي أحمد ٩٩

الفصل الثامن والثلاثون

قلعة نوتنجهام، ١١٩٤

لم ينته الأمر سوى بأمر ألقاه كابوت لأحد الحراس بعد أن عرض له الرسالة الملكية المختومة التي يحملونها ليقنعه باصطحابهم إلى المبنى الرئيس، حيث وجدوا عمدة نوتنجهام فاقد الوعي فوق طاولة خشبية انتشرت عليها مجموعة من الشموع الكبيرة التي تضيء بنورها المتراقص كمية كبيرة من الأوراق المتراكمة فوق الطاولة وصحن طعام مهمل لم يلمسه أحد.

”ما الأمر الآن؟“ قال بصوت مرتعش من شدة الشكر، فتح عينيه الغائمتين المحمرّتين فتراجع إلى الخلف واستند إلى كرسيه متهاكاً لدى رؤية وجوههم الغريبة ومدّ يده بطريقة خرقاء لتناول سيف كبير موضوع على الطاولة أيضاً، فانزلق منه وسقط أرضاً مع بعض من الأوراق التي تراكت بجانبه. فبادره الحارس الشاب صاحب الشعر الأحمر المطل من طرف خوذته قائلاً:

”مولاي؟ هؤلاء ليسوا أعداءنا“.

فتوقف العمدة عن محاولة التقاط سيفه المرمي أرضاً ونظر إلى الأعلى وقال: ”ليسوا من الأعداء؟ هل نجونا من الخطر؟ هل رحل المتمرّدون؟“

وتقلّصت عيناه الدامعتان الباديتان خلف خصلة من الشعر المدهن القذر.
”هذا الغبي مخمور كلياً“. دمدم ليّام من بين أسنانه.

”نعم يا مولاي... انصرفوا كما فعلوا البارحة“. أجابه الحارس الشاب.
استرخى العمدة في كرسيه وتنفس الصعداء وترك سيفه على الأرض،
وشكر الله على نجاته هذه الليلة بكلمات ثقيلة غير مفهومة ثم مدّ يده لتناول
كأس الخمر ليعود للشرب مرة أخرى. فتقدم كابوت باتجاهه وقال:
”مولاي، لقد أرسلنا جلالة الملك، جلالة إيرل كورنوال وغلوشتستر“.
”حقاً؟ وما الذي يريده مني جون الآن؟“ وابتسم لهم ثم أفرغ كل
محتويات الكأس في فمه.

”لقد أتينا من قلعة الملك جون مباشرة إلى هنا لتنفيذ أوامره“. أجابه
كابوت.

فضحك نوتنجهام مجدداً وقال: ”أوامر؟ لي أنا؟“ وحاول الوقوف
على قدميه فتعثّر وخطا خطوة واحدة إلى الأمام مما أفقده توازنه وتسبّب
بسقوطه أرضاً. تكوّم الرجل على الأرض وبدأ يتذمر ويتأفّف، واكتشفوا
بعد بعض الوقت أنه يشخر نائماً بعمق بينما يقفون هم بانتظاره.

”لن يفيدنا بأي شيء“. قال كابوت، فتنهّد ليّام ونادى بوب قائلاً:
”بوب... خذه إلى سريره“. فانبرى بوب لرفعه عن الأرض ووضع
على كتفه بلا اكتراث وأوصله إلى سرير كبير مصنوع من خشب السنديان.
ثم التفت ليّام إلى الحارس وقال: ”هل هو مخمور دائماً هكذا؟“ فحار
المسكين في الإجابة التي يجب عليه أن يدلي بها، فنهزه يدي: ”أجب
الرجل“.

”نعم يا مولاي... إنه يسكر هكذا دوماً بسبب الخوف“. ونظر
الحارس إليهم برهبة.

”الخوف مماذا؟“ سأله ليّام.

”من الشعب يا مولاي... من الرعا ع الغاضبين... إنهم يحضرون إلى
هنا كل ليلة، يتجمّعون ويحاولون إحراق البوابات“.

”أين الضباط المسؤولون أيها الشاب؟ أين هم؟ من المسؤول هنا.“
رفع الحارس الشاب كتفيه وقال: ”لقد هجرونا وذهبوا لخدمة أسياد آخرين.“

”من القائد هنا إذا؟“
”العمدة“

”ولا يوجد أي ضابط؟“

”لا يا سيدي... لا يوجد سوى بعض الحراس المسلحين.“
”وكم عددهم.“

”لقد خسرنا كثيراً من قواتنا يا سيدي، ربما لا يزيد العدد عن مئتين، لكن المزيد منهم يغادرون يومياً.“

”ولماذا بقيت إذا؟“ سألته ليام.

”بسبب وجود الطعام . ولأنني أخاف ما يمكن للرعاع أن يفعلوه بي يا مولاي... لقد سمعت ما جرى للحراس الذين تركوا القلعة، سمعت ما فعله الناس بهم.“

شتمه إيدي وقال: ”لن تصمد هذه القلعة طويلاً إذا ما كان الحراس الموجودون بداخلها خائفين إلى هذه الدرجة.“

أوما كابوت موافقاً وقال: ”ستواجهك كثير من المصاعب هنا يا ليام.“
لاحظ كابوت دهشة الحارس البادية في عينيه فقال له: ”يدولي يا فتى أنك تقف أمام عمدةك الجديد، وأنا متأكد من أنه لن يكون أسوأ من ذلك الأحمق السكران ويليام صاحب ويندل“. وأشار بعينه إلى العمدة المرمي على السرير في الطرف الآخر من الغرفة. ثم التفت إلى ليام وقال: ”هناك كثير من الأمور التي لا بدّ من اتخاذ قرارات فورية بشأنها قبل أن نبحت عما حضرنا لأجله.“

هزّ ليام رأسه موافقاً بصمت... يا إلهي... هل يُفترض بي أن أحكم هذه القلعة الآن؟

”هذا صحيح... نعم، مؤكّد“. قال ليام من دون حماس، وشعر بأن

كابوت وإيدي والحارس الشاب وبوب ينظرون إليه بانتظار أن يقول شيئاً ما.

لماذا حلّ بي هذا؟ لماذا أنا؟

فقال بعد فترة من الصمت والتفكير:
”حسناً.. حسناً“.

لكن العيون لم تتوقف عن انتظار أوامره، فقال: ”إيدي“
”أمر مولاي“

”ستكون مسؤولاً عن رجال القلعة“.

”حقاً يا مولاي“؟ وفتح فمه بدهشة.

”نعم بالتأكيد. ستكون قائد الحامية اعتباراً من الآن، تولّى أمر الأسوار
هذه الليلة، اتفقنا“؟

”أمر مولاي“. قال إيدي بحماس.

انتظر ليام ذهابه لكنه لم يذهب، فأدرك أنه ينتظر أمر انصرافه منه
شخصياً، فقال: ”حسناً، يمكنك الانصراف الآن“.

”أمر مولاي“! واستدار على عقبيه وصاح بالحارس الشاب: ”اتبعني
يا فتى“، ثم خرجا بخطواتهما الثقيلة وسمع ليام بعد دقيقة صوته المدوي
آتياً من الأسفل.

ضحك كابوت وقال: ”ليام صاحب كونور... المسافر الغامض القادم
من المستقبل، لقد أصبحت الآن جزءاً من التاريخ، أنت الآن عمدة قلعة
نوتنجهام“.

”هذا سيسبّب ثلوثاً زمنياً، وهو خارج عن أهداف مهمتنا“. قال بوب.
”نعم، أنا أدرك هذا جيداً“. ونظر إلى الرجل المخمور النائم على السرير
الذي لا يلائم وضعه ومكانته، لم يكن أكثر من حطام إنسان مخمور، وربما
دفعته هذه الأحوال إلى هذا الوضع، ربما دفعه الخوف والتوتر باعتبار أنه
المسؤول الوحيد وسط كل هذه الفوضى. لقد رأى ما يكفي ليعرف أنه
موجود في بلاد مفلسة محفوفة بالمخاطر على شفير الانهيار، بعد أن

بلغت الضرائب المفروضة على الشعب حداً لا يمكن احتمالها وأدت بهم إلى المجاعة، وفي الوقت نفسه يقوم النبلاء والبارونات واللوردات بالتآمر ضد الملك جون رافضين دفع المبالغ المفروضة عليهم، في الوقت الذي يفترض بهم أن يدعموا السلطات ويؤمنوا الرجال لإحلال الأمن من جديد. إنها بلاد غارقة في الفوضى... في دوامة مريعة، لكنها فوضى لا تخصه ولا تخص بوب، إنه وضع البلاد في تلك الحقبة ولا يجوز التدخل فيها. "أخشى يا سيد كابوت... أن صديقنا المخمور الذي يشخر هناك ما زال العمدة". قال ليام.

"هل تدرك أن هذه القلعة هي المسؤولة عن حماية بوابة البلاد الشمالية؟ هل تفهم هذا؟ إذا وقعت في أيدي الرعاك الهائجين فسيضيع القسم الشمالي من المملكة".

"هذا صحيح، لكن هذا ليس شأننا، وإذا حصل هذا بالفعل فهذا يعني أنه أمر مقدّر ولا بدّ من حدوثه، لا يمكنني التدخل في مجرى التاريخ". أمعن كابوت النظر إليه لبعض الوقت ثم قال: "هل ستدع ذلك يحدث؟ إذا انهار النظام فستغرق الأرض بدماء الأبرياء". كابوت على حق.

"معلومات: لا توجد أي أخبار في التاريخ تفيد بسقوط قلعة نوتنجهام في قبضة المتمردين". قال بوب. "هل أنت واثق من هذا؟" سأله ليام. "متأكد تماماً".

"جيد جداً. أنت تقصد أن كل ما يجري هنا ليس صحيحاً حسب مجريات التاريخ، أليس كذلك؟ أن كل هذا لا يفترض به أن يحدث؟" وافق بوب بإشارة من رأسه وقال: "يبدو أننا نمر بحوادث لم يسجلها التاريخ".

الفصل التاسع والثلاثون

نيويورك، ٢٠٠١

”سال.. سال.. هل أنت بخير“؟

لاحظت مادي أن سال كانت تترنح في مكانها ثم سقط كوب الشاي من يدها وانكسر وانتشرت شظاياه على الأرضية الإسمنتية، فقامت بخطوة مترددة ثم استندت إلى طرف طاولة المطبخ، فنهضت مادي عن كرسيها الكبير وأحاطت كتفها بذراعها لتحميها من السقوط. فأجابتها أخيراً:

”أشعر بالدوار“.

”هل هي بخير“؟ سأل آدم.

”أنا بخير، لكنني أعتقد أنني شعرتُ بـ...“

فجأة، انقطعت الكهرباء وعم الظلام المكان.

”إنها موجة تغيير زمانية“.

”ماذا“؟ وتمكنت من سماع أنفاس آدم القلقة وشعرت بأنفاسه بجانب خدّها، ويديه تتخبطان في الظلام، ثم قال: ”ما الذي جرى؟ هل هذا تحول آخر في مسار الزمن“؟

عادت الأضواء فجأة وسط هدير محرك مولد الكهرباء.

”آه... ها قد عادت الكهرباء للعمل من جديد. تلك إشارة جيدة“.

قالت مادي وهي تنظر إليه. ثم عادت شاشات الكمبيوتر للعمل واحدة تلو الأخرى فقالت سال: "إنها موجة قوية جداً".
"نعم، هذا صحيح".

نظر آدم إليهما وسألهما: "هل يعني هذا بأننا...؟"
"أنا في زمن مواز؟ في سنة ٢٠٠١ موازية لتلك التي كنا نعيش بها؟"
انتفض آدم مندهشاً فأجابته من جديد: "نعم هذا صحيح... دعنا نرى وجه الاختلاف". واتجهت إلى طاولة الكمبيوتر الذي كان على وشك الانتهاء من استعادة إعداداته وملفاته السابقة ووجدوا حوار بوب مفتوحاً على أحد الشاشات:

< تمت استعادة النظام.

"بوب؟"

< أهلاً مادي.

"لقد مررنا للتو بموجة تغيير زمني".

< أعلم.

"لكننا لا نزال نحظى بالطاقة الكهربائية". قالت مادي وهي تعرف بأن جمليتها هذه تدل على الغباء.

< نعم، ما زلنا نحظى بالطاقة الكهربائية، لكنني كنت مضطراً لتصحيح شدة التيار الكهربائي وتعديل الإعدادات.
"ماذا؟"

< التيار الذي يصلنا قوي جداً.

نظرت إلى سال وآدم الواقفين بجانب المكتب والحيرة تملأهما وقالت:

"ربما كانت الموجة أقوى مما اعتقدت".

< معلومات: ليس لدينا أي اتصال بمعلومات العالم الخارجي.

"ألا توجد شبكة انترنت؟ هذا ليس جيداً أبداً". قالت سال بخوف.
أومات مادي برأسها باتجاه الباب الخارجي وقالت: "لقد تغير العالم

الخارجي بشكل كبير جداً... لا بد لنا من أن نخرج لنرى بأعيننا".
اتجهوا إلى البوابة وضغطت مادي على الزر الأخضر فلم يحدث
أي شيء، لأن البوابة الكهربائية مرتبطة بخط الكهرباء الرئيس القادم من
الخارج ولم يتم تصحيح شدة التيار الواصل إليها فلم تعمل.

"رائع". تمت مادي. وبدأت بتدوير رافعة يدوية لفتح البوابة.
"اسمحي لي". قال آدم وتولى الأمر بدلاً عنها.

ارتفعت البوابة ببطء فتسلل ضوء النهار الساطع جداً إلى الداخل، لكنه لا
يتلاءم مع هذا الوقت من النهار المعتاد بالنسبة إليهم، فتفقدت مادي ساعتها
وتأكدت من أنها تقارب الرابعة عصراً، وهي تعلم بأن جسر ويليامزبرغ يبدأ
بحجب ضوء النهار عن زقاقهم بدءاً من الساعة الثانية ظهراً.

توقف آدم عن رفع البوابة بعد أن وصلت إلى ارتفاع جيد ونظر بسرعة
إلى الفتاتين ثم خرجوا مع بعضهم لالقاء نظرة على المكان.
"يا للهول". قالت سال.

"آه... حسناً... هذه ليست نيويورك". قال آدم.

"لا... لا ليست نيويورك التي نعرفها... مرة أخرى". قالت مادي من
دون اكتراث تقريباً.

انقطع الزقاق المفروش بالحصى على نحو مفاجئ على حدود حقل
الطاقة الخاص بهم، والذي تجاوره الآن مساحة من الطمي والطين الناتج
عن المد والجزر وتنحدر نزولاً حتى النهر الشرقي. وشاهدت مادي عدداً
من زوارق الصيد المختلفة الأحجام الراسية على الشاطئ وهي مربوطة
بحبال غليظة إلى أعمدة خشبية خاصة بربط السفن، وبدت لها تلك
الزوارق كالفقمات المستلقية تحت ضوء الشمس في وضعياتها تلك.

كانت جزيرة مانهاتن في مكانها على الضفة الأخرى للنهر بالطبع،
لكن بدلاً عن ناطحات السحاب شاهدوا بلدة صغيرة ناعسة، سقوفها
مائلة ترتفع منها أعمدة المداخن، ولاحظت صليباً في مكان ما في
منتصفها يدل على وجود كنيسة. وعلى طرف البلدة كان هناك المزيد

من القوارب المختلفة وحركة صاخبة لصيادي الأسماك وهم يسحبون حصيلة صيدهم إلى الشاطئ، ويستعينون برافعات صغيرة الحجم لرفع شباكهم المليئة بالأسماك الحية من المراكب إلى رصيف الميناء، وكثير من النوارس تحلق فوقهم وتنقض عليهم في محاولات بائسة لخطف بعض من تلك الأسماك.

”لقد رأينا أسوأ من هذا من قبل“. قالت مادي.

هزّ آدم رأسه وقال: ”إنها... لقد تغيّرت كلياً“.

”بالطبع تغيّرت“. قالت سال مقهقهة.

”لكن الكهرباء متوفرة“. قالت مادي مشيرة إلى أعمدة تحمل مصابيح كهربائية موصولة بخطوط كهربائية على طول الشاطئ. ثم عادت للقول: ”مما يعني أننا لم نرجع إلى عصور ما قبل التاريخ، إلى العصور المظلمة.“

”لكنّ الانترنت غير موجود“، قالت سال.

وعلى جانبهم من النهر، حيث كانت توجد رافعات الميناء الصدئة لقلة الاستعمال ومستودعات بروكلين المهجورة قبل بضع دقائق فقط، لم يجدوا سوى الطين والحشائش وكثيراً من زوارق الصيد القديمة المربوطة بالجمال وشبكات الصيد المهترئة. ثم لاحظت مادي طريقاً ضيقاً على يمينهم تحفّ به أعمدة خطوط الهاتف على طول ضفة النهر، وعلى بعد ميلين منهم لاحظت أيضاً جزيرتي ييلمونت وروزفلت والجسر المعتاد الذي يصلهما بالنهر، كما لو أن شيئاً لم يتغير، إلا أنه كان جسراً غريب الشكل للغاية.

تبع آدم نظراتها ثم سألها: ”هل يمكننا الذهاب إلى هناك واكتشاف ما يجري؟“

زمت مادي شفيتها واستغرقت في التفكير، إنهم بحاجة إلى المعلومات حول الوضع الجديد ليعرفوا متى وكيف حصل هذا التغير التاريخي بالضبط، فقالت: ”يُستحسن بنا الذهاب لاستطلاع الأمر“.

أقفلت مادي الكمبيوتر الرئيس بكلمة سرّ خاصة وخرجوا جميعاً معاً،

وأغلقوا بوابتهم خلفهم. ألقت مادي نظرة على قاعدتهم التي كانت متوارية بين مرتفعين ترابين تغطيهما الحشائش، فوجدت أنها تبدو من الخارج كقبة مهترئة، كما لو كان بيتاً من بيوت الاسكيمو، لكنه مبني من الطوب القديم والذي لا يمكن معرفة عمره، وتمت ألا تكون مرئية للناس الذين ينظرون باتجاههم من الضفة الأخرى للنهر، إذ لا بدّ من أن يلاحظ أحد ما في وقت لاحق الوجود المفاجئ لهذه القبة المبنية من الطوب الأحمر بين الطين والزوارق المهجورة.

وربما كان هذا سبباً أقوى للانطلاق في رحلة استكشافهم قبل فوات الأوان. فقالت لرفاقها: ”هيا بنا“. وأشارت إليهم ليسلكوا الدرب الذي لاحظته قبل قليل، وحاولوا قدر الإمكان تفادي الطحالب الخضراء المتكاثرة فوق الطين متقافزين فوق الحشائش إلى أن وصلوا إلى الطريق المعبد بالحجارة. فقال آدم:

”هذا يذكرني بـ... كالايس... التي تقع في منطقة النورماندي على ما أظن“.

تابعت الجماعة طريقها بمحاذاة الشاطئ إلى أن وصلوا إلى الجسر ولاحظوا وجود مركبة بالقرب منهم، وكانت شاحنة صغيرة محملة بسلال مليئة بالدجاج. عبرت الشاحنة الجسر مصدرة كثيراً من الضجيج من محركها القديم في طريقها إلى ما كان في زمنهم يُسمى مانهاتن. فقال آدم: ”هذا غريب للغاية، الأمر يبدو وكأننا في الأربعينيات أو الخمسينيات من القرن الماضي“.

وكان هذا صحيحاً، لأن الشاحنة بدت وكأنها من نوع فورد الذي نشاهده في أفلام الأبيض والأسود. عبر الرفاق الجسر مشياً على الأقدام متخذين أحد جانبيه، ومَرّت بجانبهم بالاتجاهين دزينة أخرى من المركبات المزينة بالشعارات النحاسية التي تبدو هي الأخرى وقد خرجت للتو من متحف الخرداوات.

عندما وصلوا إلى الطرف الآخر من الجسر انعطفوا يساراً متبعين طريقاً

يسير بهم نحو وسط البلدة المزدهم بالسكان كما يكون الوضع عادة بعد ظهر يوم الإثنين.

انتبهت لوجودهم امرأة مسنة تدفع عربة محملة بالخبز وترتدي ثوباً أسود وتضع منديلاً على رأسها فأثاروا فضولها عندما اقتربوا منها فعبست والحيرة بادية عليها بسبب ملابسهم على الأغلب، إلا أنها أومأت لهم برأسها وابتسمت عندما مروا بجانبها، ثم قالت بالفرنسية بكثير من التهذيب:

”نهاركم سعيد“.

نظر آدم إليهم وقال: ”هل سمعتم هذا؟“

”الفرنسية؟“

هز آدم رأسه.

”أميركا تحدث بالفرنسية؟“ قالت مادي غير مصدقة.

قادهم الطريق إلى ساحة البلدة الصغيرة التي تطل عليها الكنيسة وبيوت ريفية عدّة عالية بعض الشيء، والتي بدت وكأنها تنحني إلى الأمام. وفي وسط الساحة شاهدوا نافورة صغيرة تفور فيها المياه ببهجة وسكينة، وفي تلك اللحظة مرّت من أمامهم دراجة ذات ثلاثة دواليب قديمة تصدر أزيزاً مزعجاً للغاية، وغطى صوتها على صوت ماء النافورة، يقودها رجل عجوز يضع طفلاً صغيراً على ركبته.

”هذا لطيف جداً، أعتقد أنني أفضل هذا الوضع على مانهاتن الأصلية“.

قالت سال.

”إنها فرنسية... هذا ليس صحيحاً“. ردّت عليها مادي بطريقة دفاعية.

بعد لحظات، ملأت أصوات أطفال خرجوا للتوّ من المدرسة صمت

الساحة الوادعة، واصطفوا اثنين اثنين بشكل رتل طويل وهم يحملون

عبوات الماء على أكتافهم ويرتدون جميعاً المايول الأصفر والأخضر

نفسه. راقبهم رواد الزمن وهم يخرجون تباعاً من المبنى المقابل لهم عبر

الساحة، ضاحكين مثرثرين، وهم يصدرون الضجة نفسها التي قد تصدر

عن أي أطفال وهم فرحون بالخروج من المدرسة.

أشارت سال إلى لافتة معلقة فوق الباب الذي يخرجون منه والتي تحمل كلمة: bibliothèque، فسألتهم: "ما يعني هذا؟"

"لست متأكدة... دعيني أرى... ربما استطعنا الحصول على بعض المعلومات من هناك". قالت مادي مستهجنة اللافتة كصديقتها.

تبعها آدم وسال وهي تعبر الساحة وتصعد على الدرجات لتدخل المبنى الخشبي الرطب والمعتم والمفروش بالسجاد، والذي تغطيه من الداخل رفوف تصل حتى السقف مليئة بالكتب.

"أعتقد أنها مكتبة، ألا ترون ذلك أيضاً؟" قالت سال.

"نعم، نعم، هذا صحيح". وافقتها مادي.

إلا أنها لا تشبه أي مكتبة زارتها مادي من قبل، فقد كانت معتادة على المكتبات المعاصرة ذات الجدران الزجاجية التي تسمح بدخول كثير من أشعة الشمس إلى الداخل، والحافلة بالمكاتب ذات الحواسيب المتصلة بالانترنت وبالكراسي البلاستيكية البرتقالية المشرقة، وبرفوف الـ DVDs والمجلات وبالطبع، لا يمكننا أن ننسى، بعض الكتب هنا وهناك. ثم قال آدم:

"التاريخ... يجب أن نجد كتاباً يتحدث عن التاريخ". تردّد صدى صوت آدم في المكتبة الهادئة فاتجهت إليه أنظار بعض الناس بضيق واضح. أومأت مادي موافقة فافترقوا وذهب كل واحد منهم في اتجاه وبدأوا البحث في الكتب المتراسة على الرفوف محاولين تحديد مكان وجود الفئة التي يبحثون عنها، وبعد عدة دقائق همست لهم سال برفق ودعتهم إليها.

انضمّا إليها بالفعل إلى ما بدا لهم أنه قسم مخصّص للأطفال، وكانت تحمل كتاباً كبيراً في يدها وقالت:

"إنه كتاب تاريخ مخصص للأطفال". مرّت سال على صفحات عدّة حافلة بصور ملونة جذابة لشرح المحتويات للأطفال، وشاهدت بينها

رسماً توضيحياً لفيلق روماني وعلى صفحة أخرى شاهدت مخططاً
لسفينة شراعية، ومخططاً زمنياً لحوادث التاريخ، يحتوي على تاريخ العالم
باختصار، وبدا لهم من النظرة الأولى كافياً لمعرفة الحقيقة.

”لا أظن بأن أحداً منكما يستطيع قراءة اللغة الفرنسية“؟ سألتهما مادي.
نفى آدم وسال بحركة من رأسيهما.

”ولا أنا، مما يعني بأننا مضطرون لاستعارته“. قالت مادي وأخذته من
يد سال وخبأته تحت بلوزتها بعد أن تأكدت من أن أحداً لا ينظر إليهم.

”إنه كتاب تاريخ للأطفال، لا يمكننا الحصول على كل ما نحتاج إليه
من المعلومات من كتاب للأطفال... هل تعتقدين بأنك قادرة على ذلك“؟
سألها آدم.

”لن يكون أسوأ من موسوعة ويكيبيديا“.

”ويكي ماذا“؟

”لا تكثرث للأمر“. تناولت مادي كتاباً آخر عن نفس الرف وتصفحته،
ثم وافقت قائلة: ”هذا يبدو جيداً أيضاً“. ودفعته باتجاه آدم وقالت له:
”خبئه أنت“.

الفصل الأربعون

نيويورك، ٢٠٠١

أومض المؤشر على الشاشة لبضع ثوانٍ ثم قال الكمبيوتر - بوب: < أنهيتُ ترجمة النصّ من الفرنسية إلى الإنكليزية. سأحتاج إلى بضع دقائق أخرى لجمع المعلومات.

”حسنًا“، قالت مادي وهي تنقر المكتب بأصابعها بتوتر، ثم قالت: ”أسرع من فضلك يا بوب“.

< حاضر.

تساءلت في ذهنها عن الوقت الذي سيمر قبل أن يطرق رجال الشرطة الفرنسيون بابهم، لأن غرفة عملياتهم المقبّبة هذه مرئية من الطريق، وعلى الرغم من أنه ليس طريقاً مزدحماً إلا أنها واثقة من أنه سرعان ما سيلاحظ أحدهم وجود مبناهم المفاجئ في هذا المكان.

ثم عادت إلى النظر إلى كتاب التاريخ الذي أمضوا النصف ساعة الأخيرة في نقل صفحاته المتعلقة بالقرن الثاني عشر إلى الكمبيوتر. إنه كتاب تاريخ مخصّص للأطفال، وكانت رسومه التوضيحية ملونة بألوان براقية ووجوه الفرسان والجميلات والجنود والفلاحين فيه باسم ذات حدود حمراء، وقد طُبِع النصّ بأحرف كبيرة جذابة. ففكرت مادي بكتب التاريخ

المخصّصة لطلاب المرحلة الابتدائية.

يالها من كتب ملائمة للقيام بالبحوث.

أومض المؤشر مرة أخرى على نافذة الحوار مع بوب- الكمبيوتر، ثم كتب لها:

< انتهى العمل على البيانات، سأقوم بتلخيص المعلومات بحسب تسلسلها الزمني الصحيح.

فُتحت صفحة مستند نص كتابي على شاشة أخرى وبدأ نص جديد بالظهور بسرعة شديدة فيما يقوم بوب- الكمبيوتر بقص ولصق الفقرات المطلوبة نقلاً عن المستند الأصلي الذي قام بترجمته للتو.

اقترب آدم في محاولة منه لقراءة ما يظهر على الشاشة، ووجد أنها كانت جميعها نصوص من دون أي رسومات لأن بوب - الكمبيوتر لم يضع الوقت بترجمة الرسومات التي كانت في غالبيتها رسومات تجميلية للكتاب أكثر من كونها ذات معلومات قيمة، وقد وُضعت في الكتاب لتسهيل تلقين الحوادث التاريخية للعقول الصغيرة.

”يا إلهي!! تمتم آدم... وبدأ بقراءة إحدى الفقرات: ”في عام ١١٩٤، حصل تمرد الفلاحين في شمال المملكة“. ونظر إلى الفتاتين بعينه اللتين اتسعتا دهشة مما قرأه.

”هذا شيء جديد... أليس كذلك؟“ سأله مادي.

أوما برأسه وراح يقرأ بسرعة مجريات أحداث ذلك التمرد: ”تمردُ الفلاحين الكبير الذي أدى إلى سقوط حكم عائلة بلانتاجنت الملكية... قاد جيش المتمردين شخصية تاريخية عُرفت باسم الدوق الحديدي... انسحاب الملك ريتشارد إلى أكويتين... فوضى عارمة تعمّ انكلترا... اتحاد النبلاء ضد الدوق الحديدي... هزيمة جيش المتمردين في معركة هولي كروس عام ١١٩٩... اندلعت بعد ذلك حرب أهلية بين النبلاء...“ ثم اقترب ونقر على الزر الذي ينقله إلى الصفحة التالية وقرأ فيها: ”حرب امتدّت إلى ثلاثة أجيال... انقسام إنكلترا إلى ولايات

متصارعة... تحوّلت الولايات إلى إمارات مستقلة". ثم نقل النصّ إلى الصفحة التالية مجدّداً وقال: "في عام ١٤١٥ قام الملك تشارلز السادس بغزو اتحاد الدوقيّات الإنكليزية". ثم أبعد أنظاره عن الشاشة وقال: "إنكثرا... لا وجود لها الآن".

"هذا يُفسّر تداولهم للغة الفرنسية، أليس كذلك؟" قالت مادي، فتابع آدم القراءة: "في عام ١٥٢١ قامت أول مستعمرة فرنسية على القارة الأميركيّة، وتبعتها أول مستعمرة إسبانية عام ١٥٦٣، وفي عام ١٦٠١ اندلعت حرب النفوذ على المستعمرات بين الفرنسيين والإسبانيين، ثم وقّع ملك إسبانيا فيليب الثالث على معاهدة سلام مع الملك تشارلز السادس عشر بعد أن فازت فرنسا بالحرب بسبب تدخل الجمهورية الألمانيّة لمصلحتهم، وقُسّمت أميركا الشماليّة بحسب تلك المعاهدة إلى مقاطعات فرنسية وإسبانية وألمانية..."

"يا إلهي... مما يعني أن أميركا التي نعرفها غير موجودة". تمتمت مادي.

"إنها موجودة، لكنها ليست إنكليزية، هذا كلّ ما في الأمر". قالت سال.

هزّت مادي رأسها وقالت: "حقاً!... إنها ليست الدولة نفسها على الإطلاق يا سال. ليست أميركا إذا لم تكن... إنكليزيّة كما عهدناها).

رفعت سال كتفيها وقالت: "لن يُغيّر هذا شيئاً في أصولي الهندية مهما كانت الأمبراطورية التي تحكم أرضي. الشعب المولود هنا هو أصل كل شيء مهما كان العلم الذي يحكمنا أو اللغة التي نتكلمها، كما كان والذي يقول".

"حسناً... لا أعتقد أنّ هذه أميركا التي نعرفها ما لم أرى علمها ذا النجوم والخطوط. وهذا ليس صحيحاً بأي حال من الأحوال". قالت مادي بصوت منخفض.

وفي هذه الأثناء لم يتوقّف آدم عن القراءة بصمت، فقال لهما: "اسمها

الآن الاتحاد الأميركي، ولغتها الرسمية هي الفرنسية... لغة القانون والعلوم...“ وتابع استطلاع النص.

”العلوم... أي علوم... لا وجود للإنترنت. وهذه السيارات والشاحنات تعود إلى زمن الحرب.“

”لكن الطب متطور جداً كما يبدو“. وأشار آدم إلى فقرة في أسفل الصفحة مع أن بوب - الكمبيوتر كان يضيف بلا توقف فقرات جديدة للنص المترجم. فقرأ لها:

”العثور على علاج لمرض السرطان عام ١٩٦٣، العثور على علاج للمرض الفلاني، وعلاج لمرض آخر... لا أستطيع قراءة هذه الكلمات...“
”انظروا... عدد سكان العالم لا يتجاوز ٣ مليارات نسمة“. قالت سال.

”إنه نصف عدد السكان في زمننا“. قال آدم.

”إنه الزمن نفسه.“

”أعرف هذا، قصدت أن أقول في سياقنا الزمني.“

ركزت سال أنظارها على الشاشة وهي تبحث بعينها في الفقرات التي تتحدث عن تاريخ القرن العشرين وقالت: ”لا وجود للحربين العالميتين أيضاً“.

أوما آدم برأسه وفرك ذقنه متفكراً وقال: ”هناك بعض النزاعات المسلحة في أفريقيا، وحربان في أميركا الجنوبية، لكن الحروب تبدو هنا أقل بكثير مما عهدناه في...“

”ماذا؟ هل تقصدان أن الحروب أقل لأن أميركا غير موجودة؟ هل هذا هو ما تقصدانه؟“ قالت مادي بنزق.

دُهِش آدم قليلاً وقال: ”ليس بالضبط. ربما كانت قلة الحروب عائدة إلى قلة السكان، لأن هذا يعني نزاعات أقل بكثير على موارد العالم، لا أعرف... لست مختصاً بعلم الاجتماع.“

صمتوا جميعاً لفترة من الوقت فيما لم يتوقف بوب - الكمبيوتر عن

إضافة صفحات جديدة من المعلومات إلى المستند.

”إنه يبدو لي عالماً أكثر سلاماً بكثير من عالمنا.“ قالت سال في النهاية، والتفتت إلى آدم وقالت: ”لا بدّ لي من القول أن هذه أفضل موجهة تغيير زمني مررنا بها على الإطلاق، ومن المؤسف أننا مضطرون لـ...“ نظرت مادي إليها وقالت: ”سال... لا أسمح لك حتى بالتفكير بالأمر.“

”ماذا؟“

”أنت تعرفين قصدي جيداً.“

”إنه مجرد رأي... هذا كل ما في الأمر.“

”احتفظي به لنفسك إذا... لا يمكننا ترك العالم هكذا على هذه الحالة لأنه يبدو لنا أفضل من عالمنا، إنه تاريخ مختلف تماماً، تاريخ آخر.“

”ولكن...“

”ولكن ماذا؟“

تردّدت سال ثم قالت: ”ولكن ماذا سيحدث إذا لم نصحّحه، وتركناه على حاله؟“

حملقت فيها مادي بصمت.

”أنا جادة... ماذا لو لم نرجعه كما كان؟ ماذا سيحدث إذا أعدنا ليام ورفيقه إلى هنا وتركنا العالم كما هو عليه الآن؟“

هزّت مادي رأسها وقالت: ”سال... هذا ليس وقتاً ملائماً لمثل هذا الحديث“. وأشارت بطرف عينها إلى آدم الذي كان يراقب حوارهما، ثم قالت: ”وبالتأكيد لا ينبغي علينا البحث في هذه الأمور أمام شخص لا ينتمي إلى المنظمة، هل تفهميني؟“

وفي هذه اللحظة لاحظت مادي لأول مرة الدمعات المترقرة في عيني سال، فصمتت. ثم قالت سال: ”كل ما تعرفينه يا مادي لا يتجاوز عام ٢٠١٠، أنت لا تعرفين أي شيء عن زماني، لم تشاهدي نيويورك في العام ٢٠٢٦، ولا تعرفين أي شيء عن شكل العالم في ذلك الزمن.“

”لا، لا أعرف، ولكن...“

”إنه خراب تام. إنه ينهار رويداً رويداً، ونحن نعرف بأنه سيزداد سوءاً مع الوقت“.

فحذرتها مادي: ”سال! لن نقوم بهذا الآن. لن نتكلم بهذا الأمر أمام آدم“.

”لكنه ينهار... وأنت تعرفين ذلك. أنا متأكدة من ذلك أيضاً... إنه يسوء يوماً بعد يوم. التلوث.. والاحتباس الحراري، وحروب النفط، ولا نعرف أبداً كيف ستنتهي تلك الأمور. لكن هذا العالم... انظري إليه... إنه عالم أفضل بكل المقاييس“.

بدت الدهشة واضحة على وجه آدم وقال: ”حروب النفط؟“
أسكتته مادي بحركة من يدها وقالت: ”سال... اسمعيني... لقد عاهدنا فوستر على أن نحافظ على مجرى التاريخ كما هو من دون تغيير مهما كانت النتيجة سيئة أو جيدة. هل تذكرين ما أخبرنا به؟ لا يمكننا تغيير التاريخ إلى الشكل الذي يعجبنا، لا يمكننا ذلك بكل بساطة، لأن... لأنه...“
”لأنه ماذا؟ لم يخبرنا أبداً عن السبب... لم يشرح لنا أبداً تلك النقطة“.
لم يشرحها لنا بالفعل أبداً... لم يخبرنا أي تفاصيل.

”قال لنا أنه لا بدّ للتاريخ من سلوك مسار محدد، وإلا فسينهار كل شيء...“

”عن أي شيء تتحدثين؟“

”عن نسيج الزمان والمكان، شيء من هذا القبيل. عن التركيبة الزمكانية، هذا ما قاله لي، إنها الروابط التي تحافظ على عالمنا كما هو ليبقى موجوداً“.
فهمت سال تماماً قصد مادي لأنهما شاهدتا من قبل إحداها، مرة واحدة.

حدثت الفتاتان بعضهما ببعض بصمت في تحدٍ متبادل لمن يجروا على التفوّه بتلك الكلمة بصوت عال.

”ما هي تلك الأشياء؟“ سألهما آدم.

تجاهلته مادي وعادت إلى الحديث مع سال: ”سال... أعرف أننا

وجدنا أنفسنا هنا من دون أي مساعدة وأنا رُميْنَا في وضع مأساوي من دون ذنب اقترفناه. لا يمرّ عليّ يوم واحد لا أتمنى فيه عودة فوستر إلينا ليرشدنا إلى ما يجب علينا فعله بدلاً من الضياع الذي نعيشه. في الحقيقة لا يمرّ يوم واحد لا أتمنى فيه الخروج من ذاك الباب وترك كل شيء خلفي. لكننا هنا لسبب ما. إذا لم نقم بكل ما فعلناه من قبل لكان العالم قد بقي صحراء جرداء مشعة نووياً، أو ربما بقي أدغلاً تستعمرها الزواحف، كل ما أنا متأكدة منه الآن أننا قمنا بالأمر الصحيح في الوقت الملائم وقد فعلنا خيراً بكل تأكيد... ألا توافقينني؟ أنا فقط...“

“أنت لا تعرفين كل شيء يا مادي“. قالت سال بهدوء.

جمّدتها كلمات سال حتى الموت فقالت: “لا. أنت على حق، أنا لا أعرف كل شيء. وفي الحقيقة كل ما أعرفه هو أنني لا أعرف شيئاً كثيراً. وهذا يخيفني حقاً، كما أنني لا أعرف معنى ذلك التحذير الذي وصلنا... لا أعرف“. ثم توقفت مادي عن الكلام لأنها أدركت أنها إن أكملت كلامها فسيكون عليها الحديث بوضوح عن رسالة باندورا أمام آدم.

“آدم... ما رأيك أن تخرج لإلقاء نظرة على الطريق، للتأكد من عدم وجود أي صياد فرنسي فضولي في الخارج“.

نظر إليهما معاً وقال: “حسناً“. ثم نهض وذهب إلى البوابة وبدأ بتدويرها يدوياً للخروج. فعادت مادي للحديث مع سال بهدوء: “كل ما نعرفه أنا وأنت وليام هي المعلومات التي أخبرنا عنها فوستر، ولا بدّ لنا من الوثوق بكلامه لأنها المعلومات الوحيدة المتوافرة لدينا“.

نظرت سال إليها من دون أن تجيبها. فتابعت مادي: “لكننا على وشك معرفة المزيد، أعدك... سنعرف المزيد عن كل شيء من خلال مخطوطة فوينتش... سنكتشف حقيقة باندورا وسنعرف القصد من وراء ذلك التحذير، وعندما نعرف المزيد... ربما تسنّت لنا الفرصة في تلك الحالة لاختيار أقدارنا بيدنا... هل تفهمينني؟“ وابتسمت لصديقتها.

حنت سال رأسها ببطء إلى الأمام. فعادت مادي للقول: “وإلى أن نصل

إلى ذلك... كل ما نعرفه هو ما كان مقدراً من البداية، وما ليس مقدراً من البداية أيضاً. وهذا الوضع بالتأكيد ليس مقدراً أبداً".

التفتت سال إلى شاشة الكمبيوتر الذي يقع خلف رأس مادي وقالت: "أعتقد أن بوب يوافقك".

فالتفتت مادي أيضاً لتقرأ رسالة بوب - الكمبيوتر:

< تحذير: لقد تغيرت أولويات المهمة. حصل تلوث زمني كبير، لا بدّ من تصحيح مسار التاريخ.

"نعم يا بوب، أنت على حق. لا بدّ لنا من إرسال رسالة إلى ليام على وجه السرعة".

الفصل الواحد والأربعون

قلعة أوكسفورد ١١٩٤

مكتبة الرمحى أحمد

”إذا أتممنا المهمة بنجاح يا ليام أو كونر، وعدنا إلى ديارنا، هل تنوي التخلّص منّي؟“

”التخلّص منك؟ ماذا تعين؟“

”التخلّص من هذا الجسم واستبداله بوحدة دعم مذكّرة؟ سمعتُ سال فيكرام تصف جسدي الفيزيولوجي بأنه كان مجرد ”غلطة“.

أعادت بيكرام تسجيلها لذلك الحوار الذي جرى بينها وبين ليام عندما كانا يمشيان على أحد الشواطئ في حقبة ما قبل التاريخ ويراقبان الحيوانات العاشبة التي كانت تعيش في تلك الحقبة وهي ترعى في ذلك السهل المنبسط أمامهم. وعرفت أن السبب الوحيد لوجودها بينهم هو أن سال شغلت من دون قصد منها أنبوب توليد جنين مؤنث بدلاً من جنين مذكر كانوا ينوون توليده.

”لماذا تعتقدين أننا سنتخلص منك حال عودتنا يا بيكرام؟“

”لأن وحدة الدعم المذكّرة أشدّ تأثيراً من الوحدة المؤنثة بـ ٨٧ في المئة في ساحة القتال“.

”حسناً، لا أعرف ما الذي يمنعنا من الحصول على كلٍ منكما... لم لا

نحصل على بوب وبيكس معاً؟ لا توجد قوانين تمنعنا من هذا، هل هناك تعليمات من المنظمة حول هذا الشأن؟ هل يوجد ما يمنعنا من الحصول على وحدتي دعم في الفريق الواحد؟

”لا. لا توجد تعليمات من المنظمة بهذا الشأن“.

”لهذا... سنحتفظ بك معنا... لم لا؟ وسيكون لدينا وحدتا دعم بدلاً من واحدة“.

ليست تلك الذكرى الآن سوى تسجيلاً مضغوطاً في ذاكرتها للسماح بتخزين أكبر كمية ممكنة من المعلومات على سواقتها الصلبة. والصورة التي تراها في ذهنها الإلكتروني مجرد بيكسلات، والصوت ليس تسجيلاً، وفي تلك اللحظة بالذات، قام عقلها الإلكتروني بتسجيل ملف جديد يحتوي على تقرير حول استجابة عصبية صدرت عن الجزء الصغير الوحيد الموجود من دماغها الفيزيولوجي الأصلي. وقد وضعت الملف في ذاكرتها تحت اسم بلا معنى، فقط لوضعه في الأرشيف وتصنيفه لاستدعائه حال احتياجها إليه: ٥٧٧٣٩٩٢٩.

”هل كان أدائي جيداً مقارنة بأداء بوب؟“

”نعم، بالطبع، لا أعرف ما كان سيحلّ بنا لو لا وجودك معنا يا بيكس“.

وقد احتوى الملف على تسجيل لاستجابة عقلها لكلام ليام في تلك اللحظة، لقد شعرت بنبضات كهربائية دقيقة عدّة في الخلايا العصبية القليلة المتبقية من دماغها البشري الأصلي، وربما كانت هذه النبضات أقرب استجابة من عقلها لما يمكن وصفه بالمشاعر البشرية الحقيقية.

تأملت بيكس بهدوء وصمت بلدة أو كسفورد الغافية من الأعلى، التي لا يضيئها سوى نور القمر الباهت الضعيف والمتقطع، وراحت تحلل محتويات الملف وتفحصها وتدرسها جيداً متسائلة عما يمكن لهذه المشاعر البشرية أن تكون عليه.

”هل هو الامتحان؟“

لا، إنه ليس الامتحان. بدا لها أن شعورها أقوى من هذا. لم يكن مجرد

استجابة بسيطة لمديح ليام لها، هناك شيء آخر. هناك عام ل إضافي في الموضوع. استعرضت ييكس المشهد بكامله في ذهنها ومرّت على كل المعاني الرقمية المحتملة لاستجابة عقلها الفيزيولوجي الضئيل محاولة استعادة تلك اللحظة الشعورية العابرة التي اختبرتها.

الأمر أكبر من الامتنان... لقد شعرت بقيمتها، فتوقفت عن اعتباره مجرد خطأ رقمي في تفسير المعلومات.

لكنه لم يكن ذلك أيضاً، لأنها لا تزال تحتفظ بأجزاء من تسجيلها الرقمي لما حدث في تلك الآونة من دون تفسير.

أعادت استعراض المشهد مرة أخرى، تلك اللحظة... تلك الذكرى... فاختلف وجهها الجامد دوماً ذو الملامح القاسية الباردة وتبدلت ملامحها كلياً بعد حدوث استجابة شعورية جديدة كلياً، بسيطة نعم... لكنها موجودة. وارتعشت يدها في هذه المرة، ففهمت ذلك العام ل الغامض... لم يكن ما شعرت به مديحاً لدورها، لم يكن مجرد تسجيلها لرأي ليام باستمرارها في العمل معهم بعد عودتهم إلى ديارهم، بل كان كل ما في الأمر هو فرحها بأن إنساناً قد قال لها ذلك. ولم يكن أي شخص، بل ليام أوكونر.

أطرقت رأسها وسط الظلام الذي يعمّ غرفتها، بينما داعبت نسمات الليل ستائر نافذتها الصغيرة، حائرة في ما يمكن أن يعني هذا بالنسبة إليها. توقفت ييكس عن معالجة المعلومات عندما سمعت باب غرفتها يفتح بهدوء فالفتت بصمت لتعرف هوية الشخص الذي دخل عليها، فشاهدت ظلاً يتقدم نحوها على الرغم من الظلام وسمعت حفيف خفّ الجلد الناعم على أرضية الغرفة، ثم بادرها:

”ليدي ريبिका“؟ فتعرّفت إلى صوت جون الرقيق. ثم قال:

”إنه أنا... هل أنت نائمة؟“

اتجه جون نحو السرير وأبعد الشرشف فلم يجدها، فقال:

”ليدي ريبिका“؟

”أنا هنا“. أجابته.

لاحظت بيكس تمايل الظل بسبب المفاجأة، ثم قال متنهداً:
”يا إلهي...“

لاحظت ظله يلتفت باحثاً عنها في الظلام من جهة إلى أخرى ثم وجدها
أخيراً واقفة بجوار النافذة فقال:

”ها أنت ذا... ألا تستطيعين النوم؟“

”لا... لا. لم أتمكن من النوم.“

”ولا أنا... أنا... الأفكار تتخبط في ذهني وتمنعني من النوم“. اعترف
لها جون وهو يدور حول السرير ليصل إليها، ثم وقف بقربها، ثم اقترب
أكثر، ولاحظت بيكس أنه اقترب منها أكثر مما يفعل الناس عندما يتكلمون
مع بعضهم في الحال العادي. ثم عاد للقول: ”ذهني... يحتاج إلى ما يهدئه
ويصرفه عن التفكير بكل تلك الاضطرابات والمشكلات“. ثم همس
بنعومة: ”وأنت... أنت يا ليدي رييكا... أنا أشعر بالانجذاب إليك...“
وشعرت بيكس بيده تلمسها برقة على رقبتها.

”خطر محقق“

مدّت يدها وأبعدت يده عنها بحزم.

”آه... وهذا هو أكثر ما يجذبني إليك يا عزيزتي... أنت... شرسة
جداً“. قال جون مبتهجاً.

”تحليل: هذا الإنسان يجذبه سلوكي في الدفاع عن النفس“

”أنا أحب طريقتك... لقد أغرمتُ بالطريقة التي دافعت بها عن نفسك
عندما اقترب منك ذلك الجندي يا عزيزتي“. وشعرت بأنفاسه الحارة على
رقبتها.

فهمت بيكس أنه كان يشير إلى الجندي الذي كادت أن تدقّ عنقه
البارحة، فسألته: ”هل أعجبك ذلك؟“

أوماً برأسه وقال: ”من النادر أن نرى امرأة... امرأة مثلك... شديدة
ال... ال...“

”شديدة القوة“؟

”القوة، نعم. يا إلهي... نعم. امرأة مقاتلة مثلك“.

وبحركة رشيقة من يدها، رفعت عن الأرض وقلبته على ظهره ورمته أرضاً، فسقط بقوة وتأوّه بشدة، ثم قفزت فوق صدره وخنقت أنفاسه محيطه رقبتة بإحدى ذراعيها، لكنها أفلتته في اللحظة الأخيرة قبل أن يختنق ويفقد الوعي تماماً.

تخبط جون على الأرض محاولاً استعادة أنفاسه، وقد جحظت عيناه ولمعتا تحت نور القمر المتقطع. وراح يقول: ”يا إلهي...يا إلهي...“

حلل عقلها الإلكتروني نبرة صوته الصاخبة المتألّمة وربطتها بنبض دمه المتسارع في عروقه البارزة من رقبتة وأدركت أنها أخطأت في تحليل رغبته في التقرب منها.

أفلتت قبضتها عن رقبتة وقالت: ”أعتذر منك يا مولاي“.

حملك جون بها بصمت وحشرجة أنفاسه تملأ الغرفة من حولهم، وقطب حاجبيه السميكين إلى أن بدوا كما لو كانا خطأً سميكاً متصلاً، وهو تعبير لا تعرفه بيكس... فلم تفهمه.

ثم سأله بعد فترة من الصمت:

”هل أغضبتك“؟

الفصل الثاني والأربعون

قلعة نوتنجهام، ١١٩٤

”هل تعلم أن المأمورية التي نفذهـا ليست سوى مأمورية مخصصة للحمقى؟ أتباع الرجل المقنّع يملأون غابات الملك ويقاتلون بشراسة لأنهم لا يتبعون سوى قانون الغاب“.

قال كابوت، فتنهّد ليـام. لم يأتِ نوم الليلة بشماره، لأن وضعهم لم يبدُ له أفضل في صباح هذا اليوم البارد من كانون الثاني.

شقّت أعمدة الدخان الباقية من آثار أعمال الشغب التي حصلت في خلال الليلة الفاتئة عنان السماء، وشعر ليـام بأن المدينة الضعيفة الهاجعة في الأسفل ترمقه بعيون مترعة بالضغينة والحقـد.

”لا بد من أنك تدرك يا سيد كابوت بأن بوب وأنا لم نحضر إلى هنا لنقوم بدور رجال الشرطة، لا بد للعمدة من حلّ هذه المسائل بنفسه“. ثم التفت إلى بوب الذي يجلس على كرسي خشبي قرب النافذة ويتأمل البلدة بعينه بصمت وقال:

”بوب... أخبره بالمعلومات التي لديك“. فاستجاب بوب لطلب ليـام بصوته الخشن من دون أن يرفع عينيه عن أسطح بلدة نوتنجهام: ”أولويات المهمة هي استعادة القطعة الأثرية المسماة بالكأس“.

”ويليام دي ويندنبيل ليس سوى أفاق مخمور لا يصلح لشيء... حتى أن رجاله يهجرونه، ولم أكن أعرف أن سلطة جون قد تضاءلت إلى هذا الحد... لم أكن أعرف مدى سوء الوضع حتى رأيته بعيني.“

”أنا آسف... لا يمكننا البقاء هنا... يجب علينا الانطلاق للبحث عن الكأس.“

”ألا تفهم يا ليام؟ إذا عمّت الفوضى في أنحاء البلاد... إذا انهار النظام والقانون... فهذا يعني أن البلاد ستغرق في مستنقع الحرب الأهلية، سيمزق البارونات المملكة إلى دويلات وهذا أسوأ مما هو الحال عليه الآن، لأن الفرنسيين سيجدون فيها فرصة لغزو البلد... لا احتلال إنكلترا. وأنا أقسم بالرب بأنهم سيفعلون ذلك إذا ما وجدوا له سبيلاً.“

”ربما... ربما، لكن تصدينا لمثل ذلك الأمر هو مهمة أخرى غير التي جئنا لأجلها.“ قال ليام وهو يفرك عينيه المتعبتين، ثم أبعد أنظاره عن النافذة وقال:

”نحن نحتاج إلى كل الرجال الموجودين هنا للخروج إلى الغابات والعثور على الرجل المقنع.“

”الخروج إلى الغابات؟ عدد الجنود الموجودين هنا لا يكفي سوى لحراسة هذه القلعة بالكاد، كما أنهم سيقتلون في الغابات بكل تأكيد.“

وافق ليام على كلام كابوت، لأن الجنود القلائل المتبقين في القلعة لم يكونوا سوى لفيف من العجائز الخائفين أو الفتيان المرتعبين، وسيكون إقناعهم بالخروج من القلعة لحراستها من الخارج مستحيلاً، فما بالك بتمشيظ غابات شيرود. هذا أمر صعب جداً.

”بوب... هل لديك أي اقتراح؟“

فلم يخرج بوب عن صمته. فاقرب منه ليام وركز كنفه قائلاً:

”بوب؟ ما بك؟“

ركز كابوت عينيه على بوب وقال: ”ما الذي جرى له؟ إنه يبدو غائباً عن الوعي.“

لاحظ ليام ارتعاش قسمت وجه بوب واهتزاز جفنيه البسيط فسأله مجدداً: "ما الأمر؟ هل تلقيت رسالة ما؟"
"انتظر من فضلك... أنا أعالج المعلومات". أجابه بوب.
"ماذا جرى؟" سأل كابوت مرة أخرى ونهض عن كرسيه المجاور لطاولة العمدة التي لا تزال تحفل بالأوراق المتراكمة واللفائف والمسائل العالقة بانتظار حل العمدة لها.
"أعتقد... أعتقد أننا نتلقى رسالة".

"رسالة؟"

تجاهل ليام تساؤلات الراهب العجوز وتناول مقعداً خشبياً صغيراً وجلس أمام بوب وسأله: "بوب... أخبرني بما تلقيته".
"تلقيت إشارة واسعة النطاق من التاكيونات تحتوي على كمية كبيرة من المعلومات، انتظر دقيقة من فضلك".

لا بدّ من أنها رسالة جديدة من مادي، فتساءل عما جرى واستنتج أن هناك شيئاً سيئاً قد حدث مما دفعها لإرسال مثل تلك الإشارة.
و أخيراً، انتهى بوب من معالجة الرسالة واستعاد تركيز نظراته وتوقف عن التحديق في السماء الرمادية التي تظلل نوتنجهام واستقرت أنظاره على ليام وقال: "تلقينا رسالة من مادي وملفاً مرفقاً يا ليام".
"وماذا تقول الرسالة؟"

"لقد حصلت إزاحة زمنية كبرى وحصل تلوث زمني كبير، بدأت الإزاحة عن سياق التاريخ المعروف في عام ١١٩٤. وتم تغيير أولويات المهمة. لا بدّ من منع حدوث ما سيُعرف في ما بعد بالـ "تمرد الفلاحين الكبير". انظر إلى الملف المرفق لمزيد من المعلومات حول الموضوع والحادثة المذكورة. باندورا الآن هدف ثانوي. نرجو تأكيد استلام الرسالة".

"ما هو الملف المرفق؟" سأله ليام.
رَفَّت عينا بوب مرات عدّة قبل أن يجيب قائلاً: "بدأ تمرد الفلاحين

الكبير الذي حصل عام ١١٩٤ في أثناء حكم الملك ريتشارد للبلاد، وقد أدى غيابه الطويل عن المملكة في حملته الصليبية الثالثة إلى إفلاس البلاد. وتقلص نفوذ الملكية بسرعة في أثناء غياب الملك وتولي أخيه الأصغر جون الحكم...“ تابع بوب القراءة بصوته الرتيب لمدة ساعة وهو يقرأ عليهم كامل محتويات الملف.

وعندما انتهى بوب تكلم كابوت أولاً، لكن صوته الأجش بدا مهزوزاً وضعيفاً بعد كل ما سمعه: “وهذه... كل هذه حوادث ستجري في المستقبل؟ كما كنتُ أقول لك قبل قليل... سيحصل تمرد كبير... حرب أهلية“.

أطرق ليام رأسه متفكراً وقال: “هذا هو ما سجلته كتب التاريخ.“
”سجلته؟“

”أعني أنها ستسجله“. صحّح ليام كلامه.

”لكن ينبغي علينا منعه من الحدوث... لا بدّ لك من...“

”إذا قمْتُ... قمنا ببعض الإجراءات لمنعه... نعم“. وابتسم لكابوت معذراً عما بدر منه مسبقاً ثم قال: ”لقد كنتُ محقاً في كل ما قلته يا سيد كابوت... علينا الاهتمام بأمور أكثر إلحاحاً مما حضرنا لأجله.“
”هل يعني هذا بأنك سوف...؟“

”يبدو لي أنني وبوب سنبقى هنا لبعض الوقت“. ثم نهض واقترب من النافذة واتكأ على حافتها الحجرية وقال: ”تبدو لي أعمال الشغب التي حصلت هنا البارحة كشرارة البداية لتمرد الفلاحين الذي أخبرونا عنه... لقد بدأ كل شيء هنا في نوتنجهام“.

”صحيح... سأصحّح المعلومات بسرعة“. قال بوب.

”أنت مفوّض بسلطة كاملة من قبل جون... ألن تستعملها؟“

رفع ليام كتفيه وقال: ”سأكون مجنوناً إن لم أستعمل السلطة الممنوحة لي“.

”مما يعني يا ليام أنك ستصبح عمدة نوتنجهام الجديد؟“

لاحظ ليام انزعاج بوب من كلام كابوت فقال: "أعلم... أعلم... إذا ما نصبت نفسي عمدة على نوتجهم فسألوث التاريخ من جديد وسأغير مساره... لكن الأمر يبدو..."

"لا. قد يكون مستوى الإزاحة الزمنية مقبولاً وغير مؤثر على الإطلاق". قاطعه بوب.

ضحك ليام وقال: "دعك من ذلك... لم يسجل التاريخ أبداً عمدة لنوتجهم يحمل اسم ليام أو كونور!"

"لم يُذكر اسم عمدة نوتجهم في السجلات التاريخية مطلقاً".

"هل تعني... أن اسمه مجهول؟"

"بالضبط. هذا يعني أن اسمك لن يُسجل في التاريخ. إنه خطر التلوث التاريخي في مثل هذه الحالة منخفض جداً".

انضمّ كابوت إليهما ووقف بجوار النافذة وقال: "هل أفهم من حديثكما أنك قبلت منصب العمدة؟"

"آه... نعم. أظن أنني قادر على ذلك".

"هذا جيد. هناك عمل كثير بانتظارنا". وربّت كابوت على رقبته بحنان.

"ولا بد لنا من التصرف بسرعة". ثم تناول ليام نفساً عميقاً وقال:

"لا بد لنا من مباشرة العمل ابتداءً من هذا الصباح، أظنّ أنه يجدر بنا البدء

بمعرفة كمية المؤن المتوافرة في القلعة والمال الموجود في الخزينة. وربما

استطعنا الاستماع إلى طلبات الأهالي والاستجابة إلى حاجاتهم. ويبدو لي

أن الفقراء المساكين يعتقدون أن الرجل المقنع... مهما كان... بطل من

الأبطال. مما يعني أنه ينبغي علينا الإسراع في إلقاء القبض عليه".

ارتسمت ابتسامة رقيقة على وجه كابوت وقال: "بدايات حكيمة أيها

الشاب".

"كما ينبغي علينا إرسال ردّ إلى قاعدتنا، أخبرهم بأننا تلقينا الرسالة يا

بوب وبأن بيكس في أوكسفورد ليعرفوا مكان وزمان إرسال الرسائل إذا

أرادوا الاتصال بها". قال لبوب.

"حاضر... سأقوم بتحضير رسالة مشفرة لرسمها على شهادة القبر".

أجابه بوب.

"شهادة القبر"؟

نظر ليّام إلى كابوت بعينين يملأهما الشعور بالذنب وقال: "أظنّ أنه كان ينبغي علينا استئذانكم أولاً، لقد... استعملنا شهادة أحد القبور الموجودة في مقبرة دير كيركليس بمنزلة لوح لكتابة الرسائل. أرجو ألاّ تمانع في ذلك. وكل ما قمنا به هو حفر بعض الخطوط، لا أكثر".

"انتهكتم حرمة قبر أحد الناس"؟

أوما ليّام برأسه.

"ومن يكون"؟ زمجر كابوت غاضباً.

"هاسكيت"

زَمَّ كابوت شفّتيه لبرهة ثم قال: "أخونا روبرت؟ إذاً لا داعي إلى القلق... لقد كان رجلاً أحمق بكل الأحوال".

الفصل الثالث والأربعون

فرنسا، مقاطعة النورماندي، حزيران ١١٩٤

تأمل الملك ريتشارد مياه القناة الإنكليزية الزرقاء الفاتحة وهي تتلألأ تحت شمس الصباح، هادئة كطاحونة مهجورة، ساكنة كراهب في صلاته. نظر إلى أمواجها الرقيقة التي ترتطم بالحصى المنتشرة على شاطئ النورماندي بلطف ثم تنحسر هامسة.

انتهى الملك من التبول وعاد للاختباء من جديد خلف الشجيرات، ثم عاد لتفحص مجموعة السفن الراسية المُجهّزة للحرب، وقد أقيمت بينها خيام صغيرة وأخرى كبيرة مخصصة للملوك ترفرف فوقها الرايات. وصلت مجموعة من النبلاء الإنكليز لملاقاته في النورماندي وعرضوا عليه مساعدتهم بالمال والرجال المسلحين، لكنهم بدوا له الليلة الماضية في أثناء اجتماعه بهم في خيمته الملكية كأطفال المدارس البلهاء، وكل منهم يحاول التفوّق على الآخر في عرض ولائه للملك. ابتسم ريتشارد.

إنهم يشبهون حقاً الأطفال المشاغبيين، كلّ يلوم الآخرين على الاضطرابات والفوضى التي تعمّ شمال إنكلترا، كما وصلته شائعات تفيد بحصول تمرّد من قبل الفلاحين والرعا، وكان ينبغي بهؤلاء الحمقى

الذين أتوا لملاقاته هنا في النورماندي أن يحافظوا على استتباب الأمن في البلاد في أثناء غيابه بدلاً من التناحر فيما بينهم والتنافس على الحظوة والسلطة.

ويبدو أن أخاه جون الأبله الذي لا ترجى منه أي فائدة بكل الأحوال، لم يقدّر بأي شيء لمنع الوضع من التفاقم... إنه ضعيف، وهذه هي مشكلته. لقد كان ضعفه مشكلته الوحيدة طوال عمره... يا له من متخاذل جبان. شعر ريتشارد بمرارة في حلقه فبصق.

إنكثرت الباردة الرطبة والقيحة تثير قرفة بأكملها... كل شيء لا يعجبه... أخوه الرعديد، النبلاء المنافقون، الرعاع المتمردون، حتى أن لغتهم القبيحة نفسها تثقل على أذنيه.

إنها مملكتي... مهما كانت، ستبقى مملكتي.

لا قيمة لها، ولا فائدة تُرجى منها سوى الضرائب التي يسحبها من كل تلك المناطق الفقيرة. وهو بحاجة إلى أموال الضرائب ليجمع جيشاً جديداً ويستعيد أراضي الفرنسية التي خسرها في خلال الأعوام الخمسة الماضية. فرنسا.. فرنسا بأكملها من حقه بالوراثة، وهي وطنه الحقيقي. إنها الأرض التي وعده بها الله، وأكثر.

لقد عرف ذلك منذ شبابه، عرف بأن قدره هو أن يحكم كل الممالك المسيحية، لا تلك الجزيرة الرطبة القبيحة المسماة ببريطانيا، وإذا ما وافته الأحوال فلا بد له من حشد مزيد من القوات خلفه لاستعادة الأرض المقدسة والتوغل شرقاً حتى الصحراء العربية ليمحي نهائياً أي أثر لحكم صلاح الدين وجيوشه.

ابتسم الملك لأفكاره، وهبت نسمة أعادت الحياة إلى راياته المرفوعة فوق خيامه فخفقت بحيوية وقوة.

إنها إرادة الله، إنه القدر الذي يريده الله لي.

لماذا قادته إرادة الله لمعرفة قصة اعتراف تريارك إذاً؟ ولماذا وفقه الله في استعادة الكأس من المسلمين؟ إنها بخير الآن. إنها في أمان على تلك

الجزيرة البشعة التي تقع خلف هذه القناة المائية. إنها بأمان في مخبئها في القصر الملكي... بانتظار وصوله لفتحها ومعرفة محتواها. ارتجفت أوصاله إثارة وحماسة لمجرد التفكير بالأمر.

لقد ألقى عليها نظرة خاطفة عندما استخرجها رجاله من السرايب التي تقع تحت القدس، وشاهد بعينه صفحاتها الصفراء المتأكلة الحافلة بسطور وسطور مكتوبة بحبر كاد الزمن أن يمحيه. تمنى لو استطاع الشعور ببعض من القوة الربانية التي قيل أنها تسري فيها، تمنى لو استغرق في معانيها، على الرغم من تشفيرها. لم يحظ سوى بتلك النظرة الخاطفة، ثم أوفدها على وجه السرعة وفي قلب الليل تحت حراسة فرسان المعبد الموثوقين لايصالها سالمة إلى أرض الوطن، إلى إنكلترا، إلى القصر الملكي في أوكسفورد. واحتفظ بمفتاح الصندوق الذي يحتوي على كلمات الله بحوزته، وخبأه في خزنه المنيع المصنوعة من خشب السنديان. إنه نصف الكأس الآخر... مجرد قطعة من الجلد البالي.

”مولاي“؟

قُطعت سلسلة أفكاره فجأة بصوت الحاجب الشاب الحاد المرتجف، الذي يشبه صراخ النوارس أو احتكاك الأظفار بلوح خشبي، فالتفت إليه بانزعاج ورآه راكعاً على الحصى على بعد عدة ياردات منه غير قادر على النظر إليه مباشرة.

”اللوردات يتساءلون... عن موعد انطلاق الأسطول...“، سأله الفتى بقلق واضح.

انفجرت أسارير وجه ريتشارد العريض، لأن خوف الرجال في حضرته يفرحه ويسليه. إنهم يتلعثمون بكلامهم وتهتز أصواتهم وتضعف إلى أن تصبح أشبه بأصوات النساء، يتململون ويتعثرون بأنفسهم، تحتقن وجوههم، وكأنهم يشعرون مثله بطاقة القدر التي تضطرم في أعماقه، وكأنهم يدركون بأن الملك ريتشارد سيحكم امبراطورية قد تتجاوز حدودها أراضي مملكة روما القديمة، وأنه سيحكمها بحزم وقسوة كما

يضبط الأب أولاده.

لأنها مشيئة الله.

”سننتقل هذا الصباح مع حركة المدّ“. أجابه ببطء.

أوماً الحاجب برأسه وتراجع إلى الخلف، فناداه ريتشارد:

”أيها الفتى...“، فتوقف الحاجب وأجاب:

”نعم يا مولاي؟“

”إذا نبحث أمامي بهذا الصوت مرة أخرى فسأقتلع لسانك من مكانه

برأس سيفي هذا“.

شحب وجه الحاجب وأوماً برأسه بصمت من دون أن تسعفه الجراءة

للرد مرة أخرى.

راقبه ريتشارد وهو ينسحب إلى الخلف حتى مسافة مقبولة، ثم استدار

وركض إلى الخيام لإخبار الناس بالتعليمات. فعاد لتأمل القناة وابتسم...

الرياح مواتية لعبور القناة، والنسمات عليلة للغاية.

إنها مشيئة الله.

الفصل الرابع والأربعون

قلعة نوتنجهام، ١١٩٤

أدفأت أشعة الشمس وجه ليام فأغمض عينيه وحاول الاستمتاع بحرارتها وأنصت لضجيج الناس القادم من شوارع نوتنجهام، إلى صوت تقطيع الأخشاب للتدفئة ونهيق الحمير وصخب باعة الأسواق في بداية النهار ونباح الكلاب الذي يثير نباح كلاب أخرى. تعانقت أصدااء كل تلك الأصوات المتداخلة فوق أسقف البلدة الملتصقة بعضها ببعض وصعدت إلى أن وصلت إلى نافذة غرفته العالية في قصر القلعة.

حلق سرب من السنونوات إلى جانب نافذة ليام الضيقة ففتح عينيه ليشاهد مرحها وهي تلاحق بعضها بعضاً. ثم تحولت أنظاره إلى الحقول الممتدة خارج أسوار البلدة التي تشرق تحت شمس الصيف الدافئة بعد زراعتها بالقمح والشعير.

تناهى إلى سمعه صوت غناء أحدهم من الأسفل، وكان صوت امرأة سعيدة قادمة من مكان بعيد.

أستطيع البقاء هنا إلى الأبد.

تنهد ليام... لأنه يستطيع ذلك بالفعل. بإمكانه التخلي عن المهمة، وهجر بوب وبيكس وعدم العودة معهم إلى القاعدة ليبقى هنا عمدة

لنوتنجهام. ولن يمنعه أحد من الاستمرار بهذا الشكل طالما أنه يحافظ على مسار التاريخ كما هو، أليس كذلك؟ يمكن له أن يكمل حياته هنا... سيداً لكل هذه الأراضي التي تقع على مرمى نظره. إنه حلم جميل.

يمكن له الاستغراق بسعادة في هذا الحلم طوال النهار لكنه مضطر للاهتمام بشؤون البلدة، فتنهد مرة أخرى.

وفي الأسفل، وفوق أعلى سور المدينة، شاهد ليام تدريب الحراس. وكان إيدي يدرّب المجندين الجدد برفقة بوب الذي كان يشرح لهم كيفية الوقوف العسكري بانتباه وسيفه يلمع تحت نور الشمس الساطعة وشعره الداكن الخشن يطير فوق رأسه.

ابتعد ليام عن النافذة وانتهى من ارتداء ملابسه، ثم أحضر له أحد الخدم طبقاً يحتوي على خبز طازج بالعسل وإبريق خمر مخفف بالماء، فتناول إفطاره وخرج من مبنى القلعة الرئيس المعتم بعد عشر دقائق إلى الساحة وراقب تمرين الجنود لفترة من الوقت.

كان البحث عن رجال يوافقون على الانضمام إلى الحامية لتجديدها أقرب لطلب المستحيل قبل خمسة أشهر، لأن أهالي نوتنجهام كانوا سيقطعون رأس أي رجل أحرق بما فيه الكفاية، يعلن أنه سينضم إلى جنود العمدة، لكن هذا هو ما كان الحال عليه قبل أن يفتح ليام أبواب مخازن القلعة ويقدم أرغفة الخبز الطازجة المخبوزة من الحبوب المكدسة في الداخل للناس. انتشر الخبر بين الأهالي الجائعين الذين لا يتناولون عادة أكثر من الشورية المصنوعة من نبات القراص أو الخضار المتعفنة، وكانت مبادرة ليام البسيطة تلك كافية لوضع حد لأعمال الشغب الليلية تلك.

لاحظ إيدي وجود ليام فناده قائلاً: "أسعد الله صباحك يا مولاي".
أوما له ليام برأسه ولوّح بيده قائلاً: "وصباحك يا إيدي، فتيانك يبدون على خير ما يرام".

التفت شباب عدة منهم وانحنوا بأدب له، فقد نال احترام ومحبة الكبار

والصغار على حد سواء.

جرّد ليام وكابوت وبوب موجودات مخازن القلعة ووجدوا مخزون الطعام كافياً لإطعام الحامية بسخاء لمدة تزيد عن الستة أشهر، فاقسموا الطعام مع سكان البلدة بحرص لكي تكفيهم المؤن شهراً على الأقل.

ثم أعلن ليام بأن غابات الملك مفتوحة أمام كل الناس في خلال الفترة القادمة للبحث فيها عن أي طعام يجدونه، ولاقتناص الطرائد البرية والمكسرات وأنواع الثوت البري، وقد لاقى هذا القرار استحساناً شعبياً وضمّن تواجد الطعام في أسواق البلدة يومياً، وعندما تأكد كابوت من أنهم تجنبوا الفوضى ومنعوا التمرد من الاستفحال في نوتنجهام، عاد إلى كيركليس ليطلع على أحوال الدير.

تمكن بوب وليام بعد أقل من أسبوع على توليهم زمام أمور البلدة من تسيير بضع نوبات حراسة موقفة خارج الأسوار، ومع حلول الربيع ازدادت الحاجة إلى كل الأيدي العاملة الممكنة لحصاد المحصول.

خرج بوب من صف المجندين عندما لاحظ وجود ليام وطلب منهم الاستراحة ريثما يعود فأنزلوا سيوفهم ودروعهم الثقيلة وتنفسوا الصعداء بعد ابتعاده عنهم باتجاه ليام.

”حضرة العمدة“. وألقى التحية على ليام بطريقة رسمية.

دعاه ليام إلى جولة حول السور بعيداً عن أسماع الناس ليتكلما براحتهما. ثم همس له:

”بوب... كم بقي لدينا من وقت للمهمة؟“

”أربعة وعشرون يوماً وتسع عشرة ساعة وثلاث وأربعون دقيقة.“

هزّ ليام رأسه متفكراً وهو يربت على شعيرات ذقنه الداكنة التي طالت في خلال الأشهر الفائتة.

”أي أنه بقي لدينا أقل من... أقل من أربع أسابيع؟“

”تماماً“

”لا بدّ من أن تعود برفقة بيكس إلى القاعدة.“

أوما بوب وقال: "لأنّ العد العكسي للتدمير الذاتي قد قارب من نهايته". ستة أشهر هي مدّة كافية عموماً لإنهاء المأموريات، ولا تضطرهم لتشغيل برنامج التدمير الذاتي الذي ينطلق وحده بعد ستة أشهر، ويقوم بإحراق الدارات الإلكترونية الموجودة في دماغيهما لضمان عدم وقوع التكنولوجيا القادمة من عام ٢٠٥٠ في أيدي شخص ينتمي إلى عصر أبكر من هذا، كما يضمن عدم تعديل برنامج تشغيل بوب لتحويله إلى آلة للقتل تابعة لأحد الطغاة. وإذا تخلف بوب أو بيكس عن العودة إلى القاعدة لتعديل العد التنازلي فسيحرق البرنامج دارتهما الإلكترونية وسيتحولان إلى أبلهين قرويين آخرين.

"أعتقد بأنه يجدر بي القيام برحلة لزيارة السيد كابوت، ونحن مضطرون لإرسال رسالة إلى مادي لتعرف أننا أعدنا التاريخ إلى مجراه". وافقه بوب.

لا بدّ للقاعدة من فتح بوابة عودة لهما كي تتمكن كل من وحدتي الدعم من العودة وتعديل ساعة التدمير الذاتي. وسيمنحه ذلك الفرصة لإعلام مادي بكل التطورات، وكما يرى ليام الآن، فقد انحسر التمرد الأهلي ولم يعد له من وجود، لأن أهالي نوتنجهام مسرورون بالعودة إلى ممارسة أعمالهم، ولا بدّ من أن يحذو الجياع والفقراء في البلدات والقرى الأخرى حذوهم ما أن يحصلوا المحصول ويتوافر الطعام لهم بشكل أوسع. وبما أن مسار التاريخ عاد إلى سابق عهده كما يبدو فلا بدّ له مع بوب من متابعة مهمتهم التي حضروا إلى هنا لأجلها منذ البداية... عليهم تمشيط هذه الغابات الممتدة على مدى النظر بحثاً عن اللص المقنّع وعصابة أتباعه الذين كانوا يتناقصون يوماً بعد يوم، لاستعادة الكأس منهم كما يأمل.

وفي الحقيقة، شعر ليام بأن عصابة أتباع الرجل المقنّع ابتعدت عن نوتنجهام والمناطق المحيطة بها بعد أن أرسى دعائم الاستقرار فيها، وقد أمر ليام بحراسة الحقول بانتظام بوساطة المجندين الجدد، وقد أحبطت دوريات الحراسة التي تتألف من مئة رجل كل الأشرار الذين فكروا بإحراق

المحاصيل أو تخريبها حتى الآن.

لقد علم ليام من كابوت أن العصابات قامت العام الماضي بنهب كل الحقول التي عبروها وأنهم قتلوا مزارعيها وسرقوا ماشيتها أو ذبحوها ثم أشعلوا النيران في كل ما تبقى. وعندما أتى الصيف لم يجدوا ما يكفي لادّخاره من أجل الشتاء، ولم يقم العمدة السابق بأيّ إجراءات لمنع المجاعة القادمة لا محالة، ما عدا تخزين ما يكفي وحده وحاميته في مستودعات القلعة.

صُدِم ليام من شدة تأثير البادرة الطيبة البسيطة التي تلخصت في تقديم الخبز لفقراء المدينة وجياعها، فقد أوقفت أعمال الشغب وأنهت التمرد. كان هؤلاء الناس البسطاء والصابرون على استعداد لتحمل أقصى أنواع المعاملة وتقديم التضحيات فوقها إضافة إلى ولائهم غير المحدود لحكامهم النبلاء ما داموا يعام لونهم بطريقة إنسانية.

فَهِم ليام، الشاب الطيب... المولود في عام ١٨٩٦ في كورك هذه الفكرة البسيطة، التي كانت في نفس الوقت غير مفهومة على الإطلاق من قبل اللوردات والبارونات المولودين في فرنسا، الذين لم يتكبدوا على الرغم من كل الاضطرابات عناء تعلم لغة الفلاحين الذين يحكمونهم من أبراجهم العاجية.

يا للتغيير الذي طرأ على مسار الحوادث في هذه الأشهر الخمسة! كما أذهله أيضاً الجانب الآخر من الموضوع، فقد وصل مع بوب وبيكس إلى هذا العام في بداية شهر كانون الثاني البارد المقفر بأيامه الرمادية، وها هم الآن يستقبلون حزينان... انتهى الشتاء ومرّ الربيع ووصل الصيف باكراً، وها قد اخضرت الأشجار من جديد وحملت البراعم الواعدة. ومع ذلك فلم يمرّ على مادي وسال في القاعدة سوى نصف ساعة أو ساعة على الأكثر، وهو الوقت الذي يحتاجون إليه لإعادة شحن آلة الزمن.

هزّ ليام رأسه متعجباً.

”ما الأمر يا ليام؟“

”لقد فهمت أمراً الآن.“

”وما هو؟“

”أنا أزداد سنأ أسرع من الفتيات.“

”مادي وسال؟“

”نعم“

”هذا صحيح. لقد مرّ وقت طويل بالنسبة إليك هنا.“

تمتم ليام: ”هذا ليس عدلاً... أليس كذلك؟ نحن نقوم بمهمات طويلة الأمد كهذه، مما يعني أنني سأشيخ بينما تبقيان هما في عزّ شبابهما.“

نظر بوب إليه حائراً فيما يجب عليه قوله، ثم أجاب: ”إنها نتيجة حتمية للسفر عبر الزمن يا ليام.“

تنهّد الشاب وقال: ”آه... حسناً. أظن أنني وافقت على هذا عندما سمحت لفوستر باصطحابي معه.“

تابعا المشي صامتين لفترة من الوقت بينما ملأ صليل وقعقة تدريب المجندين الجدد أرجاء المكان.

”هناك حملة أخرى لجمع الضرائب اليوم أليس كذلك؟“

”نعم“

في الأشهر الماضية، زار ليام وبوب بمرافقة نصف جنود الحامية ضياع أقرب النبلاء والبارونات المجاورين لقلعتهم، الذين ادعوا الفقر كلما خرجوا من أسوار قصورهم وقالوا أن ضرائب الملك جون أفقرتهم وجوعتهم، لكن الناظر إليهم وإلى عائلاتهم بتمعن كان يصاب بالدهشة لشدة الصحة البادية على وجوههم وعلى خدمهم، ولوفرة الحبوب والمؤن المخزنة في مستودعاتهم، بينما يتضور مزارعوهم جوعاً خارج الأسوار ويبدون أشبه بسكان نوتجهم في أثناء الشتاء الماضي، أقرب للفراعات من البشر... فعاد ليام في كل مرة من زيارته لهم بعربات محمّلة بالحبوب وبالأموال.

”سنقوم بزياراتنا أولاً ثم تعود أنت إلى هنا مع الضرائب، فأنا مضطر للذهاب إلى كيركليس“.

وقف بوب وقال: ”لا ينبغي عليك السفر من دون مرافقة يا ليام، فما زال قطاع الطرق يجوبون الغابات“.

”أعرف... أعرف. سأسافر برفقة بعض الرجال، أعدك بذلك. وسنصل إلى هناك قبل حلول الظلام على صهوة جيادنا. وسنمضي الليلة هناك ثم نعود في الصباح الباكر. سأقوم بالرحلة لأنني أعتقد أنه وقت ملائم لإخبار القاعدة بالمستجدات والتأكد من أن بيكس جاهزة للعودة، لأن ساعة العد التنازلي لديها قاربت على نهايتها أيضاً“.

”صحيح“

صاح إيدي فتوقف رجاله عن التمرين واستراحوا، فنظر إليهم ليام وراقب المرأتين اللتين اقتربتا منهم وراحتا تسكبان لهما الماء من أوعية معلقة على أكتافهن، وقدمتا للرجال العطاش مغارف الماء فشربوا ورشوا منه على وجوههم المتعركة من شدة الحر. ثم قال:

”أتساءل.. أتساءل عن أحوالهما“.

الفصل الخامس والأربعون

قلعة أوكسفورد، ١١٩٤

”هل أخبرتك من قبل يا ليدي ريكا عن جمال عينيك؟ هل أخبرتك كم هما جميلتان؟“ قال جون لها بنبرة تشبه هديل الحمام وهو مستلق في حضنها، ونظر إليها باسماء ووجهه يطفح بهجة وهناء. فأومات له برأسها وابتسمت له برقة ثم قالت وكأنها تؤنّب: ”أخبرتني بذلك مئة وسبعاً وعشرين مرة يا مولاي“.

فضحك جون وجلس فجأة ونظر إليها بتمعن واهتمام وقال: ”أنت شديدة الـ... الدقة.. لهذا وقعت في حبك على ما أظن، أنت لا تشبهين أي امرأة أخرى عرفتها، لا تشبهين النساء البلهاء اللواتي لا يكثرن سوى بالقصائد الشاعرية الغبية... أنت...“ وقطب وجهه محاولاً إيجاد المصطلح الملائم لوصفها لكنه لم يعثر عليه فقال: ”أنت مختلفة جداً“. أومات له برأسها برفق وفكرت بأنسب كلمة ترد بها عليه.

الردود المناسبة

١- أشكرك على كلماتك اللطيفة يا مولاي (مناسب بمقدار ٧٨%)

٢- أتمنى أن أكون مختلفة دوماً من أجلك يا حبي (مناسب بمقدار ٢١%)

٣- أنا مختلفة عنهم يا مولاي لأنني وحدة مقاتلة قادمة من عام ٢٠٥٦ في

ضحكت بيكس بدلال، كما لاحظت النساء يفعلن عندما يوجّه إليهنّ أحد الرجال مديحاً أو غزلاً، ثم قالت: "أشكرك على كلماتك اللطيفة يا مولاي".

عبس جون وبدأت عليه دلائل الانزعاج وقال: "مولاي؟ مولاي؟ يجب أن تناديني جون يا عزيزتي... من فضلك. في الحقيقة لك مطلق الصلاحية في مناداتي كما تشائين".

أومات برأسها وقالت: "سأناديك جون إذا".

ابتسم لكلامها وعاد للاستلقاء ووضع رأسه على حضنها من جديد وأغمض عينيه ثم أسرّ لها: "لم أشعر في حياتي بمثل هذه السعادة، طوال حياتي البائسة التي نكّدها عليّ البارونات المزعجون، وقلة المال والاضطرابات والمشكلات الكثيرة". تظاهرت بالإنصات إليه وهي تومئ برأسها، لكن الجانب العملي من دماغها الإلكتروني كان يقوم بحسابات أخرى.

"بقيت ٥٨٨ ساعة و ٥٦ دقيقة على انتهاء وقت المهمة"

الوقت على وشك النفاذ. لا بدّ لها من العودة إلى عام ٢٠٠١ بعد ثلاثة أسابيع. وإذا ما كان الإحباط هو الشعور الملائم لهذه الفكرة، فهي تعتقد أنها تشعر به الآن. لم يمض على مسرحية الحب الرومانسية التي تمثّلها مع إيرل كورنوال وغلوشستر سوى خمسة أشهر، لم تمض سوى خمسة أشهر على تلك الليلة التي زارها فيها في غرفتها من دون استئذان متوقّعا منها الاستسلام لحبه، عندما أخطأت في تقدير الموقف وطرحته أرضاً... تلك هي الحادثة التي دفعته للوقوع بحبها فعلياً كما اعترف لها فيما بعد. لم تكن واثقة في البداية من اقتناعه برود أفعالها واستجاباتها لقصائد غزله وهيامه بها واعترافاته المتيمة بجمالها، وفي أحد الأيام لاحظت إحدى الخادومات المسنات الخبيرات غرابة أطوارها وانزوت بها في أحد الأماكن بعيداً عن العيون فاستمعت بيكس إلى نصائحها بانتباه لتعرف

كيفية الرد على كلمات جون، ولتفهم منها كيف يمكن لها أن تسعده. وتساءلت كيف يمكن لها تحويل هذه النصائح الشفوية إلى سلوك عملي مدروس لإسعاد الملك، ولاحظت بـيكس أن أقرب وصف معاصر يمكن لها أن تطلقه على نصائح الخادمة هو: ابذلي كل طاقتك للحصول على كل ما يمكنك الحصول عليه منه.

كانت هذه هي الاستراتيجية الأنسب التي قرّرت العمل بها، ويبدو أنها نجحت في ذلك، لأن جون كان كما نقول في أيامنا هذه كالعجينة بين يديها، كالحبوان الأليف المطيع لأوامرها. وفهمت أن ذلك يمنحها النفوذ والسطوة ويمكنها من طلب أمور لا يجروّأحد على طلبها من جون، لكن جزءاً من دماغها الإلكتروني كان يفهم العقل البشري ويعرف أن إلحاحها في السؤال عن أي موضوع يؤدي في النهاية إلى إثارة الشكوك. وفي علاقتها به، كان الأمر الذي ألحّت في التساؤل عنه هو اعتراف تبارك.

وقد قرّرت أن لا تثير الموضوع أكثر من خمس مرات في خلال الأشهر الخمسة الماضية، وفي كل مرة كانت تسأله بعد التأكد من أنه شرب ما يكفي من الخمر ووصل إلى درجة عدم الإدراك لشدة السكر. وقد كشفت لها ردوده المشوشة بعض المعلومات المفيدة.

حكى لها كيف أثبت أخاه ريتشارد الأكبر وهم ما زالوا طفلين في قصر أبيهم الملك هنري الثاني أنه ناضج أكثر من أقرانه وأكثر وعياً، وكان من الواضح أنه لم يكذب عندما أخبرها بأنه لا يعرف كيف وصل مستند الاعتراف إلى حوزة أبيه وانتهى به الأمر في المكتبة الملكية.

أخبرها أن طفولته حافلة بذكرياته عن أبيه وهو يدافع عن المخطوطة بكل بشارة ويقراها بين الحين والآخر، وكيف تحولت إلى هوس عند أخيه ريتشارد، هوس يدفعه لمعرفة القصة الغامضة التي ينطوي عليها ذلك الاعتراف. وفي يوم من الأيام، عندما لم يكن قد بلغ الثانية عشرة بعد، وجد ريتشارد المخطوطة مدسوسة بين اللفائف الورقية والمخطوطات

المكّدة في مكتبة أبيه.

لقد قلبته رأساً على عقب.

بينما كان جون ييوح لها بعبارات الهيام وهو مستلق في حضنها، كانت هي تعيد تشغيل تسجيلاتها الصوتية لآخر مرة كلّها فيها عن الاعتراف، وفي تلك الآونة كان يستلقي بجانب المدفأة المضطربة وقد خشن صوته واختلطت كلماته بفعل الخمر:

”لاحظت تلك الليلة أن ريتشارد... قد تغير كلياً. لقد ظل يزعجني ويتنمر عليّ، إلا أنه أصبح الآن متمراً طموحاً هادفاً لتحقيق قدر وحيد... وقد قال لي تلك الليلة أنه يريد تحويل مملكة أبينا إلى إمبراطورية مترامية الأطراف، وأن الله بنفسه قد دلّه على الطريقة الملائمة لتحقيق قدره هذا... أعرف... أعرف أن هذا هو السبب الذي دفع ذلك الأحقق للذهاب إلى الأراضي المقدسة... سارع إلى الرحيل بعد موت والدنا وأخي الأكبر جيفري وتوجيه ملكاً... كان هذا هو أول شيء يقوم به بعد توجيهه... أطلق تلك الحملة الصليبية المغمّسة بالدماء“.

سمعت بيكس نفسها تقول: ”الله بنفسه قد دلّه على الطريقة الملائمة لتحقيق قدره“؟

”نعم... نعم. لقد وجدها في ذلك الاعتراف الملعون، أليس كذلك؟ لقد قرأ فيها قصة الكأس... هل تفهميني؟ كل شيء كان موجوداً هناك، إنها الحقائق التي حولته إلى ذلك الرجل المجنون... إنها ما جعله يتحول إلى شخص... خطر جداً“.

”أما زالت مخطوطة الاعتراف موجودة في المكتبة الملكية“؟
”أنا... لا أعرف، ولا أكثرث بأمرها بتاتاً. إنها... أظن أن ريتشارد يعتبر أو كسفورد أفضل مكان للاحتفاظ بمثلها. ولكن أرجوك يا سيدتي... لنكفّ عن الحديث عن هذا الأمر... عزيزتي... آلمني بطني من التفكير بهذا الأمر“.

مضت فترة من الصمت ثم سألته: ”هل تخشاه“؟
مرّت فترة طويلة من الصمت هذه المرة ثم أجابها: ”إنه يُرعبني“.

”ألأنه سيلومك على فقدان الكأس“؟

انعدمت الأصوات إلا من فرقة الحطب المتقد في المدفأة. لكن بيكس استعادت في ذهنها معالم وجهه والطريقة التي هزّ بها رأسه واتساع عينيه الخائفتين اللتين كانتا تدركان اقتراب لحظة موته.

”أخشى أنه سيقتلني لدى عودته“.

تذكرت بيكس الرعب الواضح على وجهه آنذاك، ثم قوله: ”لهذا... دعيني على الأقل... أستمتع بكل الوقت الباقي لي من حياتي... معك... ولا تذكر اسمي الليلة مرة أخرى“.

الفصل السادس والأربعون

يوركشاير، دير كيركليس، ١١٩٤

خرج كابوت من بوابة الدير الأمامية ووقف لاستقبال ليام في الحديقة ملوّحاً له بيديه ببهجة وأمسك بعنان حصانه وخفف من اندفاعه، ومن خلفه أمر إيدي رجاله بالتوقف، فتوقفت أيضاً الأصوات العالية التي تصدرها حوافر الأحصنة المرافقة له بسبب تيسس التربة بفعل الشمس الحارقة.

”مولاي... يا لها من مفاجأة رائعة“.

رفع ليام ساقه ليخرجها من السرج ثم نزل عن صهوة حصانه ومسح عرق جبهته بذراعه لأنه كان يشعر بالحرّ الشديد بسبب ارتدائه لسترته المبطنّة فوق ثوب العمدة الرسمي، وأبعد بيده خصلات شعره المبتلة بالعرق عن عينيه.

”الجو حار جداً“. قال ليام على الرغم من أنه لا يحتاج إلى الإعلان عن ذلك.

فغمزه كابوت متواطئاً وقال: ”هذا جيد من أجل العنب والتفاح.“

تبادل الاثنان النظرات برهة من الوقت ثم مدّ ليام يده لمصافحة كابوت، فتناولها بيديه الاثنتين وقال: ”لقد مضى كثير من الأسابيع منذ أن رأيتك آخر مرة يا صديقي“.

”كنت مشغولاً جداً جداً“. أجابه ليام.

”فما الذي جاء بك اليوم إلى هذه الأنحاء يا مولاي؟“

”زرنا هذا الصباح ضيعة السير غاي، وضيعة السير ريموند، اللذين ادعيا الفقر الشديد، لكنهما غنيان ومليئان حتى التخمة كالأخرين، فجمعنا منهما الضرائب المستحقة عليهما“.

”لقد تأخرا في الدفع على ما أعتقد“.

”هذا صحيح“. ومسح ليام قطرات العرق الصغيرة عن الرغب الناعم الذي يعلو شفته العليا وقال بصوت منخفض جداً: ”سياستيان... أتيْتُ إلى هنا... لأتحدث معك“.

أوما الرجل العجوز وقال: ”بالطبع“

التفت ليام إلى جنوده ليشير إليهم بالدخول والاستراحة من عناء رحلتهم والأمال الطويلة التي قطعوها منذ الصباح والحر الذي قاسوه تحت ستراتهم الثقيلة، ثم قال لكابوت: ”هل يمكن لإخوتك الرهبان الاعتناء بهؤلاء الجنود وتقديم بعض الطعام والماء لهم؟“

”بالطبع يا مولاي“. استدار الراهب ونادى بصوت عالٍ فهرع رهبان عدة يحملون سلالاً من القش من خميطة مجاورة للأسطبل لتلبية أوامره. ثم سأل ليام: ”هل تريد التحدث معي على انفراد؟“ فأوما له ليام بالإيجاب. ”لقد انتشرت الأخبار الطيبة حول ما قمت به في نوتنجهام في جميع الأنحاء، وتحولت إلى عمدة محبوب من الشعب بسرعة أيها الشاب ليام“. قال كابوت.

”لكنني لا أحظى بأي شعبية بين إخواننا النبلاء، أليس كذلك؟“

”النبلاء يمقتونك... ويعتقدون أنك متظاهر منافق، ويتساءلون عن السبب الذي دفع جون لاختيارك لمنصب عمدة الشمال بدلاً من اختيار أحدهم، و... أكثر ما يغيظهم هو أنك تجبرهم على دفع الضرائب المترتبة عليهم“. قال كابوت وهو يتسم.

شرب ليام كمية كبيرة من إبريق الماء البارد فسالت قطرات من الماء

على رقبته، ثم قال: "سياستيان... لا بدّ لنا من المغادرة بعد فترة وجيزة".
"تغادرون؟ ترحلون إلى زمنكم؟ لماذا؟"
"نحن مضطرون لهذا، لا بدّ لنا من العودة إلى زماننا لبعض الوقت".
"لكن... لا يمكنك التنازل عن منصبك لذلك المبدّر الفاسد ويليام دي..."

"سنعود... أعدك بذلك. سنلتقي برفاقنا لمعرفة وضعهم في المستقبل، لا أكثر."

"في المستقبل... أتمنى أن أرى شيئاً منه". قال كابوت وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

"المستقبل ليس مكاناً رائعاً كما تتصوّر". قال ليام متنهداً.
"أخبرني شيئاً واحداً عنه."

الراهب العجوز يعرف أكثر مما يجب الآن، ولا بدّ من اتخاذ قرار ما بشأنه قريباً لتغيير هذا الوضع. فتصور ليام أنّ معلومة أخرى عن المستقبل لن تضرّ ولن تزيد أو تنقص من سوء الوضع.

"العالم في المستقبل مزدحم جداً، هذا ما رأيته. وهو مزدحم بكثير من الناس البدينين الصاخبين".
"البدينين؟"

أوما ليام وقال: "إنهم جميعاً مكتنزين كالبارونات واللوردات هنا، حتى الفقراء منهم، ويعيشون كالبارونات مقارنة بالناس الفقراء الذين يعيشون هنا. جميعهم يأكلون أكثر مما يحتاجون، ولديهم ممتلكات تزيد عن حاجتهم بكثير".

"لقد أتيت من مستقبل مزدهر إذاً".

رفع ليام كتفيه وقال: "أظنّ ذلك".

تقلّصت عينا كابوت استغراباً وقال: "لكنك ألا تفتقده؟"

عرف ليام في قرارة نفسه أنه سيفتقد في الحقيقة إلى الاستيقاظ على صباح الديكة وصوت مطرقة الحداد البعيد ورائحة الدخان والخبز الطازج

المخبوز كل يوم في الأفران الطينية عندما تنتهي مهمة عام ١١٩٤. فقال
بعد فترة من الصمت:

”ساكون أكثر سعادة إذا تمكنت من البقاء هنا“. لكنه أدرك أنه شعور
مبالغ به فقال: ”لكني لا أستطيع البقاء يا سياستيان... الواجب يناديني.
أنا مضطر للمغادرة“.
”الواجب... أنا أفهم قصدك“.

مرّت نسمة علية فتحرك العشب الأخضر الطويل الذي يملأ المقبرة،
وقد دخلا إليها ليتكلما على انفراد. فقال كابوت بعد صمت دام فترة من
الوقت:

”ليام... هل عالمي هو كما يجب أن يكون الآن؟ هل هذه هي إنكلترا
التي قرأت عنها في كتب التاريخ في المستقبل“؟ وأشار بـكلتا يديه.
”لا أعرف بعد. كان يمكن للاضطراب الذي حصل في نوتنجهام قبل
عدة أشهر أن يتحول إلى مشكلة كبرى تقع على رأس جون. وقد حوّل
ذلك التمرد مسار التاريخ لأنه أدى فيما بعد لانقسام البلاد إلى دويلات
فقامت فرنسا بغزوها وتبخرت إنكلترا من الوجود“.

”يا إله السموات!“

”وأعتقد... أننا تمكّنا من منع ذلك من الحدوث. ولكن...“
”ولكن ماذا؟“

”لكنّ التاريخ على ما أظنّ، قد تغيّر بشكل طفيف. أعني... خذني
أنا على سبيل المثال. توليت منصب العمدة وقمت بكل ما تعرفه من
إجراءات... كلها تغييرات طفيفة لكنها قد تقود إلى تغييرات جسيمة“.
أسدل كابوت كفيه وقال: ”هل تشكّ أنني قد أروي ما عرفته عنكم
لأشخاص آخرين؟“

”حسناً... بصراحة... أخشى ذلك“.

”ومن قد يصدّقني بأي حال؟ سيقولون أنها تخاريف راهب عجوز
مجنون“، وضحك ثم أردف: ”هم مسافرون قادمون من المستقبل الذي

لم يقع بعد؟ وعالم كروي؟ من الذي قد يستمع إلى مثل هذا الجنون؟
سير جمونني وسير مونني بالطعام الفاسد وسأتحوّل إلى أضحوكة للتسلية“.
إنه محق في هذا.

”عندي فكرة“.

”ما هي؟“

”ربما... أيها الشاب ليام... ربما كان التاريخ دائرياً أيضاً... بطريقة
ما“.

”ماذا تعني؟“

عبس الراهب فالتصق حاجباه الكثيفان بعضهما ببعض وقال: (دائري
كالعجلة. ربما لطالما كان قدرك هو هذا... أن تعود إلى الماضي لتتولى
منصب عمدة نوتنجهام؟ ربما قدّر لي من البداية أن أعرف هذه الأشياء؟)
كانت وجهة نظر الراهب مثيرة للاهتمام بالفعل.

”ربما كان قدر جون المسكين هو أن يفقد الكأس. هل هذا ما نصّت
عليه كتب التاريخ لديكم يا ليام؟“

”أنا لا أعرف أي شيء عن الكأس المقدسة؟ لا توجد أي معلومة مؤكّدة
حولها بقناعتي. وأظن أن كتب التاريخ تعتبرها قصة خيالية أو أسطورة من
ذلك القبيل“.

”لذا... إذا كانت شيئاً غير موجود... فما الفرق الذي سيؤدي إليه
فقدانها؟“

”هذا صحيح“.

انحنى كابوت إلى الأمام ولكم ليام على ذراعه بمودّة وقال: ”مما يعني
أن قلقك مبالغ به أيها الفتى“.

”هل تعتقد ذلك؟“ وابتسم ليام وقال: ”على كل حال... يا سياستيان
يجب علينا أن نحفر هذه الخطوط على قبر أخينا المتوفّى هاسكيت“.
وأخرج من ثوبه ورقة عليها سطر واحد مكتوب بلغة الرموز.

أمعن كابوت النظر فيها لبعض الوقت ثم قال: ”هل تعلم... من الجيد

أنّ كل الرموز التي تستعملونها على شكل خطوط، فأنا لست نحاتاً، ولا
يمكنني نحت خط منحنٍ على الإطلاق“. ثم سحب إزميلاً ومطرقة من
جيب مئزره وقال:
”هيا بنا إلى العمل إذا“

الفصل السابع والأربعون

نيويورك، ٢٠٠١

خيم الظلام في الخارج، ولم يكن ثمة نور غير ضوء الهلال المرتفع في السماء، وتلألأ على صفحة المياه انعكاس الأضواء الباهتة القادمة من عدة مراكب صيد راسية في الميناء، وعدد من أنوار رصيف الميناء الصغير اللامعة بصمت في الجهة المقابلة لهم. وقد عرفوا أنه يسمّى ميناء لوران سور مير، بينما تألقت النوافذ القليلة المواجهة لهم بحركة سكان هذه البلدة الصغيرة في منازلهم.

”لم أشاهد نيويورك أبداً هادئة إلى هذا الحد من قبل... إنها تذكرني بقرية أجدادي في سكوتلاندا“. قال آدم. فأومأت له مادي برأسها وقالت: ”هناك أماكن مشابهة لهذا في ماين وكونيكتكت، هادئة ولطيفة كما لو كانت لوحة مرسومة على بطاقة تهنئة الأعياد“.

أنصت لفترة إلى صوت الأمواج المهدّئ للأعصاب في مدها وانحسارها وسمعا صوت نوارس قادم من البعيد، ثم قال آدم:

”كم مضى على انضمامك إلى وكالة السفر عبر الزمن هذه؟ أعني... أنت لم تكوني معهم طوال حياتك أليس كذلك؟ ويدو لي أنك قمت في حياتك بأمر آخرى، ألم يكن لديك حياة قبل الانضمام إليهم؟“

أومات برأسها وأجابت: ”بالطبع“

”أخبريني عن نفسك“.

فكرت مادي بأن إخباره عن تفاصيل حياتها لن يضرَ فقالت: ”أنا من بوسطن. وأهلي يعيشون هناك، وقد درست الثانوية هناك ثم اخترت دراسة علوم الحاسوب في الجامعة، ثم انسحبت منها بعد السنة الأولى.“

”لماذا؟“

”حصلت على عمل في شركة ألعاب إلكترونية، واعتقدت في ذلك الوقت أنني أضيّع وقتي في الدراسة الجامعية“.

”وأيّن كان مقر العمل؟“

”هنا في نيويورك. كنت مبرمجة لملفات المستخدمين لتلك اللعبة التي تشبه لعبة World of Warcraft، لكنها كانت أفضل بكثير“.

”اعتذر منك... لم أسمع بتلك اللعبة من قبل“.

”هذا غباء مني، لم تسمع بها بالطبع لأنها لم تظهر إلا في عام ٢٠٠٤“.

”وكيف تحوّلت إذاً من مبرمجة حاسوب إلى واحدة من رواد الزمن؟ إنها قفزة نوعية“.

نظرت إليه وقالت: ”لا أظن أنه يفترض بي أن أخبرك بكل تلك الأمور يا آدم. وتذكر... قلت لك من قبل أنك لن تبقى معنا، وكلما عرفت أكثر كلما كانت المشكلة أكبر. ولهذا سيكون من الأفضل أن أخبرك بأنهم جندوني... هذا كل ما في الأمر“.

شعرت مادي فجأة بدوار وكأنها تدور في دوامة فتأوّهت من شدة الغثيان. أسرع آدم إليها وقال:

”هل شعرت بالدوار أيضاً؟ تمسّكي بي... هل هذه...؟“

”نعم“. واستدارت لترى سال في الداخل لكنها وجدت سال مسرعة إليها أيضاً في منتصف الطريق وهي تقوم بوصل كابلات البيانات في أماكنها.

”أحسنِتِ صنعاً“. قالت مادي وهي تتناول أيضاً كابلاً وتضعه في

المكان المخصص له، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى البلدة الغافية وقوارب الصيد الراسية عبر النهر لبضع دقائق، ومع أن الموجة كانت عنيفة إلى درجة أنها شعرت وآدم بها، إلا أن شيئاً لم يتغير في المشهد أمامها.

”يبدو أننا تلقينا رسالة جديدة من ليام“. قالت سال من الداخل.

بعد دقيقة، وقف كل من سال وآدم على جانبيها وأمعنا النظر معها في صورة شاهدة القبر المألوفة لديهم.

”انظرا... هل تشاهدان هذا؟ هناك نقوش جديدة عليها بلا شك.“ قالت سال وهي تشير إلى الصورة.

انحنى مادي إلى الأمام لترى الشاهدة الأثرية بوضوح، على الرغم من أن النقوش الجديدة كانت باهتة وبالية، بعد أن قاموا بتوضيح الصورة وزيادة تباين الألوان.

”نعم... إنها جديدة. حسناً“، وتناولت قلماً ودفترأ عن المكتب والورقة التي رسم آدم عليها حلّ الشيفرة وقالت: ”حسناً، لنرى ما لدينا هنا“.

أنعموا النظر في الشاشة ولاحظوا أن النقوش كانت غير ظاهرة كما يجب على الرغم من توضيح الصورة إلى أقصى حد وكأنها حُفرت بأداة أخرى غير تلك المستخدمة في المرة الأولى، لأنها كانت متأكلة تماماً في بعض الأماكن مما يعني أنهم مضطرون لتخمين الحروف المفقودة.

”ممم“. تمتعت مادي وهي تعض على رأس قلمها.

تناول آدم قلماً آخر وبدأ بكتابة الرموز الواضحة منها، وتمكّن بعد دقيقة من الخروج منها بما يشبه الجملة، وكانت تقول:

RE OLT S OPPE EADY FOR R TURN

AW T IN TR NS

”لا أفهم منها أي شيء... ماذا تقول؟“ قالت مادي، فأجابتها سال:

”هيا يا مادي... إنها سهلة جداً. لقد توقف التمرد، استعدوا لفتح بوابة العودة وانتظروا التعليمات.“

قام آدم بكتابة الأحرف الناقصة في أماكنها الصحيحة ونظر إليها مبتسماً وقال ما ليس خافياً على الفتيات: ”لكن الأشياء هنا لم تتغير... أو أنها تغيرت لكننا لا نراها بعد بسبب الظلام. إلا أننا متأكدون من أننا لا نرى نيويورك التي نعرفها في الخارج“. لكن مادي لم تكثر لكلامه وقالت: ”لم تعد الأمور إلى مجراها بعد“.

< مادي.

”ما الأمر يا بوب؟“

< تغيرت بعض البيانات الخاصة بنظام تشغيلي.

”ماذا؟ كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ لم يتوقف حقل العزل الخاص بنا عن العمل، أليس كذلك؟“

< هذا صحيح. لكن موجة التغير الزمني التي حدثت قبل قليل كانت قوية وقطعت التيار الكهربائي عن النظام بضع ثوانٍ.

نظرت سال إلى مادي وقالت برعب: ”يا للهول، هل يعني هذا أنها أثرت فينا؟“

”لا أعرف“. وأمعت مادي النظر في سال من الأعلى إلى الأسفل ثم قالت: ”أنت لا تبدين مختلفة عن السابق... ماذا عني أنا؟“

فابتسمت لها رفيقتها وأجابتها: ”ما زلتِ تبدين كمهووسة بالكمبيوتر“.

”شكراً لك“. ثم التفتت إلى آدم وسألته: ”هل أنت على ما يرام يا آدم؟“

لكن آدم كان يحدق فيها بدهشة وقد جحظت عيناه وارتخي فكه السفلي، فسألته مرة أخرى: (آدم؟) فأجابها ببطء متهدأ: ”يا إلهي... من أنتم؟ أين أنا؟“

التفتت مادي إلى سال لترى إن كان لديها أي فكرة عن المأرق الذي

وقعوا فيه الآن، إلا أن آدم ابتسم لهما أخيراً وقال: "أنا أمزح معكما".
شتمت مادي الأمواج الزمنية من بين أسنانها وقالت وعيناها تقدح
شرراً من شدة الغيظ: "هذا لا يشبه المزاح لا من قريب ولا من بعيد أيها
الأحمق".

أومض نابض على شاشة بوب - الكمبيوتر ثم كتب لهم:
< تغيرت ١٧ صفحة من أصل ٣٧ صفحة من كتاب التاريخ الذي قمتم بإدخاله
قبل قليل إلى البيانات.

نظر آدم إلى كتب التاريخ المكوّمة فوق المكتب، والتي سرقوها
من المكتبة قبل قليل وقال: "إذا تغيرت محتوياتها فهذا يعني أن الرسوم
التوضيحية ستختلف أيضاً وسيؤثر اختفاء المعلومات في حجم الكتب
نفسها".

أومات له مادي وقالت: "بوب... ماذا عن الملف الذي لخصت لنا
فيه البيانات التي أدخلناها؟ ملف التاريخ المختصر؟"
< لقد تغيرت محتوياته أيضاً.
"اعرضه على الشاشة لنراه".

ظهر المستند على الشاشة إلى جانب حوار بوب معهم، الذي قال:
< سأقوم بتحرير النص بعد ما طرأ عليه من تغييرات.

بدأ بوب بتلوين أجزاء النص التي تغيرت والتي كانت تمثل أغلبه في
الحقيقة، فبدأ آدم بقراءة بعض المقتطفات منه بصوت عال:

"عاد الملك ريتشارد من حملته الصليبية الثالثة في عام ١١٩٤ واستعاد
حكم مملكته من أخيه الأصغر جون... حصار نوتنجهام، استسلم جون
لأخيه وطلب الرحمة من الملك ريتشارد، لكنه لم يصفح عنه وأعدمه بذنب
الخيانة العظمى... شنقه، ثم سحل جثته، ثم قطعها إلى أجزاء..."

هز آدم رأسه مستنكراً وقال: "ما زال التاريخ مختلفاً. التاريخ الصحيح
هو أن ريتشارد عفى عن أخيه وتركه على قيد الحياة."
"هل أنت متأكد؟" سأله مادي.

”بالطبع أنا متأكد من معلوماتي، ألم تسمعي من قبل بالملك جون؟“
استهجت مادي سؤاله وقالت: ”أظن أنني شاهدت فيلماً كرتونياً من
إنتاج ديزني مرة، وكان الملك جون أحد شخصيات الفيلم، لكنه كان ثعلباً
أو أسداً أو شيئاً من هذا القبيل فلم آخذ وجوده على محمل الجد“.
لكنّ سال لم تتوقف عن القراءة في أثناء حديثهما وقالت: ”اختفى تمرد
فلاحي الشمال“.

تابع رفيقاها القراءة.

”قال ليام في رسالته أنه أوقف التمرد، ولكن... إذا قرأت ما ورد هنا،
فسنجد أن الأمر سيتتهي بإنكلترا إلى الانقسام إلى دويلات، وستختفي هذه
المملكة من الوجود“.

تابع آدم تصفح النص وقرأ: ”أعلن الملك ريتشارد في العام ١١٩٥ عن
خروجه في حملته الرابعة“. ونظر إلى الفتاتين ثم قال: ”في الحقيقة، لم
يكن هناك حملة رابعة... هذا جديد“. ثم تابع القراءة: ”قاد الملك ريتشارد
الحملة الرابعة بهدف استعادة القدس، لكن هذه الحملة لم تحظَ بكثير
من الدعم على الرغم من أن بابا الفاتيكان أصدر مرسوماً بابوياً للتشجيع
عليها“.

”ماذا تعني هذه العبارة؟“ سألته سال.

”كان البابا يعلن أنّ الله يبارك هذه الحملة شخصياً“.

”قرّر الملك ريتشارد تكليف المواطنين بضرائب مدمرة، واستدان
كميات كبيرة من الأموال مما سبب الشلل للدولة، وكل ذلك لتمويل حملته
الجديدة، ثم غادر إنكلترا عام ١١٩٦ لآخر مرة... وفي عام ١١٩٧ ذبح
الملك ريتشارد وجيشه الذي تجاوز تعداداه الأحد عشر ألف فارس وجندي
مسلح على يد جيش صلاح الدين في معركة الكرك. وبسبب عدم وجود
وريث له في إنكلترا وإفلاس البلاد اندثرت العائلة المالكة... في عام ١١٩٩،
قام ملك فرنسا فيليب الثاني بغزو البلاد... وتتابعت الأحداث“. هزّ آدم رأسه
وقال: ”لم تتغيّر النتيجة بعد“.

”أصبحت إنكلترا تابعة لفرنسا“. قالت سال.

”أنت تقول أنّ الحملة الرابعة لم تحصل في تاريخنا؟“

”لا. لا وجود لها في التاريخ الذي نعرفه. عندما فشل ريتشارد في استعادة القدس في خلال حملته الثالثة لم يعاود الكرة وكانت تلك نهاية الحروب الصليبية في الأراضي المقدسة، فقدت كل الممالك المسيحية الرغبة في القتال لاستعادتها ولم يكن باستطاعة أحد منهم تبذير الأموال على حملة عسكرية أخرى بأي حال من الأحوال. وفي الحقيقة... في التاريخ الحقيقي... عندما عاد ريتشارد إلى أرض الوطن قرر تركيز جهوده على إعادة إعمار بلاده واستعادة المقاطعات التي احتلها الفرنسيون في النورماندي وخسرها هو في أثناء حروبه المقدسة، وانشغل بذلك حتى نهاية حياته التي وقعت بعد ستة أعوام من ذلك“.

زمت مادي شفيتها وقالت: ”هम्मمم... لقد غير شيء ما تفكيره“. ”تفكيره؟ لقد كان ذلك بالنسبة إليه أقرب إلى الهوس... أعني... ما الذي كان يجري هناك؟ لقد دمر بلاده وأفلس نفسه وأطلق حملة جديدة لا يليق بها سوى اسم الحملة الانتحارية الأخيرة... لماذا؟“

”هل أصيب بالجنون؟“ قالت سال.

”يعتقد بعض المؤرخين أنه كان مختلاً بعض الشيء“.

”هناك شيء جديد هنا إذاً. ربما كان ليّام السبب فيه بشكل ما؟ هل من الممكن أن يكون شيء خاص في مخطوطة فوينتش؟“ ونزعت نظارتها وفركت عينيها وقالت: ”إذا كان هناك رواد زمن آخرون، فربما قاموا هم بعمل شيء ما...“

نظر رفيقاها إليها لأنهما لا يملكان أي إجابة على سؤالها... كل ما كانا يملكانه هو تساؤلات أخرى.

”حسناً... حسناً. إليكم ما سنقوم بفعله... سنرسل رسالة جديدة إلى الماضي لنعلمهم بالتغيرات التاريخية الجديدة ونسأل ليّام لنرى إن كان لديه أي فكرة عما شغل ريتشارد ودفعه للعودة مرة أخرى إلى القدس“. ثم

أعادت وضع نظارتها على عينيها وقالت: ”وفي تلك الأثناء... نستعد لفتح
بوابة العودة التالية بعد ستة أشهر في حال قرروا العودة من خلالها، أو...
لنرى ما إذا كانوا يودون العودة قبل ذلك... وفي تلك الحال سيضطرون
لإرسال إشارة تاريخية لنا“.

الفصل الثامن والأربعون

نوتنجهام شاير، غابات شيروود، ١١٩٤

”فقال الخنزير للمزارع: لو عرفت ما تنويه زوجتك- كما عرفت أنا -
لكان لك ذنب لولبي كذنبى هذا“، وتقلصت عضلات وجه إيدي من شدة
الضحك فبات أشبه بالسجادة القديمة المهترئة من وجه الإنسان، وضحك
معه الجنديان اللذان يسيران خلفه كما تضحك بائعات السمك ويتدرد
صدى ضحكاتهن في أرجاء الغابة في الاتجاهين.

نظر ليام إلى قائد مرافقته وقال: ”أعتذر منك يا إيدي... أعتقد أنني لم
أفهم النكتة“.

”حسناً يا سيدي... اسمع... كان الخنزير يراقب زوجة المزارع...“
تقدم أحد الجنود من الخلف فجأة وأوقع درعه أرضاً وأمسك حنجرته
بيديه الاثنتين مختنقاً.

”ما الذي...؟ ما...؟“

ثم شاهد ليام الدماء تسيل من فم الشاب المسكين المفتوح ولاحظ
للمرة الأولى رأس السهم البارز من حنجرة الجندي.

لكن ردة فعل إيدي كانت أسرع بكثير من ليام ونادى بصوت عالٍ
مجلجل ليسمعه كل الجنود الذين كانوا يسرون في أثرهم بشكل رتل طويل:

”تأهبوا“!

في نفس اللحظة، تساقط عليهم وابل من السهام فأصاب اثنان منهما جانب حصان ليام على جانبي فخذة الأيمن بالضبط من دون أن يصيباه بأذى، ففزع الحصان ورفع قائمته الأماميتين عالياً في الهواء فوق ليام عن صهوة جواده بعنف على الأرض الطينية، واندفع الحصان هارباً مثيراً غيمة من الغبار.

استلقى ليام على ظهره أرضاً مقطوع الأنفاس وحقق في سماء الصيف الزرقاء الصافية وشعر بحركة ضبابية فيها، ثم أدرك أن أحداً يرميهم بسهام طويلة وأخرى قصيرة، فأجبر نفسه على النهوض عن الأرض على الرغم من الدوار الذي لم يفارقه، واتكأ على مرافقيه بعد أن أدرك أنه أمضى حوالى الدقيقة من دون حراك.

رأى رجاله على الرغم من سحابة الغبار المحيطة به وقد رفعوا دروعهم عالياً والتفوا حوله وانحنوا في تشكيلة دفاعية اتقاء لخطر السهام، فخرق صوت ارتطامها بالدروع المعدنية صمت الغابة وسكبتها. قال ليام لاهثاً وهو يحاول التقاط أنفاسه ويرفع نفسه على يديه وساقيه: ”إنه كمين“. التفت إيدي إليه وأوما له برأسه قائلاً: ”أنا أرى هذا يا مولاي“.

في تلك اللحظة تمكن ليام من رؤية مهاجميهم خلف حواف الدروع، وقد ارتدوا خرقاً بنية وخضراء وتحركوا بين أغصان الأشجار بسرعة شديدة، وفهم أن معرفة عددهم ضرب من ضروب المستحيل إلا أنه بالتأكيد يفوق عدد جنوده الاثني عشر المرافقين له.

شتم ليام نفسه لعدم اصطحاب بوب معه إلى الدير البارحة، لكنه أرسله مع بقية الرتل والعربات المحملة بالموئن وأكياس النقود ليتأكد من وصولهم سالمين إلى نوتنجهام من دون الوقوع في أي مشكلات، وكان هذا بالنسبة إليه أكثر أهمية من سلامته الشخصية.

لقد أعماك الغرور..

لقد اعتقد مخطأ بأن اللصوص قد هجروا غابة شيروود كلياً وفكر بأنه

أبعدهم بما يكفي، لكنه اكتشف أنه على خطأ... ليته أخذ معه بوب... أو عشرة أو عشرين رجلاً آخر.

يا لك من أحمق.

تأوه أحد الفتيان بشدة ثم سقط مغشياً عليه على ظهره وقد انطوت إحدى ساقيه تحته بعد أن أصابه سهم في إحدى عينيه. فصاح إيدي بصوت أجش:

”مولاي... علينا متابعة سيرنا“. وأشار له برأسه إلى الاتجاه الذي كانوا سيسلكونه، وقد كان على حق، لأنهم قطعوا قسماً كبيراً من الطريق واقتربوا من قلعتهم، وإذا ما تابعوا تقدمهم بسرعة تحت حماية الدروع وفقاً لتشكيلة الدفاع التي علمهم إياها فلربما تمكنوا من الخروج من الغابة في خلال ساعتين والوصول إلى الحقول المفتوحة ونزول الهضبة التي تفصلهم عن نوتنجهام. فhez ليام رأسه وقال: ”صحيح.. نعم“.

أمر إيدي رجاله بالاقتراب من بعضهم وصاح: ”اقتربوا مني الآن“. ثم بدأ بالتقدم، ف تبعه الجنديان اللذان يحيطان بليام وهما يرفعان عباءته المخملية لحمايته، كما لو كانت قادرة على إيقاف السهام.

تقدم الجميع ببطء شديد على الطريق الذي يشق الغابة زاحفين وهم يجرجرون أقدامهم على الأرض الترابية فأحاطت بهم سحابة من الغبار ومنعتهم من الرؤية وملأت أفواههم بالرمال.

على الرغم من ذلك، سقط رجل آخر صائحاً من شدة الألم وأمسك بسهم اخترق ساقه. صاح ليام: ”لا فائدة... لن تتمكن من التقدم أكثر من هذا“.

أوما إيدي برأسه موافقاً تحت ظل درعه المثقّب بسبب السهام التي لم تتوقف عن الانهمار عليهم، وسببت له كثيراً من الشقوق والفجوات التي سمحت بتسلل أشعة الشمس من خلالها.

”ما رأيك أن نباغتهم يا مولاي“.

استرق ليام نظرة من فوق التروس، فوجد أن بعض مهاجميهم الذين

يطلقون السهام قد نزلوا عن الأشجار واقتحموا الطريق، لكنهم لم يكونوا كثيراً، كما أنهم يرتدون الأسمال القماشية من دون أي دروع أو أسلحة ملائمة للاشتباك الفردي مع العدو. وفكر ليام بأن أيدي ورجاله التسعة الباقين قادرين على الأغلب على القضاء عليهم، كل ما عليهم فعله هو الانقضاض عليهم وإذا لم ينجحوا فعلى كل رجل أن يتولى أمر نفسه، لا مناص عندها من رمي الدرع والسيف والركض للنجاة بحياته. فأوماً له ليام وقال على الرغم من جفاف فمه الشديد من شدة الخوف: "حسناً... لنباغتهم... هيا..."

ابتلع إيدي لعابه ثم بصق بعضاً منه على الأرض وقال: "أيها الرجال... سننطلق باتجاه رماة السهام ونهاجمهم عند إشارتي، هل كلامي واضح؟" أوماً بعض الرجال برووسهم موافقين. كان بعضهم شباناً صغاراً وبعضهم الآخر من رفاق السلاح القدماء الذين حارب إيدي برفقتهم من قبل وكان يعرف قدراتهم، لكن أغلبهم لم يشتبكوا مع عدو حقيقي من قبل، لم يكونوا أكثر من مزارعين بسطاء تعلموا حمل الدرع والتلويح بالسيف والمشية العسكرية المستقيمة مؤخراً.

"استعدوا!"

شعر ليام بأنه أعزل، شعر بأنه لا يرتدي درعه ولا يحمل ترسه ولا سيفه، فنزع عباءته عن رقبته وتركها تسقط أرضاً لأنها ستعيق حركته، ثم سحب خنجرأ له مقبض مزخرف ونصل مثلم غير حاد من حزامه.

دفع إيدي مرفقه بلطف وسأله: "هل أنت جاهز؟"

فأجابه بحركة من رأسه وبلل شفتيه الجافتين بلسانه.

أنا جاهز لإرسالهم إلى الجحيم.

لاحظ ليام في تلك اللحظة ارتباك إيدي الواضح فعرف أنه ليس الشخص الوحيد الخائف هنا، ثم صاح إيدي بصوت مخنوق: "سنهاجمهم عند إشارتي، وحاولوا أيها الفتيان أن تصبحوا بأعلى صوتكم، سنخيفهم حتى الموت بصراخنا". فابتسم اثنان من الجنود القدامى.

أخذ إيدي نفساً عميقاً ثم قال بحماس شديد: "هجوم"!!
اندفع الشبان المزارعين، الذين لم يمض على معرفته لهم وتدريبهم أكثر
من أشهر قليلة، تمكن فيها من بناء عرى الصداقة بينه وبينهم، بلا أي تردد،
وهم يجارون بصيحات الحرب القادمة من أعماق حناجرهم.
وجد ليام نفسه يركض إلى الأمام مع رجاله، كئفاً إلى كئف، وصوت
صراخه نفسه يصم أذنيه.

على بعد عشرين ياردة منهم، حملقت بهم عيون رماة السهام بتهكم غير
مصدقين لما يقومون به، وفجأة... رمى اثنان منهم سهامهما على الأرض
وهربا خائفين، بينما أطلق بعضهم الآخر بضع سهام بلا تركيز أو تصويب
باتجاههم فمرت من فوقهم من دون أن تصيبهم، وعندها... عندما اقتربوا
منهم تراجع بعضهم بضع خطوات إلى الوراء ثم استداروا جميعاً وفروا
هاربين في حركة هروب جماعية.

"هيا اهربوا أيها الجبناء"!! صرخ إيدي وارتسمت على وجهه ابتسامة
مجنونة عريضة لشدة فرحه.

هرب الرماة من أمامهم كالأرانب الخائفة، وفي تلك اللحظة التفت
ليام إلى الخلف فشهد المزيد من رماة السهام يخرجون من بين الأشجار
ويبدأون بإطلاق السهام باتجاههم، لكنهم كانوا بعيدين فلم يصابوا بأذى.
للمرة الأولى، تجرأ ليام على الابتسام بتحدٍ لأعدائه وطمأن نفسه...
سنغلبهم

وعندها... لاح له في منتصف الطريق شبح رجل طويل.

الفصل التاسع والأربعون

نوتنجهام، غابة شيروود، ١١٩٤

وقف العملاق الذي يبلغ طوله سبعة أقدام كاملة بلا حراك في منتصف الطريق بينما انطلق اللصوص على جانبيه هارين، متدثراً بعباءته الداكنة وقلنسوته التي ظللت وجهه تماماً.

توقف الجنود لدى رؤية العملاق وسمع ليام رجاله يشتمون ويلعنون من بين أسنانهم. ثم صاح أحد الجنود الشباب: "الرجل المقنع... رحمتك يا الله... إنه المقنع". ثم رمى سيفه وترسه أرضاً.

زمجر إيدي غاضباً: "ليس سوى رجل مغطى بالخرق البالية، التقط سلاحك". لكن الفتى المسكين هرب بلا عودة بين شجيرات السرخس والعليق واختفى عن الأنظار بعد ثوان قليلة.

أخفق هجومهم، وتحولوا إلى عشرة رجال مرتبكين خائفين على أحد طرق الغابات الموحشة، وإلى مجموعة من الفتیان المرتجفين رعباً داخل دروعهم المنيعه، تمنعهم الرماة من العودة إلى الوراء، ويمنعهم العملاق المقنع من التقدم إلى الأمام.

التفت إيدي إلى رجاله وقال: "هيا أيها الحمقى!! لكن ليام أدرك من

نبرة صوته أنه يشعر بالرعب، وأنه فقد الثقة بما يمكنهم فعله. ربما كان العملاق رجلاً فانياً مثلهم تماماً... لكنه ما زال رجلاً عملاقاً مخيفاً... كما أنه يحمل سيفاً كبيراً يعكس أشعة الشمس المبهرة كلما لوح به يميناً أو يساراً. فجأة... بدأ العملاق المقنع بالجري باتجاههم. وكان يركض بانتظام شديد وكأنه يقفز في الهواء، بخفة وسهولة، من دون أن يحرك ذراعيه، وقد ذكرته هذه الحركات ببوب. وقفزت تلك الذكرى إلى أمام عينيه، وكأنها ذكرى من حياة أخرى. في ذلك اليوم البعيد، كان بوب يتقدم بثبات وهدوء داخل باحة أحد السجون ويقتل كل الحراس الذين يعترضون طريقه بالمسدسين الاتوماتيكيين اللذين يحملهما في يديه.

حاول ليام التقاط السيف والترس المرميين أرضاً لكنه أوقع سيفه رغماً عنه بسبب ارتبائه فاضطر للانحناء مجدداً لالتقاط سيفه.

همس ليام من بين أسنانه لا يدي والرجال الآخرين: "فرّوا بحياتكم... لا يمكننا هزيمة ذلك الشيء... افعلوا ما بوسعكم للهرب منه".

نفذ جنود عدّة تعليمات ليام ورموا تروسهم وسيوفهم أرضاً وهربوا إلى ما بين الأشجار المحاذية لهم على جانبي الطريق، لكن إيدي وأربعة من رجاله مكثوا برفقته، ثم انكمشوا حول ليام في محاولة منهم لتشكيل درع بشري أمام ذلك الشيء.

عندها صاح إيدي من فوق كتفه: "اهرب يا مولاي... سنعيق طريقه". لكنّ الظل الطويل تابع الركض باتجاههم وقطع الياردات العشرة التي تفصله عنهم بعدة قفزات خفيفة واشتبك في لمح البصر بإيدي ورجاله مما دفعهم للعودة إلى الخلف، ثم لوح بسيفه بطريقة دائرية فقطع بضربة واحدة ذراعي أحد الجنود من مرافقيه فطارتا في الهواء وما زالت يده اليمنى متمسكة بالسيف بإحكام.

عندها تمكّن أحد الرجال من طعن المهاجم الطويل في جانبه، فانشنت العباءة السوداء تحت وطأة الطعنة وسمع ليام صوت ارتطام نصل السيف بمعدن آخر.

مدّ الرجل المقنع يده المغطاة بالقفاز وانتزع نصل السيف المكسور بحركة سريعة من خصره ورمى به بعيداً بين الأشجار. ثم انتظر على ما يبدو ليرى ما ستكون عليه ردة فعل الرجل الذي لا يمسك الآن سوى بمقبض السيف المكسور، وعندها شاهد ليام ما سيقسم على أنه رآه بأم عينيه... شاهد يد الرجل المقنع تمتد إلى عنق الرجل وترفعه بإصبع واحد فقط وتطيح به لترميه بعيداً بين الأشجار كما لو كان حزمة من العيدان.

ثم التفت المقنع إليهم وشعر ليام بأنه يوجّه نظره إليه وحده. ركض الرجلان الباقيان برفقة إيدي للنجاة بحياتهما وتركاه وحيداً في منتصف الطريق بجانب ليام، فتقدم المقنع واجتاز إيدي وكأنه لا يراه، فنادى إيدي: "اهرب يا مولاي!!"

أدرك ليام بأن المقنع يركّز عليه لسبب ما فركض كما قال له إيدي أن يفعل، ورمى الترس والسيف وتراجع هارباً بين الأشجار، وعندما التفت ليرى ما يجري خلفه شاهد إيدي يطعن المقنع في ظهره بشدة بالسيف ويقحمه بعنف بين كتفيه.

اختلّ توازن المقنع واعتقد ليام بأنه سمع صوت صفير من تحت العباءة، مما يعني بأن سيف إيدي قد اخترق الدرع من خلال إحدى الفتحات، فاستدار المقنع ليوأجبه على الرغم من السيف المغروز في ظهره واندفع باتجاهه بوحشية بسيفه العريض فاخترق الدرع الذي يغطي جذع إيدي وشقه لينغرز عميقاً في صدره.

شاهد ليام إيدي المسكين للمرة الأخيرة وهو ينهار ببطء ليسقط على ركبتيه، فتمتم: "يا إله السموات!!"، ثم استدار وابتعد عن الطريق وتوغل بين الأشجار، وشق طريقه بصعوبة بين الأغصان المنخفضة وشجيرات العليق التي جرحت خديه بأشواكها، وعلقت جزمته الجلدية السمينة بجذور الأشجار البارزة من التربة وتعرّس عدة مرات بالحفر الكثيرة، وبدا له أن أصوات لهائه وأنفاسه المتلاحقة والأغصان اليابسة التي كانت تتكسر تحت قدميه تملأ أرجاء الغابة الصامتة من حوله كالقبر، فأدرك أن الجلبة

التي كان يسببها ستدل غريمه على مكانه لا محالة... لكنه لم يتمكن من إبطاء سرعته.

تابع الجري لدقيقة أخرى حسب تقديره قبل أن يتوقف لالتقاط أنفاسه، والتفت إلى الخلف متوقعاً رؤية العباءة السوداء الخافقة في أعقابه كأشباح الجحيم بين جذوع الأشجار والعليق، وبدلاً من ذلك وجد نفسه وحيداً، والغابة خالية من أي شخص غيره.

تناول ليام عدة شهقات عميقة وزفر أنفاسه بشدة بعد كل ذاك التوتر والخوف اللذين كانا يملآن أوصاله، وبصق البلغم من حنجرتة المخنوقة على الأرض ثم استقام واقفاً على ركبتيه المحلولتين من شدة الرعب كما لو كانتا مصنوعتين من الهلام.

عندها، لمح شيئاً ضبابياً يتحرك باتجاهه... وغرق بعد ذلك في عالم أبيض ضبابي.

الفصل الخمسون

أوكسفورد، قصر بيومونت، ١١٩٤

تأملت بيكس خيوط الفجر الرمادية الأولى المتسللة من خلال النافذة الطويلة، وحسبت في ذهنها أن الشمس ستشرق بعد سبع وأربعين دقيقة لتعود عجلة الحياة في بلدة أوكسفورد بالدوران من جديد.

لن يستيقظ جون قبل ساعتين آخرين على الأقل بالطبع، وهي قادرة على معرفة ذلك لأنها قدّرت الوقت الذي يخرج فيه من جناحه طلباً لطعام الإفطار، ويحدث ذلك عادة بعد إحدى عشرة دقيقة من الساعة التاسعة، لا قبل ذلك، مع أنه شرب الليلة الفائتة عدة زجاجات من النبيذ، مما يعني أنه سيحتاج إلى ساعة إضافية من النوم.

إنها بحاجة إلى سبع وعشرين دقيقة بالتمام والكمال للخروج من القصر عبر قاعاته الكبيرة الموحشة وأروقه المقفرة، التي لا يشغلها سوى طاقم من الجنود المدرعين، مما يجعلهم يبدوون أشبه بالهياكل العظمية، والخدم، والهرولة لعبور الميل الذي يفصلها عن جدران المدينة.

كانت الجدران ضعيفة الحراسة، وكثيرة الثغرات والشقوق مما يسهل تسلقها للهرب. وقد عادت مرة إلى القصر ذاته متسلقة جداره العالي المنحدر.

و ستعود إلى غرفتها في خلال سبع وعشرين دقيقة لتتظاهر بالنوم.
تابعت بيكس تفتيش الرفوف الخشبية المترعة باللفائف والمخطوطات
الجلدية التي تغص بها مكتبة بيومونت الملكية. وراحت تسحبها عن
الرفوف واحدة تلو الأخرى وتستعرض صفحات منها في محاولة منها
لتحديد المخطوطة المنشودة.

لقد استعرضت في خلال الساعات الخمس التي أمضتها هنا سبعمئة
وستاً وعشرين مخطوطة، وحفظت في ذاكرتها صوراً رقمية لها وبدأت
بالفعل بترجمة محتوياتها المكتوبة بالخط المزخرف إلى اللغة الإنكليزية
المفهومة. وعلى الرغم من ذلك، لم يفض بحثها بين المخطوطات
وترجمتها إلى أي شيء مفيد، لأن عدداً غير محدود منها كان يتحدث
عن البروتوكولات الملكية، ومجلدات كاملة من الشعر الرومانسي، ولم
تجد بينها أي نص قريب مما كانت تبحث عنه. وكانت قد اختارت منذ
البداية طريقة محددة للبحث بين النصوص، تلخص في تحذيرها لدى
العثور على أي كلمة مفتاحية في أي نص تمسحه بعينها، وقد رتبت الأمر
بحسب صلتها بالهدف الذي تبحث عنه بالترتيب التالي:

تريارك (تطابق ١٠٠%)

باندورا (تطابق ١٠٠%)

اعتراف (تطابق ٨٣%)

فرسان المعبد (٧٩،٤%)

الكأس (٧٩،٣%)

القدس (٥٦،٥%)

الشفرة (٢٣%)

لقد احتوت اثنتي عشرة مخطوطة على ثلاث من هذه الكلمات السبع
المفتاحية. واحتوت اثنتين وثلاثين على كلمتين وأكثر منها، واحتوت
مئة وخمس منها على كلمة واحدة. وكانت كلمة "اعتراف" أكثر كلمة
مفتاحية متكررة حتى الآن في نتائج البحث مما دفعها للاعتقاد بأن كثيرين

من الناس في هذا العصر يشعرون بالحاجة الملحة إلى الاعتراف بشيء ما. تابعت سحب المخطوطات بطريقة آلية وسط زخات الغبار المتساقط عليها من الأعلى، وفتحها الواحدة تلو الأخرى لإلقاء نظرة خاطفة عليها، لكن قسماً من عقلها الإلكتروني لم يكن مشغولاً بتحليل النصوص، بل كان يتساءل عن احتمال التوصل إلى نتيجة مفيدة بعد كل هذا البحث. توقفت بيكس عن البحث عندما تناولت مخطوطاً سميكاً عن أحد الرفوف فانهمر الغبار عليها، وكانت تحسب بسرعة وضعها والوقت المتبقي لها هنا متفكرة في آلاف المخطوطات واللفائف التي لم تفحصها بعد.

تبع عيناها ريشة صغيرة أشبه بخصلة صغيرة من الزغب، ولا بدّ من أنها وجدت طريقها للدخول إلى هنا عبر إحدى النوافذ، وراقبتها وهي تتأرجح في الهواء إلى أن حطت على الأرضية الحجرية، وكانت على وشك متابعة فحص المخطوطة التي كانت في يدها عندما تحركت تلك الريشة ببطء من جديد بشكل دائري، وتابعت الدوران في دوامة فوق البقعة ذاتها لفترة من الوقت إلى أن ترحلت برفق على الأرض.

توقفت بيكس عن إجراء حساباتها الذهنية بعد أن أثارت الريشة فضولها وقرصت أرضاً لتنظر إلى الريشة عن كثب، والتقطتها ثم أعادتها إلى المكان الذي دارت فيه قبل هنيئة.

بقيت الريشة ثابتة على حالها بعض الوقت ثم اهتزت وعادت إلى الدوران... ثم ترحلت من جديد بعيداً عن الجدار المجاور لها متحركة تارة ومتوقفة تارة أخرى.

نظرت بيكس إلى الجدار المشابه تماماً لجدران المكتبة الأخرى، والمغطى مثلها بالواح من خشب السنديان.

”تعريف: جدار، خشب، سنديان، الهدف منه: الزينة“

مسحت بيدها على سطح الخشب الناعم وصولاً حتى الأرض، ووجدت هناك ثغرة لا تتجاوز السنتيمترين بين الخشب والأرضية تسبب

تسرباً للهواء وشعرت بتياره على رأس أصابعها. نفرت على الخشب بأصابعها فتردد صدى النقر في كل أرجاء المكتبة كما لو كانت كهفاً.

”التقييم: الاستجابة الصوتية الأولية تشير إلى تردد صوتي يصل إلى ١,٣ ميغاهرتز، بتأخير يصل حتى ٠,٥٦ في جزء من المليون في الثانية“

أطرقت رأسها لتتصت أكثر ونفرت مرة أخرى وهي شبه متأكدة من وجود مساحة كبيرة مخبأة خلف لوح الخشب هذا. فسحبت ذراعها نحو الخلف وعاجلت الجدار بلكمة قوية، فاختفى اللوح بكامله في الفجوة التي سببتها الضربة المدوية في جميع أرجاء المكتبة.

سحبت بيكس ذراعها ونظرت عبر الفتحة التي فتحتها فشاهدت غرفة صغيرة لا ينيها سوى ضوء الفجر الشاحب القادم من نافذة ضيقة.

في داخلها رأت بيكس طاولة عليها شمعة من الشمع الكثيف ومقعد تعلوه وسادة يغطيها الغبار للجلوس، وكأنه ركن قراءة منعزل وسري ما.

كانت بيكس على وشك تدمير ما بقي من اللوح الخشبي ببضع لكلمات خفيفة من قبضتها لكنه راح يتأرجح معلقاً بما يثبته وصدر عنه صوت صرير خفيف.

دخلت إلى ركن القراءة السري الصغير فتمكنك من رؤية مخطوطة ملفوفة حول مغزل خشبي، ففتحته ببطء وسمعت صوت طقطقة الرق الهش.

على صفحاته الصفراء، كُتبت تلك الأسطر غير المتوازية التي كاد حبرها أن يتلاشى بفعل الزمن. وتغضنت جبهتها لاشعورياً وهي تحاول جاهدة فهم الكلمات الهائلة المكتوبة بأخطاء إملائية كثيرة، بخط يد الرجل الذي بدأ يفقد عقله...

هذا... اعتراف جيرارد تريارك، المكتوب في السنة الميلادية... ١١٣٧...

الفصل الواحد والخمسون

دوفر، ١١٩٤

قفز الملك ريتشارد من مقدمة الزورق الصغير إلى الشاطئ الذي ترتمي عليه الأمواج المتلاحقة وشعر بالحركة التي تثيرها الفقايع المندفعة تحت حذائه الجلدي العالي.

إنها الأراضي الإنكليزية مرة أخرى.

لم تبرز الشمس بعد، وكانت أنوار الفجر الرمادية المائلة للزرقة تملأ الأفق، لكنه تمكن على الرغم من الضوء الشحيح من رؤية لجنة من النبلاء ومرافقيهم الذين وصلوا للترحيب به، ووقفوا في أسفل الراية. وكانت المشاعل المتوهجة والمجامر المخصصة للتدفئة تبث النور من حولها وتضيء شعارات العائلات النبيلة الملونة التي يرتديها النبلاء فوق دروعهم. خاض الملك عبر الأمواج متقدماً إلى الشاطئ وخرج من الماء ليجد وجوههم التي كانت تترقبه بحذر بالغ، مما دفعه للتفكير... أنا أعرف ما تريدونه جميعاً. إنهم يريدون أن يشاهدكم الآخرون وهم يرمون تحت قدميه، وهم يدخلون تحت عباءته وفي طاعته، وهم يقسمون أمامه بولائهم وإخلاصهم الأبدي. إنهم يريدون تقبيل يديه وحمد الله علناً على عودته سالماً إلى أرض الوطن، ويريدون توسله للحصول على الألقاب النبيلة

والامتيازات الخاصة، يريدون إعفاءات من الضرائب وأذونات لبناء القصور والحصون، وعلى تراخيص للتجارة والاستيراد. سيعرضون عليه ولأهم المطلق، ثم سيتوسلون الامتيازات كالشحاذين بعد ثوان معدودات. يالكم من مصاصي دماء، يالكم من علقات قذرة.

لكنه بحاجة إلى التحالف معهم... الآن على الأقل. إنه يحتاج إلى مواردهم المالية ورجالهم للفترة القادمة، إلى أن يعيد سلطته وسيطوته إلى عهدهما القديم، والأهم من ذلك، إلى أن يمسك الكأس المقدسة بيديه هاتين، ويصبح قادراً على قهر أي جيش أحقق بما فيه الكفاية للوقوف في وجهه.

حلم بذلك سنوات كثيرة، وانتظر هذه اللحظة طوال السنوات التي قضاها سجيناً عند الدوق ليوبولد بانتظار دفع فديته وإطلاق سراحه، وطوال كل ذلك الوقت، طوال كل تلك الأشهر الطويلة المفعمة بالإحباط، كان يحتفظ بحوزته بنصف السر الكبير، بالمفتاح.. لا بالقفل، بالمخطوط المشفر لا بالمخطوط الثمين ذاته. إنها كلمات الله.

الكأس.

إنها نعمة ونقمة في الوقت ذاته، ذكر نفسه بهذا كي لا ينسى، لو كان يحتفظ بهما معاً ساعة أسره لكانتا الآن بحوزة ليوبولد، ذاك الجاهل الأهل الذي لن يتيح له غباؤه المطبق أن يدرك حجم القوة العظيمة التي يمسكها بين يديه.

افتر ثغره عن ابتسامة عريضة بدت من خلالها أسنانه الصغيرة الصفراء، إنه يشعر بيد القدر وهي تلمسه، يشعر بيد الله على كتفه وبالوعود التي يهمس بها في أذنه. إنه على بعد يوم أو يومين من أوكسفورد، حيث تنتظره المخطوطة في القصر الملكي، وحيدة داخل المكتبة الملكية في مقصورة القراءة السرية الخاصة به. سيتمكن أخيراً من فتح تلك اللفافة على طاولته إلى جانب اللفافة الأخرى التي تحوي مفتاح رموزها، والتي استطاع

إبقاءها بعيداً عن العيون في أثناء احتجازه في سجن قلعة ليوبولد. وهي لا تبدو للناظر لها أكثر من لفافة جلدية مهترئة تبلغ شبرين عرضاً وأربعة طولاً، لكنهم قد وزّعوا عليها أحرفاً محددة في الأماكن التي سيفتحون فيها ثغرات صغيرة مربعة، يتمكنهم من رؤية حرف واحد في المخطوطة الأصلية التي سيضعونها تحتها، إنها الحروف التي ستكشف النقاب عن تلك الكلمات... كلمات الله القدير ذاته.

عندما سيفصح عنها علناً للجميع، ستضعه في مصاف الملائكة في عيون الناس، ستمنحه النفوذ المطلق وستضع في يده مفاتيح بوابة الجحيم. إنه متأكد من كل هذا... لأنه أحد الوعود الكثيرة التي همس بها الله في أذنه. قفز قلبه حماساً والنبلاء ينظرون بترقب إلى وجهه.

لقد خطط ريتشارد لإلقاء خطاب مثير للحماس يدفع هؤلاء الحمقى البدينين للتلهيل لملكهم، لكنه لاحظ الصليب الأحمر المرسوم على عباءة أحد فرسان المعبد، وكان يقف وحيداً على مسافة من البارونات واللوردات المتجمعين. فارس واحد... ارتضى لنفسه الوقوف في مؤخرة الرتل المرحب بالملك، مفسحاً المجال للوردات والبارونات للانتهاء من شؤونهم مع الملك أولاً.

فارس... هل يحمل أخباراً لي؟

ابتعد ريتشارد عن الشاطئ وتقدم باتجاه الجمع ثم تجاوزهم نحو الفارس، فاندفع النبلاء خلفه متصارعين كالأطفال، وكل واحد منهم حريص على أن يكون أول المرشحين بالملك على أرض الوطن.

اندفع البارون هنري دي كروي واعترض طريق ريتشارد وأرخی ثقله الكبير على ركبة واحدة وشبك أصابع يديه القصيرة الثخينة وصاح: "أشكر الله على عودتك سالماً غانماً إلينا... مليكي".

لوى ريتشارد شفثيه تقززاً وتجنبه من دون أن يتوقف عن المشي، بينما تهافت جمع النبلاء خلفه عارضين عليه ولاءهم دفعة واحدة فيما بدا له زعيماً وصراخاً خالياً من أي وفاء، مجرداً من أي بادرة صدق. بحث

ريتشارد عن الفارس الذي شاهده قبل برهة لأنه ضاع منه وسط الزحام الذي تسببت به عبااء وأردية النبلاء الملونة، وسط الجدار الذي شكلته وجوههم المكتنزة والملتحية الصارخة بكل ذاك الهراء المعتاد.

”اصمتوا“!

انتشر صوته المشابه لزئير الأسد في أنحاء الشاطئ ورددت التلال الكنسية البيضاء صدها، فلف الصمت الشاطئ من جديد، ولم يقطعه سوى همس الأمواج الناعم. فنادى من جديد:

”أيها الفارس! أين أنت؟“

تلفت رؤوس النبلاء بحثاً عنه، وهمسوا لبعضهم متسائلين. فبحث الملك عن الفارس من جديد وتقلصت عيناه في محاولة منه لتحديد الصليب الأحمر المرسوم على العباءة البيضاء، ثم سمع خطوات تقترب منه على الحصى وشاهد النبلاء والبارونات واللوردات المتجمهرين يفسحون المجال لشخص ما للتقدم.

أخيراً... وصل الفارس إلى أمام الملك، وكان وجهه مألوفاً لكنه لم يتمكن من تذكر اسمه. ثم تذكر أنه كان أحد الفرسان المخلصين الذين شاركوه في الاستيلاء على عكا قبل ثلاث سنوات.

ابتسم ريتشارد له في بادرة أخوية، من أحد محاربي الله إلى أخيه، كلاهما جنديان... كلاهما فاتحان صليبيان.

لكن القلق بدا جلياً على الفارس لأنه لم ينظر في عيني الملك مباشرة، بل نظر على قدميه، ثم قال بتردد وهو يلحق شفتيه الجافتين، وبصوت منخفض وهادئ قدر الإمكان: ”مولاي الملك، مليكي... أنا أحمل لك أخباراً سيئة“.

تقدم ريتشارد باتجاهه خطوة واحدة وقال هامساً وهو ينحني إلى أن لاصق فمه تقريباً أذن الفارس: ”ما هي تلك الأخبار السيئة بحق السموات؟“

”مولاي... لقد فقدنا الكاس... سُرقت منا“.

الفصل الثاني والخمسون

نوتنجهام، غابة شيروود، ١١٩٤

استيقظ ليام على ألم شديد مبهم، وكانت كل حركة يقوم بها تسبب له ألماً مبرحاً في رأسه. وعندما فتح عينيه وجد نفسه مستلقياً بين الأغصان اليابسة وجذوع الأشجار تحت السماء الزرقاء الصافية، وكأنه يوم آخر من أيام الصيف الرائعة، لكن النسيم العليل وقطرات الندى أخبرته أن الوقت هو وقت الصباح الباكر. فتساءل عن المدة الزمنية التي أمضاها مستلقياً هنا... هل مرّ عليه يوم كامل هنا؟

قرّر ليام تحت وطأة الألم الشديد أن لا يدير رأسه على الرغم من الجلبة الكبيرة التي كانت تدور من حوله، إذ سمع صوت تقطيع الحطب من أجل إشعال المواقد وصوت ارتطام دلو بقدر طهي معدني، وصرير أعنة الخيول وصوت شحذ أنصال السيوف على حجر الحدّاد. ثم نادى صوت قريب منه:

”سيدي لوك... لقد استعاد وعيه“.

أغمض ليام عينيه بسرعة مرة أخرى، وسمع مزيداً من الحركات، وشعر برجال يدورون حوله وبصوت شيء ما وضعوه أرضاً، ثم اقتربت منه خطوات ناعمة ببطء فوق أكواز الصنوبر المنتشرة على الأرض، ثم

بكمامة مشبعة برائحة ما توضع على فمه، وكأنها قد مُزّقت من ثياب أحد قطاع الطريق المليئة بالعرق. لكنه لم يفتح عينيه وأغمضهما بشدة على الرغم من ذلك فرفرف جفناه وفضحا أمره. وعندها صاح صوت عميق من مكان قريب منه:

”لقد استيقظت أيها الأحق... أنا متأكد من هذا“.

ركلته قدم شخص ما بشدة على جانب صدره فشقق من شدة الألم، وفتح عينيه ليرى أمامه رجلاً طويلاً له شعر أشعث أشقر طويل. فابتسم الرجل وانحنى بجانب ليام وقال له:

”هل رأيت؟ عرفتُ أنك استيقظت“.

”مممم... إذاً أنتَ هو العمدة الذي سبّب لي كل تلك المشكلات؟“
لم يكن ليام قادراً على الإجابة بسبب الكمامة التي تغلق فمه بالخرق القذرة، كما أنّ يديه كانتا موثوقيتين خلف ظهره بالرجال.

”أنت صغير السن أيضاً!“ قال الرجل وهو يهز برأسه متعجباً بفضول، ثم قال له بصوت منخفض: ”هل تعرف أنك أديت مهام منصبك بشكل أفضل بكثير من ذلك العمدة الأحق السابق، لقد أثار سخط سكان نوتنجهام وقسم كبير من مزارعي الريف المجاور، ودفعهم للتمرد عليه، وسهّل عليّ مخططاتي، لأن الناقمين الساخطين كانوا يتقاطرون إلى هنا بلا توقف يوماً أثناء حكمه.“

امتدت أيادي عشرة أشخاص إليه وساعدوه على الوقوف على قدميه، فنظر ليام حوله ليجد مختلف أنواع الأكواخ الخشبية الواحية وأخرى مبنية من الخرق والقطع القماشية، وخياماً قماشية مشدودة فوق أعمدة وعوارض مصنوعة من جذوع الأشجار، ولاحظ أن غالبية الموجودين هم من الرجال بعد أن ازدادت أعداد الناس المتحلقين حوله، ولم يجد بينهم سوى امرأة واحدة أو اثنتين من دون أي أطفال، مما منح المكان مظهر مسكن دائم للجماعة، لا مخيماً تم نصبه لقضاء الليلة، بل هو مستقر تم بناؤه عشوائياً لقضاء العام ما بين أشجار السنديان.

شق الرجل الطويل الذي كلم ليام قبل قليل طريقه بين الحشد باتجاه
كوخ مستدير تتألف جدرانه من الطين والأغصان الجافة وسقف منخفض
مخروطي من القصب وفروع الأشجار. لكنه أكبر من بقية الأكواخ وأفضل
بناءً، وكأنهم بذلوا جهداً أكبر في بنائه، مما دفع ليام للشك بأنه كوخ
قائدهم.

المقنّع.

راقب ليام الرجل وهو ينحني للدخول إلى الكوخ ثم يختفي في الداخل
من خلال باب منخفض ويتركه وحيداً مع الجمع المحتشد حوله، وشعر
بأيديهم تدفعه وتطيح به وتلكمه على ظهره فhez رأسه متألماً بشدة. ثم
همس أحدهم بقربه:

”حثةة فرنسي“.

فشتمه شخص آخر ثم قذف على وجهه كتلة كبيرة من البصاق اللزج
وصاح:

”عد أدراجك إلى النورماندي“.

حاول ليام أن يجيب بأنه ليس فرنسياً، وأنه ليس أحد الأرستقراطيين
النورمانديين المتعجرفين، لكن الخرقه كانت تملأ فمه تماماً مما يمنعه من
الإتيان على أي صوت سوى الزمجرة.

لكن كلامه بلا قيمة وغير مهم حتى لو استطاع الرد على الناس، لأنه
يرتدي الملابس الفاخرة، ويضع عباءة مخملية خضراء اللون فوق ثيابه
وينتعل جزمة جلدية بقديمه اللتين تنعمان بجوارب الكتان الدافئ، مما
يعني بأنه ينتمي إلى طبقة النبلاء مهما كان ما يقوله.

خرج الرجل الطويل من باب الكوخ واعتدل واقفاً ثم رفع ذراعيه عالياً
لإسكات هرج الناس ومرجهم.

”لقد أمرني أن أخبركم بأن مصير العمدة بين أيديكم“.

خارت ركبتا ليام رعباً وسط هدير الجماهير التي هللت للخبر.

هذا ليس أمراً جيداً يا إلهي...

صرخ العديد من الناس: "اقتلوه"!!!

"هل تريدون حقاً أن تُظهروا لجون المُتصنّع رأيكم الحقيقي بخادمه

الوضيع النورماندي هذا؟"

فتعالت صيحات الموافقة من الجمهور، ونظر ليّام إلى الرجل الطويل محاولاً أن يلفت نظره بعينه، بدا الرجل مختلفاً عن بقية الناس المتحلقين هنا بلكنته المختلفة، وكأنه متعلم إلى حد ما، كما أن ليّام لاحظ بعضاً من الأسف في صوته وكأنه يتمنى أن يختاروا مصيراً مختلفاً للعمدة الشاب. يجب أن أتحدث معه...

حاول ليّام التخلص من الخرق التي تسدّ فمه وراح يدير رأسه من ناحية إلى أخرى بينما كانوا يجروّنه إلى مكان آخر، وكانت أيادي أولئك الرعا ع تمتد إليه متصارعة لعلها تلمسه بشكل أو بآخر، لتقرصه أو لتلكمه. ثم شعر بعد قليل بالخرقة المتعفنة ترتخي وتمنح مؤخرة لسانه بعضاً من المساحة الكافية ليتحرك قليلاً ويدفعها إلى الخارج، لكن ذلك جعله يشعر بالغثيان فقاوم بشدة كي لا يتقيأ.

ابتعد الناس عن بعضهم وتحلقوا حول بقايا جذع شجرة هائلة مقطوعة، وكانت تبلغ الyarدة عرضاً و yarدة أخرى طولاً وكأنها طاولة مرتجلة قُطعت بالفأس على عجل.

"أرسلوا رأسه إلى أو كسفورد".

رأسي؟ لا... أتوسّل إليك يا إلهي...

شاهد ليّام شخصاً يضع سلّة من الخيزران بجانب الجذع فراح يتلوى ويحاول انتزاع نفسه من قبضة الرجال الذين يسحبونه فدفعوه بقسوة أكبر إلى الأمام.

"تقدّم أيها الخنزير... سنضعك على الخازوق عندما ننتهي من قطع رأسك".

دفعته ذراعان قويتان إلى الجذع ودفعت بكتفيه لينحني إلى الأمام فوق سطح الجذع الخشن.

في هذه اللحظة، دفع ليام الخرقه بلسانه باهتياج وفزع شديدين ليخرجها من فمه قليلاً قليلاً، ولكن... حتى لو أخرجها وتمكن من قول أي شيء، فإنه على ثقة من أن لا شيء مما سيقوله قادر على إيقافهم الآن... إنهم يريدون قطع الرأس النورماندي ذي الشعر الداكن.

كانت ذراعه موثقتين خلف ظهره، وشظايا الخشب البارزة من جذع الشجرة تغرز نفسها بوحشية في خده بينما ثبتت أياد عدة رأسه بإحكام نحو الأسفل. نظر ليام إلى الأعلى... ويا ليت له لم ينظر... لأنه شاهد جلاداً حقيقياً بجانب الجذع، وكان يستمتع باللحظة ويعرض عضلاته ويلوح بسيف عريض جداً بيديه الاثنتين. فبدا الناس بالصياح:

”اقض عليه بضربة واحدة... ضربة واحدة“.

فأجابهم الرجل صائحاً أيضاً بصوته الأجش: ”نعم... لا أحتاج سوى إلى ضربة واحدة“. فعاجله أحد الرجال:

”ليس دائماً يا سيث، لقد احتجت المرة الماضية إلى أكثر من ثلاث ضربات لضرب عنق ذاك الرجل“.

دارت الدنيا بليام وفكر... أغلق عينيك يا ليام... من الأفضل لك ألا تشاهد السيف وهو قادم باتجاهك...

لكنه لم يتمكن من ذلك، لم يستطع رفع عينيه عن جلاده الذي كان يقوم باستعراض قواه أمام جمهوره ويدور حول الجذع وهو يلوح بسيفه جيئةً وذهاباً.

كانت الخرقه على وشك الخروج من فم ليام لكنها لا تزال تكمه، فحاول الصراخ كي يتوقفوا لكن صرخاته المكثومة تلك ذهبت أدراج الرياح.

شاهد ليام فجأة الرجل الطويل واقفاً على مسافة منهم ناظراً إليه بصرامة، وبجانبه يقف المقنّع المشووم بلا حراك، وبقامته التي تفوق صاحبه بحوالي القدم طولاً، ووجهه المتواري تحت ظل قلنسوة عباءته. وقد أخرس وجودهما عواء الحشد إلى درجة أن ليام سمع حفيف أوراق

الأشجار وهي تتمايل مع النسيم. ثم قال الرجل الطويل:
”هل هذه هي رغبتكم؟ هل تريدون إرسال رأسه إلى العصاة التي تحكم
بلادكم؟“

فهلل الحشد وصاح الناس بأعلى صوتهم موافقين. فقال بشيء من
الأسف في صوته: ”ليكن إذاً“.

وأعطى الجلاد إشارة البدء وقال من جديد: ”تأكد من تنفيذ الأمر،
وحاول أن تكون ضربتك قاطعة، لأن هذا النورماندي الشاب يستحق
ميتة سريعة بلا عذاب“.

فلوأم الجلاد برأسه مطيعاً وقال: ”أمرك“. ثم تقدّم خطوتين باتجاه ليام
ووضع نصل السيف الحاد البارد على مؤخرة عنقه، فشعر ليام بوزنه الثقيل
وحافته الحادة كشفرة ماضية تكاد تجرح جلده.

ثم رُفِعَ الثقل الكبير عن كاهله، رُفِعَ السيف إلى الأعلى استعداداً للإعدام.
يا إلهي... يا يسوع...

انتفض ليام وأرجع رأسه إلى الخلف وركل الأرض بقدميه فثبته الأيدي
أكثر وضغطت بعنف أكبر على كتفيه. وحذّره أحد هؤلاء الرجال قائلاً:
”لا تتحرك... إلا إذا أردت أن يعلق بعض من رأسك بجسدك كالمواشي
المذبوحة“.

بينما حبس الجلاد أنفاسه ورفع سيفه إلى لأعلى لبرهة من الوقت، حرّك
ليام ذقنه مرة أخرى فتمكن أخيراً من تحرير فمه من الكمامة التي منعتة من
الكلام طوال كل ذلك الوقت وصاح بأعلى صوته المرتعش المرعوب:
”أرجوكم!!! أنا لست فرنسياً... أنا... أنا... قادم من المستقبل“.

الفصل الثالث والخمسون

نوتنجهام شاير، غابة شيروود، ١١٩٤

”توقّف“!!

سمع ليام صوت السيف وهو يهوي باتجاهه، وينقضّ عليه كجناح ملاك الموت، بقوة وعمق... ثم اهتزّ جذع الشجرة التي كان يُسند رأسه إليها بشدة بسبب الصدمة العظيمة التي تسبب بها سقوط السيف عليها. أنصت ليام لصوت اهتزاز النصل وهممته واللّغات التي أطلقها الجلاّد بسبب الاهتزازات التي ألّمت يديه.

حاول ليام أن يركّز أنظاره على المعدن البراق المرتعش بجانب أنفه تماماً ورأى صورة وجهه المذعور معكوسة على حدّه العريض، وكان ذلك آخر شيء يراه قبل أن يفقد وعيه تماماً.

استعاد ليام وعيه برشّة من الماء على وجهه، فصرخ بشدة قائلاً:

”لااااااااااا“

فتح عينيه ليجد نفسه في مكان مظلم وقد حُلّ وثاق يديه. وكان موجوداً في غرفة مستديرة مبنية من اللبن المشوي والأغصان وفروع الأشجار، وكانت أشعة الشمس تتسلل عبر فتحة مغطاة بالقصب والقش، وتسمح له برؤية ذرات الغبار وحبيبات الطلع المتناثرة في الهواء بشكل جميل جداً.

ثم سمع أحدهم يقول بهدوء من مكان قريب منه: "أنتَ لستَ ميتاً... إذا كنت تشكّ بالأمر".

فتلفت عيناه اللتان تحاولان الاعتياد على الضوء الموجود في المكان، فشاهد المقنع جاثماً على أرض الغرفة، وبجانبه يجلس الرجل الطويل صاحب الشعر الأشقر على كرسي خشبيّ، وكان يدرس معالم وجه ليام باهتمام ويتفكر في أمره وهو يعضّ على شفته. ثم سأله بعد برهة: "من أرسلك؟"

حاول ليام استجماع ملكاته العقلية بكل طاقته بعد أن كان ينتظر ضربة السيف التي كانت ستودي بحياته. فعاد الرجل الطويل للسؤال بعد أن اقترب قليلاً من ليام:

"لقد قلتَ قبل قليل... أنا من المستقبل... والشخص الوحيد الموجود في القرن الثاني عشر والقادر على فهم مسألة السفر عبر الزمن هو شخص قدم بالفعل من المستقبل. ولهذا... أنا أصدّقك تماماً، والآن... من أرسلك؟"

نظر ليام إليه وقال: "أنتَ... أنتَ... أنتَ أحد رواد الزمن أيضاً؟" فأوما الرجل برأسه موافقاً.

"هل أنت واحد منّا؟" سأله ليام.

"منكم؟"

مكتبة الرمحي أحمد ٩٩

"من الوكالة؟"

"الوكالة؟"

هزّ رأسه وقال: "الوكالة؟"

عضّ ليام شفته وفكر بأنه فقد صوابه كلياً.

"الوكالة؟ انتظر... أنت لا تقصد... تقلّصت عينا الرجل وابتسم...

ثم قال: "لا يمكن أن تقصد تلك... الوكالة؟"

استهجن ليام استغراب الرجل وقال: "نعم... أنا... لا... لا أعرف...

أنا..."

”لقد سمعتُ عنها الإشاعات... في عام ٢٠٦٠. سمعت عن وجود وكالة سرّية تلاحق رواد الزمن غير الشرعيين وتقضي عليهم، لكنها كانت مجرد إشاعات كما اعتقدت“.

لم يجبه ليّام، وبدأ الرجل الطويل مفتوناً بالفكرة تماماً، ثم قال: ”اعتقد الجميع أنها مجرد دعاية لردع الناس عن السفر عبر الزمن... لتخيف أيّ شركة تكنولوجيا تفكر بتطوير أيّ آلة مشابهة للسفر عبر الزمن... لكنك موجود هنا بالفعل... ولهذا فإن هذه الوكالة حقيقية... هل هم من أرسلوك؟“

اتجهت عينا ليّام إلى الرجل المقنّع الهائل الحجم المحشور داخل هذه الحجرة الصغيرة، وكان يجلس صامتاً مقرفصاً بلا حراك، وكان الرجل الطويل هو من يطرح الأسئلة حتى الآن بانتظار الإجابات من دون أن يفرض عليه الإجابة أو يأمره بأي شيء... فتساءل ليّام عن الفترة التي سيبقى بها الحال هكذا. ثم همس ليّام:

”هذا صحيح، أنا أعمل لدى تلك الوكالة“.

فضحك الرجل مجدّداً وقال: ”يا إلهي... إنها حقيقية إذاً... كنت متأكداً من ذلك. أخبرني... من يديرها؟ هل هو الاتحاد الأميركي الشمالي، أم الكتلة الكورية؟ أم لعلها أوروبا الجديدة؟“ فأجابه ليّام: ”لا أعرف حقاً“.

”أم لعلها شركة خاصة؟“

هزّ ليّام رأسه وقال: ”لا أعرف... نحن نعمل وحدنا... ولا أعرف من يديرنا“.

”أي أنك مجرد أداة... جندي على أرض المعركة...“ وابتسم له بخيبة أمل.

فقال ليّام: ”أنا... أعتقد ذلك“.

”هل يعني هذا أنهم أرسلوك إلى هنا لأنني غيّرتُ مسار التاريخ بعض الشيء؟“

”صحيح“

”هل تغير كثيراً؟“

”تغير بما فيه الكفاية إلى درجة أنك تسببت بموجة تغيير زمنية. لقد غيرت حاضرنا“.

”مما يعني أنك أتيت إلى هنا لقتلي؟“

صمت ليام، لأن إجابته على هذا السؤال ستعني أنه سيفصح للرجل عن كثير من المعلومات، فسأله بدلاً من ذلك: ”من أنت؟“

”هذا سؤال مباشر من قبلك، وأنا معجب بهذا... ولهذا أظن أنني سأخبرك، اسمي هو جيمس لوك“. أجابه الرجل الطويل مبتسماً.

”تشرفتُ بمعرفتك يا سيد لوك، أنا ليام أوكونر“، ومدّ يده ليصافحه متودّداً.

ابتسم وجه لوك ببطء ثم مدّ يده باتجاه ليام وقال: ”أنا أعرف هذه اللكنة... أنت آيرلندي أليس كذلك؟“

”هذا صحيح“.

”يا للأسف“.

عبس ليام وقال: ”لماذا؟“

”لماذا؟ ألا تعرف ما جرى؟ أنت لا تعرف؟“

”ماذا؟“

”لقد غرقت معظم أراضي آيرلندا. وأعتقد أنه لم يبقَ منها سوى بعض قمم جبال مقاطعة كيري، أما الباقي فقد غرق بالكامل“.

حملق ليام بالرجل وهو يتساءل إن كان كل ذلك مزاحاً منه، لكنه تابع كلامه: ”لقد غرق كثير من الجزر الأخرى والسواحل على ما أعتقد، ولكن

أنت لا تعرف أي شيء من كل ما جرى حقاً؟ من أي عام أتيت؟“

فلم يرَ ليام أي شيء يمنعه من الإفصاح عن السنة التي أتى منها فقال:

”٢٠٠١“

”٢٠٠١؟ حقاً؟ وما الذي يربطك بالسفر عبر الزمن؟ هذا التاريخ يسبق

أول اختبار لآلة السفر بالزمان بأربعين عام أ.

”إنه زمن جيد لا يختلف عن غيره... على ما أعتقد“. ثم نظر على لوك باهتمام شديد وسأله: ”هل قلت بأن آيرلندا غرقت تماماً؟“

”لقد أغرقها اختلال النظام المناخي الذي كان يُعرف في الماضي باسم الاحتباس الحراري. ذابت ثلوج القطبين قبل ذلك بعقود وارتفع منسوب مياه البحر مئات الأمتار، ففقدنا نحو خمس مساحة اليابسة، وهي أكثر الأماكن ازدحاماً بالسكان قبل الكارثة. فانتهى الأمر بالناس محتشدين بعضهم فوق بعض في ما تبقى من اليابسة التي يمكن العيش عليها. المساحة المتاحة للفرد تكفيه للوقوف بالكاد على ما أعتقد.“

”يا للهول“.

”نعم، أنت على حق“. قال لوك وهو يزيح خصلات شعره عن جبهته وعينه، فأمعن ليام النظر في وجهه وأدرك أنه أكبر سنّاً بكثير مما اعتقد في البداية، لأنه لاحظ الآن فقط شعره الذي تملأه الخصلات الفضية والرمادية، والتجاعيد العميقة التي تحيط بعينه.

”العالم يحتضر يا ليام في الزمن الذي أتيت منه، وقد جنينا على أنفسنا، كل ما يجري هو صنعة أيدينا. تزداد حرارة العالم باطراد وكل محاولتنا لتعديل المناخ تخفق بلا طائل“.

فرك ليام رأسه وهو ما زال تحت تأثير الصدمة... ثم قال: ”أخبرني إذا... من أي زمن أتيت أنت؟“

ابتسم له لوك بأسى شديد وقال: ”من نهايته... على ما أعتقد“.

”نهايته؟ ولكن متى سيحصل هذا؟“

لم يجبه لوك وأنصتاً معاً للجلبة المتفاقمة خارج الكوخ، فعاد ليام للسؤال:

”ماذا عنيت بآخره يا سيد لوك؟“

تجاهل لوك السؤال وقال: ”من المحتمل أن أشرح لك ذلك في ما بعد، أما الآن فمن الأفضل أن أخبر هؤلاء البرابرة المتجمعين خارجاً بأننا

لن نقطع رأس أي نبيل نورماندي اليوم“.

”ألن تقتلني؟“

”هذا يعتمد على موقفك مني... بإمكانك الاختيار ما بين الوقوف في طريقي أو التنحي جانباً، وإذا أردت نصيحتي فأنا أفضل أن تبعد عن طريقي“.

”لماذا؟ ما الذي تخطط له؟ لماذا عدت إلى هذا الزمن وهذا المكان

بالتحديد؟“

ابتسم له مجدداً وقال: ”أتيتُ إلى هنا أساساً للبحث عن شيء ما، لكن مخططاتي تغيرت بعد ذلك. كن متعاوناً معي ولا تخرج من الكوخ، لا تحاول الهرب وإلا أرسلت ركس في أثرك“.

رفع المقنّع رأسه لدى ذكر اسمه، فسأله ليام:

”هل هذا... وحدة دعم مرافقة لك؟“

كان من الواضح أن لوك لم يفهم قصده فأضاف ليام موضحاً له على

الرغم من شكّه بأن لوك لن يفهم توضيحه:

”مستنسخ...“

”وحدة دعم مهندسة وراثياً؟ يا إله السموات... لا... إنها باهظة الثمن

جداً ولا يمكن الاعتماد عليها. هذه الآلة تفوقها عملياً بدرجات. هل تريد

أن ترى؟“ ونظر إلى ليام بحماس فبرقت عيناه وتألفتا.

”حسناً.. لم لا“.

تقدم لوك من ركس وسحب العباءة عنه بطريقة مسرحية ليكشف له عن

الجمجمة المعدنية المنبجعة الصدئة. كان المعدن يمتد نزولاً حتى موضع

الأنف على الجمجمة البشرية، وتغطيه ابتداءً من هذا المكان بشرة صناعية

محروقة وذائبة كالشمع تقريباً فوق ما كان في ما مضى أنف الآلة وخدّيهما

وفمها وفكها السفلي، وكانت مدببة الأطراف لشدة الضرر الذي لحق بها

لكنها تشبه بشكل أو بآخر نصف الوجه السفلي لأي إنسان عادي.

”الناس الذين أرسلوني... حسناً... من العام الذي أتيت منه... كانوا

محظوظين للحصول على هذا النموذج من الرجل الآلي". قال لوك وهو يتسم ويمسح بيده على الجمجمة المعدنية فاستجاب له الرجل الآلي بأزيز ضعيف. ثم تابع قائلاً: "إنه سايبورج مقاتل من صنع الجيش. نسخة مقاتلة مغطاة بغلاف بلاستيكي مطابق للبشر... لكن هذا كل ما بقي منه الآن بعد أن حارب في معركة النفط الأخيرة. إنه ليس وسيماً لكنه قوي كدبابه مقاتلة". "هؤلاء الرعاى المحتشدون فى الخارج... إنهم يتبعونه... ويبدو أنهم...؟"

"يعبدونه؟ أهذا ما تفكر به؟ نعم... إنهم يعبدونه تقريباً. أظن أن هذه الكلمة تختصر شعورهم نحوه. هؤلاء البسطاء الحمقى يعتقدون أن ركس نبى مرسل من عند الله لإرساء العدالة ولقيادتهم فى حربهم ضد أسيادهم النورماندين. ولهذا سينفذون كل ما يأمرهم به". "أنت تقصد... كل ما تأمرهم أنت به؟"

فضحك لوك وقال: "تماماً... تمت برمجة ركس لتنفيذ أوامري وحدي، لكنهم يعتقدون أن المقتنع هو من يقودهم، وهذا يخدم هدفى تماماً".

"وما هو هدفك يا سيد لوك؟"

نقر لوك على أنفه وقال: "ستحدث عن ذلك فى ما بعد". ثم نهض عن كرسيه وخرج من الكوخ الصغير، وسمعه ليام وهو يشرح للناس فى الخارج أن الاحتفاظ بالعمدة كرهينة سيكون مفيداً لهم أكثر من قتله.

التفت ليام لينظر إلى وجه الروبوت المقاتل... إنه نصف إنسان ونصف آلة معدنية صدئة مطلية بلون الجيش الأخضر الذى كانت طبقة طلائه الخارجية تسقط عنه. وشاهد ضوئين صغيرين شاحبين أزرقين، وكانا يكادان يتوهجان، كما كانت الأضواء الصغيرة التى تشير إلى تشغيل آلة الزمن تفعل فى عام ٢٠٠١. فأوما له ليام بحذر شديد ولوح له بيده وقال: "آه... مرحباً".

لكن الرجل الآلي لم يتوقف عن التحديق فيه، بلا حراك... وبصمت.

الفصل الرابع والخمسون

قلعة نوتنجهام، ١١٩٤

عائين بوب عشرات المجندين الجدد في أثناء التدريب وهو يقف في وسطهم، بعد أن قسموهم إلى أزواج وأعطوهم سيوفاً وتروساً خشبية وطلبوا منهم الاشتباك، وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء وألقت بأشعتها على ساحة القلعة الرئيسة فتصببوا عرقاً تحت دروعهم الحديدية الثقيلة.

راقب مستواهم الرديء وحركاتهم الخرقاء وقَّيم قدراتهم القتالية: "تقييم: القدرة القتالية... سيئة"

لم يتمكن حتى من وضع درجات محدَّدة لهم... كانوا على تلك الدرجة من السوء، ولم يتجاوز مستواهم بنظره سوى مستوى الشيوخ المصابين بسوء التغذية أو الصبيان الصغار، وهم يجاهدون للبقاء وقوفاً تحت ثقل دروعهم، ممَّا لا يخوِّلهم أبداً الاشتراك في عراك حقيقيٍّ وحمل سيوف ثقيلة وتروس حديدية ثقيلة.

إلا أنَّ مجرد وجود كل تلك الأرتال الطويلة من الجنود الذين يرتدون الستر الخمرية الملكية التي تحمل رمز الأسود الذهبية الثلاثة على صدورهم، والذين يجوبون ريف نوتنجهام كان يحقِّق هدف ليام

من تجنيدهم. فقد انحسرت حوادث قطاع الطرق وغارات اللصوص وتناقص عدد الخارجين عن القانون وتقلصت الفوضى التي كانت تعم البلدة والقرى الزراعية المجاورة لها بعد أن انسحبوا جميعاً إلى أعماق الغابات.

أجرى بوب بعقله الإلكتروني تفقّداً لأهداف مهمّتهم. ووجد أنهم حققوا هدفهم الرئيس الحالي في قمع تمرد الفلاحين الذي كان سينطلق من نوتنجهام، لكنه لا يستطيع مسح هذا الهدف من قائمة الأهداف ما لم يستلم إشارة تأكيد من غرفة العمليات تفيد بأن التاريخ قد عاد إلى سابق عهده.

شعر بوب بأن ليّام أوكونر مرتاح إلى مهمات العناية بمستلزمات القلعة وقيادة الحامية وتزويد الناس في البلدة بالموّن الكافية له. وبدا أن القسم البشري من دماغه يحاول أن يقول له شيئاً ما حول هذه القصة، أن يوصل له شعوراً من نوع ما... وحاول بوب أن يفهم تلك الإشارات... حاول أن يسميها باسمها الصحيح ووجد لها تعريفاً ملائماً في النهاية.

أهو الفخر؟

تدخل دماغه السيليكوني وقرّر تحليل ما يجري بعناية أكبر.

”تحليل: مكافأة على تحقيق هدف البعثة“

حاول بوب أن يرسم على وجهه واحدة من الابتسامات التي يخترنها في ذاكرته، فبدأ وجهه أشبه بوجه حصان يكشر عن أسنانه، لكنها عبرت من وجهة نظره عن الرضى والارتياح اللذين كان يشعر بهما. واعتقد بوب أن الابتسامة ملائمة لشعوره الحالي فمنحها اسماً في ذاكرته:

”ابتسامة- الشعور بالفخر- ٠٠١“

قاطع صوت آت من جهة البوابة الرئيسة سلسلة أفكاره فنظر إلى مصدر الصوت ليرى رجلاً جريحاً يتلقى المساعدة للدخول من قبل رفاقه الحراس. أمر بوب المجندين الجدد: ”يمكنكم الاستراحة الآن“. ثم عبر الساحة لكي يتبيّن أمر القادم الجديد.

عندما اقترب من البوابة شاهد السترة الخمرية والذهبية التي يرتديها

جنودهم وتعرّف إلى وجه الرجل واكتشف أنه أحد أفراد الحامية التي كانت ترافق ليّام إلى دير كيركليس. لقد تأخر ليّام يوماً عن البرنامج الذي أخبره عنه لكنه افترض أنه قرر البقاء برفقة كابوت يوماً آخر. حتّ بوب الخطي إلى أن وصل إلى جانب الرجل الذي ساعده عدة رجال من البلدة على الوصول إلى بوابة القلعة ومدّوه أرضاً. فقال له أخذهم: “وجدناه مرمياً على الأرض في السوق يا سيدي”.

ركع بوب بجانبه وفحصه واكتشف أن الدماء تغطي نصف سترته مما بدّل لونها إلى اللون الأسود.

“لن يعيش طويلاً، لقد فقد الكثير من الدماء”.

كان الرجل أحد أوائل المجنّدين الذين درّبهم بوب فاستعاد اسمه من قاعدة بياناته وخاطبه قائلاً: “هنري جاردنر، يجب أن تخبرني بما جرى لكم”.

نظر الرجل إليه وقال: “نصبوا لنا كميناً يا سيدي... لقد...” ثم سعل الرجل فبصق كمية من الدم الداكن على صدره. وقال: “ماء... أرجوكم...” “أكمل ما جرى لكم عندما تستطيع ذلك...” قال بوب للرجل وهو يشرب الماء من الدلو الذي قدّمه له.

“لقد نصبوا لنا كميناً... البارحة... عصابة الرجل المقنّع... العمدة...” ثم تهدّجت أنفاسه.

“ماذا حلّ بالعمدة؟”

“لقد أسروه... أخذوه”.

“هل هو على قيد الحياة؟”

خارت قوى هنري جاردنر بسرعة وارتعش جفناه وتقلصت عضلات وجهه من شدة الألم، فكرر بوب سؤاله بإلحاح:

“هل هو على قيد الحياة؟”

“نعم... لقد أخذوه معهم...”

فأوماً له بوب وقال بصوته العميق: “فهمت...”

ثم التفت إلى أحد المجندين الذين يقفون بجواره وقال له: "أحضر لهذا الرجل بعضاً من الجعة الممزوجة بالعسل من المخزن".

ثم درس وضع الرجل الصحي فوجد أن أمامه ساعة أخرى قبل أن يفارق الحياة مما يعني أن الكحول سيساعده على تخفيف الألم إلى أن تحين ساعة موته. ورأى ان الرجل يستحق هذه المكافأة للجهد الذي بذله لإيصال المعلومات إلى القلعة. ثم ألقي نظرة على رجال البلدة الذين قدموا له يد المساعدة وقال لهم:

"أنتم مواطنون صالحون... لكم مني كل الامتنان على مساعدتكم له. تفضلوا بشرب بعض من الجعة الممزوجة بالعسل".
فانحنى الرجال له امتناناً على بادرته تلك.

وضع بوب ذراعه على كتف غاردنر وربت عليه برفق وقال:
"لقد قمت بواجبك على أكمل وجه يا هنري غاردنر".

ثم انتصب واقفاً وهو يفكر بمجموعة الإجراءات التي ينبغي عليه القيام بها على وجه السرعة. ولم يكن بحاجة إلى كثير من الحسابات ليقرر أن العثور على ليام وإعادته حياً يرزق إلى القلعة هو أول وأهم الأهداف. ولم يتعارض هذا الهدف الجديد مع الهدف القديم، لأن تولي ليام أوكونر لمنصب العمدة كان أكثر الأمور تأثيراً على الأهالي الذين أحبوه حقاً، مما يعني بأنهم سيطالبون بعودة عمدتهم سالماً إليهم.

اتخذ بوب قرار البحث عن ليام وإيجاده بالفعل، لكنه كان بانتظار صدور ذلك القرار من عقله الإلكتروني بشكل رسمي.

كما أن العثور على مخيم المقنع وأتباعه داخل غابات نوتنجهام يحتاج إلى أيام طويلة من البحث، وربما احتاج إلى أسابيع أو أشهر، وهو لا يملك ذلك الوقت. لا يملك سوى ثلاثة وعشرين يوماً هنا قبل العودة من كل بدّ إلى عام ٢٠٠١، وإلا سيحرق دماغه السيليكوني نفسه هنا، في عام ١١٩٤.

لا يملك كثيراً من الوقت.

إذا ما حصلت المعركة بينهم وبين رجال المقنع في الغابة، أو الكمين كما هو واضح من كلام الجندي... فلا بدّ من أنهم نصبوه له على الطريق الشمالي الشرقي الواصل بين دير كيركليس ونوتنجهام. ولا بدّ من أنه سيجد هناك آثار العراك... كبقع الدماء أو علامات جرّ على الأرض... وربما حالفه الحظ بالعثور على أي أثر يمكن اتباعه داخل الغابة، وربما كانت العصابة ما زالت في الجوار.

التفت بوب إلى الرجال الواقفين في الساحة العليا الذين كان بعضهم يسترق النظر بفضول ليعرف ما يجري، وتعرّف على وجه أحدهم على أنه أحد الجنود الذين رافقوهم إلى هنا من أو كسفورد قبل ستة أشهر. وهو محارب محتك مثل إيدي، فبحث عن اسمه في البيانات وناداه: "جيثرو لونجستريت؟" "أمرك سيدي".

"بحسب السلطة الممنوحة لي من قبل عمدة نوتنجهام، أنا أعهد إليك بقيادة حامية القلعة في أثناء غيابي". فاتسعت عينا الرجل دهشة غير مصدّق لما سمعه. فصاح له بوب بصوت عالي تردد صدها حول أرجاء القلعة:

"استمروا في تسير نوبات الحراسة الخارجية، وتابعوا الإشراف على توزيع الطعام في سوق البلدة كل صباح كالمعتاد، ولا تتوقفوا عن تمرين المجندين الجدد. سأغيب أياماً عدّة فقط... هل فهمت التعليمات جيداً؟" "نعم... بالطبع يا سيدي..." "عدّ لتنفيذ عملك إذاً".

ثم التفت إلى الرجال الواقفين بقربه وقال: "أحضروا لي حصاناً بسرعة".

الفصل الخامس والخمسون

قلعة أوكسفورد، ١١٩٤

سمعت بيكس ضجيجاً قادماً من خلف جدران القلعة، وصرخات وتحذيرات قوية تدل على حصول شيء خطير ما، وتعرّفت إلى صوت جون من بين الأصوات.

بعد دقائق، اندفع جون بسرعة إلى داخل البهو الكبير لاهتافاً بحثاً عنها، ووجدها تنتظره بجوار نافذة كبيرة مقوّسة وهي تبذل كل ما في وسعها لتبدو هادئة متماسكة وراقية كما يليق بسيدة نبيلة، فاقترب منها مسرعاً وتمتم قائلاً:

”الخبر صحيح... لقد سمعت بالأمر للتو“
”ما الخبر؟“

”...ريتشارد... لقد وصل إلى أرض إنكلترا) وكان وجهه شاحباً من الخوف ورطباً من شدة العرق الذي يغشاه. ثم تابع قائلاً: (الرسول... رسوله وصل هذا الصباح وأخبرني بأنه وصل إلى دوفر البارحة).

بحثت بيكس في بياناتها وتفحصت في ذهنها خريطة إنكلترا وعرفت أن المسافة التي تفصلهم عن دوفر هي ١١٨ ميلاً، لكنها لا تعرف كم ميلاً يقطع الجيش في اليوم في هذه الحقبة. إلا أن الرجل الماثب للوصول

إلى هدفه بأسرع وقت يقطع هذه المسافة على الحصان في خلال يومين. وقد أخبرها جون من قبل بأن أخاه سيلتقي بحلفائه على طول الطريق، وسيصل إلى جون في النهاية بعد أن يكون قد جمع أضخم جيش ممكن، فسألته:

”هل تظنّ بأنه سيقصد أو كسفورد مباشرة“؟

فاوماً لها برأسه موافقاً برعب وقال: ”سيأتي إلى هنا مباشرة... لأنه يعتقد بأن الكأس هنا“، وابتلع لعبابه بصعوبة.

”لا بدّ من أن أخبره بنفسي... أنها سُرقَت. وأني من أمر فرسان المعبد بحملها شمالاً إلى اسكوتلاندا... سيقتلني بلا شك“. وفقد جون أعصابه وضحك بطريقة هستيرية.

فطمأنته بصوتها الواصل قائلة: ”سأحميك“.

تقدم جون إلى الشرفة ونظر منها إلى البلدة الهاجعة في الأسفل. كانت شمس الظهيرة تشوي بحرارتها اللاهبة جدران القلعة، والنسيم الهادي يداعب الرايات المرفوعة ويحرك السقوف القماشية ذات اللون الرمادي الداكن التي تغطي الأكواخ ويرفعها تارة ويتركها تارة أخرى تحت السماء الزرقاء الصافية. فقال جون: ”لماذا لم يجدها رفيقك ليام بعد؟ لا أعتقد أنه بدأ حتى بالبحث عنها“.

لقد حمل له رسل عدّة أخبار نوتنجهام في خلال الأشهر الماضية، وأطلعوه على سير الأمور هناك، وأكدت له التقارير أن ليام يبذل كل ما بوسعه لكسب ثقة المواطنين الجياع، ولإعادة بعض من هبة الملكية إلى سابق عهدها ولإرساء دعائم القانون والنظام والسلطة كما كانت سابقاً... باسم الملك جون.

أجابت بيكس مقتبسة كلمات ليام نفسه التي أرسلها في تقريره الأخير: ”لقد شغله إخمداد التمرد عن البحث عنها. لن يحظى بفرصته لإيجاد الخارج عن القانون الذي سرق كأسك المقدسة ما لم يكسب دعم وتعاطف السكان“.

قاطعها جون بحدّة: "أعرف ذلك، أعرف، لكننا لم نعد نملك وقتاً نضيّعه على اكتساب صداقة الرعاع. سيصل ريتشارد إلى هنا الليلة، وربما وصل غداً على أبعد تقدير". ثم التفت إليها وقال مرتجفاً: "هل تفهمين ما يعني هذا؟ ستسيل الدماء عندما سيعرف بخبر فقدانها... وستكون تلك الدماء دمائي أنا".

تقلّصت عيناها ونظرت من باب الشرفة إلى جدران القصر، وجدران مدينة أوكسفورد ثم قالت: "يمكنك منعه من دخول المدينة والتحصّن داخلها".

فرك جون ذقنه كما يفعل عادة كلّما أصيب بالتوتر، وقد لاحظت بيكس أن توتره هذا قد ازداد وتسارعت وتيرته في خلال الأشهر الستة الماضية، ثم أجابها: "ستسقط المدينة في يده... الناس هنا يعشقونه".

أومات بيكس برأسها برفق لأنّ رأيها صائب بالطبع، ثم استعرضت البيانات التاريخية المتوافرة لديها حول هذه الحقبة ووجدت الحل فوراً لهذه المشكلة. وهو الحل الذي يطابق تماماً مجرى التاريخ كما يجب أن يكون، إذا ما تمكّنوا من تطبيقه بحذافيره. فقالت له:

"عليك أن تنسحب شمالاً إلى نوتنجهام، قصرها أفضل تحصيناً وسكانها يدينون لك بولائهم الآن".

بلّل جون شفّتيه الجافتين وأخذ نفساً عميقاً وهو يقلّب نصيحته في عقله بجديّة، ثم قال: "لا... لا... سيزيد هذا من غضبه".

استعادت بيكس في ذهنها مجرى حوادث التاريخ الحقيقي فوجدت أن جون نجح بالفعل في التحصن داخل أسوار نوتنجهام التي حاصرها ريتشارد أسابيع عدّة، وانتهى الأمر باستسلام جون لأخيه الذي قرّر العفو عن أخيه وتركه على قيد الحياة بشرط أن يقسم له على الولاء والتحالف معه ضد أي عدو. فقالت من جديد: "ولاء أهالي نوتنجهام لك وحدك الآن، وستصمد المدينة في وجه ريتشارد. وربما سيمنح هذا العمدة الوقت اللازم لاستعادة الكأس وإحضارها لك. وعندها، ستمكّن من استعمال

الكأس في المفاوضات، سيؤهلك امتلاكها للتفاوض معه على الاستسلام من دون خسائر“.

نظر إليها بإمعان وقال: ”هل تعتقدين أن هذا ممكن؟“
”بالطبع إنه ممكن. ربما كان ليام قد تمكن الآن من تحديد مكان تلك العصاة الخارجة عن القانون، عن طريق جواسيسه الذين ينتمون إلى السكان أنفسهم. كسب ثقتهم وولائهم كان الخطوة الأولى الصحيحة والضرورية لإيجاد الكأس“.

”ربما كنت على حق“. وأمسك بذقنه بيده المرتجفة ثم قال: ”نعم... نعم. ربما تمكنت عندها من... نعم... هذا ما يجب عليّ فعله“.

فأضافت بيكس: ”الخيار الثاني الذي تملكه هو البقاء هنا، وهو خيار خاطئ تكتيكياً وفق حساباتي“.

اقترب منها وتناول يديها وقال: ”ماذا كنت لأفعل من دونك؟“
فرسمت على وجهها إحدى الابتسامات التي اختارتها بعناية وخزنتها في ذاكرتها، وبدأ لها أن وجه جون قد استعاد بعضاً من لونه الذي خطفه الخوف، وقال: ”خلف كل هذا الجمال... تملكين من الدهاء ما لا يقل عن دهاء سفير أو جنرال... أنا... أنا...“

تحررت بيكس من عناقه بلطف ودفعته خلفاً برفق وقالت: ”مولاي... يجب علينا أن ننتقل بأسرع وقت من هنا“.

”نعم، هذا رأي سديد، لا بدّ لنا من تحضير موكبنا بالسرعة القصوى“.

وتلاشت نظرة المتيم الولهان من عينيه وبدت عليه الجدية.

لكنه تأملها مع ذلك بصمت لفترة من الوقت بعينين هائمتين حباً وإعجاباً وقال: ”لو كان قدري مختلفاً عما هو عليه اليوم، لو كنت ملكاً... لكنك نعم الملكة المحنكة التي تجلس إلى جانبي على العرش“.

فكر جزء من عقلها بإطلاعه على مستقبله لأن معرفته بالقدر الذي ينتظره سيقوي ربما من عزيمته في الصمود بوجه ريتشارد، وتحمل حصاره القادم. لكن القوانين الصارمة التي تحكم سلوكها ذكرتها بأن معرفة أي

شخص بمستقبله تلويث كبير لمجرى الزمن. وهناك بلا شك طرق أخرى تضمن شعوره بالصلاية والقوة في مواجهة أخيه عندما يحين الوقت لذلك. فقالت له بلطف ودلال: "تحلّ بالقوة من أجلي الآن... ربما أصبحت ملكتك يوماً ما".

الفصل السادس والخمسون

نوتنجهام، غابات شيروود، ١١٩٤

”ماذا ستفعل بي؟“ سأله ليام.
فنظر إليه لوك وأجابه: ”لا أعرف بعد“. وصمت برهة ثم قال بقليل من
السخرية: ”رجالي المرحين كانوا يريدون أن يجعلوا منك مضرباً للمثل،
لأنك نورماندي ثري وهم ساكسونيون فقراء كما يعتقدون“.
”لكنني آيرلندي... ولستُ فرنسياً“.

رفع لوك كتفيه قائلاً وهو يقطع جزءاً كبيراً من لحم غزال مشوي عن
العظم ويقدمه إلى ليام: ”كل ما يرونه هو أنك شاب ثري يرتدي ملايساً
باهظة الثمن، ويبدو أنّ الأمور ستبقى دوماً على هذا الحال... حكام
فاحشوا الثراء... يحكمون شعوباً فقيرة، ويفصل بينهما عالم كامل من
الحقد والكراهية“.

مضغ ليام اللحم اللذيذ مندهشاً من شدة الجوع الذي كان عليه من دون
أن يشعر ثم قال: ”سيد لوك... الأشياء التي أخبرتني بها عن زمك الذي
أتيت منه ليست أخباراً جيدة“.

ابتسم له بحزن وأجابه: ”لا، ليست جيدة. ستسوء الأمور جداً في
زمني، وبسرعة شديدة“.

”من أين أبداً حديثي؟ لقد أنهكنا الأرض واستهلكتنا ثرواتها الباطنية، ونفد النفط من باطن الأرض عام ٢٠٣٠، ثم انتهى الفحم الحجري والغاز الطبيعي من المناجم عام ٢٠٥٠. ثم انتهت المعادن الطبيعية الرئيسة والخامات المهمة في الوقت ذاته. وخسرنا كثيراً من اليابسة بعد أن ابتلعها البحر، وهي الأراضي الثرية بالتربة الخصبة والمناجم وحقول النفط. ثم توالى الحروب... كثيرٌ منها حروب إقليمية سببتها هجرة الناس الذين غمرت مياه البحر أراضيهم إلى البلدان التي كانت مكتظة أصلاً بالسكان.“

هزّ لوك رأسه بأسى وتابع كلامه بعد فترة من الصمت: ”انتهى بنا الأمر للضياح وسط الفوضى التي خلقناها بأنفسنا. ربما لو غيرنا طريقتنا في الحياة في أول القرن الحادي والعشرين، لو سيطرنا على عدد السكان، لو كنا أقل جشعاً وأقل انصياعاً لعقليتنا الاستهلاكية التي كانت تدفعنا للحصول على كل ما هو جديد ولا ماع مهما كان ما يعنيه هذا... ربما كان ذلك سيساعدنا في عدم الغرق في ذاك المستقبل، في تلك الفوضى. الزمن الذي أتيتُ منه هو عالم مستنزف بكل معنى الكلمة، عالم يحتضر.“

نظر ليّام إلى الروبوت المقرّص أرضاً في الزاوية تحت أريدته الداكنة، ووجهه المخفي الذي لا يظهر منه سوى عينيه الزرقاوين الشاحبتين. ثم قال:

”سيد لوك... لماذا أتيت إلى هذا الزمن وهذا المكان؟ أنت لم تهرب إلى هنا هكذا بلا هدف، أليس كذلك“؟

تنهّد لوك وصمت طويلاً، وأنصتاً معاً إلى الجلبة المسائية في المخيم، إلى الأصوات المنادية وإلى الكلاب التي تعوي بسبب الجوع. وقد تخيل ليّام سابقاً بأن المخيم يمتلئ بالحياة مساءً بسبب الأغاني التي ينشدها الرجال حول النار، في تعبير عن الفرح الطبيعي الذي يشعر به المحاربون الأحرار الطيّبون. وبدلاً من تخيلاته تلك، تناهت إلى سمعه الأصوات البائسة التي قد يسمعها المرء في أي مخيمٍ للاجئين،

مخيم يغصُّ بمئة من الناس خارجة عن القانون يرتدون الملابس البالية ويتضورون جوعاً ويعيشون على ما يمكن لهم أن يسرقوه أو يصيدوه من حيوانات الغابة.

ثم أجابه وهو يستخرج أشلاء اللحم من بين أسنانه: "أنت على حق. كنتُ في مهمة... أتيتُ إلى هنا لقضاء حاجة معينة، لتحقيق هدف محدد". ثم عبس قليلاً وكأنه يحاول تذكر الهدف الذي تحدث عنه: "لم يبقَ منا في زماني سوى عدد قليل. ولم يعد تأثيرنا كبيراً، لم نعد القوة الخفية التي تحرك البوابات والرؤساء. لم نعد سوى ثلّة من المؤمنين".

"من مؤمنين؟"

"فرسان المعبد".

توقف ليام عن مضغ الطعام وقال: "أنتَ واحد من الفرسان؟ لكنك... لكنك من المستقبل... أنت آت من المستقبل... هل تقصد بأن تنظيم فرسان المعبد موجود في المستقبل؟"

ضحك لوك بلطف وقال: "حسناً... لا وجود لفرسان يرتدون الدروع المعدنية ويقاتلون الناس بالسيوف يا ليام في المستقبل... ولكن نعم... هناك فرسان... رجال مؤمنون. رجال لا يفقدون الأمل حتى في تلك المرحلة المتأخرة... بأن الله سيتدخل لينقذ البشرية من شر ما صنعتها أيديها".

ذكره وجه لوك في هذه اللحظة بكابوت، لأنه بدا له الآن وجه رجل حفر الحياة في وجهه الأخاديد وملأته بالذكريات والتصميم على إعادة الأمور إلى نصابها.

"لقد وضعنا كل أملنا في التكنولوجيا... جميعنا... عرفنا أنّ مخزون العالم النفطي على وشك النفاد، وبدلاً من الاقتصاد في استعماله ظننا أن التكنولوجيا ستجد لنا حلاً عجائبيّاً كالمعجزة يحل كل مشكلاتنا... امتلكنّا الطاقة الحرة التي تقدم لنا وقوداً نظيفاً لا يؤدي، لكننا لم نستعمله ولم نجد أي معجزة لحل مشكلاتنا كما كنا نعتقد... فاستعملنا كلّ النفط

المتاح حتى آخر قطرة وأدى بنا هذا إلى دخول حرب على آبار النفط... وأصيب العالم بالجنون... أصيب بالهوس الذي دفع الجميع لدخول حروب على الموارد والخامات المتناقصة، وزاد كل هذا السماء والهواء والمحيطات تلوثاً، فانهار النظام البيئي شيئاً فشيئاً. وفي مرحلة لاحقة بنينا بعض الآمال على هندسة جينية تقوم بتطوير شكل جديد من الحياة تساعدنا على إعادة النظام البيئي لما كان عليه، وهي أحد أنواع البكتيريا التي تمتص الكربون من الهواء وتساعد على تبريد حرارة الأرض قليلاً بعد الاحتباس الحراري الذي رفع حرارتها... لكن كمياتها كانت قليلة وكان الوقت قد فات بالفعل على مثل تلك الخطوة. وكل ما فعلناه هو خلق نوع من البكتيريا التي سممت البحار واجتاحت المحيطات بشكل كتل سامة عائمة هائلة الحجم. وكلما كنا نستعين بالتكنولوجيا لإنقاذ أنفسنا كلما كنا نزيد الأمور سوءاً علينا". ثم هزّ رأسه بحزن وقال: "كل ما بقي لنا بعد ذلك هو الإيمان... الإيمان بوجود شيء آخر قادر على إنقاذنا".

”هل تعني الله؟“

استهجن لوك وقال: ”لا يوجد من يمكن له التكهن... الله... أو شيء من عنده... لكنه شيء يفوق قدرة البشر بالتأكيد... شيء أو شخص قادر على مساعدتنا“.

نظر ليام إلى الشمعة المتوهجة وقال: ”لا أتمتع بإيمان قوي يا سيد لوك... إنها الحقيقة... لو كان الله موجوداً حقاً فهو لم يتكبد بعد عناء الحديث معي“.

”لست واثقاً مما أوّمن به أيضاً يا ليام... لكنّ الأمل... الإيمان هو آخر شيء نملكه، وهو كل ما لدينا الآن“.

”هذا لا يكفي“.

”كما أننا نملك الحكمة، المعرفة“.

نظر ليام إليه وقال: ”وماذا تقصد بهذه المعرفة؟“

بدا من معالم وجه لوك العابسة أنه يشاور نفسه حول متابعة الحديث أو

التوقف عنه. وفي النهاية... قال بصوت خافت أقرب إلى الهمس: "لدينا نبوءة".

"ماذا؟"

"لدينا نبوءة... معلومة خاصة بنا احتفظنا بها قرابة الألف عام".

"وعندما تقول "نحن" فأنت تقصد جماعة فرسان الهيكل؟"

"بالضبط. نحن... لقد أطلقوا علينا العديد من الأسماء مع مرور الوقت، وكان الاسم في كل مرحلة يعتمد على البلهاء المهوسين بنظرية المؤامرة الذين يطلقونها علينا. فكنا في البداية فرسان المعبد، ثم الماسونيين، ثم الإيلوميناتي، ثم جماعة دير صهيون، ثم منظمة العالم الجديد. أطلقوا علينا شتى الأسماء السخيفة على مر العقود والقرون، لكننا بدأنا في الحقيقة كنتظيم يضم رهباناً متمرسين في الفروسية والمهارات القتالية في أورشليم - القدس... لا أكثر. ثم قام حراس المعبد الذين كانوا يقومون أيضاً بمهام البوابين والنواطير والحُجَّاب بإطلاق اسم فرسان المعبد علينا". وضحك وهو يقول الجملة الأخيرة.

تذكر ليام الحكاية التي أخبره بها كابوت عنهم فقال: "لكن شيئاً ما حصل... أليس كذلك؟ اكتشف هؤلاء الحراس شيئاً ما بين الخرائب".

أوما لوك برأسه وقال: "هل أنت تعرف القصة إذا؟"

"أظن أنني أعرف بعضاً منها، أعرف أن بعض الفرسان وجدوا مخطوطة عُرفت فيما بعد باسم الكأس المقدسة، أليس كذلك؟"

"هذا صحيح... تلك الكأس أو الفنجان أو الوعاء... لم يكن ذلك الاسم أكثر من دلالة على الاحتواء.. على احتوائها وانطوائها على شيء ما... لكنه ليس سائلاً بأي حال من الأحوال... وليس دم المسيح بكل تأكيد... لكنه كان انطوائها على سرٍ كبير".

"سرّ؟ وهل هذا ما قصدته بالنبوءة؟"

"نعم"

"وماذا تقول تلك النبوءة؟"

ضحك لوك وأجابه: "هكذا بكل هذه البساطة؟ تسألني وتتوقع مني أن أخبرك عنها؟ إنها الأسرار التي كان أفراد التنظيم يحتفظون بها ويمررونها من جيل إلى جيل! من أخ إلى أخ آخر؟ من الجد إلى الابن إلى الحفيد". فكر ليام بالأمر قليلاً ثم أضاف: "لَمْ لَا؟ لمن سأحكي وأنا محتجز هنا؟"

ضحك لوك قليلاً ثم قال: "سأخبرك ببعض من تلك الأسرار إذا".
أوما ليام وقال: "تفضل"

قطع لوك قطعة كبيرة أخرى من اللحم ووضعها أمام ليام ثم سأله:
"أخبرني أولاً... لماذا أرسلوك إلى هنا بالضبط؟"

تساءل ليام إن كان يجدر به أن يذكر موضوع مخطوطة فوينتش أمام لوك، باعتبار أنها الشيء الذي دفعهم إلى هذه المهمة، إنها أولاً الآثار التي قادتهم إلى هنا، إلى هذا الكوخ المبنى من التبن والقصب في قلب غابة شيرود، فأجاب بعد تفكير: "يسبب الكأس".
"وهل تنوي فك طلاسمها وأسرارها أيضاً؟"
"نعم... كيف عرفت مكانها؟"

اعتدل لوك في مجلسه وقال: "اختفت الكأس من حوادث التاريخ في أوائل القرن الثالث عشر، تلاشت هكذا بكل بساطة وكأنها لم تكن، وتحولت إلى أسطورة أخرى، لكننا كنا نعرف دوماً بأنها موجودة بالفعل... وأنها ليست مجرد كأس". وبدأ يقطع جزءاً جديداً من اللحم عن العظم، ثم عاد للقول: "وكنا نملك سجلات الفرسان، ورسائل التعليمات والمراسلات الشخصية التي تعود إلى بداية تشكيل التنظيم ومباركة البابوية له في عام ١١٢٩، ولهذا كنا نعرف دوماً بأن الملك ريتشارد وجد ما خرج للحصول عليه في الأراضي المقدسة، لكن أثرها يختفي عند هذه المرحلة من القصة، إلى أن... وقعت الحرب العالمية الثانية".

رفع ليام حاجبيه العلويين من شدة الدهشة، وأنصت إلى كلام لوك الجديد تماماً عليه:

”أحدثت إحدى غارات الألمان فوق مدينة أوكسفورد عام ١٩٤٣ بعض الضرر في مبنى قلعتها القديمة، فكشفت النقاب عن سراديب قديمة غير مكتشفة من قبل، وكنتيجة حتمية لهذا، ظهرت للعيان مخطوطات سرية ظلت مخفية عن عيون الناس قرابة تسعمئة عام، وقد نُسبت إحدى المخطوطات إلى الملك جون، وقد كتبها قبل أن يصبح ملكاً بينما كان أخوه ريتشارد في الأسر في أوروبا“.

ناول لوك ليام قطعة لحم أخرى من فوق الشمعة.

”وكانت هذه المخطوطة رسالة يأمر بها جون مجموعة من الفرسان بنقل كنز الملك ريتشارد المقدس شمالاً إلى سكوتلاندا. وقد خمنّا أن جون خطط لإخفائها عن أخيه ليستعملها فيما بعد كأداة لمقايضة أخيه، وربما ظنّ بالفعل أن غنيمة أخيه الكبرى التي أحضرها من القدس ستكون بأمان أكبر في اسكوتلاندا. لكن التاريخ أخبرنا أنها لم تصل مطلقاً إلى هناك. ضاعت على الطريق. وكانت رسالة جون هذه هي المستند الأخير الذي ذكرها على مرّ التاريخ“.

ابتسم لوك قليلاً وقال: ”وقد ساعدنا التاريخ المكتوب على رسالة جون لتحديد المكان والزمان الصحيحين. وقد عرفت الأخوية ذلك منذ ظهور الرسالة بعد قبلة لوفتواف تلك. وكانت الخطة يا ليام أن نستعيد الكأس ونفكك طلاسماها“.

”لكنك لا تستطيع فعل ذلك بكل بساطة“.

”هل هذا يعني بأنك تعرف كل شيء عن المفتاح؟“

”المفتاح المشفّر“.

”كأس مشفّرة. لفافة مثقبة يضعها الباحث فوق النصّ المشفّر لكشف المعاني الصحيحة. ومن دونها... ليست الكأس سوى لفافة مليئة بكلمات غير مفهومة“.

”وهل الملك ريتشارد هو من يمتلك مفتاحها؟“

”تماماً“
مكتبة الـرمحي أحمد

عبس ليام وقال: "وكيف تخطّط لانتزاع هذا الكثر منه؟"
"رمتُ الطعم له بالفعل... أحدثتُ تمرداً هنا في نوتنجهام مما
سيضطره لإخماده هنا شخصياً لدى عودته، إنه مشهور بهذه الأمور، فهو
يقود جيوشه ويتقدمها بتهوّر، إنه يهوى تذوق دماء المعارك".

نظر لوك إلى الروبوت المقرّص أرضاً بلا حراك وقال: "وإذا ما واثته
مثل هذه الفرصة فإن صديقي الوفي هنا... ريكس... سيتمكن ربما من
إلقاء القبض على ريتشارد نفسه عندما يحمي وطيس المعركة، إنها ليست
خطّة بالمعنى الحرفي للكلمة... لكنها كل ما أملك الآن".

التفت إلى ليام وابتسم: "لكنك قمت بعمل رائع في كسب مودة السكان
وكدت تقضي على التمرد الذي بدأته أنا بالفعل. وصل عدد رجالي هنا في
الغابة إلى قرابة الألف قبل ستة أشهر، لكن معظمهم قد عادوا إلى منازلهم
بسبب الإجراءات التي قمتَ أنتَ بها. هل كان العفو العام فكرتك؟"
"أعتذر منك على إحباط خططك... لكن التمرد الذي كنت تقوده
انعكس بشكل سلبي جداً على المستقبل، وتسبب بتغيير في مجرى
التاريخ". أجابه ليام.

خبت ابتسامة لوك وقال: "لا أعتقد بأن الأمر سيطول أكثر من هذا".
"لكنّ الكأس بحوزتك... مما يعني بأن ريتشارد سيطاردك حتماً
وسيأتي بقدميه إليك، أليس كذلك؟"
"بالطبع... إنه يريد استرجاع كنزه، وأنا أريد ما لديه... لربما عقدنا
اتفاقية ما".

عبس ليام وخطر على باله سؤال: "لقد قلت لي منذ قليل أن منظمتكم
عرفت المكان الذي خُبئت به الكأس لعصور طويلة... منذ متى تعرفون
بهذا؟ هل عرفتم به بعد انفجار القنبلة عام ١٩٤٣؟ أخبرني يا سيد لوك...
من أي زمن أتيت بالضبط؟"

تلقى ليام إجابة رمزية لا تفصح عن وقت دقيق عندما سأله هذا السؤال
من قبل، فقد أجابه: "من نهايته".

”هل أتيت من مستقبل بعيد عن زمني بكثير؟“
لم يجب لوك وحافظ على نصف الابتسامة التي كان يرسمها على وجهه
كمثال ليغيب ليام.

”هل تسبقني بمئة عام؟ بمئتين؟... بخمسمئة؟“
”أتيت من النهاية يا فتى...“، قال لوك من دون الإفصاح عن أي شيء.
”النهاية؟ بربك يا رجل... ماذا يفترض بهذا أن يعني؟ هل تقصد نهاية
القرن؟“

لم يجبه لوك.
”نهاية ماذا؟... نهاية العالم؟“

تراخت عزيمة لوك قليلاً وقال: ”يعود ذلك حقاً إلى الطريقة التي تفهم
بها العالم من حولك يا ليام... إلى طريقة رؤيتك له... هل تعيه بطريقة
علمية... أم بطريقة روحانية؟... ومن هنا... هل سيفسح لك ذلك أن
ترى تلك اللحظة كنهاية... أم كبداية جديدة للعالم؟“

شعر ليام بإحباط شديد وقال: ”لا يعني لي هذا أي شيء. إنه لا يختلف
نهائياً عن الترهات التي يمكن أن أسمعها من أي رجل دين.“

”النبوءة يا ليام... لقد عرفنا دوماً أن الكأس تحتوي على نبوءة فيها كل
التفاصيل، وعلى حدوث شيء ما في تاريخ محدد وعام محدد.“
”شيء ما؟“

”شيء... لا نعرف ماهيته... هذا ما أتيت إلى هنا لأعرفه.“
تمتم ليام مرة أخرى: ”شيء ما... هل هو شيء جيد أم شيء سيئ؟“
”أظن أنك ستراه أمراً رائعاً يا ليام إذا كنت مؤمناً حقيقياً.. إذا كنت
تؤمن بوجود إله رحيم.“

”وهل تمتلك هذا الإيمان؟“
حك لوك رأس أنفه وقال: ”أعتقد أنني سأحسم أمري عندما أحلل شيفرة
الكأس وأعرف ما تقوله.“

الفصل السابع والخمسون

نوتنجهام، غابات شيروود، ١١٩٤

غمر نور القمر الفضي طريق الغابة أمام بوب بما يكفي لاكتشاف بقع الدم المتجمدة الداكنة على الأرض، وعلامات الأحذية على الأرض وقطع عدّة متناثرة من دروع الجنود المكسورة هنا وهناك، وبقايا سهام عدّة شاحبة مغروزة في التراب.

كبح بوب جماح الحصان ونزل عن صهوته، ولم يكن هناك من صوت سوى حفيف أوراق الأشجار المتواصل وهي تتمايل مع النسيم الخفيف، ونعيب بومة آت من بعيد، فاقترب وتفحص آثار المعركة عن كثب.

حفرت آثار أقدام متقاربة أرض الطريق، وأخبرته عدة ثغرات في الطين أن سهاماً قد انغرزت هنا وتم اقتلاعها لاحقاً، فهزّ بوب رأسه بهدوء بعد أن تأكد من أن هذا هو المكان الذي نُصب فيه الكمين قبل أربع وعشرين ساعة.

مشى بوب إلى طرف الطريق وشق طريقه بين الأغصان المتشابكة وفروع السرخس التي تملأ الفراغات بين جذوع السنديان المتينة. وسرعان ما وجد جثة رجل تم سحبها بعيداً عن الأنظار على عجل وإلقاؤها في أجمة مليئة بنباتات القراص، بعد أن سرقوا منه كل ما له أي قيمة ورموه هنا جيفة

لتأكله وحوش الغابة. تابع بوب المشي بمحاذاة الطريق فوجد عدة جثث مجردة من الدروع والأحذية الجلدية ولا ترتدي سوى السراويل التحتية الضيقة والستر الملكية المبقة بالدماء.

وجد بوب ست جثث حول المكان، وقلوبهم جميعاً ليتأكد من أن ليام ليس بينهم فشعر بالارتياح.

استقصى بوب ذهنه وحاول الحصول على توضيح لما تبادر إليه للتو... لقد فسر دماغه الإلكتروني ببرود النبضات الكهربائية القادمة من القسم البشري من دماغه، الصغير جداً إلى درجة أنه من الصعوبة بمكان أن نطلق عليه اسم - دماغ. وعرف أن النبضات التي انطلقت من العضو الذي يقارب حجمه حجم دماغ الفأر تنطبق فقط على النموذج الحسي الذي يسميه البشر بالشعور.

نعم... إنه الارتياح.

أنصت بوب إلى سكون الليل من دون حراك آملاً أن يسمع صرخات الناس المغمورين بالخافتة القادمة مع النسمات التي تحرك الأغصان والأوراق، لا بدّ من أنهم يحتفلون الآن... أو لعله يسمع صرخة استغاثة... لكنه لم يسمع أي شيء. لم يكن هناك من صوت سوى صوت البومة.

لقد مرّ بوب بمثل هذا الموقف من قبل... إذ فقد ليام في أول مهمة معه بعد معركة اشتركا بها من أجل حماية البيت الأبيض، وقد تم أسر ليام ونقلوه في واحدة من الشاحنات الخاصة بالسجون. لم يكن دماغه الإلكتروني جاهزاً لاتخاذ القرارات اللازمة التي ينبغي عليه القيام بها لإنقاذه، لكنه تمكن من فعل الصواب، إذ قام بإعادة جدولة أولويات أهداف المهمة ووضع إنقاذ ليام على رأس تلك القائمة الجديدة، وهذا تقنياً خرقٌ للأوامر التي تمت برمجتها عليه، لكنها كانت إجراءً يفخر به.

أما هذه المرة فسيكون اتخاذ القرار أسهل بكثير من المرة السابقة، لأن أهداف هذه المهمة قليلة وغامضة جداً، مما دفعه للتفكير بأن تكريس ما بقي من فترة الستة أشهر التي قضوها هنا لإيجاد صديقه ليام هو قرار لا

يحتاج إلى التفكير.

و لكن كيف سيجده؟

بإمكانه الآن الانتظار حتى الفجر لإيجاد أثر يدلّه على الطريق الصحيح. يمكن لجريح زاحف في غابة شيرود أن يترك خلفه من الآثار الواضحة التي يمكن لأي مقتف مبتدئ للأثر أن يجدها.

قرر بوب أن يبحث عن الآثار كما فكر قبل قليل وقرّص أرضاً بين نباتات القراص بانتظار انبلاج الصبح. إنه لا ينام... بل يقوم بذات الشيء الذي يقوم به في أثناء نوم الناس جميعاً... وهو تنظيف سواقته الصلبة وترتيب ذاكرته وتنظيفها. إنها فرصته الوحيدة للمرور على تيرابايتات البيانات التي لا حصر لها والمخزونة على سواقته الصلبة. على الذكريات.

إنه يستعيد كل شيء... كل صورة وكل صوت وكل إحساس وكل رائحة... يحاول إيجاد روابط ما بينها، يحاول أن يفهم بشكل أفضل معنى ممتلك لدماغ حقيقي، معنى أن يكون بشرياً حقيقياً بدلاً من أن يكون آلة مبرمجة... مجرد روبوت من لحم ودم.

ما أن بدأ بإفراغ ذاكرته وتصنيف ملفاتها حتى تنأى إليه أثر ضئيل من رائحة احتراق الحطب. وعرف أنه ليس أثر الرائحة المشبعة في سترته، بل هي رائحة شحم حيواني مُذاب على النار مختلطة برائحة عرق قوية جداً... لقد حملت له هبات الريح تلك الآثار لأميال عديدة... إنها نار مشتعلة في مكان ما في الغابة.

تنشّق بوب الرائحة بقوة فتوسعت فتحتي منخريه فبدأ أنفه أشبه بأنف الحصان.

إنها الرائحة الضعيفة من جديد.

انتصب واقفاً بسرعة ومسح بعينيه الغابة بدائرة قطرها ٣٦٠ درجة كاملة على أمل أن يلمح بعضاً من نور تلك النار المضطربة بعيداً داخل الغابة. لكنه لم يجد أي شيء.

و لكن... لديه هذه الرائحة الآن... ولم تكن رائحة حطب الأشجار
فقط، بل رافقها أيضاً عبير الصنوبر المحترق الشدي والمختلط معها.
إنها نار مخيّم.
فقرّر أن يتبع أنفه.

الفصل الثامن والخمسون

نوتنجهام، غابة شيروود، ١١٩٤

حلّ الصباح، واختلط ضباب الفجر بدخان نار موقد المخيم التي كاد الندى أن يخمدتها برطوبته، وراحت ألسنتها البيضاء تتسلل عبر مظلة الأغصان الجافة المنصوبة فوق الموقد.

راقب ليام ديبب الحياة البطيء في مخيم لوك، ولاحت له أجساد الرجال النائمين الذين بدأوا يتقلبون تحت الأغصان البالية والأردية وجلود الحيوانات وفرائها التي تقيهم برد الليل استعداداً للاستيقاظ، وسمع صوت تمخّط أحدهم وهو ينظف أنفه ويرمي أوساخه على الأرض، وتناهى إليه من بعيد صوت تقطيع أخشاب يدل على أن أحدهم قد استيقظ بالفعل وبدأ بتقطيع الحطب لإذكاء النيران.

كان لوك على ثقة من عدم رغبة ليام في الفرار، فمنحه حرية التجول داخل المخيم. وقد شعر ليام بعيون الرجال وهي ترقبه بعيون ممتعة يملؤها الشك، وفكر بأن عدداً كبيراً منهم سيكون سعيداً باصطياده بالسهم إذا حاول الهرب من المخيم إلى الغابة، كما أنه لن يتمكن من الابتعاد حافياً بلا حذاء، فقد أجبره لوك على خلع حذائه الجلدي والتبرّع به لأحد رجاله. وقد شرح له بأنها بادرة طيبة تدل على التواضع وقد لاقت شعبية وقبولاً

عند رفاقه من قبل، فقد قَبِلَ نبيل نورماندي أن يخرج من المخيم حافياً بلا حذاء كأي متسول عادي فقبل الرجال الفكرة واستحسنوها.

خرج لوك من كوخه وتمطى متثائباً، فخرج الروبوت خلفه ملفوفاً بأرديته من جديد، وقد غطت قبعة العباءة القسم المعدني من جمجمته تماماً وضاعت معالم ذقنه وفكّه المغطى بالبشرة البلاستيكية في ظلالها. صاح لوك: "اسمعوا... هناك أخبار جديدة". فالتفت كل الرؤوس إليه وتوقف الجميع عن مختلف الأعمال التي كانوا يقومون بها، فتابع كلامه: "قائدنا، السيد المقنع، قد تلقى أخباراً جديدة". ثم أشار باحترام إلى الروبوت الواقف إلى جانبه الذي يفوقه طولاً بحوالى القدم. ثم قال لوك من جديد: "تلقينا أخباراً من نوتنجهام تفيد بأن الملك ريتشارد قد عاد إلى إنكلترا، وهو في طريقه إلى هذه المنطقة بينما نتحدث الآن".

ارتفعت الأصوات ابتهاجاً بالأنباء في جميع أنحاء المخيم، وسط الحيرة التي اجتاحت نفوس رجال لوك حول الطريقة التي يجب أن يستقبلوا بها هذا الخبر.

"كما أننا سمعنا... بأن أخاه جون في طريقه إلى قلعة نوتنجهام بعد أن ترك قلعة أوكسفورد، وقد انتشرت في المدينة أخبار تفيد بوجود ضغينة بين الملك وأخيه، وأن جون سيتحدى ريتشارد وسيعتصم في نوتنجهام. سيدنا المقنع يدرس جوانب هذا التطور المهم، إذا جرت معركة هناك في الأيام المقبلة فلا شك أن كلا الطرفين سيكونان بحاجة إلى محاربين وإلى جنود مثلنا لاستكمال الرتب وأعداد الجنود الناقصة، مما سيمنحنا الفرصة لرفع شكاوينا ومناقشة الضرائب الجائرة الظالمة التي دفعناها للحياة هنا في عمق الغابة كي لا يقتلنا الجوع، والأهم من ذلك هو أننا ربما نحظى بالفرصة للحصول على عفو عام علينا وإلغاء كل الاتهامات الموجهة إلينا من الجانب الذي سننضم إليه، سواء كان جانب ريتشارد أو جانب جون".

هَلَل العديد من رجال لوك لهذا فشعر ليام بأن خوف غالبية الرجال من إنزال عقوبة الإعدام بحقهم بعد توقيفهم وحبسهم كالمجرمين هو ما كان

يمنعهم من العودة إلى منازلهم وعائلاتهم.

”لقد واتتنا الفرصة الآن لنعلن عن طلباتنا يا إخوتي... سيقرر قائدنا في خلال الأيام القليلة القادمة الطرف الذي سننضم إليه“. ثم ابتسم لوك للرجال وقال: ”لا يسعنا سوى الشعور بالشفقة على الجيش الذي لا يقاتل المقنع في صفوفه... أليس كذلك؟“

فهلل الجميع فرحين.

”لا يمكن التغلب عليه.“

هتف الرجال من جديد.

”إنه خالد لا يمكن قتله.“

فهتفوا بصيحات التأييد له من جديد.

”لأنه مرسل من الله نفسه... ليحرر الفقراء الإنكليز من عبوديتهم عند اللوردات النورماندين... سيكون الله في صفنا مهما كان الطرف الذي نختار الانضمام إليه... سنكون الجيش الذي لا يقهر. لذا... جهّزوا أنفسكم يا إخوتي... هناك معركة قادمة... اشحذوا سيوفكم وثبتوا أوتاراً جديدة على أقواسكم لتكونوا حاضرين للمعركة.“

همس لوك بشيء للروبوت فرفع سيفه عالياً، فملأت الغابة صيحات كل رجل وكل عجوز موجود في المخيم بعد أن دفعهم الحماس للتهليل والقفز عالياً.

نظر ليام حوله ونحوهم... لم يكن أي فرد منهم يعرف بأنهم مجرد جنود كالبنادق، دميّ يستعملها لوك لدخول المعركة إلى جانب ريتشارد على الأغلب ليعقد صفقته. وإذا كان الخبر صحيحاً.. إذا التقى كل من جون وريتشارد في نوتنجهام، فإن لوك يأمل في مقابلة ريتشارد، ثم ماذا سيفعل؟ سيحاول أن يسرق نصف الكأس الموجودة معه؟ أو أنه سيعرض عليه تبادل أسرار الكأس؟

عرف ليام بأن هذا الخيار الأخير هو أسوأ ما يمكن حدوثه، لأن شخصاً مجنوناً وقوياً كريتشارد وهو مطلع على أي كشف ماورائي أو نبوءة قد

تقدّمها له الكأس لن يقبل بهذا.

لا بدّ لي من الخروج من هنا، عليّ العودة إلى نوتنجهام بأسرع وقت. كل ما كان ليّام يريده هو اللقاء ببوب وبيكس والعودة برفقتهما إلى عام ٢٠٠١، لأنه عرف كل ما كان يحتاج إلى معرفته من لوك حول المستقبل وعليه أن يخبر مادي وسال بكل تلك التفاصيل، وعلى وجه الخصوص مادي، لأنها قادرة على فهم ما يجري أكثر منه وسيكون لديها فكرة أفضل حول ما يجب عليهم أن يفعلوه تالياً.

تساءل ليّام عما يقوم به بوب حالياً، عرف أنه سيأتي إلى غابة شيروود للبحث عنه لو عرف بأمر الكمين أو سيكون بانتظار عودته في قلعة نوتنجهام.

ماذا عن بيكس؟ أين هي الآن؟ هل هي مع جون؟

إذا كانت مع جون فلا بد من أنها ستصل على الموعد إذا كانت تسافر شمالاً برفقة جون باتجاه نوتنجهام. وأصابه الرعب من التفكير بأن وحدتي الدعم ستذهبان إلى مكان فتح البوابة في ذلك الحقل بعد أسبوع من الآن للعودة إلى الديار من دونه، وأنهما سيتركانها هنا لملاقاة مصيره كسجين لدى لوك.

أوما لوك إلى ليّام وأشار له بالاقتراب بعدما انفض الرجال من حوله للقيام بأعمالهم الصباحية المعتادة من بحث عن الطعام وجمع الحطب وغلي حساء اللحم المتبقي من الليلة السابقة لتناوله على الفطور. قال لوك: "ليّام... ادخل وشاركني طعام الفطور".

انحنى ليّام وتبع لوك والروبوت إلى داخل كوخ لوك المتواضع العابق بغيمة من الدخان كالمعتاد. جلس لوك على كرسيه وقرص الروبوت أرضاً بجانبه كأى كلب وفي.

"هل سمعت الأخبار؟"

أوما ليّام وقال: "سمعتُ ما قلته للناس في الخارج".

"من الواضح أن شوارع نوتنجهام تغلي بالأخبار... الناس هناك يفضلون

جون ويرون ريتشارد على حقيقته... يعتقدون أنه الحاكم الغائب الذي دمر البلاد.

”هل لي أن أسئلك يا سيد لوك... هل تحتفظ بالكأس هنا؟ هل هي معك هنا في المخيم في مكان ما؟“
نظر إليه لوك بحذر وقال: ”هذا الأمر يخصني وحدي وهو ليس من شأنك“.

”ماذا تنوي أن تفعل بها؟“
”سأقوم بكل ما أستطيع القيام به لفك شيفرتها.“
”هل ستعقد صفقة مع ريتشارد؟“
استغرب لوك وقال: ”سأفعل... سأخون كل هؤلاء الحمقى السذج إذا احتاج الأمر“.

”لكنك لا تعرف محتوياتها. هل فكرت بأن النبوءة التي تأمل إيجادها قد تكون مجرد رسالة من شخص مثلي أنا مثلاً... من أحد رواد الزمن الآخرين؟“

عبس لوك وقال: ”وهل هي كذلك؟ هل تعرف أي شيء عنها؟“
”لا... أنا... لا أعرف أي شيء. لكن هذا هو قصدي بالضبط. قد تكون أي شيء. ومن المؤكد أن معرفة محتواها من قبل شخص مثل ريتشارد سيشكل خطراً علينا جميعاً. قد يغيّر ذلك مجرى التاريخ بكامله.“
”وهل هذا أمر سيئ يا ليام؟ قد يمنح هذا ريتشارد الفرصة لكتابة تاريخ جديد للحصول على مستقبل أفضل من ذاك الذي أتيت منه أنا يا ليام... قد يمنحه الفرصة لتحقيق قدر جديد مختلف... وأنا واثق من أنه لن يكون أسوأ من المستقبل الذي أعرفه“.

”لكنه يمكن أن يكون أسوأ بالفعل.“
هزّ لوك رأسه نائياً وقال: ”ماذا... ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من كوكب محتضر ومسمم ومحتبس حرارياً؟“

”لا أعرف! كل ما أعرفه هو ما أخبرونا به من قبل... أن العبث بمجرى

التاريخ كما تنوي أن تفعل... أن تغيير التاريخ يُخَرِّب الروابط الثابتة بيننا وبين الـ... الفوضى.“
”الفوضى“؟

لا يعرف ليام معلومات أكثر من هذا ليدعم بها موقفه، ليشرح وجهة نظره بشكل أفضل... وليست المرة الأولى التي يتمنى فيها بقاء فوستر بينهم لفترة أطول ليخبرهم بكل ما كانوا يحتاجون إلى معرفته، فقال: ”إنه الفضاء الذي نعبه عندما نسافر عبر الزمن. إنه بعدد من الأبعاد... مكان يتألف من الفوضى التامة. وربما كان أشبه بما يصفه بعضهم بالجحيم.“
تغضنت عينا لوك وقال: ”كل ما أذكره هو الشعور بالسقوط من مكان إلى آخر.“

”الأمر أكبر من هذا. اسمع يا سيد لوك... أعتقد... أعتقد أنني رأيت أشياء.. لقد رأيتها بالفعل هناك.“ لم يجد ليام طريقة أفضل لقول ذلك من هذه، لكنه رآهم بالفعل داخل ذلك الفضاء الضبابي الفارغ... شاهد كيانات تسبح بجواره وتقترب منه أكثر فأكثر كل مرة يسافر بها. كما لو كانت تشعر بالألفة نحوه مع الوقت، كما لو أنهم يشعرون بأنه أحد رواد الزمن المعتادين، ولعلمهم يتمنون لو أنه يمنح لهم الفرصة بدخول العالم الحقيقي.

”الشيء الوحيد المؤكد بالنسبة إليّ يا سيد لوك هو أنك لا تستطيع العبث بمجرى التاريخ. إذا كان يفترض بالكأس المقدسة هذه أن تضيع في الغابات وأن ينتهي بها الأمر مجرد أسطورة... إذا كان ذلك هو ما حصل في التاريخ الذي أتينا منه... فعليك أن تدعها كذلك. وربما يكون ما تفكر بفعله، وما أتيت أنا إلى هنا لفعله... أن نكتشف ما لذي يجري هنا... ربما كان كل ذلك مجرد خطأ كبير. ربما كان من الأفضل ألا يعرف أحد محتويات تلك الكأس.“

”ليام... لقد انتظرنا هذه اللحظة منذ اكتشاف الكأس في أورشليم، انتظرنا أحد عشر قرناً لمعرفة محتوياتها... لن أضيع هذه الفرصة الآن.“

وهزّ رأسه بحزن وقال: "لا أستطيع التخلّي عن هدفي الآن".
كان ليّام على وشك القول له بأنه لا يملك ذلك الخيار من البداية،
لكن ضجيجاً قطع حديثهما فجأة، إذ سمعا صوت فروع السقف تنهار
عليهم وشعرا بانهييار أحد الجدران المصنوعة من التبن والطين الجاف. ثم
حدثت صدمة أخرى قبل أن يشاهدا ثغرة كبيرة دائرية الشكل تفتح على
ذلك الجدار المنهار.

فغرلوك فمه وقال: "ما هذا؟"

برز من الفتحة رأس مستدير يغطيه شعر داكن أشعث وقال: "ليّام
أوكونر؟"

الفصل التاسع والخمسون

نوتنجهام، غابة شيروود، ١١٩٤

شهق ليام متعجباً وقال: "بوب!!"

استدار رأس بوب لينظر إليه، وعندما رآه اندفع إلى الداخل عبر الجدار فسبب دخوله صوتاً عالياً وتساقطت زخات من طين من السقف وغيمة من الغبار، وتطايرت نثرات من القش الصغير هنا وهناك. شعر ليام بقبضتين قويتين تمسكان به وتوقفانه على قدميه وهو يمسح الغبار والرمل عن وجهه. "أوقفه". صاح لوك صارخاً في أثناء الارتباك الذي حصل. لكنهما كانا قد أصبحا في الخارج في تلك اللحظة فأعمت الشمس القوية نظر ليام.

فتح ليام عينيه عابساً بعد قليل والريح ترتطم ب صدره لأن بوب كان يحمله على كتفه ويجري به كما لو كان كيساً من الشوفان. وراح بوب يركض بخطوات واسعة سريعة عبر المخيم وأمام عيون الرجال والفتيان المذهولين، الذين أصابتهم الصدمة بالجمود.

لعل صوت لوك في أرجاء المخيم: "أوقفوه!! لقد خطف العمدة". ارتطم وجه ليام بقوة بالدرع المعدني الذي يغطي صدر بوب لكنه تمكن من تحريك عنقه بما يكفي ليرى العالم المقلوب من حوله... شاهد

الرجال يبحثون عن أسلحتهم، وشاهد رجالاً آخرين يهرولون بعيداً عن طريق بوب، لكنّ رجالاً ضخماً له شعر مربوط إلى الخلف بلون الزنجبيل قرر أن يقطع طريق بوب وحمل يديه القويتين فأساً كبيرة لقطع الخشب وصاح متحدياً:

”استسلم“!!

لكن بوب لم يبطئ من سرعة ركضه فلوّح الرجل الضخم بفأسه بقوة بطريقة دائرية ليعترض بها صدر بوب ووجه ليام مباشرة، فصاح ليام:

”يا يسوع... بوب... احترس“.

تلقى بوب ضربة الفأس بذراعه فاخرقت شفرة الفأس الدرع ذي السلاسل المعدنية الذي يرتديه بوب فتطايرت شظايا الحلقات الحديدية في وجه ليام الذي أغمض عينيه بشدة لا شعورياً ليحميهما.

شعر ليام بتمايل جسد بوب ثم سمع صوت الاصطدام الذي تلتته عدة ضربات متبادلة فتعالت صرخات الألم الشديد الناتجة عن قطع إحدى العظام، والتي لا بد لها أن تكون صرخات الرجل الضخم صاحب الشعر الزنجبيلي التمس الحظ.

ثم تابع بوب الركض بسرعة فعاد رأس ليام للاصطدام بالدرع المعدني من جديد فتجراً ليام على فتح عينيه لرؤية العالم المقلوب رأساً على عقب مرة أخرى، وعرف أنهما قد اقتربا من طرف المخيم، وشق بوب هنا طريقه بين نساء عدة مسنّات يغسلن الملابس في حوض خشبي كبير.

بعد أقل من دقيقة أخرى كانا يتوغلان بين أجسام السرخس وفروع الأشجار وأغصانها المنخفضة وما بين الأشواك التي كانت تصفع وجه ليام وتمزق بشرته لأن بوب لم يتوقف عن الجري مخترقاً أعماق الغابة كغزال أحرق. حاول ليام أن يتناول أنفاساً عميقة لكنه لم يستطع لأن أضلاع صدره كانت لا تزال تصطدم بكثف بوب القاسي الذي كان يجبر رئتيه على إخراج كل ما تحتويه من الهواء كما يُفرغ الحداد النشط منفاخ النار من الهواء.

لكنه تمكن بعد فترة من الوقت أن يقول لاهثاً: ”بوب... توقف“.

فهدر صوت بوب الخشن: ”سأتوقف قريباً... لسنا بأمان بعد“.

اندفع بوب فوق منحدر قاس وكاد أن يفقد توازنه مرات عدة، وفي أسفل الوادي الصغير خاض حتى ركبتيه في جدول ماء فتطايرت قطرات الماء من حولهما ورشت وجه ليام، ثم تسلق المنحدر المقابل ووصل أخيراً إلى الأعلى إلى جانب جذع شجرة سنديان مقطوعة ومستلقية بجانب طرف المنحدر، فقفز من فوق جذعها الضخم ونزل راکعاً على ركبتيه على الطرف الآخر. وعندها أنزل ليام عن كتفه أرضاً وبدأ يفحصه بعينه الرماديتين باهتمام، ثم سأله:

”هل أنت بخير يا ليام أوكونر؟“

حاول ليام التقاط أنفاسه وقال: ”هل تقصد... إلى جانب بضع أضلاع مكسورة؟“

عبس بوب بتشكك فأردف ليام بسرعة لاهثاً: ”أنا... أنا بخير... كنت أمزح معك“.

تناهت إلى سمعهما من الطرف المقابل للمنحدر أصوات أشخاص كثيرين ينادون لبعضهم فعرفا أن كل رجال المخيم يبحثون عنهما داخل الغابة وأدرك ليام بأنهم لن يتركوا من جهدهم جهداً حتى إيجادهما لأنه يعرف أن استرجاعه سيكون مهماً لو كان لوك سيعقد أي صفقة مع جون باعتبار أنه عمدة نوتنجهام الأسير لديه. لكن تلك لم تكن خطته لأن الكأس هي ما يصبو للحصول عليه، ولن يتمكن من الحصول عليها ما لم يتحالف مع ريتشارد.

همس ليام: ”بوب“.

لكن بوب كان ما زال يتفحص أطراف المنحدر المقابلة لهما.

”بوب... إنهم يملكون الكأس“.

التفت حارسه لينظر إليه وسأله: ”هل أنت متأكد من هذا؟“

فأوماً برأسه باتجاه المنحدر والمخيم الذي هربا منه وقال: ”إنها

هناك... إن زعيم هؤلاء اللصوص... مسافر عبر الزمن كما خَمْنَا تماماً.
لكنه ليس واحداً منا. ليس أحد رواد الزمن.
”من أرسله؟“

”لم أفهم حقاً من أرسله... لكنه... أتى إلى هنا للحصول عليها، على
الكأس. وأعتقد أنها موجودة في ذلك الكوخ، وإذا لم تكن هناك، فإن لوك
وحده هو من يعرف مكانها.“
”لوك؟“

”إنه القائد، اسمه جيمس لوك. قائدهم.“ همس ليام بعصبية.
”فهمتُ. أنت تريد العودة إلى هناك لتستردّها منه.“

لكنه لم يكن يرغب بذلك في الواقع... إن العودة إلى ذلك المخيم هي
آخر شيء يريد فعله، فتنهّد قائلاً: ”نعم... أعتقد أننا مضطرون للعودة إلى
هناك.“

في تلك اللحظة شعر باهتزاز جذع شجرة السنديان الضخم المرمي
أرضاً فاعتدل في جلسته ونظر إلى جذور الشجرة المتباعدة والمطمورة
بالتربة في نهايتها فشاهد المقنع بهيئته الداكنة وأعطيته المرفرفة في الهواء
كالشبح الآتي من الجحيم، وهو جاثم على الأرض كطير جارح يبحث
بعينه الثاقبتين عن طعام. فتمتم ليام قائلاً: ”هيا يا رجل... أمهلنا قليلاً.“

الفصل الستون

نوتنجهام، غابة شيروود، ١١٩٤

قفز المقنع إلى الأسفل فالتوت الشجرة التعسة بعد أن تحرّرت من ثقله الجاثم فوقها فصدر عنها صوت انكسار خشبيّ أفزع العديد من الغربان القريبة من المكان.

انتصب الظل الملفوف بعباءته ببطء من وضع القرفصاء ونهض واقفاً جاهزاً للقتال، فصاح ليام: "انتبه يا بوب، إنه روبوت آلي".

استدار رأس المقنع ببطء نحو ليام الذي اعتقد أنه لمح وسط الظلال التي تغطي رأسه نور الضوءين الأزرقين الضعيف المنبعث من عينيه الإلكترونيتين.

صاح بوب: "تحذير، لا يسمح لك بالتدخل في أحداث يمكن لها تغيير مجرى التاريخ".

استدار رأس المقنع ببطء مجدداً نحو بوب ونظر إليه بطريقة غريبة وكأنّ ما يدور بينهما هو نوع من التحدي الصامت. وبعد لحظة، ومن دون سابق إنذار، امتدت يدا المقنع إلى عباءته فانتزعها عن جسده ورمها جانباً.

شهق ليام لدى رؤية ذلك المشهد المرعب والمذهل في نفس الوقت، لأن شكل جسده كان بشرياً إلى حد لا بأس به تحت العباءة، لكنه بعد أن

خلعها وظهر هيكله المعدني المغطى بالطعنات والصدأ ولطخات الطلاء الأخضر الحربي القديمة لعيني ليام، تساءل الشاب في قرارة نفسه عن مدى غباء أي شخص يعتقد أن هذا الشيء إنسان حقيقي. كان البلاستيك المطلي بلون الجلد البشري محروفاً في بعض الأماكن إلى أن تحول لونه إلى اللون الأسود، وكانت ذراعاه وكتفاه ورقبته مصهورة تغطيها الفقايع كالجبة الذائبة. وكانت بشرته في بعض المواضع الأخرى سليمة تماماً وتبدو كبشرة أي شخص عادي مترهل الجلد.

قال ليام: "إنه روبوت محارب قديم الطراز، هذا ما قاله لوك". أكد بوب: "صحيح. البيانات تدل على أنه يطابق نموذجاً كورياً يعود إلى أربعينيات القرن الحادي والعشرين".

أوما ليام برأسه وقال: "صحيح. هل يمكنه... التحدث برأيك؟" "يمكنه الحديث عبر دارات التواصل اللاسلكية، لكنها غير كافية، ويبدو أن هذه الوظيفة قد ألغيت، أو تم إيقافها". "هل يفهمنا؟"

لم يرفع بوب أنظاره الرقبية المترصدة عنه بانتظار أن يقوم ذلك الشيء بالخطوة الأولى باتجاههما، ثم قال: "نعم، إنه يفهمنا". "هل نستطيع... هل نستطيع إقناعه بأن لا يؤذينا؟ بأن يكون صديقنا من الآن فصاعداً؟"

انتقلت أنظار الروبوت إلى ليام بهدوء ومالت جمجمته المعدنية المتأكلة والمنبعجة إلى جانبها قليلاً وظن ليام بأن الضوءين الأزرقين أمعنا النظر فيه لبرهة من الوقت.

فحص بوب الروبوت باهتمام، وكان لديه ضمن قاعدة بياناته قائمة مصورة تحتوي على كل أنواع الروبوتات التي تم إنتاجها، وكانت أشبه بشجرة عائلة فيها جميع أنواع الذكاء الصناعي، بدءاً من أول طراز مدرك لذاته وقابل للتطبيق والاستخدام من قبل البشر، الذي تم إنتاجه وتطويره في خلال عشرينيات القرن الحادي والعشرين، حتى جيله هو من الروبوتات

التي تم إنتاجها عام ٢٠٥٣. وهكذا تمكن بوب من معرفة أن هذا الروبوت هو وحدة مقاتلة قديمة صُنعت في كوريا الشمالية، وهو نموذج تم انتاجه بكميات هائلة في منتصف أربعينيات القرن الحادي والعشرين لاستخدامه كقوة مدمرة في حرب النفط الأولى التي جرت في المحيط الهادي، لقد ذبح أمثال هذا الروبوت مئات آلاف المواطنين في كوريا الجنوبية والصين وتايوان كما ذبحوا مواطني الدولة التي أنتجتهم، ألا وهي كوريا الشمالية. لقد كان هذا النموذج قابلاً للخطأ بطريقة عشوائية جداً بسبب برمجته القائمة على تحديد الأشخاص بحسب نوعين فقط، ألا وهما: صديق أو عدو، وكان السبب في هذا أن تعليمات برمجة النماذج الأولية كانت مسروقة بطريقة غير شرعية، وقد تم تكييف هذه البرمجة للعمل على شرائح الذكاء الصناعي الصينية، التي لا تلائم التعليمات التي تمت سرقتها وتطبيقها عليها.

قرر بوب أن يرسل للروبوت تحية عبر جهاز البلوتوث، الذي لا بدّ من أن يفهمه الروبوت لأنها لغة برمجة منتشرة جداً ولا بدّ من أن دماغه الإلكتروني يحتويها من قبل تحميل اللغات البرمجية الكورية أو الصينية. فأرسل له التالي:

[W.G. Systems AI V7.234c عَرَفَ عن نفسك]

حوّل الروبوت أنظاره من ليام إلى بوب بهدوء وأرسل له التالي:

[SolSun Inc.: V3.23 - 날짜: 29-06-4]

[أرجو منك اختيار طريقة التواصل التالية: ASCIIEnglish.

[Hexadecimal. Binary

[تم تشغيل طريقة التواصل المطلوبة]

”أصبحنا قادرين على التواصل معه“. قال بوب.

أوما ليام وقال: ”حسناً... هل يمكنك أن تطلب منه أن يكون شخصاً جيداً ويتركنا وشأننا؟“

”لا يمكنني ذلك. سيسبّب له هذا تناقضاً في التعليمات، كما يحصل

معي أنا“. ثم قرّر بوب أن اكتشاف أهداف مهمة الروبوت سيكون أهم نقطة يمكن لهم أن يحصلوا عليها منه. فأرسل له التالي:
[حدّد أهداف مهمتك، ورتبها حسب الأولوية]

[أهداف المهمة: الهدف الرئيس: اتباع تعليمات السيد لوك، الأهداف الثانوية: تحديد الأعداء في ساحة المعركة والقضاء عليهم]
استدار بوب نحو ليام وقال: ”لقد قرصنوا تعليماته“. ثم عاد للحديث مع الروبوت عبر البلوتوث:

[حدّد ما تعنيه بساحة المعركة]
التفت الروبوت نحو الأشجار وإلى أغصان السنديان الغليظة وأكواز الصنوبر ثم عاد لينظر إلى بوب وأرسل له:

[ساحة المعركة هي كل ما يقع داخل الإحداثيات التالية: 35 43 '56.27"N/12 47'19.17"E التي تقع في كوم ون سان، في كوريا الجنوبية.]
”ما الذي يجري يا بوب... أخبرني؟ ماذا يقول لك؟“

”يبدو أنه يتبع تعليمات مهمّة ما من حرب انتهت عام ٢٠٤٩. وهو يعتقد أنه موجود في إحدى غابات كوريا، كما أنه يعتقد أنه موجود في عام ٢٠٤٧، سبب هذا هو أنهم لم يُطلّوا أهداف مأموريته كما يجب. إن برنامج مأموريته ما زال نشطاً لكن تمّت قرصنته ليتبع أوامر لوك الحرفية وينفذها.“

”حسناً... ألا يمكنك بكل بساطة أن تخبره بأنه يُخطئ باتباع أوامر لوك؟“

”لا. لا يمكننا تعريفه بالسنة الصحيحة التي نوجد فيها الآن.“
تراجع ليام قليلاً إلى الخلف ببطء وجلس أَرْضاً بعيداً عن المقنّع الثابت في مكانه وقال: ”ألا توجد طريقة يمكنك إقناعه بها؟“
”سأحاول.“

خاطب بوب الروبوت عبر البلوتوث: [تعليمات: الموقع الصحيح لوجودنا الآن هو غابة شيروود في انكلترا، وإحداثياتها هي: 53°9'56.49"N/ 1°5'1.43"W]

[خطأ]

[أنت موجود خارج منطقة الحرب الخاصة بمهمتك]

صمت الروبوت قليلاً ثم أرسل لبوب:

[موقعنا الحالي يقع ضمن دائرة المعركة الخاصة بنا]

حاول بوب الدخول إليه من زاوية أخرى:

[معلومات: التاريخ الحالي هو ١٢ حزيران ١١٩٤]

[خطأ، تاريخ اليوم هو ١١-٣-٢٠٤٧، والساعة الآن هي ٧،٤٥ صباحاً]

[جاري إرسال معلومات الوقت والتاريخ الصحيحين]

تلقي الروبوت المعلومات، وأدار رأسه بفضول وقال لبوب عبر

البلوتوث: [تم تلقي المعلومات، وهي معلومات صالحة، يُرجى الانتظار]

[أنت تقف خارج منطقة الحرب الخاصة بك، أنت تقف خارج إحداثياتها]

[تناقض في التعليمات]

[أوقف وضعية القتال فوراً]

توهجت عينا الروبوت الزرقاوين قليلاً ثم انطفأتا وتدلّت أطرافه وتهدّلت.

صفّق ليام فرحاً وقال: "بوب! لقد نجحت"! نهض ليام عن الأرض واقترب بحذر من الروبوت الجامد كتمثال مصنوع من المعدن المتآكل والبلاستيك الذائب وقال: "يا إلهي... يا للسما... لقد تمكنت من إقناعه بإطفاء نفسه... لقد نجحت بذلك بالفعل... أنت عبقرى حقاً يا بوب".
هزّ بوب رأسه وقال: "إنه غير مُطفاً. إنه... يفكر فحسب".

ارتفع حاجبا ليام بدهشة وتوقف عن التقدم باتجاه الروبوت وقال: "في تلك الحالة..." ثم تراجع بضع خطوات إلى الخلف وأردف: "ألا يمكننا أن نضربه بشدة على رأسه... بينما يفكر بالأمور كما تقول... لنتخلص منه؟"

"يمكن لأي حركة عدوانية أن تدفعه لتشغيل نفسه في وضعية الدفاع عن النفس".

”آه... ما رأيك بأن نركض بعيداً إذا؟“

فتح بوب فمه ليتكلم لكن الروبوت عاد إلى الحياة في نفس اللحظة
وصدرت عنه أصوات التشغيل الخافتة وأرسل لبوب عبر البلوتوث:

[أهداف المهمة الرئيسية]

التمعت العينان الزرقاوان من جديد.

[تم تلقي الأمر من السيد لوك، وتغيير كلمة السر]

[تم تلقي الأمر قبل أربع دقائق وثلاث وأربعين ثانية]

[الحالة: نشط]

[الأمر: اقتلها كلاهما]

سحب بوب سيفه من غمده وبدأ أن صوت استلال السيف المعدني
واحتكاكه بالجلد عال جداً وسط السكون الذي يلف أنحاء الغابة، وكان
الصوت حفز الروبوت على الحركة بسرعة، فسحب سيفه من غمده أيضاً
وحمله بيد واحدة من دون أن يبدو أنه يتكبد أي عناء يذكر وتقدم باتجاه
بوب.

”ليام أوكونر... عليك أن تركض لتنجو بحياتك“.

مكتبة الرمحي أحمد ٩٩

الفصل الواحد والستون

نوتنجهام شاير، غابة شيروود، ١١٩٤

عندما وصل الروبوت إلى قرب بوب لَوَّحَ بسيفه باتجاه الرأس فرفع بوب سيفه وصدَّ الضربة فاشتبك السيفان بقوة وصدر عنهما صوت رنين وصليل عال.

ثم قام بوب بهجوم مضاد فطعن الروبوت بلمح البصر تحت الإبط فظهرت أنابيب السوائل الهيدروليكية بين صفائح الدرع المعدني الذي يغطي الهيكل الخارجي للروبوت، وقد قطعت الضربة أحد الأنابيب فسال منه سائل نقي أصفر اللون.

هوى الروبوت بيده نحو الأسفل فرمى بسيف بوب بعيداً وكأنه قطعة خفيفة من الخشب ثم تقدم وأمسك بعنق بوب ورفع عن الأرض ورماه بعنف باتجاه شجرة السنديان الواقعة أرضاً كما لو كان لعبة بين يديه، فارتد بوب عن الجذع بقوة واهتزت الشجرة لقوة الصدمة.

صاح بوب من جديد وهو يحاول الوقوف على قدميه: "عليك أن تهرب بسرعة".

رفض ليام بحركة من رأسه وقال: "يمكنني أن أساعدك".
"اهرب!"

انحنى الروبوت وأمسك بأذن بوب اليمنى في محاولة منه لرفعه عن الأرض فتمزقت أذن بوب وسُمع صوت التمزق عالياً في المكان، وانفجر من مكانها سائل سميك يشبه الدم وطار منتشراً عليهما. رمى الروبوت الأذن من يده وانحنى فوق بوب مجدداً لكنه أمسكه هذه المرة من رقبته ورفعه عالياً فوق رأسه.

شاهد ليام السائل الأصفر يسيل من الأنبوب المطاطي الذي قطعه بوب بسيفه، ولاحظ أنه كان يخرج بشكل دفعات متلاحقة كما يخرج الدم من الشرايين عادة. ففكر بأنه يشبه الدم في ذلك... لا بدّ من أن يكون ذلك السائل هو الشيء المشابه في عمله للدم لدى الروبوتات.

حمل الروبوت بوب ورفعه كما لو كان يرفع كأس بطولة رياضية ثم رماه على جذع شجرة السنديان من جديد، وظن ليام أنه سمع صوت شيء ينكسر فجأة عندما زمجر بوب ووقع عن الشجرة بقوة على الأرض. يا إلهي... سوف يقتله...

طعن الروبوت بالسيف الذي يحمله بيده الأخرى أعلى ذراع بوب اليسرى وثبته على الجذع كما لو كان فراشة مصلوبة داخل خزانة زجاجية لعرض الحشرات المحنطة.

صرخ ليام بذعر: "بوب"!

حاول بوب أن ينتزع السيف من الخشب لكن نصله كان مغروزاً حوالى القدم داخل جذع السنديانة الميتة المرمية أرضاً.

التفت الروبوت ببطء وهدوء لبحث عن ليام بعد أن ثبت بوب وتوهجت عيناه الزرقاوان وهو يفكر بهدفه التالي.

قال ليام بصوت مرتعش: "أرجوك... لا علاقة لي بحربك".

تقدّم الروبوت منه.

"مرحباً... مرحباً... قال لك جيمس لوك أن تحضرني له، أليس كذلك؟ ولم يأمر بك بقتلي".

وقع ليام أرضاً وهو يتراجع بسرعة نحو الخلف وسقط وسط أجمة

من نبات القراص والعليق. وقف الروبوت أمامه ثم انحنى نحوه بهدوء وأحاط عنقه بإحدى يديه فصاح: "أرجوك... أستطيع مساعدة السيد لوك... أستطيع مساعدته..."

سمع ليام شيئاً ينكسر من خلف الروبوت، وربما لم يكن ذلك سوى صوت أوتار حنجرتة نفسها، وشعر بأصابع الروبوت وهي تسحق قصبته الهوائية وتخنقه بقوة وعزم وتضغط على الرغام وعضلات الرقبة وغضاريفها وتفاحة آدم البارزة من عنقه وتحاول لويها. شاهدت عيناه شرارات بيضاء وسمع صوت اندفاع الدم في شرايين أذنيه كالطبول وهي تحاول أن تشق طريقها المسدود باتجاه رأسه عبر الشريان السباتي المضغوط بقوة.

أصاب سائل حار تشبه رائحته رائحة الوقود وجه ليام في تلك اللحظة، فقبضت اليد بشدة أكبر على عنقه وكأنها تحاول انتزاعه من مكانه، ثم أفلتته القبضة القوية وكأنه قرّر فجأة أن يلوي رقبتة بالاتجاه المعاكس، وسقطت اليد التي كانت ستخنقه قبل هنيهة على صدره كما لو كانت يد شخص عاجز أو مشلول.

توضحت الرؤيا مجدّداً وشاهد ليام يد الروبوت اليسرى تتدلى عن جانبه، ويتدلى من تحت إبطه الأنبوب المطاطي كأفعى تنفث سمها الأصفر الدافئ بدفقات سائلة متلاحقة. ركع الروبوت المقاتل على ركبتيه وخفض رأسه نحو الأسفل ونظرت عيناه الزرقاوان المتوهجتان إلى ذراعه المشلولة من دون أن يفهم ما جرى له.

شاهد ليام بوب يقف خلف الروبوت وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة انتصار عريضة وهو يمسك ببقية السيف المكسور بيده اليمنى بينما تدلى ما تبقى من ذراعه اليسرى المقطوعة من مستوى المرفق وبرزت منها الأوتار والعضلات المجذوعة.

أقحم بوب من جديد طرف سيفه المكسور المدبب في الفجوة الصغيرة الفاصلة بين كتفي الروبوت المدرعين ولواه بطريقة دائرية، فترنح

الروبوت وسال المزيد من السائل الأصفر الدافئ بسبب الضغط المتزايد على الأنابيب.

بدا من معالم وجه الروبوت المقسومة إلى نصف بشري ونصف معدني أنه يحاول أن يقول شيئاً ما، كالصدمة أو الدهشة... ثم انهيار على جانبه أخيراً بعد أن تلاشى ضغط السائل الهيدروليكي تماماً من محركه المتواري داخله وصدر عنه صوت طنين خافت. فقال بوب وهو يفحص بقايا ذراعه اليسرى المقطوعة:

”إننا محظوظون... يبدو أن حساس الحركة الخلفي لديه قد أصيب في معركة سابقة“.

بدأ الدم المتدفق من ذراعه يتناقص ويتحول إلى نوع من الغراء الذي يمكنه به أن يسد مكان القطع.

تمكن ليام من النطق أخيراً فقال: ”بوب... ذراعك...“ وأمال رأسه إلى الجانب لينظر إلى الذراع التي ما زالت معلقة على الشجرة.

فأجابه بوب بفضفاضة ولا مبالاة: ”لا يهم، ساقى على قيد الحياة“. ثم نظر إلى الروبوت المرمي على الأرض وأردف: ”إنه ما زال نشطاً على الرغم من أننا عطّلنا جهاز حركته القتالي“.

كان باستطاعة ليام أن يرى العينين الزرقاوين المتوهجتين بغضب والرأس الذي يستدير يمناً ويساراً بشكل محموم ويسمع صوت المحرك الآلي القديم والمستهلك لكثرة الاستعمال، وكان كل تلك الحركات ستعيد الحياة إلى جهاز الحركة الثقيل وستمكنه من النهوض عن أرض الغابة. حاول ليام أن يتحدث مجدداً على الرغم من الألم المبرح الذي يشعر به في حنجرته:

”ماذا... ماذا فعلت به؟“

”لقد ثقت أنوباً هيدروليكيّاً رئيساً. إنّ هذا السائل يغذي جهاز الضغط الذي يمكن محركات جسمه من القيام بأي حركة، إنه خطأ في تصميم هذه الوحدات المقاتلة الميكانيكية. إنها غير قادرة على إصلاح

نفسها. يا لها من تقنية قديمة“. قال بوب جملة الأخيرة بتكبر واضح وهو يتفحص الروبوت المشلول.
”هذا صحيح“.

بحث بوب بعينه عن شيء ما على الأرض إلى أن وجده فانحنى والتقط عن الأرض حجرة تقارب حجم رأس الإنسان. فسأله ليام:
”ماذا ستفعل؟“

”هذه الوحدة المقاتلة ما زالت نشطة. لا بدّ من تدميرها“.
أشاح ليام بوجهه بعيداً بحركة لا إرادية عندما رفع بوب الحجر عالياً في الهواء على الرغم من أنّ المقنّع ليس سوى آلة... إلا أنّ البشرة البلاستيكية التي كانت تغطّي الجزء الأسفل من وجهه جعلت نصف وجهه على الأقل يبدو بشرياً جداً بالنسبة إليه، فلم يتمكن من متابعة لحظة تدميره.

سمع ليام عدة ضربات قوية متتالية تبعها صوت قعقة معدنية على الرغم من طنين المحرك العالي الذي لم يتوقف بعد كل تلك الضربات. فانهال عليه بوب بضربة قاضية وتوقفت الجلبة إلى الأبد.
”هل... مات؟“

”لقد مات“. أجاب بوب.
التفت ليام إليهما فوجد كومة من القطع المعدنية المحطمة المسوّاة بالأرض وقطعاً من البلاستيك الملوّن بلون اللحم البشري.
”كنتَ تقولُ قبل أن تعثر هذه الوحدة المقاتلة علينا أننا مضطرون للعودة إلى ذلك المخيم“.

نظر ليام إلى بوب وقال: ”لا يمكننا العودة الآن... حالتك لا تسمح لك بالقتال... لا يمكنك القتال بهذه الحالة“.
”انخفضت قدرتي القتالية خمسين بالمئة فقط. ما زالت قدرتي القتالية عالية“.

تأمّله ليام بعض الوقت... ربما كان على حق. إنه يُشفق على أيّ رجل تعسّ الحظ يقرر الوقوف في وجه بوب، لكنه لم يشعر بأنه قادر على أن

يطلب منه... لا أن يأمره... بأن يعودا معاً إلى المخيم بسبب منظر أشلاء ذراعه اليسرى المقطوعة المثيرة للشفقة.

ثم حطت أنظاره على عباءة الروبوت الملقية أرضاً وعلى الخرق البالية والأكمام الصوفية التي ما زالت تغطي جسم الروبوت الميت. فخطرت له فكرة جهنمية.

”حسناً... حسناً... لدي فكرة. أظن أنه ينبغي علينا أن ندفن الروبوت.“

”هذا صحيح. سيتأكل المعدن ويتفكك في وقت قصير.“

”حسناً... لنخلع عنه ثيابه أولاً“. ثم نظر إلى بوب ورفع حاجبه بمكر:

”احذر من ستظاھر بآنك تكون؟“

الفصل الثاني والستون

نوتنجهام شاير، غابة شيروود، ١١٩٤

راقب ليام الجميع بعينيه الحذرتين وهو يدخل المخيم، وكانت نظراتهم جميعاً تنم عن عدائية واضحة، ورمى عليه أحدهم بعضاً من روث الأحصنة الملقاة أرضاً، فغطى وجهه بيديه ليحميه فتناثرت على صدره، وتابع تغطية رأسه في حال قرر المزيد منهم قذفه بالمزيد من الفضلات.

لكزه المقنع الطويل من الخلف برأس سيفه ليدفعه للتقدم فهلل الناس ساخرين وهو يتعثر ويكاد يقع. عبرا المخيم وشقا طريقهما بين الناس المتجمعين وشعر ليام بكمية من البصاق تحط على كتفه وأخرى على أذنه فالتوت معالمة قرفاً تحت يديه اللتين تغطيان وجهه، وزاد صخب الحشد أكثر وأكثر.

صاحت امرأة: "حثة فرنسية ملعون". وشعر ليام بشيء قاس وحاد يلكزه في ظهره.

صاح يوب من خلفه: "توقف".

في التو واللحظة، تلاشت الأصوات وعمّ الصمت المطلق الذي كان تاماً إلى درجة أن ليام كان قادراً على سماع صوت الأعواد الجافة المشتعلة وبقبة الماء الذي يغلي في قدر طهي قريب منهم.

لم يتكلم المقنع أمام الناس من قبل.

ربما كانت هذه غلطة كبرى، وساورته المخاوف بأن يصيح أحد ما بأن المقنع محتال ما. وبدلاً من تحقيق تلك المخاوف استمر الصمت المطبق وتفرق الناس ليفسحوا المجال أمامهما للتقدم إلى أن وصلا إلى خيمة لوك. مشى ليام وهو يبذل كل ما بوسعه ليبدو خائفاً ومذلولاً ومهزوماً، وانحنى ليدخل من الباب المنخفض بعد أن لكزه بوب بشدة لا داعي لها وتبعه إلى الداخل.

كان داخل الكوخ مضاءً بشكل أفضل من السابق بالطبع بعد أن حطّم بوب قسماً من جداره الدائري.

في وسطه تماماً، كان لوك يقف ويمد يديه المرتجفتين اللتين تحملان مسدساً باتجاههما وقال لليام: "لا تتحرك". ثم نظر إلى بوب وسأله: "أين هو؟ ماذا فعلت بوحدتي المقاتلة؟"

أنزل بوب القلنسوة عن رأسه بعد أن وجد أن الحيلة قد انكشفت وأجابه:

"لقد أوقفنا وحدتك المقاتلة عن العمل."

تغصّنت عينا لوك وقال: "يا إلهي... أنت... أنت نموذج قتالي مستنسخ من لحم ودم... أليس كذلك؟"

أوما بوب بالإيجاب وقال: "أنا نموذج من الوحدات القتالية المستنسخة من نوع WGS-١٢-٢٠٥٦".

"يا إلهي". وارتسمت على وجهه ابتسامة تقدير واحترام.

فقال بوب: "ضع سلاحك أرضاً".

تردّد لوك وهو يحملق في رأس السيف الموجه نحوه وأدرك أن المسدس لن يوقف العملاق الواقف أمامه. فأنزله ببطء ثم سأل بصوت خافت:

"ماذا سيحصل الآن؟"

شدّ ليام معصميه وحلّ الحبل الذي كان يقيدهما وقال: "الكأس.

أليست هنا في مكان ما في المخيم؟"

فصمت لوك وخلا وجهه من التعابير.

”هيا يا لوك... كلانا موجود هنا للسبب نفسه... نحتاج إلى أن نعرف محتوياتها“.

”هل تريد معرفة ما تقوله النبوءة؟“

رفع ليام كتفيه وقال: ”إذا كان ذلك ما تحتويه... إذا كان ذلك هو السر الكبير المخبأ في داخلها... فالإجابة هي نعم“.

ركّز لوك نظره على السيف وحافظ على صمته.

”بحق الله يا لوك... هدفنا واحد، أليس كذلك؟ يمكننا ان نتعاون معاً. يمكننا ذلك. هناك شيء ما سيحدث، والكأس تحتوي على تحذير منه، أليس كذلك؟ أخبرنا عن مكانها... ربما تمكّنّا من قراءة محتوياتها معاً“.

هزّ الرجل رأسه وقال: ”الملك ريتشارد يملك الطريقة الوحيدة لفك رموز الكأس“.

أشار ليام لبوب ليقدم له بعض المساعدة لكنّه لم يكن قادراً على مساعدته في هذا الأمر، فعاد للقول: ”يمكننا أخذها معنا إلى غرفة عملياتنا لنعرضها على جهاز الكمبيوتر الخارق الذي نملكه هناك، لا بدّ من وجود طريقة يمكننا بها فك شيفرة ذاك الشيء“.

”هل تستطيعون العودة إلى غرفة عملياتكم؟“

”نعم“.

”هل تملكون طريقة للعودة إلى المستقبل؟“

”بالطبع، لدينا موعد لذلك... وقت محدّد ومكان محدّد وكل شيء آخر“.

هزّ لوك رأسه وقال: ”أنت تكذب... لم يتمكن أحد من بناء جهاز آمن للعودة غير والدستين“.

”لقد فعلنا“.

”يا إلهي... يا للسماء... إذا أنتم رواد حقيقيون... وهذه الوكالة التي تعملون لحسابها حقيقية...“

”الوكالة حقيقية“. قال بوب.

”والآن... ما قولك يا سيد لوك؟“

”نحتاج إلى الحصول على نصف الكأس الآخر من الملك ريتشارد، فلا توجد أي طريقة رياضية لحل شيفرتها.“

عبس ليام وقال: ”لا بدّ من وجود طريقة أخرى. ولكن اسمع... يبدو لي أننا لا يمكن أن نسمح للملك ريتشارد بالحصول على القطعتين معاً، أليس كذلك؟“

أجابه بوب: ”صحيح“.

”يقول التاريخ كما عرفناه بأنّ الكأس مجرد أسطورة. وهذه هي الطريقة التي ستسير عليها الأمور... ستضيع الكأس وتحوّل إلى أسطورة وينتهي أمرها بهذا الشكل مهما كانت الأسرار التي تحتويها. لن نسمح للملك ريتشارد بأن يجدها بالتأكيد، كي لا تلهمه ليعود مجدّداً إلى فتوحاته ويخرج في حملة رابعة لاحتلال العالم كله هذه المرة.“

”معلومات: يقول التاريخ الصحيح أن الملك ريتشارد لم يخرج في حملة أخرى بعد عودته هذه، وأنه سيقضي آخر خمس سنوات من حكمه في محاولة إعادة تأسيس سلطة الملكية في إنكلترا واستعادة مقاطعاته التي خسرها في فرنسا.“

”نعم، لا كأس بعد اليوم. لا مزيد من الحملات الصليبية. لقد انتهينا من هذا الأمر.“

فرك لوك ذقنه الطويلة وهو يفكر بما سمعه ثم قال ليام: ”إذا تمكنا من فك شيفرتها أنا وأنت فليكن، وإذا لم نتمكن من ذلك، فعلينا أن نتأكّد من أنها ستبقى ضائعة. ما رأيك بهذا يا سيد لوك؟“

فرّم لوك شفّتيه وقال: ”ربما“.

قال بوب: ”لا نملك كثيراً من الوقت، إذا كانت قوّة الملك ريتشارد في طريقها إلى نوتنجهام“.

”لا بدّ من أن الكأس ستكون بأمان أكثر في قلعة نوتنجهام بدلاً من

الاحتفاظ بها هنا في الغابات". قاطعه ليام.

"هذا صحيح".

"وعندها سنقرّر خطوتنا التالية".

"حسناً". أوما لوك أخيراً وسلّم المسدس إلى ليام وقال: "حسناً..."

أظنّ... أنك على حق... ينبغي عليّ التحدّث إلى رجالي في الخارج".

"ماذا ستقول لهم؟"

نظر إلى بوب وقال: "لقد صدّقوا بأنك الرجل المقنّع لأنك ترتدي

ملابسه وعباءته، سأخبرهم بأنه ينبغي علينا تقديم ولائنا للملك جون، وأن

نستعد لمغادرة الغابة والذهاب إلى نوتنجهام". وتقدّم نحو الباب ثم التفت

إلى ليام وقال: "ألا تزال تملك السلطة اللازمة للعفو عنهم جميعاً إذا عادوا

إلى نوتنجهام؟"

أوما له ليام وقال: "نعم، أظنّ أنني ما زلت عمدة البلدة حتى يقرّر جون

شيئاً آخر".

ابتسم لوك وقال: "أشكرك. إنهم ليسوا خارجين عن القانون ولا

أشراراً، إنهم جياع فقط، ويائسون". ثم انحنى وخرج من الكوخ.

تنفس ليام الصعداء وانتظر حتى ابتعدت خطوات لوك وضاعت وسط

الجلبة الهادرة في الخارج ثم قال لبوب: "حسناً، لقد جرت الأمور بطريقة

أفضل من توقعاتي".

فسأله بوب: "هل تثق به؟"

"إنه يسعى وراء الحقيقة... هذا كل ما في الأمر، إنه يريد الحصول على

ما نريد الحصول عليه، وقد أتى إلى هنا باستخدام آلة زمن وحيدة الاتجاه،

أي أنه لا يستطيع العودة إلى زمنه. وهذا أمر يدل على شجاعته الكبيرة. لا

أعتقد أنني أملك الشجاعة الكافية لفعل ذلك".

"ولكن... هل تثق به؟"

"نعم، نعم أعتقد أنني أثق به. أظنّ أننا لا نملك خياراً آخر، كما أن

المنطق يقول بأننا مضطرون للعمل معاً، أليس كذلك؟"

لم يظهر على بوب أنه اقتنع بهذا الكلام، فانحنى ليام باتجاهه وأشار لبقايا الذراع المقطوعة وسأله: "كيف هي ذراعك؟" فأجابه بوب من دون أي تعبير: "إنها مقطوعة". رفرفت رموش ليام وقال: "كنت أقصد ما تبقى منها... القسم الأعلى من ذراعك، كيف حاله؟"

"لقد سددتُ الشرايين ولا يوجد فقدان للدم. وسأقوم في ما بعد بترقيع الجرح للتأكد من عدم دخول أي جسم غريب إلى داخله كي لا يتسبب ذلك بمضاعفات غير مرغوب بها".

"هل ستتمو لك ذراع جديدة؟ لا يمكن لك أن تبقى بذراع واحدة إلى الأبد أليس كذلك يا بوب؟"

هزّ بوب رأسه وقال: "لن تنمو من تلقاء نفسها، ينبغي أن أعود إلى داخل أنبوب استنساخ لأتمائل إلى الشفاء".

"صحيح. حسناً"، وربت على ظهر بوب برفق ثم أردف: "سيكون هذا هو أول ما سنقوم بفعله عندما نعود، يا لك من مسكين، دائماً ما تعاني الأمرين في كل مرة نسافر بها إلى الماضي".
"هذه وظيفتي".

"بالطبع... ولكن... أعتقد أنني..."
وفجأة، سمعا أصواتاً هائجة من الخارج وصيحات ذعر وصوت حوافر خيول على أرض المخيم الناعمة، فانحنى ليام ليعرف ما الذي يجري وقال: "ما الذي يجري؟" فشاهد رجال لوك واقفين بارتباك من دون أي حراك وهم يراقبون مؤخرة عربة الأمتعة وهي تندفع بسرعة على درب ضيق متعرج مليء بالحفر يخترق أعماق الغابة وتتقافز عليه إلى أن غابت عن الأنظار.

شتمه ليام وأدخل رأسه وقال: "الأحمق المخادع".

"ماذا جرى؟"

"لقد هرب لوك".

الفصل الثالث والستون

نوتنجهام شاير، غابة شيروود، ١١٩٤

”لن يغادر المكان من دون الكأس، أنا متأكد من هذا“. قال ليام.
هز بوب رأسه وقال: ”لا بدّ لنا من الإمساك به إذا“.

انحنى ليام مجدّداً وخرج من الكوخ وشق طريقه بين الجمع المحتشد في الخارج فأمسكت به أياد عدّة ورمته أرضاً، ثم دمدم أحدهم:
”وأين تعتقد أنك تذهب أيها الفرنسي؟“

سمع ليام صوت استلال نصل معدني من غمده وبعده فوراً صوت بوب الذي هدر بين الناس وأسكتهم مجدّداً: ”اتركوه“. ثم تقدم إلى الأمام وهو يغطّي وجهه كما كان يفعل المقلع وصاح: ”ابتعدوا“. فأطاعه الناس فوراً وابتعدوا عن ليام وكأنه مصاب بالطاعون. مدّ بوب يده إليه وساعده ليقف على قدميه فهمس ليام له بطريقة جانبية: ”نحن بحاجة إلى أحصنة، لن نمسك به أبداً ونحن نبحث عنه على أقدامنا“.

فصاح بوب من جديد: ”من يملك حصاناً؟“

لم يجبه أحد. فهمس ليام لبوب: ”بوب... أخبرهم بأنك ستأخذني إلى نوتنجهام لتجبرني على كتابة أمرٍ بالعفو عنهم جميعاً ليتمكنوا من العودة إلى منازلهم“.

أوماً له بوب برأسه وكرّر كلمات ليام بصوته الجمهوري فأنصت له الناس وكانّ على رأسهم الطير مصعوقين بكلامه. وعندما قال بأنه يمكن لهم أن يعودوا إلى بيوتهم انتشرت البهجة بين صفوفهم وساورهم الشك بذلك لأن الخبر بدا لهم ضرباً من ضروب الخيال.

سأله أحدهم: "أين ذهب لوك؟"

قال ليام لبوب: "سأخبرهم..." ثم تنحنح وقال بصوت عال: "لقد رحل لوك ليقدّم ولاءه ويعرض خدماته على الملك ريتشارد". فهلّل بعض الناس لدى سماعهم باسم الملك فاستطرد ليام: "آه... أنا لن أتعجل التهليل له... لست متأكداً من أن ريتشارد قد أتى إلى هنا ليخلصكم من جون، أراهنكم أنه سيأتي إلى هنا أولاً. سيحضر إليكم ليتخلص منكم للتفرّغ فيما بعد للتخلص من أخيه".

صاح أحدهم: "أنت تكذب... لست سوى واحد من رجال جون في النهاية".

انتشرت بين الناس بعض كلمات الموافقة وعرف ليام أنه لن يجد بينهم شخصاً واحداً يصدق كلمة واحدة مما يقوله لهم. فهمس لبوب: "من الأفضل أن تخبرهم أنت بنفسك". فصاح بوب:

"إنه يقول الحقيقة... نصيحتي إليكم: اتركوا هذا المخيم فوراً وعودوا إلى منازلكم، الملك ريتشارد قادم وسيقتلكم جميعاً".

امتلأت الغابة فجأة بصخب الناس لأنهم راحوا جميعاً يتكلمون في نفس الوقت.

لمح ليام من خلف الحشد حصاناً مربوطاً على جذع شجرة في أحد الزوايا، وكان ينظر باتجاه الناس الصاخبين الهائجين بملل، فدفع مرفق بوب بلطف وقال: "انظر إلى هناك... هل تراه؟"

"نعم". ثم صاح بالناس مرة أخرى:

"سأغادر الآن مع العمدة وسيشمركم العفو جميعاً".

تقدّم بوب وهو يسحب ليام من ذراعه بينما تفرق الناس إلى جماعات

صغيرة تناقش في الأمر، وقرر بعضهم البقاء بينما رغب بعضهم الآخر بالعودة إلى منازلهم. لكن رجلاً مسناً تبع بوب وتمسك بعباءته وقال له: "لا تتركنا أرجوك... نحن أتباعك، لقد خرجنا من بيوتنا وبلداتنا إلى هنا لتنبئك".

نظر ليام إلى بوب ولم يتمكن من رؤية عينيه بسبب القلنسوة، لكن انحناء رأسه باتجاه العجوز أكد لليام أنه يملك ردّاً على هذا الطلب، ثم قال: "لقد انتهى الأمر أيها العجوز، انتهى التمرد، عليك أن تعود إلى المنزل". أمسك بوب بيد ليام من جديد بعد أن أنهى جملته تلك وسحبه عبر الجموع.

لكن الرجل العجوز لم يقتنع بكلامه بكل تلك السهولة فصاح: "لا يمكنك أن تتركنا الآن، نحن لا نملك أي شيء. لدينا..."، وأمسك بالعباءة مجدداً لكن يده أمسكت هذه المرة كمية أكبر من القماش، وبسبب اندفاع بوب تراجعت القلنسوة إلى الخلف وسقطت على كتفيه فأنكشف وجهه للناس.

عم الصمت من جديد في لمح البصر ونسي الناس كل ما كانوا يتناقشون بشأنه وسكت الأفواه عن الكلام وتوسعت العيون من شدة التحديق في وجهه.

"إنه الرجل الذي اقتحم المخيم قبل ساعات"، قال أحدهم.

"إنها مكيدة... لإنقاذ العمدة". صاح آخر.

لكم ليام بوب على صدره وقال: "اهرب".

تناول بوب بيده السليمة غصن شجرة طويل من بين يدي أحد الشبان الواقفين بالقرب منه ولوّح به فأصاب رؤوس أشخاص عدّة قريبين منه كانوا من البطء بمكان لأنهم لم ينحنوا ليتفادوا الضربة، ثم ركض مع ليام ليصلا إلى الحصان.

تعثر ليام بموقد مشتعل فتطاير الشرر منه وأصابته نثرات من الجمر على قدميه فصاح متألماً وقفز بعيداً عن الموقد بينما راح الناس القريون

منه يدفعون الجمرات الصغيرة التي وصلت إلى ملابسهم وشعرهم الهزيل. وبينما استمر ليام في القفز والصياح من الألم رمى بوب الغصن جانباً وحمل ليام من تحت ذراعه ورماه بلمح البصر فوق صهوة الحصان الذي تدمر من الحمل المفاجئ الذي رُمي على ظهره.

فك بوب لجام الحصان عن الشجرة بعنف ثم قفز فوقه ولكزه بقسوة شديدة بكعبيه فانطلق الحصان إلى الأمام بين الناس الذين حاولوا الإمساك بعنانه لكن بوب أبعد أيديهم جميعاً وتحرر منهم.

ركل الحصان، في طريقه للخروج من المخيم، كثيراً من الدعائم الخشبية الواهية التي تسند الخيام والأكواخ، وابتعد الناس من طريقهم في اللحظة الأخيرة ورموا عليهم الحجارة وقذفوهم بالشتائم إلى أن وجدوا أنفسهم على طريق الغابة الضيق.

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تيليجرام

الفصل الرابع والستون

نوتنجهام، ١١٩٤

راقب جون الناس في السوق بذهول، لأنهم فتحوا طريقاً له للمرور برفقة حاشيته وجنوده والعربات العشرين المرافقة له التي تحتوي على أمتعته ولوازمه الملكية وحاجيات خدمه بكل احترام.

”أظن أنهم... يهتفون لي“. قال لبيكس التي كانت تمتطي فرساً بطريقة جانبية وتسير بمحاذاته، وهي ترتدي ملابساً كثانية رقيقة تنهافت وترفرف حولها بنعومة ولطف. فأجابته: ”هذا صحيح يا مولاي. يبدو أنهم يهتفون لك“.

”إنه تغيير كبير، وأنا سعيد به“. قال هامساً لنفسه وهو يلوح بيده الرخوة بثقة للجماهير فهللوا له لمجرد تلك الحركة البسيطة.

لم تكن مغادرته لأوكسفورد سارة بالنسبة إليه لأنه اعتبر أنه مجبر على الخروج منها للمحافظة على سلامته الخاصة، فاختبأ في إحدى العربات إلى أن تمكن جنوده من إبعاد الحشود الغاضبة عن رتل العربات كي تخرج من البوابة. لقد سمع جون وهو مختبئ عن الأنظار داخل العربة الشتائم واللعنات والسباب الموجهة له، وسمع صوت سيوف تخرج من أغمارها ولكمات ورفسات أقدام تصيب هيكل العربة التي يختبئ فيها.

”يبدو أنّ صديقك قد كسب ودّ الناس هنا من أجلي“.

أومأت بيكس برأسها وقالت: ”نعم، لقد قام بعمل رائع“.

ابتسم وأوماً للناس بود: ”كما أنهم حافظوا على عهدهم لك، على الرغم من أنهم يعرفون بأن جيش الملك ريتشارد قد صار قريباً من الأبواب بدون شك“.

هزّت بيكس رأسها بصمت وهي تتقدم على حصانها، ثم أفتت شفتاها عن ابتسامة صغيرة.

تنفّس جون الصعداء وشعر بنزول ثقل كبير عن كاهله لأنه شعر لأول مرة منذ سنوات طويلة بأنه محبوب. وفكر بأن هؤلاء الناس بإمكانهم الرحيل وترك القلعة لمواجهة قدرها وحيدة، بإمكانهم المغادرة إلى بلدات أخرى أو إلى القرى المجاورة، لكنهم قرروا البقاء، ليبرهنوا للملك ريتشارد بأن إدارة أخيه جون للبلد كانت جيدة ي أثناء سفره للقيام بحملته الصليبية الحمقاء تلك التي أفلستهم جميعاً.

لاحظ جون في أثناء اجتياز البلدة أنّ الأكشاك مليئة بالموءن، ففهم أنهم تمكّنوا من حصاد محصول الصيف من دون أن يتعرّضوا لسطو العصابات الجوّالة واللصوص الملاعين الذين كانوا يضرمون النار في الحقول التي لا يمكنهم سرقة كل محاصيلها ويقتلون الفلاحين المسؤولين عن حراستها. كما أنه لاحظ أن صحة الناس كانت أفضل من صحة مواطني أو كسفورد، الذين كانت جلودهم ملتصقة بعظامهم الناتئة والذين لا تستر أجسادهم سوى الأسمال البالية، هؤلاء الناس يبدوون بصحة جيدة، وكأنهم قادمون من أوقات أفضل، من زمن أكثر رخاء وسعادة.

لقد أمده ذلك ببعض الراحة.

إذا قرر ريتشارد أن يحاصر هذه المدينة فسيلاقي أوقاتاً عصيبة، لأن الجدران في حالة جيدة وموقع القلعة منيع وحصين، ويبدو له للوهلة الأولى أنهم قد كدّسوا الكثير من الموءن وأن الشعب سيقف في صفّه ويحارب معه.

لكن ما الذي سيحل بالكأس؟

هل وجدها؟

خفق قلب جون لمجرد التفكير بالأمر، ربما لن يحتاجوا إلى دخول أي معركة أو حصار أو وقوف في وجه أخيه بأي شكل، ربما لن يحتاجوا إلى أي من ذلك الهراء في حالة واحدة... إذا تمكن ذلك الشاب المثير للفضول ليام دي كونور من معرفة مكان اللصوص الذين سرقوا الكأس واستعادها منهم.

سيتمكن في هذه الحالة من تسليمها لأخيه وسيتوسل إليه ليغفر له فقدان الكأس، سيتوسل إليه ليغفر له عدم قدرته على جمع مال الفدية في خلال سنتين طويلتين من الأسر. بإمكانه التوسل... والانحناء علناً لتقيل يد أخيه أمام كل الناس ربما... ربما كان استرجاع الكأس كافياً لتهديته موقتاً... لأنه متأكد من أنه سيضربه بالعصا فيما بعد... بعيداً عن عيون الناس بالطبع. لا يمكن للعائلة المالكة أن تُبدي ضعفها للناس... كما لو كانت مجرد عائلة أخرى من عامة الناس.

سيبتهج ريتشارد لتلك الأمور... سيسعده ضربه وجلده وسترضي توسلاته للعفو غروره، كما لو كان كلباً بائساً. ولن تكون تلك المرة الأولى التي سيقوم بها بهذه الأمور. لكن ريتشارد سيضع يده على الكأس الغالية على قلبه وعلى أسرار فرسان المعبد الثمينة وسيكون في مزاج جيد، وسيدفعه كل ذلك للتفكير بمزيد من الحملات المجنونة لغزو بلدان بعيدة بعد أن يطمئن لحيازته على أثره المقدس. مما يعني بأنه سيحتفظ برأسه فوق كتفيه.

رفع جون رأسه وأمعن النظر في الحصن المنيع المنتصب أمامهم في مركز مدينة نوتنجهام، وتمنى أن يرى العمدة الجديد في استقباله على صهوة حصانه، آملاً في رؤية علامة واحدة... ابتسامة أو حتى إيماء بسيطة أو إشارة تدل على أن كل شيء على ما يرام... ليطمئن قلبه من جديد. إشارة تدل على أنه استعاد الكأس.

قال جون: "ألا يوجد استقبال... ألا يوجد أحد في القلعة؟"

شاهد جون عدة رؤوس ترتدي الخوذات ترتفع لرؤيته من خلف أفاريز القلعة، وبدأ له أنها محصنة بشكل جيد، لكنه لم يشاهد أحداً يخرج لاستقباله على صهوة الأحصنة، حتى لو كان ذلك مجرد مجاملة أمام الناس.

"أين العمدة يا ترى؟"

"هناك... إنه هو!" صاح ليام وهو يجلس على ظهر الحصان المنطلق على درب الغابة بسرعة، فاهتز صوته كالطيور المغردة.

تقافزت العربى بسرعة على الطريق الضيق أمامهم لأن دواليبها كانت تهبط الحفر وتصعد المرتفعات الصغيرة وتمر فوق جذور الأشجار المكشوفة التي تملأ الطريق. وكانت مؤخرة العربى مليئة بحزم الحطب و سلال عدّة مليئة بالتفاح الذي كان يدور ويتراقص فيها لأن لوك كان يلهب ظهور الأحصنة بالسياط لزيادة سرعة العربى أكثر فأكثر.

اقتربا منه بسرعة مع أن حصانهما كان يبدو عجوزاً نحيلاً بعظامه النائفة وكأنه كان بانتظار سكين الجزار لذبحه، لكنه مع كل هذا كان يبلى بلاء أفضل من العربى ذات الدواليب الكبيرة التي لا تلائم هذا الطريق الضيق المخصص للمشى على الأقدام.

لا بدّ من أن لوك قد سمعهم يقتربون لأنه استدار لينظر إليهم من فوق كتفه واحتاج إلى بعض الوقت ليدرك بأنّ عربته بطيئة أكثر من اللازم، فثبّت عنان الأحصنة ونهض وقفز إلى مؤخرة العربى وأخرج منه صندوقاً خشبياً صغيراً داكن اللون لا يزيد حجمه على حجم علبة قبة ثم قفز عن العربى ووقع على الأرض.

"إنه يهرب."

أوما بوب وقال: "انزل هنا... سألاحقه".

انزلق ليام بطريقة خرقاء عن الحصان وشعر بوخز مؤلم على باطن قدميه لأنه هبط على صخور حادة. ثم لكز بوب الحصان بكعبيه وخرج من

طريق الغابة واستدار بالحصان يساراً بين الأشجار حيث اختفى لوك قبل لحظات. أنصت ليام إلى صوت حوافر الحصان الذي ابتعد عنه وسمع بين الحين والآخر صوت انكسار الأغصان الجافة بسبب بوب الذي شق طريقه ليلاحق لوك بين الأشجار.

اقرب ليام ببطء من العربة المهجورة على الطريق وهو يتألم ويصيح ويعرج كلما داس على حجر حاد أو على مخروط تنوب شائك، وفي النهاية وصل إليها فنظر الحصان إليه بعصبية وانفعال كما لو كان يدرك بأن هذا الطريق غير مخصص للعربات، ثم صهل بصوت عالٍ وتوسع منخراه وكأنه يترقب ما سيقوم به ليام.

”لا عليك... هذئ من روعك“. ثم قفز فوق العربة واستلقى فوق التفاح الذي انتشر على كامل مؤخرة العربة، وسمح لنفسه بأن ينال بعضاً من الراحة.

الفصل الخامس والستون

نوتنجهام شاير، غابة شيروود، ١١٩٤

شق بوب طريقه على متن الحصان بين الأشجار، متجنباً ضربات فروع الأشجار المنخفضة وأغصانها ببراعة وهو يتبع صوت الأغصان التي كانت تتكسر تحت أقدام لوك محدثة ضجيجاً عالياً وهو يهرول هرباً منه ويصدر كثيراً من الضوضاء التي قضت على كل آماله في الهرب بنجاح.

ثم لمحّه. كان لوك يتقدم ببطء مثير للشفقة وهو يتأبط الصندوق الخشبي تحت إحدى ذراعيه ويحاول شق طريقه من خلال أجمة متشابكة من نباتات العليق بيده الأخرى. فناداه بوب:

”توقف. لن تتمكن من الهرب مني“.

وقف لوك والتفت إلى الخلف فأتسعت عيناه لمشاهدة بوب الذي كان يتقدم باتجاهه وهو يواجه الحصان بكل ثقة للمرور بين الشجيرات التي تفصل بينهما.

أدرك لوك أنه يضيّع وقته لا أكثر فترك نفسه يسقط على صخرة صغيرة وانهار عليها مقطوع الأنفاس منهكاً، فرفع بوب ساقه من فوق ظهر الحصان وهبط على الأرض بعنفوان واقترب منه. فقال لوك:

”أظن أنك تريد الحصول على هذا؟“ ومدّ الصندوق باتجاهه فتناوله

بوب ووضعته على الأرض ثم فتح قفله المعدني الصغير ورفع الغطاء. حدّق بوب بمحتويات الصندوق بصمت لبرهة ثم أغلق الغطاء. فسأله لوك وهو ما زال يلهث:

”من أنتم... من تكونون حقاً؟“

نظر بوب إليه بعينه الرماديتين الفاحشتين من دون أن يجيبه. فأردف لوك:

”لست سوى مجرد روبوت مغفل، أليس كذلك؟ لست في الحقيقة سوى روبوت أحرق تحت الجلد واللحم والدم والعظام كما كان رجلي الآلي المقاتل... آلة ميكانيكية تتبع الأوامر بحذافيرها.“
أجابه بوب بطريقته الجافة: ”لدي أولويات أتبعها لتحقيق أهداف مهمتي.“

”وماذا تعرف عن محتوى الصندوق؟“ وأشار لوك إلى الصندوق فلم يجد من بوب سوى صمته المطبق، فأوماً برأسه وقال:

”هذا صحيح... أنت لا تعرف شيئاً كثيراً... أليس كذلك؟“
”تُعرف محتويات الصندوق باسم الكأس المقدسة التي يمكن أن تتضمن معلومات حساسة عن الوكالة التي نعمل لأجلها. هذا هو السبب الذي يدفعنا للحصول عليها وفك شيفرتها لمعرفة محتوياتها.“

ضحك لوك ضحكة عصبية جافة وقال: ”هل هذا هو كل ما في الأمر؟ هل هذا هو كل ما تعتقد أنها تنطوي عليه؟ هل تعتقد أنها تحتوي فقط على ما يمكن أن يضرّ وكالتكم؟“ ثم هزّ رأسه وضحك أكثر من السابق ثم قال: ”أنتم حقاً لا تملكون أي فكرة عن الموضوع...!“

تقلّصت عينا بوب وقال: ”أشرح لي.“

أشار لوك إلى الصندوق وهو ما زال يلهث بعض الشيء: ”ذاك الصندوق... يحتوي على شيء أكثر أهمية مما تعتقد بكثير... وكالتك السرية بكاملها هي لا شيء مقارنة بهذا الأمر... إنها ذرة غبار مقارنة بهذا.“

”اشرح أكثر“.

”إنه مستقبلنا... إنه مستقبل كل واحد منا. هل تفهم هذا؟ هناك باب سيفتح في عام ٢٠٧٠... باب مُطل على شيء سوف...“
”على ماذا؟“

هز لوك رأسه وتابع كلامه: ”هذا هو كل ما نعرفه... لا نعرف حقيقة الطرف الآخر من الباب. لا أحد يعرف أي شيء. لهذا أرسلوني إلى الماضي، لإيجاده وفك شيفرته... لاكتشاف محتوياته وإرسال تحذير عبر التاريخ ليصل إلى كل إنسان في زمني. ليتمكنوا من تحضير أنفسهم لما هو قادم“. ثم بصق بعض البلغم على أرض الغابة وقال: ”يا إلهي، عليك أن تساعدني... عليك أن تساعدني لاستعادة مفتاح الشيفرة من الملك ريتشارد“.

”إن أهداف مهمتك تتعارض مع أهداف مهمتي“. أجابه بوب.
”ماذا؟ وما هي الأهداف التي قد تفوق بأهميتها معرفة ما سيحدث لنا في المستقبل؟“

”أولويات مهمتي هي: استعادة الكأس. تفكيك شيفرتها. تصحيح الخلل الذي حصل لمسار التاريخ. تحديد مكان مُسبب الخلل وتدميره“.
نظر إليه لوك من الأسفل إلى الأعلى ثم قال: ”تدمير مُسبب الخلل؟ فهمت... فهمتك... عليك أن تقتلني إذا“.

”صحيح. وجودك هنا في هذا الوقت يمثل خطراً على مسار الزمن“. قال بوب وسحب سيفه من غمده.

تبع لوك نصل السيف بعينه ثم قال: ”اسمع، أنا لا أحمل أي نوع من التقنيات الحديثة معي، أنا مجرد رجل عادي آخر مثل أي شخص هنا... يمكنك أن تدعني حياً... يمكنك أن تتركني وشأني، وسأغادر المكان... هل تفهمني... لا أريد أن أعود إلى عام ٢٠٧٠... لا أريد ذلك حقاً“.

تأمل بوب بصمت، فعاد لوك للقول: ”أرجوك... اتركني أذهب... لن يصدق أحد أي شيء أقوله لأنهم سيعتبرون أنني رجل مجنون.. مجرد

معتوه قروي آخر“.

لاحظ جزء صغير من دماغ بوب اليأس المتفاقم في صوت لوك ورغبته القوية بأن يحافظ على حياته، إنه لا يريد أن يموت. فهم هذا الجزء الصغير من دماغه غريزة البقاء التي تدفع لوك للتوسل له، فتعاطف معه وقال: “انهض”.

نهض لوك ببطء على قدميه ورفع بوب ذراعه السليمة وإشار لعمق الغابة برأس سيفه وقال: “اركض في ذلك الاتجاه”.

ظهر الارتباك على وجه لوك فعاد بوب للقول: “اركض في ذلك الاتجاه، عليك أن تغادر ريف نوتنجهام فوراً، وإذا قمت بأي محاولة لتغيير مسار التاريخ فسنكتشفها وسنعود إلى هنا لقتلك. هل فهمتني جيداً؟”
أوما لوك وقال: “نعم... نعم بالتأكيد”.

“ارحل من هنا إذا”.

“هل أذهب الآن؟”

“في الحال”.

ابتعد لوك عن بوب وهو يتراجع إلى الخلف بخطوات حذرة في البداية إلى أن قطع بضع ياردات ثم استدار وأطلق ساقيه للريح.

راقب بوب لوك بصمت وهو يزيد من سرعته ويتلافى الوقوع بين الشجيرات المتشابكة، وبعد أن بات على ثقة من أن الرجل لن يجروء على الالتفات إلى الخلف رفع سيفه إلى ما فوق كتفه وبحسب سرعة لوك واتجاهه بين الشجيرات ثم رمى السيف إلى الأمام.

صفر السيف في الهواء وهو يستدير رأساً على عقب إلى أن انتهى رأسه بين كتفي لوك فتدهور على الأرض وانتفض... ثم جثم بلا حراك.

وقف بوب بعد لحظات أمام جثة الرجل واستعاد سيفه من الجسد ومسح الدم عنه بتياب لوك. وفي نفس اللحظة قام دماغه الإلكتروني السيليكوني بوضع إشارة أمام آخر هدف على قائمة أهداف مهمته، بينما وافق دماغه البشري على مضض على الطريقة الرحيمة التي قتل بها لوك

عندما تركه يعتقد بأنه سينجو بحياته. لقد أتاه الموت من دون أي إنذار..
وأتاه بسرعة.
إنها ميتة رحيمة على الرغم من كل شيء.

الفصل السادس والستون

نوتنجهام، ١١٩٤

لم يكن متأكداً من أنه نام بالفعل، لكنه غرق في النوم بالتأكيد لأنه فتح عينيه فجأة فوجد السماء مظلمة فوقه من دون أي أغصان أو أوراق من أشجار الغابة، وعجلات العربات تسير بهدوء على درب وعر بعض الشيء. فاعتدل في جلسته والتفت إلى الأمام فشاهد أمامه كتفي بوب العريضين وهو يجلس على مقعد السائق. فسأله:

”هل قبضت عليه؟“

التفت بوب إليه بدوره وأجاب: ”لم يعد لك قادراً على التسبب بأي تلوث لمسار التاريخ“.

”ماذا؟ هل تعني بأنه...؟“ فقاطعه بوب قائلاً:

”لقد حصلت على ما نريده منه“. ثم أبعد من جانبه كيساً قماشياً فكشف عن الصندوق الخشبي الصغير الداكن اللون. كان غطاؤه مزخرفاً بأشكال هندسية محفورة منذ أمدٍ طويلٍ كما يبدو، ومثبتاً إلى الصندوق نفسه بمفاصل حديدية قديمة.

”بوب... هل هذا هو بالفعل؟ هل هذا هو صندوق الكأس المقدسة؟“

هل فتحته؟“

ابتسم بوب بأفضل طريقة ممكنة له، على الرغم من أنها كانت تعطي وجهه شكلاً مخيفاً يمكن له أن يسبب الكوابيس للأطفال وقال: "أعتقد أنه يحتوي على ما جئنا إلى هنا للبحث عنه".

اقترب ليام ومد يده ليمسك بالصندوق ولمس سطحه الخشن بلطف برؤوس أصابعه. متتبّعاً الأشكال الهندسية المحفورة على غطائه. وشعر لوهلة بأغرب شعور يمكن للمرء أن يشعر به. انتابته دغدغة في رؤوس أصابعه وكأنّ تياراً كهربائياً يخرج من الصندوق ويسري عبر يديه الاثنتين، فاقشعر بدنه وانتصبت شعيرات يديه الناعمة وارتجف... هل هو الخوف؟ أم هو الانفعال؟ وسرت موجة من الحماس عبر جسده.

الكأس المقدسة داخل هذا الصندوق يا ليام... الكأس المقدسة. إنه الشيء الذي سعت كل الشخصيات الأسطورية للحصول عليه... الملك آرثر وفرسان الطاولة المستديرة... إنه القطعة الأثرية التي يظنها كثيرون الكأس التي شرب بها السيد المسيح... يعتبرونها مجرد كوب... لكن هذا ليس سوى كناية عن حقيقتها. وها هي ذا.... على متن عربة محمّلة بالتفاح تسير على طريق غابة وعرة.

بحذر شديد، قام ليام بفتح غطاء الصندوق بكل إجلال ممكن وهو يتوقع انشقاق السماء من فوقه مثلاً وأن يتجلّى له الله بجلاله وقدره ليرسل عليه صاعقة تقتله فوراً لتجرّته على اعتبار نفسه جديراً بما فيه الكفاية للاطلاع على كلماته الخاصة.

شاهد في داخل الصندوق الصغير كيساً قماشياً صغيراً مغلقاً بخيط مشدود في أعلاه. وقد وُضع الكيس القماشي فوق طبقة رقيقة من القطع النقدية التي تحمل رسم الملك هنري الثاني على وجهها، والد ريتشارد وجون. وخمن ليام أنه مبلغ حصل عليه لصوص لوك من جامعي الضرائب والتجار الأغبياء الذين كانوا يعبرون طريق غابة نوتنجهام في أثناء سفرهم في خلال العام ين المنصرمين.

أخرج ليام الكيس القماشي من الصندوق بحذر شديد وفك الخيط

المربوط بأعلاه لينظر في داخله.

وجد ليام في الداخل قضيباً مغزلياً خشبياً محاطاً بمخطوط ملفوف عليه وقد تأكلت حواف ورقه الذي اصفر مع الزمن. ودفعته رغبة حثيثة لسحبها من الكيس والكشف عن محتوياتها لكن العربة كانت تسير بصعوبة فوق الحفر الكثيرة، فخشي أن يتسبب ارتجاج ما بتمزيقها بين يديه.

نظر ليام إلى أطراف الرق البالية الملفوفة على المغزل الخشبي وهو يعرف بأن كلمة "باندورا" مكتوبة هناك في مكان ما في داخلها. إنها رسالة... رسالة تحذير أراد شخص ما منهم... ومنهم هم بالذات، أن يعرفوا بشأنها، إذا ما كانت مادي على حق.

شعر بالقشعريرة تسري في ظهره من جديد، وكان مجرد حمل هذه المخطوطة بين يديه، والنظر إليها من الخارج يوقظ شيئاً هاجعاً في أعماق روحه... يوقظه من سباته ويحثه على الخروج إلى النور.

شدّ ليام الخيط من جديد وأحكم إغلاق الكيس ووضعه برفق فوق النقود ثم أغلق الغطاء ونهض واقترب من المقدمة وربّت على كتف بوب فالتفت إليه. وجد ليام نفسه في مواجهة الأطراف الدامية الوردية لما بقي من أعلى أذن بوب اليمنى، وشاهد خطأ مستقيماً من الدم الجاف على طول عنقه يمتد إلى ما تحت العباءة. فسأله:

"بوب... هل هذه هي حقاً؟ هل حصلنا على...؟"

ثم نظر مجدداً إلى الصندوق... نحن نضع يدنا الآن على ما يمكن أن يكون أهم مخطوطة في التاريخ بأسره.

تأرجحت أفكاره بين التفوّه بما يدور في خلدّه بصوت عالٍ أو السكوت خشية فقدان هذا الحظ الذي يحالفهم، وخشية أن تصيبهم صاعقة من السماء. ثم قال بوب فجأة:

"تحذير!"

رفع ليام عينيه عن الصندوق فوجد أن الطريق الطيني المغربي قد انتهى بهم إلى أعلى تلة تشرف على مدينة نوتنجهام المحاطة بالأسوار التي كانت

تلمع في الأسفل، وهي عامرة بالحركة في ذروة نشاط منتصف النهار الدافئ، كما لو كانت لعبة أطفال. وهو منظر كان سيصيب ليام بالسرور في أي وقت آخر لو لم يشاهد جحافل العسكر المنظمين في أرتال طويلة تمتد على كامل الحقول المنظمة المحيطة بأسوار المدينة. لقد كانوا بالآلاف.

شاهد ليام دروعهم اللامعة وراياتهم الخافقة الملونة فوق صفوف الجنود الكثيرة كأنها غابة من الأعلام، وكانوا يتقدمون من الجنوب وينتشرون فوق الحقول المحيطة بالمدينة. ورأى أعداداً كبيرة منهم وهم يُخرجون معداتهم من عربات الأمتعة الحربية، ولمح الخيام التي نصبوها فوق المزروعات من دون رحمة، ومجموعات من التجارين يعملون على جذوع أشجار طويلة وينهاون عليها بفؤوسهم ومطارقهم من دون توقف. فقال بوب:

”يدو لي أن الملك ريتشارد قد وصل“.

شاهد ليام في أسفل الطريق الذي ينحدر من أعلى التلة الناس يخرجون كنهز متدفق من مدخل المدينة الرئيس، بينما يقوم الجنود بالسماح للذين لا يريدون البقاء في المدينة تحت الحصار بالمرور. وكانوا في غالبيتهم من التجار والباعة الجوالين الذين كانوا يتركون المدينة مع عرباتهم الفارغة، هم أشخاص لا ينتمون إلى المكان ولا يريدون أن يموتوا لقضية لا شأن لهم بها. فقال ليام: ”إنهم يسمحون للناس بالخروج، لكنهم لا يسمحون لأحد بالدخول“.

”هذا صحيح“.

راقب ليام الفوضى التي تدور حول بوابة المدينة المفتوحة وفكر بأنهم إذا تمكنوا من النزول إلى هناك فلربما وجدوا طريقة للتسلل إلى الداخل وسط كل ذلك الارتباك. فقال:

”بوب... ما رأيك بأن نرى كم يمكننا الاقتراب قبل أن يلاحظنا أحد منهم؟“

”موافق“

”من الأفضل أن ترفع تلك القلنسوة فوق رأسك لأن أذنك المقطوعة ستلفت الأنظار“.

نفذ بوب كلام ليام ورفع طرف العباءة فوق رأسه المصاب ثم شدّ عنان الخيول وأمرها بالتقدم، فتحرّكت العربية مترنحة على جانبيها إلى الأمام وعادت دواليها للصيرير وهي تنحدر بهم إلى المدينة الهاجعة في أسفل التلة.

بعد دقيقتين مروا بجانب تاجر خرج من المدينة كغيره، ثم مروا بجانب آخرين، وقد صرخ الجميع في وجهيهما بأنهما يسلكان الاتجاه الخاطئ وعليهما الاستدارة أو الابتعاد عن الطريق، لكنهما تجاهلا كل تلك النداءات إلى أن شاهدا نقطة تفتيش على بعد ثلاثين ياردة منهما، ويقف فيها مجموعة من الجنود الذين يرتدون أوشحة خضراء فوق صدريات جلدية بلا أكمام، ولوّحوا لهم ليتوقفوا. فشتمهم ليام وقال هامساً من الخلف:

”ماذا سنفعل الآن؟“ فأجابه بوب بامتعاض أيضاً:
”أنا أفكر بالأمر“.

”لا وقت لدينا للتفكير... اللعنة“. وصرّ ليام على أسنانه، لأنهما كانا على بعد مئة ياردة فقط من البوابة الرئيسة، ولا يفصلهما عنها سوى هذه الجموع المحتشدة من الناس الهائجة. ليتهما يتمكنان من التسلل بين هؤلاء الناس والاختفاء إلى أن يصلا إلى البوابة. لكن الجنود الواقفين على نقطة التفتيش اقتربوا من منتصف الطريق واعترضوهما.

ماذا لو قرروا تفتيش العربية؟ ماذا لو أعجب أحد الجنود بالصندوق الخشبي وأخذه منه؟

”بوب... أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نتابع السير“.

”وضّح كلامك“.

”لا تتوقف. تابع السير بأقصى سرعة ممكنة“.

فأوما بوب برأسه وقال: "موافق".

ثم رفع أعنة الخيول وألهب ظهورها بها وركلها على مؤخرتها بقدمه فتدمرت الخيول لكنها انطلقت بسرعة كبيرة.

صاح الجنود الذين يعترضون الطريق لهما بالتوقف لكنهم ابتعدوا من وسط الدرب في آخر لحظة قبل أن تدوسهم حوافر الخيل. وسمعا في أثناء مرورهما أصوات الجنود الغاضبين وهم يصدرون الأوامر لمجموعة أخرى من الجنود أمامهم ليستعدوا لإيقاف العربّة بدلاً من مراقبة التجار الخارجين من المدينة. ولاحظ ليام بأن هؤلاء الجنود أفضل تسليحاً من سابقهم وانتبه إلى الرماح التي يحملونها. وعرف أن رمحاً واحداً من هذه المجموعة المثبتة أرضاً بإمكانه أن يصيب صدر أحد خيولهم ويرديه أرضاً، وهذا أكثر من كاف لإيقاف العربّة.

إنهم بحاجة إلى ما يشتت انتباه الجنود، إلى خدعة ما، إلى فوضى تصيب المكان لكي يتمكنوا من المرور... إنهم يحتاجون إلى... تناول ليام الصندوق وفتح الغطاء ودسّ الكيس القماشي بحذر تحت عبائه فلم يبق في الصندوق سوى تلك القطع النقدية الذهبية، فتناول منها ملء راحتي يديه وصاح من فوق كتفه:

"بوب... اصرخ في الناس... وقل: نقود للجميع... نادي للناس قائلاً: هبات نقدية أو أي شيء من هذا القبيل... اصرخ بأعلى صوتك". التفت بوب إلى الخلف فرأى ليام وهو يحمل النقود بكلتا يديه وظن بأنه فهم ما يريد ليام أن يفعله فهذر بصوته الجمهوري الذي غطى على صوت حوافر الأحصنة المسرعة وصرير دواليب العربّة: "نقووود.. هبات نقدية للجميع".

في هذه اللحظة رمى ليام ملء كفه من النقود اللامعة إلى جانب العربّة الأيسر على العشب الطويل المحاذي للطريق، فكانت النتيجة شبه فورية، وكأنه رمى بكمية من فتات الخبز في ساحة مليئة بالطيور، لأن كل النساء اللواتي كن يمشين بجانب عربات أزواجهن وعابري الطريق والخدم

المرافقين للتجار والكبار والصغار والشبان اندفعوا جميعاً للبحث عن النقود بين الأعشاب.

وجّه بوب الحصان للمرور بين عربتين متجاورتين تحاذيان الجانب الأيمن من الناس الخارجين من البوابة بينما رمى ليام حفنة أخرى من النقود للناس من حولهما، فصاح بوب من جديد "نقود للجميع".

امتدت الأيادي لالتقاط النقود التي كانت تطير في الجو في نفس اللحظة التي مروا بها بجانب الجنود المزودين بالرماح الواقفين على الجانب الأيسر من الناس، بينما مرّاهما من الجانب الأيمن، يفصلهما عنهم بحر متلاطم من الأيادي الممتدة في الهواء التي تحاول خطف أكبر عدد ممكن من مطر النقود المنهمر فوق الرؤوس.

حاول الجنود الاقتراب وشقّ طريقهم بين الناس بغضب شديد وتجاوزوا الناس المنحنيين للبحث عن النقود على الأرض وكادوا أن يصلوا إليهما لكن ليام رمى في هذه اللحظة بحفنة أخرى عليهم تماماً فانهمرت القطع النقدية على خوداتهم وتطايرت مرتدة عنها كالشظايا المعدنية، وقامت الخدعة بعملها على أكمل وجه، لأنهم توقفوا في مكانهم ثم انحنوا أيضاً كالأخرين للبحث عن النقود على الأرض.

اقتربا من المدخل المقوس واجتازاه بالفعل بينما راح بوب ير كل بقوة مؤخرة الحصان المسكين ليزيد سرعته إلى أن وصلت السرعة بالفعل إلى درجة متهورة. فاحتكت حوافر الحصان بالطين الجاف الذي يغطي الأرض وحفرته إلى أن بدت الحصى والحجارة المفروشة تحته فتفرقت جموع التجار المتجهين إلى الخارج أمامهما بسرعة وابتعدوا عن طريقهما إلى الجانبين لتفادي الدهس تحت أقدام الحصان وهم يعبرون من تحت البوابة المقنطرة، وما هي إلا ثوان حتى وصلا إلى ساحة السوق الذي يقع بعد الجدار.

هدر صوت بوب في السوق من جديد: "نقود للجميع"، فارتدت الأمواج الصوتية كالصدى عن جدار القلعة الحجرية كما لو كانت صفارة

الضباب التي تطلقها السفن. فنثر ليام حفنة أخرى فوق رؤوس الناس ليتأكد من أن أحداً من جنود الملك ريتشارد لن يتمكن من عبور المدخل المزدهم خلفهم بسبب احتشاد الناس بعضهم فوق بعض بحثاً عن النقود المرمية على الأرض. فصاح ليام:

”لقد دخلنا... نجحنا“!

شد بوب عنان الحصان إلى الخلف وخفف من سرعته إلى أن توقف صفير العجلات.

تجمع الناس القريبون منهم حولهم، والجنود الذين يرتدون السترات الخمرية والبرتقالية الخاصة بحامية المدينة هذه المرة، واقتربوا من مؤخرة العربة ونظروا إلى القطع النقدية الباقية المرمية على أرضها. فابتسم ليام للفكرة التي خطرت له وقال في نفسه: لم لا؟

جمع ليام بيديه آخر القطع النقدية عن أرض العربة ورماها فوق رؤوس الناس المتجمعين وهو يصيح:

”مال للفقراء“.

الفصل السابع والستون

نوتنجهام، قلعة نوتنجهام، ١١٩٤

كانت بيكس هي أول شخص شاهده ليام عندما دخل مع بوب إلى بهو القلعة الرئيس عبر الستائر المخملية. كانت تقف بجانب القوس الذي يؤدي إلى شرفة خشبية، وهي تقف بطريقة رزينة سخيفة لا تمت لشخصيتها بصلة، كالسيدات النبيلات... وترتدي ثوباً مطرزاً من الكتان مزداناً بشرائط من الدانتيل تطير مع النسومات بطريقة فاتنة. فقالت له بالفرنسية:

”تحية طيبة يا ليام، أرجو أن تكون بصحة جيدة“.

عضّ ليام على شفته ليقاوم رغبته الملحة في الضحك، وأجابها بإيماءة مهذبة برأسه وقال: ”تحياتي أيتها الليدي ريبيكا“.

عادت للحديث بالإنكليزية: ”تحياتي لك أيضاً“.

دخل جون في هذه اللحظة من الشرفة فشاهدهما وابتسم لهما بسعادة حقيقية لأنه رأى ليام وقال: ”آه، ها قد أتى العمدة، رجل الساعة“. واقترب من ليام ليسلم عليه وأردف قائلاً: ”أنا مدين لك. أنا أعترف حقاً بفضلك الكبير عليّ، لقد وصلتُ قبل قليل إلى هنا واستقبلني الناس مرحّبين بالهتافات... هل تصدّق هذا، أنا لا أصدق، بالهتافات... هتف الشعب باسمي!!“

فانحنى ليام أمامه وقال: ”إنهم رعاياك المخلصين يا مولاي“.

”بالطبع، ولكن... أنا أظن أن الاجراءات العامة التي اتخذتها هنا من خلال منصبك كعمدة للمدينة هي التي كسبت ود الناس ودفعتهم لمحبتني، أليس كذلك؟“ ورسم جون على وجهه تعبيراً متجهماً ساخراً فانعقد حاجبيه وقال: ”لقد لاحظت الطريقة اللامعة التي دخلت بها السوق منذ دقائق، أهنئك على نجاحك بتخطي جنود ريتشارد وخطوط دفاعاته. ولكنني أجد نفسي مضطراً للسؤال... هل أصبح من المعتاد الآن أن يرمي الإنسان بحفنات النقود الذهبية الخاصة بالخزينة الملكية فوق رؤوس الناس ليتمكن من الدخول إلى أي مكان؟“

”آه... نعم... كان ذلك... حسناً... أنا، نحن، ممم“.

تلاشت معالم العبوس عن وجه جون وغير الموضوع قائلاً: ”لا يهمني الأمر بتاتاً. ها قد عاد إلى أرض الوطن مما يعني بأنك كنت ترمي أمواله هو، أموال ريتشارد على الناس، لا أموالي“. ثم اقترب من ليام أكثر، فأدرك ليام وجود شيء أكثر أهمية من النقود بكثير يلح على بال جون الذي همس قائلاً: ”الآن... أجو أن تخبرني... أرجوك، أنا أريد أن أعرف...“

أوما ليام بسرعة ليوفر على الرجل كل تلك المعاناة وقال: ”الإجابة هي نعم يا مولاي... لقد حصلت عليها... الكأس معنا“.

غمر الارتياح جون، وهدأت أنفاسه المتلاحقة وقال: ”آه، الحمد لله، الحمد لله“. وتهالك بقوة على كرسي خشبي خائر القوى وقال: ”لا يمكنني أن أخبرك... عن حجم الهم... عن كمية الغم والمعاناة والقلق التي كنت أشعر بها“.

اقتربت بيكس ووقفت بجواره فلاحظ ليام مشيتها الرزينة وحركاتها الرصينة واللفظ الذي داعبت به جبينه. لم تعد بيكس تمشي بطريقة صبيانية خشنة، لم تعد رجلاً في زي امرأة، لقد تحولت إلى امرأة حقيقية كلها كياسة وأناقة.

هذا غريب جداً بالفعل.

ابتسم ليام وشعر بالفخر لما أحس به بأنها تعلمت ذلك في خلال الأشهر

القليلة الماضية، ولقدرتها على التأقلم الكبير مع المستجدات التي طرأت على حياتها. إنها ييكس التي كانت قادرة بالكاد على أن تقنع الآخرين بأنها طالبة أميركية في المرحلة الثانوية، وها هي الآن... سيدة نبيلة حقيقية من العصور الوسطى.

ثم تكلمت بصوت ناعم: "هذئ من روعك يا مولاي... ألم أقل لك بأن صديقي ليام سيستعيدها من أجلك؟"
أوما لها جون وابتسم قائلاً: "بالفعل يا عزيزتي، لقد أخبرني بذلك... لم يكن يجدر بي أبداً أن أشكك بكلامك."
"لقد ساعدني بوب بالطبع، إذ قام بغالبية الأعمال الصعبة اللازمة لاستعادتها".

انضمّ بوب إليهم من خلف الستائر وأوما برأسه بتهذيب لجون وبيكس. فقال جون وقد توسّعت عيناه فجأة من المنظر وكأنهما يبضتان مخللتان: "يا إله السموات... هذا الرجل يحتاج إلى عناية طيبة فورية".
نظر بوب إلى ذراعه اليسرى الممزقة التي يتدلى منها الجلد المقطوع ويبرز منها العظم المجذوع الأبيض وقال: "لقد توقف الجرح عن النزيف. إنه لا يهدّد حياتي".

"لقد فقدت ذراعك يا رجل... يجب أن يهتم الطبيب بك في الحال..."
قال جون مصدوماً من المنظر، ثم نهض عن الكرسي واصطحب بوب إلى الداخل من جديد ونادى إلى أحد الحراس الواقفين في الخارج ليأخذ بوب إلى مركز العناية الطبية وقال للحارس: "أسرع أيها الأحمق، الرجل يحتاج إلى تضميد جرحه بسرعة".

ثم عاد مرتجفاً بوجه شاحب وقال: "آه، أنا... لا أحتمل قسوة تلك المناظر". ونفخ خديه وشعر بالغثيان ثم أردف قائلاً: "يا للهول... كل ما جرى... اللحم والعظم وال... ثم تناول كأس نبيذ وشربها ومسح فمه بكمّه وعاد للقول: "والآن... لنعد إلى المهم... لا ينبغي لي إضاعة أي ثانية أخرى، لا بدّ لنا من تسليم المدينة فوراً".

”ماذا؟“

هز جون رأسه بقوة وقال: ”نعم بالتأكيد، لقد حصلت على ما يريد مني. أين هي بالمناسبة؟“
فأشار ليام برأسه إلى الصندوق الخشبي الذي يحمله بيده وقال: ”ها هنا“.

نظر جون إلى الصندوق ورمش بعينه وسأله: ”وهل هي بخير؟ هل وجدتها سليمة؟ قطعة واحدة؟“
لم يشعر جون بأي رغبة بفتح الصندوق لقراءة ما تقوله اللفافة. لأن هوس معرفة الكلمات المقدسة وأساطير فرسان المعبد كان شأن أخيه، لا شأنه هو.

”إنها على خير ما يرام.“
”جيد. هذا يعني أننا غير مضطرين لخوض أي معركة، لا حاجة بنا إلى هدر نقطة دم واحدة. سأرتب لقاءً معه لتسليم كل شيء في الحال.“
اقتربت بيكس منه وكلمته برقة شديدة وربت بنعومة على جبينه:
”إنها فكرة سيئة. الكأس هي ما يجب أن تفاوض عليه، عليك التمسك بها.“ ثم همست بالفرنسية: ”أنت تملك الشجاعة والقوة يا عزيزي.“
انبهر ليام مجدداً بذكائها الاصطناعي الذي سمح لها بكل تلك التغييرات. كم بدت له مقنعة بصوتها وشكلها الجديدين!
تمتم جون لها وهو يغمض عينيه: ”لقد تعبت يا عزيزتي... تعبت من الخوف منه، من الخوف من لحظة وصوله... أريد لكل هذا أن ينتهي لأرتاح.“

”وسيتتهي قريباً بالفعل... قريباً. ولكن، عليك أن تتحلّى بالقوة، عليك أن تكون قويا من أجلي.“

فتح عينيه وقال: ”من أجلك؟“
أومأت له وقالت: ”عليك أن تكون قوياً وتدع أخاك في حالة الانتظار.“
ثم أشارت برأسها إلى الممر والشرفة، وتناهدت إلى مسامعهم دقات مطارق

النجارين التي تردّ جدران قلعة نوتنجهام أصواتها وعادت للقول: "دعه إلى أن ينتهي من بناء أسلحة الحصار، دعه يضيع الوقت وعندها يمكنك دعوته للمفاوضات".

أغمض جون عينيه وفرك جبينه، فتابعت بيكس كلامها: "عليك أن تأخذ قسطاً من الراحة يا مولاي. أماننا كثير من الوقت كما أنك لم تنم إلا قليلاً".

فأوما جون برأسه وأجاب: "أنا متعب جداً".

غمزت بيكس ليام بعينها وقالت لجون: "اذهب لترتاح الآن يا عزيزي وتناول مزيداً من النبيذ، وسأذهب لإعداد العشاء لك وللعمدة". ثم نهضت وأشارت إلى ليام سرّاً ليلحق بها إلى الردهة.

الفصل الثامن والستون

نوتنجهام، قلعة نوتنجهام، ١١٩٤

همس لها ليام: "يا إلهي... بيكس... لقد أقنعتيني تماماً هناك... هل وقع جون... هل وقع في حبك؟"

أجابته بيكس بلامبالاة: "لقد شعر تجاهي بشغف وهيام شديدين. حاولت أن أفهم سبب مشاعره تلك وأحللها فلم أحصل على أي نتيجة من بياناتي. لقد قال إنَّ طباعي القاسية التي لا تشبه النساء النبيلات قد خلبت بـه. إنه عام ل مفيد يمكن استخدامه حين الحاجة".

صمتت بيكس بسبب مرور أحد الخدم بجانبهم من خلال البهو الصغير المظلم الذي يقفان فيه. ثم أشارت إلى ليام ليتبعها إلى أن وصلا إلى باب خشبي صغير على الجهة اليسرى ودخلا منه فوجدا نفسيهما في خزانة صغيرة للموّن، لكنها كانت خالية تقريباً، ولم يكن فيها سوى بضع جرار فخارية على عدة رفوف تحتوي على بعض المحفوظات.

أمسك ليام بذراعها وقال: "أنا مسرور لرؤيتك من جديد يا بيكس، لقد ساورنا القلق عليك... أنا وبوب، بالفعل".

"لم أتعرض لأي خطر". أجابته بهدوء وبابتسامة خفيفة، لكن الابتسامة تلاشت في خلال ثوان لأنها تذكرت أموراً أكثر أهمية لا بدّ من

الحديث عنها، فقالت: "لا يملك جون النية ولا الشجاعة للوقوف في وجه ريتشارد، لكن بياناتي التاريخية تقول إنّ هذا الحصار قد وقع بالفعل، وإنّ جون صمد في وجه أخيه، وأن نوتنجهام استعصت على ريتشارد لمدة أسبوع".

"لا بدّ لذلك من أن يحدث إذاً أليس كذلك؟ علينا التأكّد من عودة التاريخ إلى مجراه الطبيعي".
أومات له موافقة. فسألها:

"ماذا عن الكأس؟ لا ينبغي لريتشارد أن يضع يده عليها أليس كذلك؟"
"لا أملك أي معلومات حول هذا الموضوع في بياناتي... هذا قد يعني..."

"هذا قد يعني أنّ الكأس اختفت، وانتهى الأمر بها للضياع تماماً".
"تماماً". وهزّت رأسها متفكرة، ثم اقترحت عليه: "يمكننا تدميرها".
رفض ليام مستنكراً بحركة من رأسه وقال: "لا... لا. أعتقد أنها تحتوي على أكثر مما كنا نعتقد. إنها لا تحتوي فقط على كلمة باندورا تلك. إنها تحتوي على نبوءة مهمّة تخص المستقبل".
"نبوءة؟"

أخبرها ليام كل ما أمكن له أن يتذكر من المعلومات التي أخبره بها لوك، وأخبرها عن الروبوت الذي أتى برفقته إلى هذا الزمن وعن فرسان المعبد المستقبليين الذين أرسلوه، وتكلم كثيراً إلى أن شعر أنه يتكلم معها منذ دهر طويل، ثم وصف لها أخيراً مطاردة بوب للوك في الغابات واستعادة الصندوق منه. وهكذا عرفت منه كل ما يجب لها معرفته. فقالت بهدوء وهي ترمق الصندوق الخشبي الذي يحمله ليام بنظرات عميقة:

"إذاً ربما كانت هذه الكأس تحتوي على معلومات استراتيجية مهمّة يمكننا من تحليل شيفرة ذلك المخطوط".

"بالضبط... والطريقة الوحيدة لفعل ذلك هو وضع يدنا على قسمها الثاني الموجود بحوزة الملك ريتشارد".

هزّت بيكس رأسها. فسألها: "ما الأمر؟"
"أعتقد أن هناك عام لا آخر متصل بالأمر".

عبس ليام لأن الأمور بوضعها الراهن كانت تربكه، ولا يستطيع احتمال زيادة تفاصيلها فسألها من جديد: "عن ماذا تتحدثين؟"

مدّت يدها إلى تحت ثوبها وبحثت عن شيء ما بطريقة غريبة لبعض من الوقت ثم سحبت من تحت الطبقات المتعدّدة التي ترتديها لفافة مجمّعة من الرق، ولم يجروا على سؤالها عن المكان الذي كانت تخبئها فيه. ثم قالت: "هذا هو المستند الذي عُرف باسم اعتراف تريارك، إنه تقرير عن اكتشاف مخطوطة تعود إلى زمن الـ..."، فقاطعها ليام لأنه تذكر وصف كابوت للمخطوطة قبل أشهر:

"إلى زمن كتابة الكتاب المقدس؟"
"بالضبط".

"من أين حصلت عليها؟"

"لا يهم، لقد قرأت النص وحللت المحتويات."
"وماذا وجدت؟"

"وجدتُ أنّ اعتراف تريارك هو المفتاح الصحيح لتحليل شيفرة الكأس باحتمال تصل نسبته إلى ٧٥ في المئة".

"ماذا؟" ونظر إلى لفافة الرق المجمّعة بين يديها وسألها من جديد: "هل هذا هو المفتاح؟"

"إنّ احتمال ذلك هو ٧٥ في المئة. هذا صحيح".

"ما الذي بحوزة الملك ريتشارد إذا؟"

"قطعة من الجلد المهترئ البالي".

"لماذا؟ ما الذي يدفعك للاعتقاد بأن المفتاح الحقيقي معك هنا؟"

فتحت بيكس اللفافة إلى أن بسطتها بكاملها فبلغ طولها حوالي ياردتين على أرض الغرفة الحجرية، وأشارت إلى الأشكال المرسومة داخل الهوامش على جانبي النص وقالت: "هذه الزخارف شائعة الاستخدام في

هذا العصر، وهي تعكس القصة أو الرسالة التي يريد الكاتب أن يوصلها من خلال النص. أما هذه... لاحظ هنا“. ومررت يدها على طول الهامش الآخر ثم قالت: ”هذه الزخارف رموز جبرية بسيطة ولا علاقة لأشكالها بالنص ذاته“.

”لم يرسموها هنا لغرض تجميلي، ليس كذلك؟“
”بالضبط“.

لاحظ ليام أن الرموز كانت مرسومة بشكل متقطع لكنه منتظم، باستخدام دوائر وخطوط متقاطعة مكتوبة بخط سميك ومعقد لحوالي إنشين طولاً وعرضاً. وكانت هذه الأشكال مرسومة كل عشرة إنشات على طول هامش النص. ثم قالت بيكس: ”الرموز متطابقة“. فأمعن ليام النظر أكثر وتأكد من أنها متطابقة بالفعل، الخطوط المتقاطعة والدوائر... كلها متطابقة مع بعضها وكأنها رسم زخرفي لا أكثر.

مررت بيكس يدها على اللقافة وتوقفت فجأة في مكان ما وقالت: ”إلا هذه الأربعة“. وأشارت إلى رموز مرسومة بشكل أزواج، كل اثنين مع بعضهما، فحاول ليام أن يكتشف الفرق بينها وبين الرسوم الأخرى على ضوء الشمعة الشاحب وتقلصت عيناه وهو يركز عليها ويحاول مقارنة الخطوط والدوائر من جديد. فقالت له بيكس وهي تشير إلى نقطة داخل أحد الرموز:

”انظر جيداً...“ لقد كانت نقطة دائرية باهتة لا تلفت الانتباه مطلقاً وسط الدوائر المرسومة بالحبر. ثم أشارت إلى النقاط الأخرى داخل الرسوم الثلاثة الأخرى المجاورة. فشاهد ليام إشارة صليب صغير جداً في موقع آخر داخل الرسم. ثم وجد نفس الشيء في الرسمين الباقيين. فقال: ”لا يظهر الصليب سوى في هذه الرسوم الأربعة“. ثم نظر إليها متسائلاً: ”ماذا يعني هذا؟“

قطبت حاجبيها لوهلة وكأنها شعرت بنفاد الصبر لجزء من الثانية ثم قالت: ”كل صليب يمثل زاوية“.

فعاد ليام لينظر إلى الرق فوجد أنها على حق... بالطبع، فقال: "أربع زوايا"؟

"زوايا الصندوق الأربع".

فنظر إلى الرق مجدداً. فتابعت كلامها:

"لقد حللت المعطيات ووجدت أن احتمال أن تكون هذه علامات
لكيفية إيجاد مفتاح شيفرة الكأس هو احتمال كبير جداً. يمكن لزوايا
الرق الذي معك أن تتطابق مع الصليبان الأربعة هذه". وأشارت إلى النص
المحصور داخل الإشارات الأربع وقالت: "ويمكن في هذه الحالة لبعض
من حروف النص أن تكون الأماكن المقصودة لفتح ثغرات في الرق".
"ماذا تعنين؟"

"يمكن أن نضع علامة على مكان الحرف في النص ونقطع مربعاً
صغيراً محيطاً به فنفتح ثغرة في الرق".

"فهمتُ، علينا أن نفتح ثغرات صغيرة في مكان الأحرف المعنية ثم
نبسط الرق فوق لفافة الكأس التي بحوزتي و..."

"هذا صحيح". وأومات برأسها ثم قالت: "علينا أن نتأكد من وضع
الرق تحت هذا المخطوط بالشكل الصحيح وفي المكان الصحيح،
وعندها ستمكن من قراءة الرسالة السرية من خلال النوافذ الصغيرة التي
سنتحها في رق الاعتراف".

"هذا... تحليل عبقرى... يمكن أن تكوني على حق". ثم نهض من
وضعية القرفصاء وبدا ينظر حوله باحثاً عما يمكن لهما أن يستعملاه لتنفيذ
تلك الفكرة، ثم قال: "يمكننا أن نجد الرسالة السرية الآن وهنا بالذات".
"لا. لا يمكننا فعل ذلك الآن".

مكتبة الرمحى أحمد

"لماذا؟"

"نحن لا نعرف الأحرف التي يجب أن نفتح الثغرات في مكانها".
تلاشت حماسة ليام وتهدّ خائب الآمال لأنه اعتقد أنها عرفت أماكن
فتح الثغرات.

”كُتِبَ جزءٌ من الاعتراف بلغة أخرى غير الإنكليزية القديمة في أماكن عدّة، وكما ترى معي... داخل المنطقة المحصورة بهذه العلامات“. وأشارت إلى التغيير في اللغة ليراه بنفسه. ثم قالت: ”لا أعرف هذه اللغة، إنها غير موجودة في أرشيفي. كل ما نملك فعله هو تقدير أو ترجيح بعض الأحرف في النص عن غيرها لتكون المرشحة الأكثر احتمالاً لفتح الثغرات“.

فرك ليام ذقنه وقال: ”هل يمكن لبوب أن يعرف هذه اللغة؟“
”لا. إنّ أرشيفه هو أرشيفي نفسه الذي حملناه عن اللغات القديمة قبل رحلتنا هذه“.

أمعن ليام النظر في النص، ولاحظ وجود بعض الأحرف المألوفة له من الأبجدية، لكنّ كثيراً منها كان غريباً عنه تماماً، فقال:
”إذا... هذا ليس جيداً“. ثم تراجع إلى الخلف وجلس من جديد على الأرض الحجرية الباردة.

”اقترح“

”ماذا؟“

لَفَت بيكس اعتراف تريارك بحذر شديد ثم أخفته مجدداً تحت ثنانيا ثوبها الطويل. فقال لها بعد أن فهم ما كانت تفكر به:
”انتظري قليلاً...“

”لا يمكن لك أن تأخذها إلى كيركليس يا بيكس. جنود ريتشارد يحيطون بنا من كلّ حذب وصوب. يمكن لها أن تنتهي بهذه الطريقة بين يدي ريتشارد“.

حملت بيكس الشمعة التي وضعها على الأرض قبل قليل بينهما وقالت: ”البديل الوحيد هو إحراق المستندين معاً قبل أن تقع نوتنجهام في يد الملك ريتشارد. ما هو قرارك يا ليام أو كونر؟“

الفصل التاسع والستون

نوتنجهام، ١١٩٤

اجتازت بيكس من خطوط الجنود الأمامية بلا صعوبة تذكر، لأن الحراس القلائل الواقفين على البوابة كانوا مشغولين بمناقشة ما ينوون فعله بحصتهم من الغنائم بعد سقوط نوتنجهام. وسرت بينهم شائعة تقول بأن الملك ريتشارد سيغض الطرف عن أي نهب أو سلب يقوم به الجنود عند سقوط المدينة كما لو كان الحصار يتم في مكان بعيد خارج المملكة.

وجدت بيكس خلف المخيم تجمعاً خاصاً بعربات الأمتعة والأحصنة المربوطة في زريبة مؤقتة أقيمت خصيصاً لها الآن. فاختارت أحدها وفكّت عنانه وقادته بهدوء إلى الخارج وابتعدت به خارج الطريق المزدحم باتجاه الغابة القريبة عندما لاحظ الفتى المسؤول عن الزريبة - الذي كان يقضي وقته في شرب البيرة والسهو غافياً بدل الاعتناء بالأحصنة - اختفاء الحصان بعد أن شعر بأن الحيوانات قد اهتمت ببعض الشيء.

زادت بيكس من سرعة الحصان تدريجاً وهي تسير به على الطريق الطيني المؤدي إلى أعلى التلة المطلّة على مدينة نوتنجهام، ثم توجهت نحو الشمال الشرقي عبر الغابة في محاولة منها لاتباع الاتجاهات التي وصفها لها ليام إلى حد ما، وعلى الإحداثيات الدقيقة التي تعرفها هي إلى حد أكبر.

كما أن ليام حذرهما من اللصوص لكنها لم تكن تخشى كل أخطار الغابة المألوفة تلك، ولا عصابة الأشرار الخسيسة التابعة للوك التي أخبرها عنها أيضاً، الذين تفرقوا في الأنحاء وعاد بعضهم إلى منازلهم واختفى الباقي منهم في أعماق الغابات في محاولة منهم لتفادي أي غارة قد يشنها الملك ريتشارد للانتقام منهم.

مضت ساعات عديدة من الليل وبيكس على ظهر حصانها. قطعت أميالاً من الطرق المتعرجة التي لم تشاهد أو تسمع فيها سوى حفيف الأشجار المتمايلة مع النسيم العليل وطيور الليل إلى أن لمحت الهيكل الخارجي للدير المعتم، في الوقت والمكان اللذين حسبهما عقلها الإلكتروني تماماً. استيقظ سياستيان كابوت فوراً. دفعته غريزة المحارب القديم إلى مد يده لتناول الخنجر المخبأ تحت فراشه المحشو بالقش فأمسكت يد بيكس الحازمة بمعصمه بلمح البصر.

لم يشاهد على ضوء القمر المتسلل إلى غرفته البسيطة من خلال النافذة الضيقة سوى شبح شخص منحن فوقه فقال بصوت متهدج أنقله النوم: "من.. من أنت؟"

"أنا الليدي ريبكا". همست له.

جلس كابوت في سريره بصعوبة فصدر صرير عن دعائم سريره الخشبي المتواضع وقال: "يا إلهي، ماذا تفعلين هنا؟ ماذا عن الرهبان الآخرين؟" كملت فمه بيدها ودفعت رأسه إلى الخلف بقسوة فارتطم بفراشه ببعض القوة ثم قالت له: "اصمت واسمع". أبقت بيكس يدها على فمه إلى أن أوما لها برأسه، وعندها سحبت يدها فأخذ الرجل أنفاساً عدة متلاحقة. ثم قالت له من دون أيّ مقدمات: "لقد حصلت على المستند المسمّى بالكأس".

"ماذا؟ يا إل...". فعلا صوته وارتدّ عن الجدران الحجرية.

كممت بيكس فمه بيدها من جديد بحزم كالسابق، ولاحظت الدهشة المتجلية في عينيه الجاحظتين إلى أن بدا بياضهما جلياً في الظلام فوق يدها

الرفيعة التي وصلت إلى ما فوق أنفه الوردى ذي الندبة، وفكرت للحظة بمدى قدرة عيون البشر على التعبير عما يدور بذهن الإنسان، هذه العيون قادرة وحدها على اختصار أي كلام وإبداء أي شعور مهما كان. بدا لها أن كابوت الآن على سبيل المثال يث لها من خلال عينيه شعوره العميق بالصدمة فسجلت في ذهنها ملاحظة عن القيام بهذه التعابير بعينها في الوقت الملائم. ثم أضافت قائلة من دون أن ترفع يدها عن فمه على الرغم من محاولته التملص منها:

”كما أنني حصلت على مخطوطة اعتراف تريارك، أحتاج إلى مساعدتك لترجمة جزء من اعتراف تريارك“. ثم انتظرت بضع ثوان بعد أن طلبت مساعدته ليتوقف عن إصدار صوت الأنين والشخير هذا من تحت يدها الثابتة على فمه، وعندما وثقت بأنه لن يصدر أصواتاً عالية أخرى رفعت يدها عنه وسألته:

”هل ستساعدني؟“

تنشّق كابوت الهواء مجدّداً عبر فمه لشدة حاجته إليه هذه المرة للحظات عدّة إلى أن تمكن من الكلام فهمس:

”هل حصلت على كلا المخطوطتين؟“

فأومات له موافقة برأسها.

”هل هما معك الآن؟ ها هنا؟“

”نعم. هل تساعدني؟“

”يا إله السموات... أنا... أنا...“ حاول كابوت البحث عن إجابة ملائمة لهذا السؤال فأشارت له بأن يخفض صوته إذ وضعت إصبعها هذه المرة على شفّتيه الرقيقتين. ثم قالت: ”سنناقش الأمر خارجاً في المقبرة، اليسّ ثيابك الآن وسأقابلك هناك بعد خمس دقائق“. ثم تركت يده ونهضت قائلة: ”وأحضر معك شمعة“.

شق الراهب طريقه بين الحشائش ونباتات العليق التي جرحت كاحليه العاريين تحت رداءه الخشن. وشاهد على ضوء القمر المتردّد شبح الليدي

ريبيكا، ووجدها واقفة بكل أناقة بقرب شاهدة أحد القبور. فناداها بصوت خافت:

”سيدتي؟“
”أنا هنا“.

انضم إليها وقال: ”نعم... آخر ما سمعته عن أخبارك أنك كنت في أوكسفورد“.

”لقد انتقل جون إلى نوتنجهام وحضر كذلك الملك ريتشارد إلى هناك برفقة جيشه“.

”نعم، لقد انتشرت هذه الأخبار بين الناس... ولكن... ماذا عن الكأس؟ كيف وجدتها... أين وجدتها بالضبط؟“
”استعدنا الكأس من اللص المعروف باسم المقنّع صباح اليوم“. أجابته بيكس بسرعة وكان الإجابة عن أسئلته الآن مجرد هدر لوقتتهما الثمين.
”كيف عثرت عليه؟“

”هذا غير مهم. لا يمكن فك شيفرة الكأس سوى باستخدام المفتاح الصحيح“. أجابته وهي تمد يدها لتستخرج شيئاً من تحت أردية ثوبها. فانتبهت إلى اتساع عينيه من جديد. ثم سألها:
”هل حصلت عليها أيضاً؟... لا تقولي أنك سرقتها من الملك ريتشارد؟“

تجاهلت بيكس سؤاله وسحبت اعتراف تريارك بهدوء وقالت:
”هذا المخطوط مكتوب باللاتينية والفرنسية النورماندية، لكنه يحتوي على مقطع واحد مكتوب بلغة لا أعرفها، لهذا أحتاج إلى مساعدتك لمعرفة اللغة التي كتب بها هذا المقطع“.

شرعت بيكس بفتح المخطوطة بحذر شديد وقالت: ”أشعل شمعتك الآن إذا لم تكن ترى جيداً“.

هزّ كابوت رأسه بفارغ الصبر وقال: ”لا أحتاج إليها... نور القمر كافٍ بالنسبة إليّ.. أكملني من فضلك“.

تابعت بيكس فتح المخطوط وفردته بكامله على الأرض، وعلى الرغم من ضوء القمر الشاحب والضعيف، إلا أن المخطوطة بدت وكأنها تلمع، وشاهد كابوت الخطوط المرسومة بالحبر الداكن عليها بوضوح شديد. ثم قالت بيكس مشيرة إلى مقطع يقع في الربع الأخير من المخطوط: "اللغة المجهولة موجودة هنا". ثم وضعت حجارة على زوايا المخطوطة لمنعها من الالتفاف على نفسها من جديد وتراجعت إلى الخلف كي لا تمنع نور القمر من الوصول إلى الرق.

قرفص كابوت بجانب المخطوط وأمعن النظر في الكتابة ثم قال وهو يمرر أصابعه على طول الكتابة المجهولة:

"هذه... إنها اللغة السلتيّة على ما أعتقد".

"هل تعرف هذه اللغة؟"

عبس وقال: "أنا أعرف بعض كلماتها فقط، كما أنها تحتوي على العديد من الاشتقاقات اللغوية... يمكن لي أن أترجم لك هذا المقطع إذا توافر لنا الوقت... ووضعنا يدنا على بعض من الأعمال المكتوبة بالسلتيّة لنقارن بينها".

أطرقت بيكس رأسها وقطبت حاجبيها في محاولة منها للتركيز على شيء ما لبرهة من الوقت ثم هزّت رأسها بعد دقيقة من الصمت وبدأ عليها أنها اتخذت قرارها بهذا الشأن وقالت: "خطر العبث بمسار التاريخ قليل جداً".

"ماذا تقصدين يا سيدتي؟"

تجاهلته من جديد وقالت: "تعال معي من فضلك".

"إلى أين؟"

نهضت عن الأرض وبدأت تبحث بين الأعشاب الطويلة التي تملأ المقبرة إلى أن وجدت ما كانت تريده... وجدت مسماراً طويلاً وجثمت أمام شاهدة القبر وبدأت تنحت عليها خطوطاً عميقة.

"ماذا تفعلين؟"

”أتواصل“.

تابعت عملها بصمت... ولم يكن هناك من صوت سوى صوت خدش الحجر وحفره والقطع الصغيرة التي تسقط منه أرضاً. ثم قالت:
”أنا أطلب منهم فتح بوابة فورية“.
”ماذا تقصدين؟ ماذا ستفعلن؟“ سألها كابوت من جديد.
التفتت إليه بنفاد صبر من جديد وقالت: ”ستأتي معي“.
”أذهب معك؟ إلى أين؟“
”إلى المستقبل“.

الفصل السبعون

نيويورك، ٢٠٠١

نظرت سال إليهما وقالت: "يا إلهي... إنها موجة، موجة جديدة... هل شعرتما بها؟"

فنظر كل من مادي وآدم بعضهما إلى بعض مستغربين ثم نهضت مادي بسرعة عن كرسيها المحاذي للطاولة واتجهت إلى مكتب الكمبيوتر. جلست أمام مكتبها وأعدت تحميل صورة شاهدة القبر من السواقة الخارجية، وعندما ظهرت الصورة على الشاشة انحنت سال إلى الأمام وتتبع بإصبعها الخطوط الجديدة الباهتة التي ظهرت على الشاهدة وقالت:

"إنها رسالة جديدة على شاهدتك يا آدم".

رسم آدم الأحرف التصويرية على ورقة وراقبته الفتاتان بنفاد صبر وهو يربط كل رمز بالحرف الذي يلائمه عن الورقة التي رسمها من قبل ثم سألتاه: "ماذا؟"

"انتظرا قليلاً". ثم تقلّصت عيناه عندما قرأ الرموز الجديدة التي ظهرت على الصورة. كانت الخطوط الجديدة التي شكوا بأنها ربما لم تكن جزءاً من النقش الأولي السابق باهتة بعد أن تعرضت لتقلبات الطقس لألف عام

مضت. ثم نظر إلى الورقة التي كتب عليها الكلمات التي فك شيفرتها عن الصورة وأدرك وجود خطب ما فيها. ثم قالت سال: "الكلمة الأولى هي "استرجاع"

أومات مادي برأسها وقالت: "أما كل ما بقي فهو توقيت النقطة الزمنية الدقيق. اثنا عشر رقماً، أول أربعة منها تحدد الزمن، وتحدد الثمانية الباقية التاريخ الذي يريدون منفتح البوابة به".

تناولت سال قلماً ودوّنت الأرقام بسرعة: ٠٤٤٥١٣٠٦١١٩٤. قارنت مادي الأرقام بالكلمات التي حللها آدم فقالت: "نعم... نعم... حسناً، الخامسة إلا ربع، فجر يوم الثالث عشر من حزيران عام ١١٩٤. هل هذا صحيح؟ هل سجّلت ذلك يا بوب؟"

< نعم. لقد كنت أستمع لحديثكم. وقت البوابة المطلوبة هو الرابعة وخمس وأربعون دقيقة، يوم ١٣ حزيران عام ١١٩٤.

"لكنهم لم يرسلوا معلومات حول موقع البواب". قالت مادي. "مما يعني بأنها نفس إحداثيات المرة السابقة"، قالت سال. نفرت مادي بالقلم على شفيتها وقالت: "نعم، هل سمعت هذا يا بوب؟"

< نعم. نفس إحداثيات الموقع السابق. استندت إلى ظهر كرسيها ونظرت إلى كومة المعدات المجاورة لحوض البير بلكس الفارغ خلف آدم، وتأكدت من أن بطاريته مشحونة تماماً من خلال ضوءها الأخضر اللامع فقالت: "حسناً... لدينا ما يكفي من الطاقة... افتح البوابة يا بوب".

< نعم. تشغيل فاحص الكثافة.

يوركشاير، ديركيركليس، ١١٩٤

نظر كابوت إلى الحقل المحيط بهما، فوجد أن السماء الخالية من الغيوم تتلألأ باللون الوردي على الرغم من أن الشمس لم تبرز بعد، ولن تلبث

حتى تتحول بعد قليل إلى اللون الأزرق العميق... إنه يوم حار آخر من أيام الصيف.

”لماذا... أخبريني أرجوك لماذا نقف وسط هذا الحقل؟“
رفعت بيكس إصبعها وقالت: ”انتظر لحظة“.

تأمل كابوت سنابل الشعير التي تتماوج بنعومة من حولهما وتهمس بعضها لبعض بصوت حفيفها الرقيق وكأنها تنتظر حدوث أمر ما... ولكن ما هو؟ لقد قالت الليدي ريبكا بأنه: المستقبل.

الأيام التي لم تولد بعد.

إنه قادر بالكاد على استيعاب هذه الفكرة... زيارة الأيام المقبلة التي لم تحصل بعد... اليوم هو الآن بكل بساطة... وعندما ينتهي يتحول بكل بساطة أيضاً إلى ماضي... ويتحول كل ما مرّ فيه إلى ذكريات. لكن الذهاب إلى ما لم يحدث بعد...!

هزّ كابوت رأسه لاستحالة حصول ذلك... ربما كانت هذه السيدة وأصدقائها مصابين بمسّ من الجنون... لقد التقى من قبل في أورشليم بقديسين أخبروا الناس بأمور لا تقل جنوناً واستحالة عن هذا الأمر.

”سيدتي... ما رأيك بأن نعود إلى الدير... ربما كان ذلك أفضل لنا؟“
هزّت بيكس رأسها وأجابته: ”أنا أشعر بوصول التاكيونات يا كابوت. يبدو أنّ الرسالة قد وصلت“.

تاك... يو... نات؟ إنها كلمة أخرى من كلماتهم الغريبة التي لا يمكن للمرء سوى التفكير في معناها من دون الوصول إلى شيء مفهوم. دار بنظره من جديد حول أرجاء الحقل لأنه يجهل تماماً ماهية هذه التاكيونات، ولا يعرف كيف يتصرف إذا ما اقترب منه واحد منها.

هبت نسمة علية حرّكت سنابل الشعير من حولهما بلطف فقالت بيكس:

”ستُفتح البوابة“.

بحث كابوت بعينه من اتجاه إلى آخر ولم يجد شيئاً سوى الحقل الذي

يقفان فيه وطرف الغابة القريبة وخيطاً رفيعاً من الدخان يرتفع من الدير القابع خلف التلة. وفجأة... شعر بريح قوية وباردة تعصف به.

على بعد ياردات قليلة منهم... شاهد فوق حقل البرسيم الهائج كأمواج كالبحر قبة لامعة متموجة، ورأى داخلها أشياء داكنة اللون تومض وتدور في دوامة كما لو كانت انعكاسات صورة ما على سطح ماء متحرك، فقال بصوت متهدج: "أي شياطين هي هذا؟"

"إنها بوابة زمنية... اتبعني من فضلك". قالت بيكس بكل بساطة ومشّت باتجاهها.

لكن كابوت بقي متسماً في مكانه... مرعوباً من هذا الشيء الذي لا ينتمي إلى حقلهم هذا، وشاهد العتمة التي تقع في منتصفه وأشكالاً لم يفهمها فاعتقد أنها شياطين تلوح له بحقد... وتسخر منه.

خشي كابوت... وحذر نفسه... يمكن لهذا أن يعود علينا بالسوء... ثم نظر إلى الليدي ريبكا وساورته الشكوك بأن إخوته الأتقياء الورعين الذين يسكنون الدير ربما كانوا على حق بعد كل ما رآه... بأن هناك شياطين وأبالسة في مكان مظلم ما تحت الأرض التي يعيشون عليها، حيث تنتهي الأرواح الخاطئة الملوثة لتحترق وتُعذب إلى الأبد.

التفتت بيكس إليه ولاحظت أنه لم يتحرك فصاحت به: "تعال الآن". هزّ كابوت رأسه رافضاً وقال: "إنه... من عمل الشيطان". عادت بيكس إليه بعد أن نفذ صبرها منه وأمسكت بذراعه بقسوة وقالت: "نحن نضيق الوقت بهذه الطريقة، لا يمكن للبوابة أن تفتح سوى لفترة محدودة من الزمن".

"لا... لا أرجوك". وحاول أن يتملص من قبضتها لكنها أطبقت على ذراعه بأصابعها كفكي كماشة وبدأت تسحبه إلى الأمام باتجاه الظلمات الهادرة أمامه.

"يا إلهي اغفر لي خطاياي". صاح كابوت وهو يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يثبت قدميه على الأرض الجافة الناعمة، ثم صاح: "أنا أناى بنفسي

من كل الشرور... أنا أنكر إبليس وشياطينه“.

لكنها كابوت على وجهها فأصابها على خدها فخدشه وفكر بأن إصابتها هذه ستحول إلى تورم بنفسجي اللون في خلال الساعة المقبلة حتماً. قطبت بيكس حاجبيها مستنكرة تصرفه هذا، فما كان منها إلا أن رفعت عن الأرض يديها الاثنتين فبدأ يتلوى ويرفس كالمجنون وقالت له: “أرجو أن لا تفعل ذلك مرة أخرى“.

“أنت شيطان...“ صاح في وجهها من الأعلى ورفس بطنها وجذعها بقدميه وهو يقول: “عرفتُ هذا من البداية“.

حَثَّ بيكس الخطى إلى الأمام من دون أن تتمكن من الإسراع أكثر بسبب تحركاته العنيفة ولكماته وركلاته.
“لا... أرجوك... ارحمني...“

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تليجرام

الفصل الواحد والسبعون

نوتنجهام، قلعة نوتنجهام، ١١٩٤

صاح جون مزمجرأ: "ماذا؟"

نظر ليام إلى بوب الواقف بجانبه وأشار له بعينه ليستعد لأي تصرف مفاجئ لأنه لا يملك أي فكرة عن طبيعة جون وعن كيفية تصرفه إزاء الأخبار. "قلتُ أنها اختفت يا سيدي. أخذته مني الليدي ريبكا الليلة الماضية". احتقن وجه جون إلى أن أصبح قرمزي اللون ثم شحب تماماً وتحول إلى اللون الرمادي ثم قال: "يا إله العرش... إنها خائنة... إنها جاسوسة لريتشارد... إنها..."

"لا... لا علاقة لها بريتشارد يا مولاي". قاطعه ليام.

تلاشى غضب جون في ثوان وتركه مرتعشاً خائر القوى. "إنها... إنها... لكنني اعتقدتُ أننا كنا... متحابين". همس جون. ثم نظر ببطء إلى ليام وانهمرت الدموع من عينيه بأسى، ثم عاد ليقول: "لكن... هل يعني هذا أنها كانت تخدعني... وتعتقد أنني أحمق؟" لم يتمكن ليام من إنكار هذا لأنها كانت تستغله... هذا صحيح.

"أخذتها الليدي ريبكا إلى مكان آمن". قال ليام بعد أن تلاشت الرجفة من صوته عندما تأكد من أن جون ليس بالطاغية الذي سيأمر بقطع رأسه في

الحال. لقد توقع كل هذا... توقع أن يفرقه بسيل من الشتائم والإهانات، وأن يملأ وجهه ببصاقه الملكي، لكن جون بدا له بدلاً من ذلك كطفل منبوذ، متروك، مرتعب ووحيد. ثم همس جون:

”لقد قالت لي... أن أتحدى بالقوة“. وتدحرجت دمعة على خده وضاعت بين شعيرات ذقنه الناعمة، ثم قال: ”كان يمكن لي أن أكون... من أجلها فقط... هل تعرف هذا؟ من أجلها وحدها... كان يمكن أن أقف في وجه ريتشارد“. ومسح خده بكفه.

نظر ليام إلى باب الشرفة المقوَّس خلف كتفي جون المتهذِّلين. وشاهد خيام جيش ريتشارد الملوَّنة المنصوبة بالترتيب في خطوط مستقيمة على مدَّ النظر خلف جدران نوتنجهام وهي تلمع في حرِّ الظهيرة، وأعمدة نصف دزينة من المنجنيقات الخشبية المتينة التي يتجمهر حولها النجارون للانتهاء منها. وكانوا يبدون له كالنمل بسبب المسافة التي تفضله عنهم. ثم همس جون:

”لا بد لي من الاستسلام له... لا فائدة من مقاومته. كلما طال الأمر أكثر، كلما كان غضبه أكبر. سوف ي...“
”لا“. قال ليام.

نظر جون إليه شزراً ولاحت في عينيه نظرة غضب من مقاطعته ولهجته المتمردة. فأردف قائلاً:

”اسمعي يا مولاي... إذا استسلمت له من دون أن تكون الكأس في حوزتك فلن يكون لديك ما تفاوض عليه“. لم يحتج ليام لإنهاء الفكرة التي كان يقولها لجون، لأنَّ عينيه المحمرتين من شدة الاحتقان أخبرتا بما كان ذلك يعني له بكل دقة. فتابع كلامه: ”ولكن... إذا ماطلت...“
قاطعه جون لأنها لم تكن كلمة مألوفة بالنسبة إليه: ”ماطلت“؟

”إذا انتظرتَ بعض الوقت وتركتَ ريتشارد يعتقد أنك تملك الكأس... وهذَّته ربما بتدميرها إذا حاول مهاجمتك...“

”أدِّرها؟ وبدا جون وكأنه ينظر إلى الجحيم المتأجِّج بنيرانه بعينه في

هذه اللحظة فقال: "هل يمكنك أن تتخيل معي أيها العمدة... هل يمكنك أن تتخيل ما يمكنه أن يفعل بي؟ إذا... إذا كنتُ...".

"ولكن... هل يجروُ على المخاطرة بذلك؟" ورفع ليام حاجبه ثم تابع كلامه: "حقاً؟ بعد كل ما قام به ليضع يده عليها... هل سيعطيك المبرر لإحراقها... هل سيخاطر بذلك؟"

ابتلع جون لعابه بتوتر شديد وقال: "إنه يعرف... يعرف أنني لن أجروُ". تأمل ليام الرجل الشاحب الذي يرتجف أمامه وفكر بأنه ربما يجروُ على ذلك بالفعل.

"على الرغم من كل ذلك، عليك أن تتحلى بالقوة يا مولاي. رتب أولاً للقاء يجمعك به، وأخبره بأنها موجودة هنا في القلعة، وأخبره أنه إذا لم يُبعد جيشه من هنا فإنك ستحرقها بنفسك".

فتح بوب فمه ليقول شيئاً لكن ليام كان يعرف ما يريد أن يقول، كان يعرف بأنه يريد تحذيره من تغيير مسار التاريخ، ويريد إطلاعه على المسار الذي يُفترض بالأحداث أن تسير وفقه، إذ نجح حصار ريتشارد واستسلم جون لأخيه الأكبر بحسب المعلومات التاريخية. فربت ليام على ذراعه السليمة لطمأنته بأنه يعرف ما يجب فعله، لأن جون ليس بحاجة إلى سماع هذا الآن، يجب ألا يسمع أنه سيستسلم في النهاية على الرغم من كل شيء.

"اكسب لنا بعض الوقت يا مولاي، قابله... وأقنعه بأنك ستدمرها إذا حاول مهاجمتنا".

فرك جون ذقنه المرتعشة بيده، وهي الحركة التي يقوم بها عادة كلما أصابه التوتر. وفكر ليام بأن هذا الرجل المسكين لا يستطيع إقناع أي شخص بأي أمر وهو في مثل هذه الحالة.

"أوكد لك أن الليدي ريبیکا ستعود... وستعود والكأس بحوزتها".

آمل ذلك...

"وعندها يا مولاي سيمكنك أن تعقد هدنة معه، ستمتلك بين يديك ما يمكن أن تفاوض عليه".

الفصل الثاني والسبعون

نيويورك، ٢٠٠١

أغمض سياستيان كابوت عينيه بشدة لأنه لم يمتلك الجرأة اللازمة لإلقاء أول نظرة له على العالم السفلي ونيران الشياطين المضطربة. لكنه شعر من خلال جفنيه المغمضين بأنه موجود في مكان مظلم والتقطت أذناه أصواتاً لم يسمعها من قبل، كالمهمة والصفارات الناعمة التي لا يمكن أن تصدر إلا عن ماكينات الشر التي يريدون بها تمزيق روحه الفانية إرباً إرباً.

سمع كابوت صوتاً أنشويّاً يسأل: "ومن يكون هذا؟" فشعر أنهم موجودون في كهف ما، ربما كان كهفهم هذا يشرف من أعلى تلة مرتفعة على الحفر اللانهائية المليئة ببحار هائجة من الأرواح المعذبة، التي تحترق وتُسَلَخ وتُمزَّق أشلاءً على يد الشياطين التي تقوم بمعاقبتها.

أجابت الليدي ريبكا على السؤال: "إنه كابوت".

"كابوت؟ هل تقصدين الرجل الذي أرسل الرسالة؟ هل هذا هو بذاته؟" "نعم، لقد أحضرته هنا ليساعدنا".

فتح كابوت عينيه المغلقتين بقوة بالتدرّج، وكان أول ما رآه هو صندله الذي ينتعله بقدميه على أرضية حجرية مبقّعة ومثلّمة. وعندما تجرّأ على رفع نظره إلى الأعلى شاهد الليدي ريبكا وثلاثة أشخاص آخرين يرتدون

ملا بساً غريبة يتأملونه بفضول. ولم يجد أي شياطين، ولا نيران... ولا أي أرواح معذبة.

تقدّم منه أحدهم، وكانت امرأة شابة ذات شعر أجعد ووجه شاحب مليء بالنمش. ورأى على وجهها زجاجتين بيضويتين تلمعان بسبب ضوء يأتيهم من أنبوب ساطع يومض ويتقطع فوقه. ثم قالت له وهي تمد يدها لمصافحته:

”مرحباً، يسرني لقاءك، أنا مادي“.

فتح كابوت فمه الجاف وأغلقه من دون أن يتمكن فعلياً من التفوّه بأي كلمة، ثم استطاع النطق أخيراً وقال: ”أليس... أليس هذا المكان... الجحيم؟“

رفعت الفتاة الجعداء كتفها وابتسمت له بمودة وقالت: ”أعتقد أن لكل شخص رأيه في هذا الموضوع“.

وجد كابوت نفسه بعد وقت قصير جالساً مع هؤلاء الأشخاص المثيرين للعجب حول طاولة خشبية طويلة فوق كراس مبطنّة مريحة، لكنه كان ما زال مخدّراً ومشلولاً تحت وطأة الصدمة فلم يعرف كم مضى عليه من الوقت هنا... ربما مضى عليه ساعة أو يوم وربما لم يمض من الوقت سوى بضعة دقائق. وجد نفسه يحمل كوباً مليئاً بسائل داكن دافئ مرّ الطعم. وشرحت له الفتاة الأخرى الموجودة في المكان، ذات البشرة السمراء كالأتراك، التي ترتدي ملابساً سوداء ملطخة بالبرتقالي الصارخ والرسوم الوردية، ويناديها الآخرون باسم سال، بأن اسم هذا المشروب هو القهوة وهي تضع الكوب بين يديه.

”... وهناك قسم منها محصور ضمن أربع إشارات كالزوايا، هنا ضمن رسوم الهامش... هنا وهنا وهنا وهنا“. تحدّثت الليدي ريبيكا.

انحنى الرجل الوحيد الموجود معهم - واسمه آدم - فوق الطاولة بجانب الليدي ريبيكا وفحص مخطوطة اعتراف تريارك عن كذب ثم قال:

”يا إلهي... أعتقد أنها على حق. لا بدّ من أنها علامات وضع مخطوط الكأس“.

انضمت مادي إليهما وانحنت فوق الطاولة ورفعت نظارتها فوق أنفها وقالت: ”وضّحوالي“.

فقال آدم: ”هل ترين؟ إنها مواضع زوايا صحيحة مخبّأة داخل الرسوم الواردة في الهامش“.

”نعم... يا إلهي... نعم، لقد رأيتها الآن“.

نظر آدم إليهم جميعاً وقال وهو يشير إلى الصندوق الخشبي الصغير الذي يحتوي على الكأس: ”إنه مخطوط يحتوي على تعليمات وإرشادات لفك شيفرة الكأس“.

فاكملت بيكس وهي تبسط يديها على اعتراف تريارك: ”هذا المقطع المحصور داخل العلامات مكتوب بلغة لا نعرفها، وهي شكل منقرض من اللغة الغالّية السلتيّة، وكابوت يعرفها“. وأشارت إليه.

نظر الجميع إليه فجأة فوضع الكوب الساخن على الطاولة وفتح يديه معذراً وقال: ”أنا... أنا لا أعرف سوى القليل منها، لقد التقيت في أثناء خدمتي لتنظيم فرسان المعبد بفارس آيرلندي من منطقة دون كاربان“.

استدعته مادي بحركة من إصبعها ليقترّب من المخطوط أكثر وقالت: ”حسناً، اقترّب وألق نظرة عن قرب يا سيد كابوت وأخبرنا بما تعرفه“.

نهض كابوت عن الكرسي وانضم إليهم أمام المخطوط المفتوح المبسوط على امتداد الطاولة التي تقاربه طولاً تقريباً وتساءل وهو يقترّب منهم عن الشيء الذي يسمح للضوء المتدلي من السقف الحجري المقنطر فوقهم أن يتوهج بكل تلك الاستمرارية والثبات من دون تقطع، إنها ليست ناراً بلا شك.

ثم ركّز كل انتباهه على الكتابة المزخرفة الموجودة أمامه. ومقارنة بضوء الشموع المتأرجحة التي يستعملها الرهبان بعد حلول الظلام، سمح له هذا الضوء برؤية ما يوجد فوق الطاولة وكأنها موجودة خارجاً في الحقل

في يوم صيفي مشمس. ثم مرّر إصبعه العجوز الخشن على السطور الأولى من النص متتبعاً الكلمات ودمدم قليلاً بلا صوت ثم قال:

”هذه... على ما أعتقد شكل من الكتابة الغالية السلتيّة الأيرلندية، أخبرتك من قبل... إنها لغة صعبة ولكن... أعتقد أنّ السطر الأول جزء من صلاة الصمت: اخدم بإخلاص، وقد تعني الكلمة أيضاً: ساعد الآخرين، ثم زمجر لشدة الإحباط الذي تملكه، وعاد بعدها للقراءة: لا تبحث عن... كلمات الحق وربما كان لها معنى آخر... ثم: لا تأخذ كلمات النور... آه... المفردات التي أعرفها بالغالية قليلة جداً. لن أتمكن من قراءة هذا“.

”ما هو معنى هذا الكلام برأيك؟ ماذا يقصدون بأمر الحقيقة؟“

رفعت مادي كتفيها وقالت: ”ليست سوى مجموعة من كلمات الدجل والشعوذة الغريبة“. ثم نظرت إلى كابوت وقالت: ”هل تعتقد أنها تنطوي على معنى ضمني يفترض بنا التوصل إليه؟ كما لو كانت مشفرة أو أي شيء من هذا القبيل؟“

هزّ رأسه نافياً وقال: ”هذه السطور قريبة من الغالية السلتيّة التي أذكرها، أما الباقي فلا أعرف عنها أي شيء“.

تأمل الجميع الأحرف اللاتينية المزخرفة المصفوفة في كلمات خالية من المعنى لبعض الوقت، ثم قال آدم:

”ربما لا يفترض بها أن تعني أي شيء“. فنظر الكل إليه مستغربين فأردف: ”ربما لا تكون الكلمات هي المفتاح الذي نبحث عنه، بل الطريقة التي رسمت بها، ما رأيك يا كابوت؟“

استغرب الرجل العجوز وتأمل المخطوط بصمت لبرهة ثم قال: ”معرفتي بها قليلة، هل تفهمني؟ لقد مضى كثير من الوقت منذ أن...“ ثم توقف فجأة عن الكلام فسأله مادي:

”ماذا؟ ما الأمر؟“

هزّ رأسه وقال: ”النص مكتوب بخط سيئ، من الواضح أن هذا الرجل... تريارك... لم يكن خطاطاً أو ناسخاً“.

”ما الذي تعنيه“؟

فأشار كابوت إلى إحدى الكلمات الموجودة في الجملة التي ترجمها بصعوبة وقال: ”هذا الحرف... خطأ. إنه مكتوب بالمقلوب“.

انحنى آدم إلى الأمام أكثر ليراه فكاد أنفه أن يلامس الرق الأصفر وهمس لنفسه: ”ربما كان...“

”ربما كان ماذا يا آدم“؟

نظر إليهم وقال: ”هل لديكم كاميرا رقمية جيدة“؟

”معي هاتف آي فون“. أجابته مادي.

”ما هو ذاك“؟

بالطبع... ابتسمت مادي. في عام ٢٠٠١ لم يكن هذا الهاتف النقال المتطور في ذلك الوقت سوى حلم يدور بخاطر أحد مصممي شركة آبل المبدعين.

”إنه هاتف النقال، ويحتوي على كاميرا مدمجة فيه“. وذهبت لتحضره عن مكتب الكمبيوتر ثم عادت بعد دقيقة. فقال لها آدم:

”التقطي صورة دقيقة لكامل النص المحصور بين هذه الزوايا الأربع الافتراضية“.

صعدت مادي فوق أحد الكراسي لتحصل على لقطات علوية للمخطوط ثم التقطت صوراً عدّة وقالت بعد أن انتهت: ”وماذا نفعل الآن“؟

”إلى برنامج الفوتوشوب“. قال آدم وهو يشير إلى مكتب الكمبيوتر. وبعد دقائق عدّة انتهت مادي من تحميل الصور الأربع التي التقطتها

للمخطوط على أحد أجهزة الكمبيوتر وراحوا يتأملونها بإمعان وهي معروضة على برنامج تعديل الصور. بينما حمل كابوت بعينين مدهوشتين

إلى حد يفوق الوصف بالشاشات المنيرة أمامه. ثم قال آدم وهو ينقر على قائمة الصور:

”سأقوم بزيادة كمية الإضاءة في الصور قليلاً“. واختار بنقرة واحدة أكثر الصور وضوحاً وزاد من إضاءتها فتحول لون الرق الأصفر إلى لون

الفانيليا الفاتح وانقلب لون الحبر الأسود إلى الأزرق العميق. ثم تابع آدم: "عندما يقوم المرء بكتابة نص مشفر مبعثر، بهذه الطريقة، عليه أن يضعه فوق الرق المثقوب في تلك الأماكن المحددة، ثم يقوم بكتابة كل حرف من رسالته على أحد النوافذ الصغيرة، ثم يترك الحبر ليجف تماماً عندما ينتهي قبل أن يحرك الرق من مكانه كي لا يلطخ الحبر أو تطمس الأحرف. هذا كفيل بالتعرف إلى الخدعة المنطوية هنا. لأن هناك أحرفاً مطموسة هنا وأحرفاً أخرى واضحة تماماً".

أوما الآخرون موافقين على اقتراحه المنطقي.

"يحصل المرء بعد الانتهاء من ذلك على صفحة مليئة بالأحرف المنفصلة، فيقوم بملء الفراغات برسالة لا معنى لها أو رسالة لا دخل لها بالأمر تتضمن هذه الأحرف نفسها التي تم استعمالها للكتابة مسبقاً".

نقر آدم على أحد القوائم واختار خياراً آخر ثم قال: "وما بين هاتين العمليتين... يمكن للمرء أن يقع في فخ استعمال نوعين مختلفين من الحبر، وهذا خطأ شائع غالباً ما يتم ارتكابه".

"لكنهما مكتوبان باللون ذاته... بالأسود... وقد تحوّل الآن إلى الأزرق الداكن بعد أن رفعت مستوى الإضاءة". قالت مادي وهي تشير إلى الصورة الماثلة على الشاشة أمامهم.

"كل زجاجة حبر مختلفة عن الأخرى اختلافاً ضئيلاً بلا شك. لأن المرء كان مضطراً لصناعة حبره الخاص به في ذلك الزمن".

أوما كابوت وقال: "هذا صحيح".

"إنه حبر مصنوع في المنزل، لم يكن هناك من معام ل في ذلك الوقت. وفي كل مرة تصنعه يكون مختلفاً عن أي مرة أخرى بفارق ضئيل. جميعها تبدو لعيوننا سوداء، هذا صحيح... لكن برنامج الفوتوشوب هذا... قادر على كشف أي اختلاف لوني مهما كان دقيقاً لأنه يستعمل تقنية الـ RGB"؟

"نعم.. أحمر، أخضر، أزرق، الألوان الرئيسة... وبإمكاننا باستخدام

هذا البرنامج أن نفصلها عن بعضها، ونزيد من شدتها بما يكفي لنرى...“
ثم قام آدم بتكبير الصورة لتظهر الكتابة بشكل أفضل ثم اختار قائمة أخرى
فظهر على الشاشة معالج أفقي للألوان فاستعمل آدم الماوس لزيادة الحدة
بطء، فبدأت الصورة تتغير وتحول لونها من لون الفانيليا إلى الأحمر إلى
الوردي، وتغير لون الحبر من الأزرق الداكن إلى الأخضر الداكن إلى
الأصفر الداكن، فهمست مادي:
”يا إلهي...“

لاحظ الجميع أنّ الحرف المقلوب الذي أشار إليه كابوت أكثر لمعاناً
وصفرة من بقية الأحرف. فقالت مادي بسرعة:
”صغّر الصورة من جديد“.

فصغّر آدم الصورة لتعود كما كانت وتظهر بكاملها على الشاشة،
فظهرت لهم مئات من الأحرف المختلفة عن بقية النص بلونها، بارزة
مميزة عن بقية الأحرف كما لو كانت ملابس مهرّجين وسط مأدبة عشاء
رسمية.

مكتبة الرمحي أحمد ٩٩

الفصل الثالث والسبعون

نوتنجهام، ١١٩٤

حاول جون بكل استطاعته أن يتمالك نفسه ويهدئ من روعه، وعرف أنّ الارتعاش الذي أصابه بسبب التوتر ظاهر للجميع من حوله، بسبب ارتجاف رأسه الواضح بين الحين والآخر وطريقته العصبية في فرك ذقنه... لا يمكن له إخفاء ذلك. لكن بقية جسده المرتعش كان مخبأً تحت أرديته وملابسه الفضفاضة. إنه متأكد من أنّ ريتشارد يعرف بأنه خائف منه، لكن البارونات واللوردات وبقية النبلاء لن يروه سوى من مسافة بعيدة، ولن يعرفوا بما أصابه من خوف.

رافقه عمدة مدينته، الشاب الغريب المسمى ليام أوكونر، وحارسه بوب الذي يفوق سيده غرابة، وتقدّما معه على طول الطريق المغبر الممتد من بوابة المدينة إلى الخيمة الخمرية اللون المنصوبة وحدها هكذا في العراء. إنه ينتظرني هناك...

اصطف جيش ريتشارد خلف الخيمة في وضعية القتال، ترافقهم ستة منجنقات مثبتة خلف تحصينات ترابية، جاهزة لقصف جدران المدينة. كانوا كبحر بلا نهاية من الخوذات اللامعة والدروع المعدنية والرماح والشعارات المرفوعة، وراقبهم الجميع بصمت تام مروّع إلى أن وصلوا.

همس العمدة له: "تمالك أعصابك يا سيدي... تذكر... أنت تملك... الشيء الذي دفع أخوك للقيام بكل هذا، اتفقنا؟"
أوما جون برأسه بسرعة... إنه رجل طيب... هذا العمدة. فابتسم لليام قليلاً عندما توقفوا أمام مدخل الخيمة المزيّن ووجدوا حارسين على مدخله. قال لهم أحدهما بوقاحة من دون أي اعتبار أو احترام لشخصية جون: "سيدخل وحده".

أشار جون إلى العمدة والحارس الضخم ذي الذراع الواحدة الذي يرافقه بأن ينتظراه هنا ومشى إلى باب الخيمة وحيداً.
فتح ستارة مخملية ثقيلة ودخل الخيمة الباردة المعتمة. ورأى في داخلها طاولة خشبية صغيرة عليها إبريق وكأسين، وأمامها كرسيان كبيران قديمان مصنوعان من خشب السنديان والجلد اصطحبهما ريتشارد معه في كل حملاته، وكان جالساً باسترخاء على أحدهما.

"ماذا أرى... أخي الأصغر... لقد تجرأت على الخروج بنفسك لمقابلتي بدلاً من إرسال أحد أتباعك المترلّفين".

أوما جون برأسه وتمتم: "ن.. نعم". كم يكره هذا الارتجاف المخنوق في صوته الذي يجعله يبدو كامرأة مقارنة بصوت ريتشارد الرجولي العميق والهادر على الرغم من لهجته التهكمية تلك. وما لبث ريتشارد أن ضحك بشدة وقال:

"من الأفضل لك أن تجلس قبل أن تسقط".

أطاعه جون وجلس فوراً على الكرسي الآخر، فاعتدل ريتشارد في جلسته، فصرّ الخشب تحت ثقل الرجل ودرعه الحديدي ثم قال:

"أنا جاهز للقتال يا أخي الأصغر. هل أنت جاهز؟"

"أنا... نعم. أنا..."

ضحك ريتشارد من جديد وقال: "ماذا! أيها الفأر الصغير... أنت لم تتمكن من الابتعاد عن صدر مربيتك... لكنني لم أحضر إلى هنا لمعاقبتك".
وتناول الإبريق وصبّ بعضاً من النبيذ المخفف بالماء في كأسه ثم شربه

دفعه واحده وسكب بعضاً منه على لحيته السميكة الشقراء. ثم تابع كلامه: "والآن... سمعتُ عندما وطأت قدماي هذه الشواطئ البائسة إشاعات تقول بأنك فقدت شيئاً مهماً وغالياً جداً بالنسبة إليّ. أنت تفهمني بالطبع... أليس كذلك؟"

أوما جون برأسه من دون أن يعرف ما إذا كانت تلك حركة تدل على موافقته علي ذلك الكلام أو تدل على الارتجاف اللاإرادي الذي أصابه. "أنا متأكد من أنك أحقق يا أخي العزيز. لكنني لم أكن أتصور أن تصل درجة غباءك إلى ذلك الحد، إلى أن تفقدها. ولهذا... فأنا أظن أن كل ما سمعته غير صحيح". وابتسم ريتشارد له للمرة الأولى، لكنها كانت ابتسامة باردة لا تعني أي شيء على الإطلاق وأردف: "ويبدو لي أنك قد تمالكت نفسك وكبرت على الرغم من كل شيء. ولا بدّ من أنها محاولة منك للتفاوض معي".

إنه يعرف أن هذه الابتسامة المترددة التي يراها على وجه أخيه قد تنقلب بلمح البصر إلى تكشيرة مخيفة، وأنه قد ينحر رقبتة بحد سيفه بحركة واحدة سريعة، بإمكان ريتشارد أن يفعل ذلك من دون أن يفكر بالعواقب، لأنه لا يحتاج إلى ذلك أبداً. احذره بشدة...

"إنها... إنها بحوزتي يا أخي". "ممتاز... بالطبع هي معك. والآن... أشكرك على المحافظة عليها طوال العامين الأخيرين. سلمها لي، وربما... ربما أعيد النظر في ترددك لدفع فديتي. وسأعيد النظر أيضاً في محاولاتك العديدة لتقويض سلطتي بينما كنت منهمكاً في القتال لنصر المسيحية".

ارتجفت ساقا جون تحت رداءه وشعر بأن مثانته ترتخي وانقبضت معدته وهاجت وماجت. اثبت، تحلى بالقوة..

"إنها بأمان يا ريتشارد. سوف... سوف..."

”سوف تقوم بماذا؟“

ازدرد جون لعبه ليرطب حلقه الجاف تماماً وقال: ”سوف أحتفظ بها في خلال الوقت الراهن“.

تجمّدت الابتسامة على وجه ريتشارد وتناول الإبريق وملاً كأسه بكاملها مجدداً وقال: ”محاولتك البائسة هذه لمقاومتي ومواجهتي بالتحديّ مسليّة بعض الشيء، لكنني لا أملك وقتاً لها الآن“.

”أنا أعني ما أقول“. تلثم جون بكلماته وكأنّها تخرج من فم سكران في وقت إغلاق الحانات. فتقلّصت عينا ريتشارد وقال مُقلداً جون بعدوانيّة وصوت صاخب: ”أنا... أنا... أنا جاد... أنا جاد... يا... يا أخ... يا أخي“. ثم قال بغضب: ”لن أتفاوض معك أنت... أيها المرأة المثير للشفقة“. وهزّ رأسه لرفضه للفكرة برمتها ثم تابع كلامه: ”أنت مجرد طفل... رضيع. لقد كنت هكذا طوال حياتك، وقد مثّلت دور الملك في غيابي، وها أنت تتجرّأ الآن على تمثيل هذا الدور عليّ أنا؟“

أجابه جون: ”إنها مجرد لفافة ورقية مليئة بكلمات لا معنى لها“. لكنه ندم في خلال أقل من ثانية على كلامه هذا، وتوقع أن يقفز أخوه عن كرسيه ليصفعه بظاهر يده مثلاً، وبدلاً من ذلك، جلس ريتشارد أمامه هادئاً بلا حراك ليفكر بالأمر وقال: ”إنها تعليمات من الله نفسه... إرشادات تعيني وحدي، وحدي، وحدي أنا“.

نظر جون إلى عيني ريتشارد المتألّتين بخليط من الفرح والخوف والتصميم.

ثم قال ريتشارد: ”أنت تمنع بتصرفاتك هذه تنفيذ إرشادات الرب يا أخي. وهذا موقف خطير“.

تنفّس جون بعمق وحاول تهدئة معدته آملاً أن يمنع صوته من الارتجاف هذه المرة وقال: ”أبعد النبلاء وجيوشهم من هنا، واترك نوتنجهام وشأنها، وعندها سأعطيك الكأس“.

”لا“. نظر ريتشارد إلى الأرض ثم أردف: ”إني أخيرك... سلّم الكأس“

لي حالاً، وفي هذه الحالة سأعام لك ببعض من اللين... فأنا على الرغم من كل ما فعلته معروف برأفتي، أو سأقطع رأسك إذا اضطررتني لدخول نوتنجهام لاستعيدها منك“.

”سأحرقها قبل أن تصل إليّ إذا هاجمت المدينة“.

تأمله ريتشارد بعينين مغمومتين لوقت طويل ثم قال: ”إذا... يا أخي العزيز، سأجعلك تعاني وتتألم كالساحرات اللواتي نحرقهنّ أحياء قبل أن أدفنك، وسأمسك قلبك لتراه بين يدي هاتين قبل أن أقطع رأسك“.

ساعدني يا الله.

وقف جون وقال: ”سأغادر. لقد انتهينا من هذا“.

بقي ريتشارد جالساً وقال: ”ستموت ميتة شنيعة يا أخي“.

أبعد جون الستارة المخملية التي تغطي باب الخيمة فعلق عباءته بها فشتمها ثم تعثر خارجاً فسمع صوت أخيه العالي من الداخل يقول له: ”إذا أحرقتها أيها الغبي... ستموت ميتة رهيبة“.

الفصل الرابع والسبعون

نيويورك، ٢٠٠١

قالت مادي: "لكن هذه الأحرف لا تعني أي شيء، إنها مجرد خربشات سلتية غريبة".

أجابها آدم الذي كان يبحث على شيء ما على مكتبها الفوضوي: "نحن لا نريد الأحرف نفسها... كل ما نريده هو مكانها على الرق. هل لديك ورقة كرتونية؟"

عادة ما يكون على مكتب مادي أكثر من ستّ علب بيتزا فارغة هنا وهناك لكنها كانت قد رمتها خارجاً في اليوم السابق. فقالت: "لماذا تريد الكرتون؟"

نظرت سال إلى خزانة الملفات التي تقع على يمين طاولة الكمبيوتر لأنها تذكرت أن ليام المهمل قد ترك فوقها صحن رقائق الحبوب الذي تناوله على الإفطار وعلبة الرقائق نفسها، فتناولتها قائلة: "هل تلائمك هذه؟"

فتناولها آدم وقال: "نعم... هل لديكما مقص؟"
هزّت الفتاتان رأسيهما نافيتين ثم قالت مادي: "هذا ليس مشغلاً للصناعات اليدوية".

”يجب أن أفتح في الكرتونة ثغرات محددة... هل لديك أي شيء يساعطني في هذا؟ مثل مشرط أو شيء مشابه؟“
بحث كابوت بين طيات عبائه وسحب منها سكيناً صغيراً وسأله:
”هل تنفع هذه؟“
”إنها ممتازة“.

أخذ آدم السكين وسحب كيس الرقائق من داخل العلبة ثم راح يفتحها بالسكين فعبست مادي وقالت:

”هل ستصنع شيئاً شاهده في برنامج افتح يا سمسم؟“
تجاهل آدم سخريتها وأشار إلى شاشة الكمبيوتر وقال:
”سأضع إشارات في مكان كل واحد من تلك الأحرف“. ثم أخذ الكرتونة وسكين كابوت إلى طاولة المطبخ حيث ما زالت مخطوطة اعتراف تريارك مفتوحة تحت ضوء النيون الساطع. وعندما انتهى من اقتطاع أحد جوانب العلبة مدّدها فوق الرق ووضع وجهها المطبوع إلى الأسفل، ثم حاول تثبيت زواياها على الزوايا الافتراضية المرسومة في هامش المخطوط تماماً.

”إنها أكبر من المطلوب“. تمتم آدم، ثم راح يقصّ قليلاً من أحد جوانبها وهو يشتم سكين كابوت المثلثة التي كانت تسبّب تشقق الكرتون فتتج لديه ضلع خشن غير متساوٍ وممزق بعض الشيء. فانضمّ إليه كابوت ومادي وسال، فقال:

”السكين غير ملائمة لفتح الثغرات الصغيرة، أحتاج إلى سكين تزيين صغيرة وحادة جداً، الكرتون يتميزّ منها“.

نظرت سال إلى المخطوطة وقالت: ”لماذا لا نقتطع الأحرف المطلوبة من المخطوطة نفسها؟“

نظر آدم إلى قطعة الكرتون الممزقة في يده ثم نظر إلى اللقافة المفتوحة وقال: ”نعم، لم لا“.

اتسعت عينا كابوت وقال: ”ولكن... ولكن... إنها غنيمة مهمة وثمينة

جداً من الحملة الصليبية الأولى“.

فأجابه آدم: ”لا... إنها خدعة، تمويه عن مفتاح الكأس الأصلية. هذه هي حقيقتها. وقد كتبت لهذا الغرض بالذات، إنها المفتاح الحقيقي لذلك الشيء“. قال وهو يشير إلى الصندوق الخشبي المتروك على طرف الطاولة. عادت مادي مسرعة وهي تحمل ورقة بيدها وقالت: ”لقد طبعتها“. وضعت الورقة على الطاولة وكانت الأحرف المطلوبة مميزة بالفعل عن بقية النص، فقالت:

”حسناً... في السطر الأول... ها هو الحرف المطلوب“. قالت وهي تشير إلى الحرف السلتي المقلوب الذي أشار إليه كابوت من قبل. تناول آدم السكين وحفر بها ثقباً في الرق فوصل رأس السكين إلى سطح الطاولة الخشبي. فقالت مادي:

”ماذا لو كنا مخطئين؟ ماذا لو كان الحل شيئاً آخر... أنت تفتح ثقباً في هذا المخطوط... إنها النسخة الوحيدة التي لدينا“. تردد آدم لدى سماع كلماتها ثم قال: ”آه... أنتِ على حق“. ثم زفر متذمراً من بين أسنانه.

عادت مادي لتأمل الورقة التي طبعت عليها الصورة المعدلة وقالت: ”ولكن بالنظر إلى هذه الصورة...“
أوماً برأسه وقال: ”تماماً... تمت كتابة هذه الأحرف الفاتحة بحبر مختلف. وهناك سبب واحد فقط يجعل المرء يكتبها بهذه الطريقة المختلفة ومن دون أي ترتيب بهذا الشكل“.

”نعم... هذا صحيح... لنقم بالأمر إذا...“
عندما اقتلع آدم بحذر شديد أول حرف من المخطوطة رسم كابوت برؤوس أصابعه إشارة الصليب على صدره شارد الذهن وتمتم بلا وعي صلاة استغفار باللاتينية للرب الذي يشاهدهم من علياء سمائه.

الفصل الخامس والسبعون

نوتنجهام، ١١٩٤

انحنى كلٌّ من ليام والجنود المرافقين له لدى سماعهم لصرخة التحذير الآتية من الحرس، فمَرَّت من فوق سور المدينة ستة جلاميد صخرية بحجم البراميل بسرعة شديدة مصدرة صفيراً واضحاً ثم نزلت في ساحة السوق. شعر ليام بارتجاج الأرض تحت قدميه لدى سقوطها بقوة رهيبية، وصعدت من المكان غيمة بشكل الفطر تحمل غباراً وأتربة محملة بفضلات الدجاج. سقط بعضها على أكشاك السوق والأكواخ الخشبية المحيطة بالشارع العام ودمرتها تماماً كما لو كانت مبنية من قشور البيض. "يا إلهي... رحمتك يا الله".

وقف بوب بقربه بهدوء وهو يحسب المسارات التي اتخذتها الجلاميد الصخرية ثم قال: "معلومات: إنهم يعدلون زوايا الرمي". ثم أشار إلى جدار يبعد عن بوابة المدينة الرئيسة عشرين ياردة إلى اليمين وقال: "إنهم يحاولون استهداف ذلك المكان. جدار المدينة ضعيف هناك" ز.

شاهد ليام في ذلك المكان اختلافاً في لون الحجر المستعمل للبناء، وكأنه رقعة تم بناؤها لإغلاق فتحة تم هدمها فيما سبق لاختراق المدينة. مَرَّت الرشقة الأولى من الطلقات الحجرية من فوق الجدار المطلوب

وسقطت فوق أسطح البيوت الطينية العشوائية التي تتوسط نوتنجهام فتصاعدت منها غيمة غبار ودخان إلى السماء الخالية من الغيوم. ونشب حريق هناك في مكان ما فتصاعد منه أيضاً خيط رفيع من الدخان الأسود، وما لبث أن ازداد حجمه فعرفوا أن الحريق قد امتد وانتشر في الأسفل. شعر ليام بعيون مئات المواطنين القلقين كالرماح التي تخترق جسده وهم في انتظار أوامر عمدتهم الشاب.

هذا رائع... مذهل... لم أكن قائد فرقة للدفاع عن موقع مُحاصر من قبل.

“اقتراح”

اقترب ليام من بوب وقال: “نعم أرجوك... لا أعرف كيفية التصرف، ساعدني من فضلك”.

“سينهار ذلك الجدار، ولهذا علينا توزيع جنود الحامية حيث سيحصل الاختراق”. وأشار إلى الجزء المختلف من الجدار. “هذا صحيح”.

أشار بوب إلى أعلى سور المدينة وإلى حرس البوابة حيث يتركز معظم جنود الحامية على طول الجدار الأمامي ويطلقون سهاماً عشوائية متفرقة على قوات ريتشارد التي ترتدي الدروع المعدنية اللامعة المتوهجة تحت ضوء الشمس، ثم تابع كلامه بصوته الخشن: “لا يقوم هؤلاء الجنود بأي شيء مفيد في هذه المرحلة، ولا حتى الجنود الذين يحرسون القلعة في الداخل”.

نظر ليام إليهم وتأملهم وهم يختبئون خلف الدرابزين بينما تنهمر عليهم السهام من خلف الجدار، وراقبهم وهم يمدّون رؤوسهم بين الحين والآخر للرد على تلك السهام بسهام مثيرة للسخرية. إن بوب على حق. يبدو أن ريتشارد لم يضع الوقت لبناء أبراج لاقتحام المدينة المحاصرة، بل درس جدار المدينة بعناية واختار أضعف نقطة فيه لتكون ممره إلى الداخل، وكل ما يحتاج إليه لا اختراق أضعف نقطة هو نصف دزينة من المنجنوقات.

وعرف أن القتال لن يحصل في محيط البوابة ولا للسيطرة على أعلى السور، بل ستكون المعركة الحقيقية في مكان الاختراق عندما سينتهي النجارون من ضربه بمنجنيقاتهم وتختفي غيمة الغبار.

نظر ليام إلى تلك النقطة الضعيفة من السور في نفس اللحظة التي سمع بها تحذيرات جنود حرس البوابة من رشقة أخرى من المنجنوقات. ثم مرّت عدة جلاميد جديدة ولكن ببطء هذه المرة من فوق رؤوسهم، وتسارعت ظلالها على الحصى والتراب الذي يغطي أرض السوق وهي تقترب أكثر فأكثر من الأرض ثم اصطدمت بها بشدة فاهتزت الأرض من جديد تحت قدمي ليام.

لكن قذيفة واحدة منها سقطت على الهدف، وسُمع دوي تحطمها على السور، ثم شاهد الشقوق التي ظهرت فجأة وتشعبت على جانبيه. انهمرت شظايا الصخور وأحجار الصوان كالطر على أكشاك السوق المجاورة لقاعدة الجدار. فالتفت ليام إلى بوب وقال:

”ينبغي علينا أن نجتمع كل الجنود هنا، أليس كذلك؟“

فأوما بوب وقال: ”صحيح“

هزّ ليام رأسه وبصق على الأرض. إنه يحتاج إلى وقوف جون بجانبه في هذا المأزق... يحتاج إلى أن يراه الناس واقفاً بجانبهم، برفقة العمدة الذي عينه لهم بدلاً من الاختباء داخل الحصن كالجرذ.

عليك أن تقودهم يا ليام... هيا يا سيد أو كونر... لقد كنت في مثل هذا الموقف من قبل.

هذا صحيح، لكنه لم يتزعم سوى مجموعة من التلاميذ في المرة السابقة... لا مدينة ملعونة بكاملها.

هيا تشجع... إنهم ينظرون إليك وينتظرون منك كلمة... افعل شيئاً فتح فمه وانتظر حتى تهدأ الأصوات قليلاً... كان يسمع الأغاني الساخرة التي يُنشدّها رجال ريتشارد من بعيد، وأنين النساء والأطفال الخائفين ونهيق الحمير وصياح خنزير قريب أصابته شظية حجرية من

الجدار على مؤخرته فراح يدور حول نفسه بينما سال الدم بغزارة على ساقيه الخلفيتين من الجرح المفتوح. وعندها نادى بأعلى صوته على الجنود القريبين منه والآخرين الواقفين في أعلى الجدار الذين لا يفعلون أي شيء مفيد:

”ليجتمع كل الجنود المسلحين هنا أمامي“.

ثم التفت إلى سكان المدينة المتجمهرين في ساحة السوق وقدر عددهم بنحو الألف لأنهم كانوا يسدون كل المنافذ المؤدية إلى الساحة. ثم صاح: ”ليقترب إلى هنا كل من يستطيع حمل السلاح“.

أشار إلى الجدار المتصدع من خلال غيمة الغبار التي تكاد أن تنقشع ثم صاح من جديد: ”هذا هو المكان الذي سيدخلون منه، سنمنعهم من الدخول“.

تساءل لبرهة من الوقت إن كانوا قد سمعوه، وظنّ للحظة أخرى أنهم سيضحكون عليه...

انظروا إلى الصبي الذي يحاول تقمص دور الجنرال.

لكن بعض الناس ردّدوا تعليماته في أنحاء الساحة وبين الناس، ونقل الجنود إلى بعضهم الأوامر على طول السور. وعندها شاهد ليام اضطراباً بين الجموع، واكتشف أن الرجال كباراً وصغاراً عادوا إلى منازلهم البائسة لإحضار أسلحتهم القديمة وأدوات الزراعة الحادة التي يمتلكونها.

تنفّس الصعداء لكنه أخفى ارتياحه هذا عن الناس بيده التي وضعها أمام فمه وتمنى أن يعتقد من يراقبه أنه تهاوّب عادي لا أكثر.

قال هامساً لبوب: ”هل كان ذلك جيداً؟“

فأوماً له بوب بالإيجاب ورفع حاجبه دليلاً على الإعجاب ثم شدّ شفته العليا في محاولة فاشلة منه للابتسام - الذي يجعل فمه يبدو كفم الحصان - فخراً بليام وقال: ”نعم“

الفصل السادس والسبعون

نيويورك، ٢٠٠١

تشبّث أنظار الجميع بقطعة الرق المستطيلة التي اقتطعها آدم من اعتراف تريارك ورفعها بأطراف أصابعه ليراها الجميع ونظر إليهم من خلال الثقب المربع الأول الذي فتحه فيها ثم قال:

”إنها حساسة جداً... أخاف أن أمزّقها من دون قصد“.

فقالت مادي: ”لنخرج الكأس من الصندوق“. وسارعت إلى لف مخطوطة اعتراف تريارك حول المغزل الخشبي بعد أن قصوا منها مستطيلاً يبلغ طوله أربع أقدام وعرضه ثمانية عشر إنشاً، ثم رمتها بلا اهتمام على أحد الكراسي وأحضرت الصندوق الخشبي.

وضع كابوت يده على غطاء الصندوق ونظر إلى عيني مادي وقال:

”هل تدركين أهمية الشيء الموجود داخل الصندوق؟“

فهزت رأسها بالإيجاب بسرعة، فأشار بعينه إلى مخطوطة تريارك

المرمّية على الكرسي بعد أن فقدت أهميتها وقال:

”أتمنى أن تعام لي المخطوط الموجود في الصندوق باحترام أكبر يليق به وبشكل أفضل من معام لتك لاعتراف تريارك“. لكنه لم يرفع يده عن الغطاء وتابع كلامه: ”لقد مات العديد من الرجال، وقتل كثير آخرون

للمحافظة على الكلمات الثمينة المكتوبة هنا“.

”إنها الكأس المقدسة... أليس كذلك؟“

تغصّنت عيناه بأسى وقال: ”أنت تتفوّهين باسمها يا فتاة وكأنها... وكأنها شيء عادي... إذا كانت هذه المخطوطة تحتوي حقاً على ما اعتقد الملك ريتشارد أنها تحتوي عليه، إذا كانت تحتوي على ما آمن فرسان المعبد بأنها تنطوي عليه، فإنها تخبّي في طياتها كلمات من عند الله نفسه... هل تفهمين معنى هذا؟“

زمت مادي شفيتها وتنهدت قائلة: ”نعم... نعم بالطبع، سأحرص عليها إلى أبعد الحدود. اتفقنا؟“

لكن الإحباط تغلب على كابوت فهزّ رأسه يائساً وقال: ”أنا لا أتكلّم عن اللغافة والحبر والرق... ليس هذا ما أقصده. لقد كتبها رجل بالريشة كأي مخطوط آخر... إذا كان ما يحمله آدم هناك هو المفتاح الصحيح لفك شيفرة هذه الكلمات، فإننا سنلقي نظرة على كلمات الرب المقدسة من خلال الثقوب التي سنضعها فوق هذه المخطوطة.. وإني أتساءل... هل يليق بنا حقاً أن نعرفها ونقرأها؟“

أول فكرة خطرت لمادي بعد كلمات كابوت هي أن تطيح بالرجل العجوز جانباً لأنها لا تملك الصبر الكافي لاحتمال هذه الخرافات الفارغة... إنها لا تؤمن بوجود إله أب مسنّ له لحية بيضاء طويلة يجلس على عرش سماوي ويلقي ببضع كلمات تحمل الحكمة القدسيّة للبشر كل بضعة آلاف من السنين، وكانت على وشك أن تسخر من خرافات القرون الوسطى التي يؤمن بها، إلا أن كلمة وحيدة اندفعت بين أفكارها هذه وغطّت على كل شيء... .

باندورا..

نظرت مادي إلى الصندوق.

الكلام الموجود هنا... الرسالة المخبّأة هنا تنطوي على حقيقة باندورا. لم يكن لديهم أي دليل حول ما ستكشف عنه هذه المخطوطة، فنظرت

إلى آدم وسال ويكس وكابوت وتساءلت إن كان يجدر بها أن تسمح
لأنظار كل هؤلاء أن يعرفوا حقيقتها. تذكرت مادي الرسالة الأولى:
لا تدعي أحداً غيرك يراها يا مادي

”نعم يا كابوت... ربما كنت على حق“. ثم نظرت إلى الجميع من
جديد وقالت: ”أنا آسفة يا رفاق... عليّ أن أقوم بالأمر وحدي“.
فسألتها سال بنبرة مجروحة: ”لماذا؟“ وفي الحقيقة... ربما كانت
مجروحة حقاً. كان يفترض بهم - سال وليام ومادي - أن يكونوا فريقاً
واحدًا، يداً واحدة، وأن تسود بينهم الثقة وأن يتقاسموا كل شيء، حتى
أخطر الأسرار.

ولكن لا يمكنها أن تتقاسم هذا السر بالذات معها... ليس بعد.
”سال... أنا، أنا لا أعرف السبب. ليس بعد. أعرف فقط أن شخصاً
ما، موجود في مكان ما وزمان ما حاول تحذيري من شيء ما يحمل كلمة
باندورا. هذا هو كل ما أعرفه وكل ما أملك أن أقوله لك. هذه هي إجابتي
الوحيدة. يجب عليّ أن أعرف فحواها أولاً... ثم نتحدث“. وأشارت إلى
العلبة، ثم نظرت إلى آدم وقالت له: ”وأنا آسفة يا آدم... الرسالة موجّهة إليّ
ولسال وليام فقط عندما نعيده إلى هنا... الفريق أولاً... هذه هي الطريقة
التي تسير بها الأمور“.

”ماذا؟ لا يمكنك الرمي بي خارج الأمر بهذه البساطة الآن، لقد
ساعدتك يا مادي... ألم أقم بكل ما بوسعي لكي...“
تقدّمت بيكس وقالت بصوت صارم اسكتت به آدم: ”رئيسة الفريق
مادلين كارتر تملك الصلاحية لتقرير هذا الأمر“. فتذكر الحادثة القديمة
التي كادت أن تفقده إصبعه من قبل في مهجع الجامعة ففقد اندفاعه تماماً
وقال:

”بالطبع... لا بأس. افعلي ما تشائين“.
”آسفة يا آدم. دعني أقوم بما يجب عليّ فعله أولاً، وربما وجدت ما
يمكنني أن أخبرك به في ما بعد.. اتفقنا؟“

أوماً لها برأسه موافقاً ووضع الرق من يده على الطاولة بحذر فالتفتت مادي إلى كابوت وقالت له:

”قد لا أملك قوة إيمانك، وهذا يؤسفني... ولكن مهما كانت الحقيقة الموجودة داخل الصندوق، فأنا أعتقد أنها مهمة إلى أبعد الحدود... إنها الكأس المقدسة... أنا أفهم هذا الآن. سأعام لها بكل احترام. أعدك بهذا.“ رفع يده ببطء عن غطاء الصندوق وقال: ”قد تندمين على معرفة الحقيقة التي أنت على وشك اكتشافها“.

تنهّدت مادي وقالت: ”حسناً، سنرى... أليس كذلك؟“ ثم التفتت إلى سال وقالت: ”هلا اصطحبت آدم والسيد كابوت إلى الخارج؟“

أشارت سال بطرف عينها إلى وحدة الدعم وقالت: ”ماذا عن بيكس؟“ ”ستبقى هنا“.

فظهرت تعابير استياء وامتعاض على وجه سال وبدت وكأنها تريد أن تقول شيئاً ما وعرفت مادي ما يجول بخاطرهما... أنت تثقين بربوبوت آلي أكثر مني...

لكنّ سال أومأت برأسها وأشارت إلى الرجلين أن يتبعها نحو باب المستودع، ورفعته إلى أن أصبح بإمكانهما الانحناء من تحته للخروج إلى الشاطئ المظلم.

سمعت مادي تذرهما وكلماتهما الساخطة وهما يمشيان معاً باتجاه شاطئ النهر الطيني لمشاهدة مراكب الصيادين الراسية في المرفأ المقابل. وما أن ابتعدوا بما فيه الكفاية حتى قالت:

”بيكس؟“

”نعم؟“

”سأفتح الذاكرة السرية الخاصة بي على سواقتك الصلبة.“
بحثت مادي في ذهنها عن الكلمات الثلاث التي تفتح بها تلك الذاكرة ثم أدركت أنها لم تنساها... ها هي جاهزة بانتظار استعمالها:

”حسناً... اسمعيني: آي باد - رجل الكهف - الفطور“.

فقدت عينا بيكس تركيزهما لوهلة ثم تغيّرت وضعية جسمها تماماً وكأنما تمت إعادة تشغيلها. اختفت طريقة وقوف السيدة النبيلة الرزينة التي اكتسبتها في خلال رحلتها الأخيرة، ووقفت بيكس مباحدة ما بين ساقيهما وذراعاها مشبوكان خلف ظهرها كما يقف جنود المارينز في أثناء التحية الصباحية. ثم ابتسمت قليلاً وقالت: ”تمّ التعرف إلى الكلمة السريّة. تمّ فتح الجزء السري من الذاكرة“.

”جيد“. ثم نظرت مادي إلى الصندوق الخشبي ورفعت غطاءه ببطء وحذر وشاهدت اللفافة الموجودة في داخله حول أسطوانة خشبيّة فسرّعت دقات قلبها وخطفت أنفاسها تماماً، وهمست لا شعورياً: ”إنها الكأس المقدّسة“. وهي ترفعها بأناة وتضعها على الطاولة، ثم سألت بيكس: ”هل فهمت كيفية حلّ شيفرتها؟“

أومأت بيكس بالإيجاب وقالت: ”بالطبع. أنا أستطيع الدخول إلى المعلومات المخزنة في ذاكرتي“. ثم رفعت حاجبها وقالت: ”ياإلهي... أنا لست غبية“.

فضحكت مادي لأنها لم تكن بحاجة إلى كثير من التفكير لتعرف الشخص الذي قلّده بكلامها هذا.

لفت مادي بحذر شديد الأسطوانة الخشبية المغزليّة وسحبت بلطف الرق الهشّ ومددته على الطاولة بالكامل إلى أن تجاوز طوله طول الطاولة نفسها وتدلّى على جانبها.

وتماماً كاعتراف تريارك، كانت الزخارف تملأ هامشي المخطوط على الجانبين لكنها أبسط بكثير. حيث رُسمت صلبان بسيطة الشكل بحبر داكن لتحديد بدايات ونهايات المقاطع العديدة التي لا معنى لها.

ثم وجدت ما بدا لها مقاطعاً مكتوبة باللاتينية في النهاية لأنها تعرّفت إلى الأحرف اليونانية، فأعادت النظر إلى الصلبان المرسومة على الهامشين بشكل متقطع، ثم تناولت من الجهة المقابلة الرق الذي اقتطعوه من اعتراف

تريارك ووضعت زاويتي العلويتين على الصليب الأول المرسوم على أعلى الهامش الأيمن، فانطبقت زوايا الرق اليسرى على الصليب المرسوم على الهامش الأيسر لكن زواياه السفلية لم تنطبق على أي صلبان أخرى في الهامش لأنه كان أقصر بعدة إنشات من المطلوب. ثم نظرت من خلال مئات النوافذ المربعة الصغيرة التي فتحوها في الرق فشاهدت عبرها أطرافاً من أحرف نص الكأس، ولم تر سوى حرفين اثنين بشكل واضح وتام، بينما كانت النوافذ الأخرى تعرض لها أنصاف حروف. فقالت:

”مكانها ليس هنا“.

تفحصت بيكس بعينها علامات الصلبان على الهامش الأيسر على طول المخطوط وهي تمشي بجانب الطاولة ببطء وتقيس المسافات الفاصلة بينها بالنظر، ثم قالت وهي تشير إلى صليبين محددين:

”يجب أن توضع القطعة هنا، المسافة بين هذين الصليبين هي سبعة وعشرون إنشاً بالضبط، وهو طول الرق الذي قطعناه بالتمام والكمال“.

ثم فحصت أيضاً الصليب التالي على الهامش الأيسر وقالت:

”وهذا طوله سبعة وعشرون إنشاً أيضاً“.

اقتربت مادي حاملة الرق بيدها ووضعتة برفق على الزاوية العليا اليسرى التي أشارت إليها بيكس وثبته بيدها ثم بسطت يدها الأخرى على الرق لتمنعه من الالتفاف على نفسه مجدداً.

يا إلهي...

”إنه مطابق تماماً“. قالت مادي بهدوء ثم حبست أنفاسها ونظرت إلى النص فوجدت حروفاً كاملة ظاهرة من خلال كل ثقب مربع مفتوح في الرق، رفعت الرق مرة أخرى ونظرت إلى الكأس الموضوعة تحته فلم تجد سوى سطور لا نهاية لها من الكتابة ولم يبد لها أن أي حرف يختلف عن الحروف الأخرى في أي شيء، لم تشاهد حرفاً واحداً مميزاً يختلف عن الحروف الأخرى يجذب انتباهها، فوضعت الرق الذي تحمله في مكانه الملائم بين الزوايا المحددة من جديد.

هل أنتِ جاهزة لمعرفة الحقيقة يا مادي؟ هل أنتِ جاهزة لاكتشاف معنى باندورا الحقيقي؟

أرعبها هذا السؤال الذي دار في خاطرها لأنها ليست جاهزة... إنها تعرف قصة صندوق باندورا... المرأة الشابة باندورا التي أرادت أن تعرف الأسرار المخبأة داخل الصندوق، والذي ربما لم يكن مختلفاً كثيراً عن هذا الصندوق المتروك على طرف الطاولة، وقالوا لها أنها ما أن تفتح غطاءه حتى تنطلق منه كل قوى الشر التي لن يتمكن أحد من إيقافها وإعادةها إلى داخل الصندوق مرة أخرى.

لا بدّ من وجود سبب محدّد يدفعهم لإطلاق اسم باندورا على هذا السر، أليس كذلك؟

ربما تسببت معرفتها في إلحاق ضرر كبير... ربما لحق بها الضرر، ربما دمر حياتها أو حياة الآخرين... فنظرت إلى بيكس التي كانت تراقبها بصمت بانتظار التعليمات فقالت لها:

”أنا... أنا لست واثقة من أنني أريد أن أقرأ ما هو مكتوب هنا“.

”لماذا؟“

”أنا خائفة“.

ارتبكت بيكس قليلاً وقالت لمادي: ”إنها مجرد معلومات... معارف. وكل المعلومات مفيدة لنا تكتيكياً“.

”لست واثقة من هذا... أحياناً تعود معرفتنا بشيء ما بالضرر علينا...“

هل تفهمين قصدي؟“

لم تجبها بيكس، فأردفت:

”اسمعي... أنا سوف...“

ليت فوستر كان موجوداً معي هنا... يا إلهي. أو حتى ليام... فكرت مادي، لأنهما الشخص نفسه على الرغم من الحال الظاهري الذي لا يدلّ على ذلك، أليس كذلك؟ لا... ليسا الشخص نفسه... فوستر هو ليام ولكن بعد مروره بحياة طويلة من التجارب والخبرات. وفي يوم ما في المستقبل،

سيتحوّل ليّام إلى ذلك الرجل العجوز، لكنه لم يصبح كذلك بعد. تخيلت مادي ليّام واقفاً هنا بجانبها يتململ بإحباط بسبب تردّدها بهذا الشكل في قراءة النص السري. فقالت أخيراً:

”أريد منك أنت أن تقرأيها... حلّلي شيفرة النص بكامله“.

أومات بيكس برأسها، فأردفت مادي:

”أخبريني عندما تنتهين لأقفل هذه الذاكرة السرية الخاصة بي من

جديد. هل فهمت؟“

”نعم بالطبع يا مادي“.

”وعندما تنتهين وتأتين إليّ لأقفل هذه الذاكرة لا تخبريني أي شيء

عن محتويات الرسالة... هل هذا مفهوم تماماً؟ أنا لا أريد أن أعرف أي

شيء... ليس بعد“.

”هذا مفهوم تماماً“.

تنهّدت مادي... ستكون الرسالة بأمان في ذاكرة بيكس في الوقت

الراهن مهما كانت محتوياتها، وقرّرت بأنها بحاجة إلى استشارة فوستر

حول هذا الأمر والاستماع إلى نصيحته قبل أن تعرف نص الرسالة منها... بإمكانها أن تأخذ بيكس معها إلى الحديقة العامّة حيث يجلس فوستر

بجانب كشك الهوت دوغ ويطعم الحمامات، وعندها يمكن لهما أن

يستمعا معاً للرسالة السرية.

هذا هو الحل. أدركت مادي أنها لا تريد تحمّل عبء معرفة الرسالة

وحدها... لقد تحمّلت وحدها ما فيه الكفاية حتى الآن.

”هل تعرفين ما يجب عليك فعله؟“

أومات بيكس بالإيجاب.

”سأنتظرك في الخارج مع الآخرين“.

الفصل السابع والسبعون

نوتنجهام، ١١٩٤

يا إلهي... ها هي قادمة... ها هي...

شعر ليام بالقيء يرتفع عبر مريته ويصل إلى حلقه لأن معدته كانت تفعل كل ما بوسعها للتخلص من آخر وجبة تناولها، فاستفرغ كل ما ببطنه مع الكثير من حبيبات الغبار والرمال الناعمة التي تنشقها رغماً عنه.

قال له بوب الواقف بجانبه: "إنهم يدخلون". وكان يرتدي درعاً مربوطاً بإحكام على أعلى ذراعه اليسرى المجدوعة وقد ثناه بطريقة ما فكان يستطيع استعماله كما لو كان ذراعاً حقيقية، ثم سحب سيفه الثقيل بيده اليمنى وتسلىق كومة من الأنقاض والركام الناعم والحجارة الصغيرة المتساقطة حيث يدور الغبار في دوامات كثيفة.

تناهت صيحات الفرع وهدير جنود ريتشارد المتحمسين إلى سمع ليام وهم يتسابقون بصعوبة لعبور الأرض المتاخمة للصور المفتوح والمفروشة بالسهم وفكر بأن احتكاك دروعهم المعدنية بالسهم المغروزة بالأرض يشبه صوت شاحنة تتحرك على طريق عام، اختلطت أصوات مئآت من أعنة الأحصنة وجلبة دروع الجنود وهم يركضون بأفضل ما يمكنهم تحت ثقلها.

نظر رجال حامية نوتنجهام المبتدئين الواقفين على جانبي ليام إليه بقلق لأنهم لم يكونوا إلا فتياناً صغاراً أو رجالاً مسنين تمرنوا بعض الشيء على القتال بسيف خشبية.

هيا... لا تدع الخوف يتغلب عليك الآن... فكر ليام بساقيه المرتجفتين وهو يأمرهما بالحركة.

رفع ليام سيفه الثقيل فوق رأسه وصاح بأعلى صوته: "إلى الأمام". ثم شق طريقه فوق قطع الحجارة المكسورة وشظايا الصوان الحادة لينضم إلى بوب الذي كان يقف بأعلى تلة الحجارة التي تشكلت منذ قليل بسبب الهدم وفي تلك اللحظة... تلاشت غيمة الغبار التي كانت تحجب الأنظار تماماً.

أمامهما... اندفع جنود الخطوط الأمامية لجيش ريتشارد بسرعة كبحر متلاطم من الألوان وشعارات العائلات النبيلة المختلفة وهم يقطعون المسافة التي تفصل ما بينهم وبين الجدار المفتوح ويدوسون بأقدامهم الحقول التي سوّيت بالأرض قبل ذلك بقليل بعد أن كانت زاخرة بالمزروعات... وجوة ملتحية أحرقتها شمس المسافات، فاغرة الأفواه إلى أقصى حدّ وهي تزار وتهدر وتجتاز الأرض البور وتقترب منهم بسرعة كبيرة.

هذا هو التاريخ الذي وعدك فوستر برويته بأعينك يا ليام... عن كل هذا القرب.

رفع ليام ذراعه المدرّعة ونظر إلى الجهة اليمنى فوجد بوب يقف بمحاذاته للدفاع عنه كجدار بعرض يبلغ ثلاثة أقدام لا يمكن زعزعته من مكانه من العضلات والألواح المعدنية. فتمتم بصوت خافت آملاً في أن لا يصل صوته إلى مسامع أحد غير بوب:

"بوب.. أنا خائف".

زمجر بوب: "ابقَ بقربي". ونظر إلى ليام من خلال فتحة الخوذة الحديدية التي يرتديها فوق رأسه الكروي كثمرة جوز هند، فبدت عيناه الرماديتان وأنفه الكبير ضائعين تماماً في ظلها.

مكتبة الرمحى أحمد

”ابقَ قريباً مني وسوف تكون بخير يا ليام أوكونر“.

تسلّقت الدفعة الأولى من الجنود كومة الركام الذي تدرج من الثغرة المهذّمة فانهمرت عليهم سهام الرماة من جانبي الجدار ووجدت أهدافها في خضمّ كتلة الرجال الملتحمين في الأسفل.

امتلئك ليام الوقت الكافي لسحب نفس عميق قبل أن يشعر بارتطام شيء رهيب بحافة درعه، وامتدت الارتجاجات المؤلمة التي تولدت عن الاصطدام على طول ذراعه إلى أن كادت أن تقطع أنفاسه فانحنى بشكل غريزي وخفض رأسه إلى ما تحت حافة الدرع المثلمة وهوى بسيفه إلى الأمام بلا هدف فاصطدم بقوة بشيء ما.

باغتته على الجهة اليسرى ابتسامة أحد رجاله الذين جندهم مؤخراً للانضمام إلى حراس الحامية، والذي لم يكن يكبره ربما بأكثر من خمس سنين؟ ابتسم له الرجل فأفتر ثغره عن بعض الأسنان الصفراء الباقية فيه المحاطة بلحية شقراء كالإطار. ثم هوى بسيفه أيضاً على رأس الرجل الذي وصل إلى أمامه تماماً فاخترق نصله عنق الرجل ما بين الكتف والرأس ثم سحبه من الجثة فانفجر الدم الداكن من الجرح كقوس في الهواء.

شعر ليام فجأة بدرعه يترنح على جسده كأنه يسقط عنه فشاهد أصابع يد ترتدي قفازاً جلدياً سميكاً على طرفه تحاول شده بعنف إلى الأسفل وتحاول إيقاعه أرضاً. وعلى حين غرة... فقد ليام السيطرة على الترس الذي يحمله بيده اليسرى.

يا إلهي... لا...

سقط ترسه على الحصى أمام قدميه ولم يكن أمامه سوى ثوان معدودة حتى يواجه الرجل المندفع باتجاهه بوجه أحمر محققن. إنه وجهٌ لن ينساه أبداً، إنه واثق من هذا... لن ينساه ما دام حياً... إنه الرجل الذي قدّر له أن يعيش إلى الأبد في كوابيس ليام.

كانت ردة فعله خرقاء وعفوية تماماً، إذا شعر بأنه عار بلا ثياب بعد أن سقط ترسه منه وملأه الذعر والقنوط على الرغم من أنه ما زال يرتدي درعه

الحديدي الثقيل فوق بطانته الجلدية.

في أثناء مرور هذه اللحظات البطيئة الرهيبة من الإدراك الحسي العالي للشعور بخطر اقتراب الموت... شاهد سيفه الثقيل يرتفع في الهواء ويهوي بقوة على رقبة الرجل الذي كاد أن يهاجمه.

في اللحظة التي التقت فيها عيناها بدا له أن الزمن قد تباطأ إلى أن توقف تقريباً، في الثانية التي شاهد بها عيني الرجل الذي ينتمي إلى قوات المرتزقة... تلك العينان الزرقاوان المفتوحتان على وسعهما بسبب شدة الدهشة، اللتان تدركان ببطء في هذه اللحظة بالذات أن النصل اخترق رقبته بالفعل وأنهى حياته.

بدت له المعركة التي تدور رحاها حولهما وكأنها تجري على بعد مئات الأميال... وكل ما كان يسمعه ليام هو هدير الدم النابض في عروقه وخفقان قلبه الذي كاد أن يقفز من مكانه، وصوت أنفاسه المتهدّجة المتلاحقة في صدره وحشرجة الرجل المقابل له الذي راح يبصق كميات من الدم القاني ويتمتم بشيء ما... هل يصلي لنيل الغفران أم يرسل اللعنات على رأس ليام؟ قال ليام بلا وعي منه: أنا آسف... وكأنّ الرجل الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة هنا سيفهمه... أو يسامحه.

مرّت تلك اللحظة وعاد الزمن إلى جريانه العادي وتلاشت الحركة البطيئة للأمر من حوله، امتلأت أذناه من جديد بأصوات الأنين والزمجرة، باحتكاك وقعقة الدروع المعدنية بعضها ببعض. وكان الرجل الذي قتله ليام يقبض على نصل السيف بكلتا يديه بقوة وكأنه كان يحاول انتزاعه من رقبته لكن قواه قد خارت قبل أن يتمكن من فعل ذلك وراح ليام يراقبه.

إنه الرجل الذي قتله للتو بيدي هاتين.

سقط الرجل على ركبتيه أمام ليام ثم وقع إلى الخلف واختفى بين الأجساد المتدافعة المضطربة كمياء مستنقع وغاب بين أقدامهم وأخذ معه سيف ليام.

وجد نفسه خالي اليدين في مواجهة رجل آخر محتقن الوجه يرزح

تحت ثقل أربعين رطلاً من حديد الدرع الذي يرتديه وقد احتل مكان الرجل الأول فشم حظّه العاثر مما جعل الجندي يتسم لحظّه الوفير وتراجع خطوة إلى الخلف ليتمكن من إصابته بالفأس الطويلة التي يحملها. بدت علامات الترقب على وجه ليام ورفع ذراعيه إلى الأعلى في محاولة عبثية منه لتلافي الضربة... وفي هذه اللحظة، شعر بشيء يحمله من ياقة سترته المعدنية ويرفعه فجأة في الهواء ويطيح به إلى الخلف فوق عن التلة المنحدرة وتدرج إلى أن وصل به المطاف إلى طرف السوق. وعندها شج طرف رأسه بطرف حجرة مكسورة حادة.

أصابته الصدمة وطنت أذناه وشاهد ظلالاً داكنة تعبر من فوقه وتتسلق المنحدر الحجري للانضمام إلى الرجال الذين يحاولون منع العدو من اجتياز نقطة الاختراق، وشاهد السهام المتطايرة بالاتجاهين وهي تنهمر كالأمطار، وفي السماء... كان هناك سنونوان يلاحقان بعضهما ويرسمان دوائر في الهواء وهما يلهوان غير عابئين ولا آبهين بالمجزرة التي تدور تحتها.

انحنى فوقه وجه مليء بشعرات قاسية خشنة وفم لا يحتوي سوى على سنين اثنين وقال له: "هل أنت بخير يا سيدي؟"
تعرّف ليام بصعوبة إلى الرجل الذي كان واحداً من الحدادين الذين يعملون في نوتجهم.

أوماً له بالإيجاب فأمسكت يد خشنة بيده وسحبته لتساعده على الوقوف على قدميه المترنحتين. فقال له:
"لقد فقدت سلاحي وترسي..."

فابتسم له الرجل وقال: "لا تقلق... سنحصل على كثير منها يا سيدي بعد قليل". ثم استدار واندفع مهرولاً فوق التلة لينضمّ إلى مجموعة الرجال الكثيرين الذين يحاربون بكل قواهم لمنع اختراق المدينة.

خُيل إلى ليام أنه شاهد بوب في أعلى التلة، واعتقد أنه شاهد رأسه من الخلف وكتفيه العريضين وهو يلوح بفأس طويلة إلى الأمام والخلف وكأنه

يلوح بمنجل لحصاد القمح.
لكن الألم المضمني والحاد تغلب على تفكيره ومنعه كلياً من استجماع
قواه وأفكاره.

لكنه تمكن أخيراً من التفكير بشيء محدد:

متى تعود ييكس إلى هنا بحق الجحيم.
راقب جون الصراع الدامي من شرفة صالة القصر الكبرى وبدأ له
أجساد الرجال المتلوية المتحركة كحشرات تقتتل من أجل كومة من
الروث.

تجمع كل رجال الحامية هناك مع مجموعة كبيرة من رجال المدينة
الذين فضّلوا القتال من أجل مدينتهم.
يقاتلون من أجلي.

لقد سئم ضعفه وجبنه، سئم من الرهبة والفرع اللذين لطالما سبّها له
منظر الدم.

أنت لا تملك قلب ملك يا جون... ولهذا لن تكون ملكاً في يوم من
الأيام.

إنها الجملة التي قالها له ريتشارد مرة عندما كان والدهما مازالا في قيد
الحياة. فهمس جون لنفسه بيؤس: "ربما كنت على حق يا أخي".

ومع ذلك... خيّل إليه أنه شعر بشيء جديد يعتمل في نفسه... ربما
كانت الشجاعة كلمة كبيرة على ذلك الشعور، لكنها كانت عزيزته
الراسخة، وربما كانت شيئاً من روح التحدي التي تفاوض بها مع أخيه
قبل قليل.

كنت قوياً في تلك اللحظة... ألم أكن كذلك؟

ألم أكن قوياً؟

فرك لحيته بلا وعي بيد مرتجفة كأنها ورقة صفراء على وشك السقوط
والطيران مع رياح الخريف، ثم أجاب عن سؤاله بنفسه:
"لا... لست سوى أحقق ضعيف متخاذل".

”مولاي“؟

التفت جون إلى الخلف فوجد أحد إقطاعيي المدينة واقفاً بجانب الستائر، وكان وجهه شاحباً ويرتدي ملابس ناعمة لا تليق سوى بالنساء، فبدأ بها كالمخنث. ثم قال:

”مولاي... ألا يجدر بنا أن نغلق بوابة القصر؟ إذا تمكنوا من الدخول عبر سور المدينة فسنكون بأمان داخله لفترة أطول“.

شعر جون بشيء عميق يعتمل داخل نفسه ويدفعه للقفز من الرجل، ثم قال بعد وقت قصير:

”لا، هل تملك سيفاً ودرعاً؟“

اتسعت عينا الإقطاعي الجبان وقال: ”مولاي“؟

”لقد سمعتني جيداً“.

”أنا... أنا... أظن أنني أملك سيفاً ودرعاً... في مكان ما...“
”أحضرها إذا“.

”هل تطلب مني إحضارها يا مولاي“؟

”نعم“. ثم تناول جون نفساً عميقاً ليهذئ من ارتعاش صوته قدر الإمكان وقال: ”سننضم إليهم“.

الفصل الثامن والسبعون

نيويورك، ٢٠٠١

استندت مادي إلى جدار مستودعهم المتصدع من الخارج وهي تراقب رفاقها الآخرين وهم يقفون على روابي الطين المغطاة بكتل الطحالب بمحاذاة النهر.

”مادلين؟“

التفتت إلى البوابة فشاهدت بيكس تقف في المدخل المفتوح بكامله وسألتها:

”هل انتهيت؟“

أومأت بيكس بالإيجاب فقالت لها مادي: ”إذا أقفلت ذاكرتك الخاصة بي الآن فسيكون كل ما قرأته هناك بأمان أليس كذلك؟“

”هذا صحيح“.

هزّت مادي رأسها وفكرت بالأمر... بهذه الطريقة لن يعرف أي شخص محتويات الرسالة السرية التي كانت مخبأة في الكأس، حتى بيكس نفسها.

اتخذت مادي قرارها... ستفتح الذاكرة الخاصة بها بحضور فوستر فقط لأنه يفترض بهما وحدهما أن يعرفا محتوياتها، وسيتمكنان في هذه

الحالة من التفكير بمعناها وما يجب عليهما القيام به حيالها إذا اضطرا لأي شيء.

”هل أنت جاهزة لإقبال الذاكرة الخاصة بي؟“
”بال تأكيد“.

تفوّهت مادي بالكلمات المفتاحية الثلاث بهدوء فرمشت بيكس بعينيها مرّات عدّة ثم مال رأسها وقالت بعد أن عادت نبرة الصوت الناعمة الأنثوية التي كانت تتحدث بها منذ وصولها: ”سجّلت ساعتني سبعاً وثلاثين دقيقة من الغياب“.

رفعت مادي يدها وقالت: ”لا بأس... كنتُ أتحدّثُ مع شخصيتك الأخرى“.

عادت بيكس إلى ذهنها واستعرضت ما سجّلته ثم سألتها: ”هل استخدمت الكلمات المفتاحية لفتح الذاكرة السرية؟“
”نعم“. ثم نظرت مادي إلى الآخرين وأردفت: ”لقد حلّلت شيفرة الكأس المقدّسة بنجاح والرسالة بأمان داخل ذاكرتك المقفلة، حتى أنت لا تستطيعين دخولها لقراءة الرسالة“. وضحكت مادي.

أومأت بيكس موافقة وقالت: ”إنه تدبير وقائي ملائم يا مادي“. وكانت على وشك أن تشكرها عندما سمعت صوت سال تناديها، ولم تشاهد سوى خيالها الصغير في ضوء الغسق وهي تبتعد عن النهر وتقترب منهما فنادتھا: ”ما الأمر؟“

أجابتها بشيء ما لكنّ رياحاً مفاجئة بدّدت كلماتها وحركت مياه النهر التي كانت رائقة قبل لحظات كالمرآة وأدارت عنفات الطاحونة الساكنة. شيء ما قادم باتجاهنا

نظرت مادي إلى السماء وشاهدته، كان إعصاراً يتجه نحوهم بسرعة من المحيط الأطلسي. فنادت سال:

”أسرعوا!“

دعت سال بدورها الرجلين للحاق بها وصعود الرابية المغطاة بالحصى

للاحتماء بمستودعهم المبني من الحجر والجاثم بين التلال الرملية. غارت أقدامهم داخل الرمال الناعمة إلى أن وصلوا إلى حافة الرصيف المكسور وأرضية الزقاق التي انتقلت مع المستودع إلى هذا الواقع البديل في اللحظة التي ضربت بها العاصفة السوداء جزيرة مانهاتن.

لهث كابوت بكآبة وقال: "إنه عقاب إلهي".
"لا... إنها مجرد موجة زمنية". أجابته سال.

لمحت مادي ناطحات السحاب مانهاتن اللامعة التي يعرفونها فوق الغيوم السوداء التي كانت تعبر النهر باتجاههم، وبعد دقيقة واحدة شاهدت بدلاً منها قمم أبراج كنائس تعلوها صلبان ترتفع شاهقة حتى السماء وبعد لحظة واحدة تغير شكلها إلى قباب ومآذن جوامع تعلوها أشكال الهلال. قال آدم بصوت شخص صعقته المفاجئة:

"يا إلهي... هل شاهدتم ما جرى؟"

عصفت الرياح بهم وضربت حبيبات الرمل وجوههم وهم يقفون بباب المستودع ويشاهدون العالم وهو يتغير ويتبدل. وفجأة... تموج كل شيء من حولهم ثم اختفت الاهتزازات بلمح البصر بعد أن انحسرت موجة التغيير مرة واحدة.

غمر الظلام المستودع بسبب انقطاع الطاقة عنه، وبعد هنيهة لمع ضوء في الداخل وسمع الجميع هدير مولد الكهرباء الخافت، الذي دار بطريقة أتوماتيكية في الغرفة الخلفية.

في الخارج، عم الهدوء المساء من جديد ولم يكن هناك من صوت سوى صوت الأمواج الرقيقة التي يحملها المدّ المعتدل ونداءات نورس وحيد حزين بين الحين والآخر.

سمعت مادي على جانبيها تنهدات آدم وكابوت، لكن كابوت كان الأسوأ حالاً بينهما، إذ قال: "ساعدني يا رب... هل شاهدتُ للتو عملاً من رجس الشيطان".

فأجابته بيكس: "إنه تغيير في الواقع، حوادث الماضي غيّرت الحاضر".

نظرت مادي إلى جزيرة مانهاتن ولاحظت اختفاء أضواء مراكب الصيد والبلدة المتاخمة، وشاهدت بدلاً من المنظر السابق أشجاراً كثيفة تنحدر من الأعلى وتصل حتى حافة النهر فقالت: "لا شيء هناك الآن".

"غابة فقط". قالت سال. فعصّت مادي على شفّتها وقالت:

"بيكس"؟

"نعم"؟

"ما الذي كان يجري في القرن الثاني عشر بحقّ الله عندما غادرت القرن الثاني عشر"؟

"كان الملك ريتشارد على وشك دخول مدينة نوتنجهام واستعادتها من يد أخيه".

"عظيم... وهل هذا خطأنا؟

أجاب آدم هذه المرة: "لا... لقد جرى ذلك بالفعل في التاريخ الحقيقي".

"حسناً، هذا يعني أنّ شيئاً ما زال غير صحيح في ذلك المكان".

"هل تتوقعين أن يكون موضوع المخطوطة المقدّسة؟ ربما تأخرنا بإعادتها". قالت سال وهي تشير إلى الطاولة. فأومأت مادي موافقة وقالت:

"نعم... نعم... ربما كنتِ على حق... لا بدّ من إعادتها بأقصى سرعة ممكنة".

"ولكن... هل هذا صحيح؟ هل يتمكن ريتشارد من وضع يده عليها... كما تعرفين، أقصد في التاريخ الحقيقي"؟

هزّت مادي رأسها ثم أجابت: "لا أعرف... لكنني متأكّدة من أنّ مكانها الصحيح ليس القرن الحادي والعشرين".

"لا بدّ من أن تضع. قدرها أن تضع". وتقدّم آدم إلى الطاولة وقال:

"هذا هو السبب الذي جعل منها أسطورة وخرافة، لهذا انتهى الأمر بالناس إلى التفكير بأنها كانت كأساً شرب منها السيد المسيح ليلة العشاء

الأخير... لا بدّ لها من أن تضيع. اتفقنا؟

”ربّما يجدر بنا أن... نمزّقها“. اقترحت سال.

صمت الجميع لوقت طويل وهم يتأملون الرق المفتوح أمامهم على ضوء المصباح المعلق فوق رؤوسهم. ثم تكلم كابوت أخيراً:

”سيقتل الملك ريتشارد أخاه إذا لم يحصل على ما حضر للحصول عليه“. ثم هزّ الرجل العجوز رأسه وتابع كلامه: ”سيدفعه غضبه لقتل كلّ شخص موجود في نوتنجهام“.

”لم يسجّل التاريخ الحقيقي مثل هذه الحوادث... دام حصار نوتنجهام أياماً عدّة فقط، وانتهت باستسلام جون لريتشارد الذي عفا عنه وسامحه“.

نظر كابوت إليه وسأله: ”هل أنت متأكّد من هذا؟“

”نعم بالطبع، لقد غفر الملك لأخيه جون الذي أصبح ملكاً بعد موت ريتشارد بعد سنوات عدّة“.

”هذا يعني أنّ ريتشارد حصل على ما جاء للحصول عليه“ قالت مادي. ثم أردفت: ”حصل على الكأس... أليس كذلك؟ سيكون كلّ شيء على ما يرام إذا ما حصل عليها. وسيسامح أخاه جون“.

”ولكن... ألا تحتوي على سرّ كبير مخبأ بين سطورها؟ ألا تحتوي على أسرار ستدفعه للخروج في حملة صليبيّة جديدة؟“ سأله سال.

”مما سيسبّب دمار إنكلترا بشكل نهائيّ وسيسمح لفيليب الثاني ملك فرنسا بغزوها واحتلالها تماماً“. قال آدم.

عصّت مادي على شفتها بإحباط وفكرت: ماذا نفعل؟ هل نعيدها له أم لا؟

قاطعت بيكس أخيراً الصمت الذي عمّ بينهم: ”لا... لا.“

”لا ماذا؟“ قالت مادي بعصبيّة.

”لن يجد الملك ريتشارد أيّ شيء في الكأس“.

ابتسم آدم فجأة وقال: ”إنها على حق... ربما كانت كذلك... ربما

يخيب أمله تماماً... ربما ينتهي به الأمر برفقة مخطوطة لا يمكنه فك شيفرتها“.

فقالت مادي: ”الآن الكأس الحقيقية كانت من البداية مكتوبة داخل اعتراف تريارك“؟

أوما آدم موافقاً وقال: ”وربما اعتقد أن ما يملكه... تلك الكأس التي ضحى الفرسان لأجلها بحياتهم لم تكن سوى شيء يُراد به التضليل... ربما ظن أنها مزورة“.

فكرت مادي لحظة بالأمر ثم قالت: ”نعم... لم لا يكون هناك مفتاح آخر لحل شيفرتها؟ لم لا ندفعه للاعتقاد بأن المفتاح الذي يملكه مزيف“؟

”علينا أن نعود إلى هناك فوراً، الواقع يتغير“. قالت بيكس. أومات سال وقالت: ”الموجة الأخيرة كانت غريبة وكأنها لم تكن قادرة على تقرير الاتجاه الذي تريد أن تسلكه“.

”ربما بدأت المعركة من أجل السيطرة على نوتنجهام... وما شاهدناه كان نتائج عدم حسم المعركة بعد“. قال كابوت.

لم تكن مادي واثقة من أن موجة التغيير الزمني الأخيرة كانت تعني كذلك في الواقع، وفي الحقيقة لم تكن تعرف معناها على الإطلاق... كل ما كانت تعرفه هو أن التاريخ ما زال خارجاً عن خط سيره الصحيح... وربما كان الراهب العجوز على حق. فعلى الرغم من كل شيء، لا تذكر النسخة الصحيحة من التاريخ التي تحكي ما جرى في خلال حصار نوتنجهام وجود آلة قتالية مدمرة مثل بوب تقاتل في صفوف جون. فقالت لهم أخيراً: ”حسناً، لقد حسمتُ أمري الآن... ستعيد بيكس والسيد كابوت الكأس إلى الماضي وسيسلمانها إلى جون ليعطيها لأخيه بطريقة ما. حققوا له ما يريد وأسعدوا خاطره ليكون سعيداً بما فيه الكفاية ليصفح عن أخيه ويتركه في قيد الحياة“.

ثم عضت شفتها وفكرت... ياللهول... هل هذا هو التصرف الصحيح؟

الفصل التاسع والسبعون

نوتنجهام، ١١٩٤

تمكن ليام من شق طريقه والصعود للوقوف إلى جانب بوب من جديد مسلحاً بدرع جديد وفأس هذه المرة بدلاً من السيف، وكانت الأسلحة الجديدة التي يحملها من صناعة الحداد الذي التقاه في الأسفل. وتمكن ما بين الضربات القوية التي كان يلوح بها بفأسه من التريت على كتف بوب لإعلامه بعودته لحماية ظهره.

غطت أكوام الجثث الدامية الممزقة المنحدر الحجري الذي يمتد أمام قدمي بوب حتى الأسفل في الثغرة المفتوحة في الجدار بعد أن طوّح بهم بضربات قاتلة من فأسه الحربية الطويلة. ووقف المدافعون عن المدينة على جانبيه وغالبيتهم من سكان نوتنجهام بعد أن لم يبق من جنود الحامية ذوي السترات الخمرية والحمراء أكثر من عشرين جندياً.

وبدا من الواضح في هذه اللحظة أن اندفاع المهاجمين قد فقد زخمه، وتراجع الصف الأول المزدان بعشرات الشعارات النيلة المختلفة منهم ببطء إلى أسفل التلة المؤدية إلى الثغرة في الجدار، والتي ما انفكت تزداد لزوجة وتسبب الانزلاق لمن يحاول تسلقها.

سمح ليام لبعض من الأمل من التسلسل لأفكاره بعد أن شعر بتباطؤ

الهجوم وتراجع حدّته قليلاً، وبعد أن اعتقد أن جيش ريتشارد قد فقد تركيزه. لكنه أدرك بعد برهة أنهم يستدعون الرجال عن طريق بوق من مسافة بعيدة، وأنهم انسحبوا ليشربوا الماء فقط لا غير.

ضحك ليام رغماً عنه بطريقة هستيرية بعض الشيء فنظر بوب إليه من فوق كتفه وسأله: "ما الذي يضحكك؟"

"هذا يشبه استراحة ما بين الشوطين في مباراة رياضية". قال ليام وهو يضحك بشدة. وتوقفت السهام عن الطيران من كلا الجانبين وكأنّ رماة السهام اتفقوا على معاهدة مؤقتة فيما بينهم.

شاهد ليام نساء وأطفالاً يحملون دلاء ماء مربوطة بحبال على أكتافهم يتحركون بسرعة بين صفوف جنود ريتشارد، وكان الواحد منهم يغطس رأسه كما هو بخوذته ويفرك يديه المتشققتين داخل الدلو ثم يسكب كميات من الماء الذي يحتاج إليه بشدة في فمه.

خرجت نساء مدينة نوتنجهام أيضاً من ساحة السوق وهن يحملن دلاء المياه التي تلقفها الرجال العطاش بتوق وسكبوها فوق رؤوسهم وفي أفواههم.

ثم فهم ليام الأمر بالطبع لأنه شعر بالحرّ الشديد الذي يسببه الدرع الحديدي المبطن بالجلد على الرغم من أنّه لم يقاتل كثيراً كالآخرين، وعرف بدهياً أن شرب الماء والاستراحة المتفق عليها في خلال المعارك كانت شيئاً متعارفاً عليه في القرن الثاني عشر كأى شيء آخر. فنقر على ظهر بوب وقال له:

"بوب... الماء... ينبغي بك أن تشرب بعضاً منه طالما كان ذلك بالإمكان".

استدار بوب ليوأجهه فشاهد ليام للمرة الأولى مقدّمة الدرع المربوط إلى أعلى ذراعه الأيسر المقطوع فقال:
"يا إلهي بوب... هل رأيت هذا؟"

كانت السهام مغروزة في درعه بغزارة شديدة وكأنه فرشاة شعر لأن

رماة العدو كانوا يستهدفونه بقصد التخلص منه. وبرز العديد منها أيضاً من مقدمة صدره. فأردف ليام:

”يا للسماء... يجب أن يراك الطبيب“.

”الضرر مقبول حتى الآن يا ليام، تبلغ قدرتي على القتال الآن خمساً وخمسين بالمئة، لكنك على حق... أحتاج إلى الماء بالفعل“.

وصلتهم المياه بالدّور مع بقيّة الرجال فغرفوا كميات منها من الدلاء التي وصلتهم وتجرّع بوب الماء مثل كلب ظمآن بعد مسيرة طويلة في نفس الوقت الذي سمع فيه ليام عبارات البهجة التي كانت تنتشر بين الناس المجتمعين في ساحة السوق.

شاهد ليام من الأعلى الناس يتفرّقون عن بعضهم باحترام حتى أسفل تلة الحجارة المحطمة أمام الجدار، ثم رأى جون... وكان يرتدي درعاً حديدياً ثقيلاً ويحمل ترساً منقوشاً بالشعار الملكي فناده متعجباً:

”مولاي!“

صعد جون إليه ببطء لكنه وصل مقطوع الأنفاس على الرغم من ذلك بسبب الجهد، ثم التقط أنفاسه قبل أن يقول: ”أيها العمدة... المشي بالدرع صعب بما فيه الكفاية، فما بالك بالتسلق به“.

جثا جنود الحامية القريبون منه باحترام شديد على ركبهم فصاح جون بأعلى صوته متظاهراً بالبطولة بأفضل ما يمكنه: ”احتفظوا بكل ما بقي من قواكم للقتال يا رجال“.

”مولاي... سيستهدفونك... ستكون هدفهم بلا شك“. قال ليام، ثم لمح الشحوب الشديد البادي على وجه جون وارتجاف جسده تحت الدرع، وعندها قال جون وهو يلحق شفتيه الجافتين بلسانه: ”إذا... ينبغي عليّ أن أتحرّك من مكاني باستمرار... أليس كذلك؟“

سمع الجميع في هذه اللحظة صوت بوق يأتيهم من بعيد وشاهد ليام النساء والأطفال الذين كانوا يسقون رجال ريتشارد وهم ينسحبون من بين صفوفهم بسرعة مضاعفة باتجاه الخيام المنصوبة أعلى التلة أمامهم.

وعندها طارت السهام السوداء باتجاههم في الحال وشقَّت عنان السماء الصافية بخطوطها الداكنة، وعاد الجنود على بعد خمسين ياردة من سور المدينة إلى صفوفهم واستعدوا للهجوم على نوتنجهام من جديد.

الفصل الثمانون

نيويورك، ٢٠٠١

أمعن كل من آدم ومادي النظر في شاشة الكمبيوتر أمامهما بينما ساعدت سال كلاً من بيكس وكابوت للاستعداد للعودة إلى عام ١١٩٤. ثم سألته مادي:

”ماذا تعني؟ ألا يمكنك استعمال النقطة الزمنية التي حدّدتها لك بيكس؟“

< الوضع غير مستقر على الإطلاق ولا يمكنني فتح بوابة زمنية في مثل هذه الحال.

”ماذا يعني هذا؟“

< الواقع يتأرجح بطريقة لا يمكن التنبؤ بها بين حالتين محدّتين.

”الواقع لا يستطيع تقرير حالة نفسه“. قال آدم.

< هذا شرح ملائم للأمر.

”حسناً... ماذا؟ هل يجدر بنا الانتظار أم نخاطر بإرسالهما الآن؟“

< يمكننا المخاطرة بإرسالهما إلى النقطة الزمنية التي أرسلتها بيكس سابقاً من

هناك، لكنني لا أستطيع التنبؤ بالنتائج المحتملة لهذا.

ضربت مادي طاولة المكتب بقبضتها وقالت: ”حسناً إذا... كم يبلغ

الاختلاف بين الواقعين المحتملين اللذين يتأرجح الواقع بينهما؟
< أعيدي صياغة السؤال من فضلك.

”كم يبلغ... ما هو طول الزمن الذي تأثر بالموجة؟ أعني... هل يمكن تحديده كما أمكننا رؤية العاصفة الزمنية التي مرت منذ قليل؟“

< يبدو لي أن مساري الزمن المختلفين اللذين أراهما قد تولدا قبل الإحداثيات الزمنية التي أرسلتها بيكس بسبع إلى تسع ساعات.

التفتت مادي إلى الأنبوب المائي فرأت بيكس على وشك تسلق سلمه للصعود إلى الأعلى والقفز في الماء فنادتها:

”بيكس... ما الذي جرى قبل مغادرتك عام ١١٩٤ بسبع ساعات؟“
توقفت بيكس عن الصعود وعادت لذاكرتها ثم قالت: ”قبل سبع ساعات بالضبط؟ كنتُ أمشي على ممر حجري“.

صفقت مادي يديها ببعضهما ببعض بعصبية وقالت: ”بالقريب يا بيكس... هل حصل أي شيء مهم؟“

”خرجتُ من مدينة نوتنجهام قبل فتح بوابة الزمن بست ساعات وخمس وأربعين دقيقة“.

”وقبل ذلك بقليل؟“

فكرت بيكس ثم قالت: ”قلتُ لليام وبوب أنني سأكون على ما يرام قبل فتح بوابة الزمن بسبع ساعات وثلاث دقائق“.

”بربك يا بيكس... عودي أكثر إلى الورا... هل تذكرين حدوث شيء مهم؟“

استعرضت بيكس ذكرياتها بصمت لبرهة ثم نظرت إلى مادي أخيراً وقالت: ”كنتُ أتحدث مع جون قبل فتح البوابة بثمان ساعات وست وخمسين دقيقة“.

”ماذا قلت له بحق الجحيم يا بيكس بالضبط؟“

رفرف جفني بيكس رغماً عنها وقالت: ”ينبغي على الرجل أن يدافع عن نفسه ولو مرة واحدة في العمر... وإلا سيكمل ما بقي من عمره وهو

يحترق بنار الندم“.

نظرت مادي إلى آدم الذي أصابته الدهشة وقال: “إنها كلمات شعرية مؤثرة جداً“.

< أنا أبحث عن مصدر الشعر هذا، دقيقة من فضلكم.

التفتت إلى بيكس من جديد وقالت لها: “هل تعتقدين أن أبيات الشعر هذه قد غيّرت بشكل ما مسار التاريخ“؟

“أظن أنها ألهمته بشكل ما. كان جون يفكر بالاستسلام الفوري لأخيه على الرغم من أن التاريخ الصحيح يقول أنه صمد في وجهه خمسة أيام... ولهذا قررت أنه يحتاج إلى بعض... التشجيع“.

تنهدت مادي وقالت لها: “احزري ما الذي حصل؟ يبدو أنك غيرت التاريخ بكلامك هذا“.

< مصدر الشعر هو كلمات أغنية لفرقة موسيقى الروك: (EssZed)

“نعم... شكرًا يا بوب. أنت تعتقدين يا بيكس بأن كلامك هذا ساهم في...“

“كما أنني عرضت نفسي عليه“.

فغرت سال فمها من شدة الدهشة وسألتها: “هل تعنين أنك...“؟

نظرت إليها بيكس من الأعلى وقالت: “عن طريق الزواج“.

“إذا قام ب... ماذا؟ إذا أثبت لك قوته وشجاعته؟ إذا وقف في وجه أخيه“؟ قالت مادي.

“تماماً“.

هزت مادي رأسها وقالت: “حسناً يا بيكس... يبدو أنك شجعتة جيداً“. ثم التفتت إلى الشاشة وسألت بوب: “بوب... ما هما المساران الزمانيان المختلفان اللذان نتجا من هذه الحادثة“؟

< لا توجد أي معلومات لأن التغييرات سريعة جداً مما لا يسمح لها بتشكيل تاريخين مختلفين ثابتين.

“ألهذا لم نسجل مرور أي موجة تغيير زمنية“؟ سأله آدم.

< صحيح. لكن هذه الحالة المتأرجحة غير مستقرة وخطرة.

رفعت مادي نظارتها وسألته: "خطرة؟ ماذا يعني هذا بالضبط؟"

< إنها تسبب ضغطاً كبيراً على حدود الواقع.

نظر آدم إليها وسألها: "وما هي حدود الواقع؟" فأجابته مادي بسرعة:

"إنه النسيج الذي يفصلنا عن الفضاء العشوائي". ثم سألت بوب:

"ما الذي يفترض بنا فعله يا بوب برأيك؟"

< يمكن لعدم الاستقرار هذا أن ينتهي وحده، ويمكن له أيضاً أن يتفاقم بشدة.

"وإذا ما جرى هذا... إذا ما تفاقم الأمر كثيراً نحو الأسوأ...؟"

< لا أملك أي معلومات.

فقالت مادي بصوت عالٍ ساخط: "لا تملك أي معلومات؟ لكن..."

هذا ليس شيئاً جيداً أليس كذلك؟"

< لا ليس أمراً جيداً. لقد كتب كل من والدستاين وتشان عدّة مقالات عن الفضاء

العشوائي وهي موجودة جميعاً في ذاكرتي.

"هل يمكنك تلخيصها لنا؟"

< الفضاء العشوائي هو بُعدٌ تتناقض فيه قوانين ميكانيكا الكم. نظرياً... يمكن

لمثل هذه التناقضات أن تدمر الأبعاد العادية كلياً.

"ماذا يعني هذا؟ هل يمكن لهذا أن يدمر الأرض بكاملها؟"

< لا، لن يدمر الأرض وحدها، بل سيدمر كل شيء.

"كل... كل شيء؟"

< الكون بكامله.

شعرت مادي فجأة بدوار وانقطعت أنفاسها وقالت: "يا للهول..."

يا إلهي... لقد... لقد خربنا كل شيء". وعبثت بيديها المرتجفتين بين

الأغراض المرمية بفوضى على مكتبها بحثاً عن بنّاخها الأنفي ثم عادت

تقول:

"لقد..." فوضع آدم يده على ذراعها وقال لها:

"مادي... اهدأي يا مادي... هيا... لا تفقدي أعصابك".

وجدت مادي بَخاخها الأنفي فضغطت عليه بشدّة مرّات عدّة وانهارت على كرسيها ووضعت رأسها بين ركبتيها وبدأ للجميع أن صوت لهاثها الذي يخرج من حلقها قريب من صوت منفاخ الحداد. فوقفت سال بجانبها وأحاطت كفيها بذراعها وقالت لها:

”مادي... هل أنت بخير؟“

فهزّت رأسها وقالت: ”لحظة... انتظري لحظة“.

نظر آدم إليها وقال: ”كل هذا خطأ... ألا توافقونني؟ منظمتكم هذه...“

إنها...”

”نحن ما زلنا نتعلّم“. ردّت عليه سال بحدّة مدافعة عن الفريق: ”لقد مررنا بأوضاع أسوأ من هذا“. ثم انحنت وأبعدت الشعر من أمام وجه مادي وعادت للقول: ”أليس كذلك يا مادي؟ ألم نتجاوز أوضاعاً أسوأ من هذا؟“

تنشّقت مادي المزيد من بَخاخها الأنفي ثم رفعت رأسها وقالت وهي ما زالت تلهث: ”نعم... نعم... بوب؟“

< نعم يا مادي

”لا بدّ لييكس وكابوت من العودة إلى الماضي مع الكأس حالاً. ابحث لنا عن أفضل بوابة ممكنة، ولتكن أقرب ما يمكن للقلعة من فضلك“.

< حاضر. أنا أبحث.

فقال آدم: (لكن الوضع غير مستقر... أليس كذلك؟ كمبيوترك يحاول أن يقول لك أن إرسالهما بهذا الوضع ينطوي على مخاطرة كبرى“.

”الوضع دائماً ينطوي على مخاطرات كبرى يا آدم“. تمتمت مادي منهكة، ثم أجبرت نفسها على النهوض وجلست باستقامة لتواجه شاشة الكمبيوتر من جديد وسألته: ”بوب... هيا... اقترح أي شيء!“

< أمهليني دقيقة، أنا أبحث عن حل.

تفقدت مادي آلة الزمن فوجدت أنها انتهت من الشحن وباتت جاهزة فالتفتت إلى سال وقالت لها: ”أنزليهما إلى الماء يا سال. فليستعدوا“.

أومات سال وأسرعت إلى حوض الماء. فسأل آدم مادي بعد خروج سال:

”ما الذي يمكن أن يحصل لهما ما دام الوضع غير مستقر؟“
”يمكن أن ينتهي بهما الأمر بانقلاب أحشائهما إلى الخارج وجلدهما إلى الداخل ليبدوا كطبق من اللازانيا.“
”آه... أتمنى لو أنني لم أطرح هذا السؤال.“
”ويمكن أن يحصل ما هو أسوأ من ذلك.“

استهجن آدم من تعليقها فقال: ”أسوأ من ذلك؟ كيف يمكن أن يحصل للمرء شيء أسوأ من ذلك؟“

أجابته بصوت خافت: ”يمكن لهما أن يعلّقا داخل الفضاء العشوائي.“
ثم التفتت إليه لتتظر إلى عينيه مباشرة وسألته: ”أخبرني... هل تؤمن بالبحيم؟“

هز رأسه وقال: ”هل تمزحين؟ أنا... لا... بالطبع لا أؤمن بوجودها، إنها ادعاء من ادعاءات الكنيسة الكاثوليكية... ليست سوى هراء ديني قديم.“

”هذا ما كنت أعتقد من قبل، ولكن أنت تعرف... أتساءل... هل هي محض ادعاء بالفعل؟“

أومضت نافذة الحوار مع الكمبيوتر فجأة في هذه اللحظة وكتب بوب لها:

< وجدت نقطة زمنية ثابتة حالياً. مكتبة الرمحي أحمد

”كم تدوم من الوقت؟“

< لا توجد معلومات حول كم ستدوم من الوقت، ربما لا تتجاوز ثوان عدة.

”ابدأ العد العكسي لفتح بوابة الزمن بعد عشر ثوان، الآن.“

< حاضر.

التفتت فشاهدت بيكس تغطس في الماء وهي تحمل كيساً بلاستيكياً مقفلاً بسحاب كي لا تتسرب الماء إلى صندوق الكأس الموجود بداخله،

بينما وقف كابوت في أعلى الحوض وهو يقيس برودة الماء بإصبع قدمه ويسأل سال:

”ولكن أخبريني أيتها السيدة الشابة... لماذا يفترض بنا النزول إلى...؟“

”أنزليه إلى الماء حالاً“. صاحت مادي ليرتفع صوتها فوق أزيز الأجهزة الكهربائية وهممة آلة الزمن التي تستعد للانطلاق.

تسلّقت سال السلم وقالت له: ”سيد كابوت، عليك أن تنزل الماء حالاً... من فضلك“.

والتفتت لتنظر إلى العدّ العكسي على الشاشة.

أربعة... ثلاثة... اثنان...

”ادفعيه إلى الماء“.

أومات سال برأسها ودفعت بالراهب بكل طاقتها فترنّح للحظة ولوّح ذراعيه في الهواء في محاولة منه للمحافظة على توازنه قبل أن يسقط في الحوض ويتسبب نزوله بموجة صغيرة من الماء امتدت إلى الجوانب وسالت على الأرض. ترنّح السلم بسبب نزول سال المفاجئ والسريع ثم قفزت بعيداً عن الحوض فارتطمت بخفة بالجدار بينما انزلقت قدمها على الأرض الرطبة وانتهى بها الأمر رف مليء بالكابلات وعلب المعدات فوقعت الأغراض عنه فوق رأسها على الأرض في اللحظة التي أطلقت فيها آلة الزمن كامل طاقتها. تقلص الحوض البلاستيكي بعنف وقوة فصدر عنه صوت انفجار صغير في اللحظة التي اختفى فيها كل من بيكس وكابوت والماء ليظهرا فيما بعد في القرن الثاني عشر.

تلوّت سال على الأرض فوق كومة الكابلات التي وقعت بسبب الاصطدام قبل لحظات ونادت علي رفاقها ليساعدها لأن مفصل يدها أصيب بالتواء، وتردد صدى الانفجار الصغير في أرجاء المستودع متلاشياً ببطء، وتساءلت مادي كيف يمكن أن يتعلق مصير البشرية بكاملها، وربما مصير الكون بأكمله بأيادي شبانٍ صغارٍ هواةٍ تعوزهم الخبرة مثلهم.

الفصل الواحد والثمانون

نوتنجهام، ١١٩٤

هبط المسافرين داخل سور القصر، وتردد صدى انبثاق ثلاثين غالوناً من الماء بين الجدران الحجرية الطويلة، إذ سقط كابوت على جانبه فوق الأرض المفروشة بالحصى بقوة فصاح من شدة الألم، بينما حطّت بيكس على قدميها جاهزة للحركة مباشرة.

كان القصر نفسه خالياً من أي حركة، لكنّ الجنديين الذين يحرسان بوابته هرعا من تحت ظل البوابة البارد بحثاً عن سبب الضجيج المفاجئ، فحملقا بدهشة عظيمة بالراهب العجوز والمرأة التي لم تكن ترتدي سوى مشدّ جلديّ على جذعها وجوارب صوفية سوداء على طول ساقها.

”أين إيرل كورنوال؟“

”ليس هنا يا حبّتي... إنه يقاتل“. أجابها أحد الحراس ثم خطر له فجأة أنه ربما لا ينبغي أن يكونا هنا فصاح: ”ولكن... هل أنتما جاسوسان؟ توقفا مكانكما“.

سلّمت بيكس الصندوق لكابوت بهدوء بعد أن ساعدته ليقف على قدميه واقتربت من الحارسين وهي تفتح ذراعيها وترسم على وجهها أفضل ابتسامة ممكنة ثم قالت: ”دعوني أشرح لكما“.

بعد عشر ثوان كانت قد طرحت كل منهما أرضاً، بعد أن قتلت الأول وكسرت ذراع الثاني. رمت بيكس بسيف أحدهما إلى كابوت وهما يركضان خارج القصر عبر البوابة المفتوحة، ثم عبرا الجسر وسارعا إلى وسط المدينة عبر الطريق الرئيس المغطى بالطين الجاف إلى أن وصلا إلى السوق وتبعا صوت الضجيج المتصاعد من المعركة المستعرة التي تدور رحاها عند الثغرة في السور.

ازدحم السوق بالجرحي المتألمين وصرخاتهم، كان هناك كثير من الرجال والفتيان الذين بُترت أطرافهم، والعديد ممن شُجحت رؤوسهم ووجوههم، وجنود مصابون بجراح قاتلة لا محالة. وكان الأولاد الذين يحملون الماء والخرق المبللة بالدم ينتقلون بينهم ليقدموا ما بوسعهم من مساعدة، متجاهلين تماماً السهام التي تنهمر من السماء عليهم بين الحين والآخر وتسقط فوق الحجارة أو تنغرز في الأرض.

أمامهما، شاهدا إلى يمين بوابة المدينة الرئيسة فجوة في الجدار تبلغ خمسة وسبعين قدماً، طافحة ببحر متلاطم من البشر المتصارعين عليها... جنود ومدنيون، رجال عجائز وشبان صغار، وبعض النساء أيضاً، هم متلاصقون جميعاً كتفاً إلى كتف في كتلة متماوجة متلوية متشابكة. وعلى جانبي الجدار شاهدت بيكس جنوداً ومدنيين يطلقون السهام وأولاداً يرمون الحجارة على المهاجمين الأعداء الذين يقفون خارج السور في محاولة جبارة من المدينة بكاملها للدفاع عن نفسها. ويبدو أنهم كانوا يقومون بعمل جيد حتى الآن لأن الشمس تجاوزت منتصف السماء وأصبح الوقت حوالى منتصف العصر.

أدركت بيكس أنّ تأرجح خط سير الزمن ما بين احتمالين ينبع من هذا الصراع الذي يمكن أن ينتهي بحالين لا ثالث لهما. وعلى الرغم من أن جيش ريتشارد كان أعظم عدداً بأضعاف من سكان نوتنجهام، إلا أن دافعهم للقتال ليس سوى المال، لأنهم مرتزقة في النهاية. بينما يحارب سكان نوتنجهام للدفاع عن حياتهم.

إذا تمكن المدافعون من منع المهاجمين من اختراق المدينة لفترة كافية... إذا طالت المعركة يوماً آخر، ثم يوماً آخر بعده، فمن الممكن أن يتراجع النبلاء المجتمعون مع جنودهم المسلحين عن مواصلة القتال وأن ينهار تحالفهم الأناني مع الملك.

فحصت بيكس خط القتال الأمامي فوجدت بوب فوراً لأن كتفيه ورأسه كانا يبرزان فوق رؤوس الجميع.

أخذت الصندوق الخشبي من كابوت ودسته تحت ذراعها وأمرته قائلة:

”ابق قريباً مني“. ثم شقت طريقها عبر السوق المليء بجثث الموتى وأجساد المحتضرين والسهام المغروزة في الأرض الطينية القذرة كسنايل القمح الجديدة.

صعدت بيكس تلة الحجارة أسفل الثغرة وهي تبعد الرجال المنهكين عن طريقها وتفحص الوجوه بحثاً عن ليام وعن جون، ثم وقعت عيناها على جندي من جنود الحامية وهو ينزل التلة منهكاً مضرج الوجه بالدماء فأمسكت بياقته وسألته: ”أين إيرل كورنوال؟“

هز رأسه فأدركت أنه لم يسمعها بسبب إوار الحرب الدائرة والصرخات الهادرة وارتطام السيوف والدروع الحديدية بعضها ببعض. فصرخت في أذنه مباشرة هذه المرة: ”أين جون؟“

أشار الرجل بإصبع مرتعش إلى أعلى التلة وقال: ”إنه يحارب معنا“. اندفعت بيكس بعيداً عنه ووطأت قدميها فوق الجثث المرمية أرضاً والأجساد المحتضرة المتلوية من الألم تحت الأقدام، وعندها سمعت صوت بوب الجمهوري وهو يوجه التعليمات بالحاح إلى الجنود بغضب عظيم بدا لها أنه يملأ المكان بكامله، وشبهته بصوت حوت أو فيل غاضب يصرخ في وجه مهاجميه.

شاهدت رأسه وكتفيه مجدداً فأدركت من بطء حركاته وترددها أنه يستنفد قواه بسرعة، وأن التعب قد أنهكه، وربما كان فقدان كميات كبيرة

من الدم هو ما أوصله إلى هذه المرحلة، وربما كان السبب في ذلك هو الأمرين معاً.

كانت بيكس قد وصلت إلى أعلى تلة الحطام والجثث تقريباً عندما سمعت صوت بوق بعيد يطفئ على الأصوات المتنافرة الصادرة عن القتال. توقف صليل السيوف والدروع فوراً تقريباً لأن المتصارعين على جانبي التلة توقفوا عن القتال وفَضُّوا الاشتباك، وتبادلوا صيحات التعب والإرهاق والسخرية في أثناء انسحاب جنود ريتشارد ليحصلوا على استراحة أخرى لشرب الماء.

اغتنمت بيكس فرصة توقف القتال لتقطع الياردات القليلة التي تفصلها عن رفاقها ثم نادَتْ: ”بوب“.

استدار إليها ببطء ورفرت عيناه في محاولة منه للتعرف إليها، وربما كان السبب في ذلك هو شعوره بالارتياح لرؤيتها، فقال: ”بيكس“.

”يجب أن أعرف مكان جون وليام“.

قبل أن يتمكن بوب من الإشارة إلى مكانهما سمعت بيكس صوت ليام يناديها متعجباً: ”بيكس“!!

التفتت بيكس إلى مصدر الصوت فرأته يحشر نفسه ليصل إليها من بين الرجال الجرحى المضرجين بالدماء الذين يهبطون المنحدر للوصول إلى حاملي المياه، ثم تقدم محاولاً عدم الدوس على كثير من الجثث ووصل إليها أخيراً وأحاطها بذراعيه لشدة الارتياح الذي شعر به لرؤيتها ثم قال: ”اعتقدت أننا فقدناك... ظننتُ ذلك بالفعل“. ثم أخفض صوته وقال هامساً: ”ظننتُ أنكِ ستفتحين بوابة للعودة في اللحظة التي تلت لحظة مغادرتك“.

أومأت برأسها وقالت: ”تعرضنا لصعوبات... هذه المعركة تُسبب حالة عدم استقرار كبير...“ ثم نظرت إلى أعداد جثث القتلى من الأعداء المرمية خارج السور وقالت: ”أنتم تبلون بلاء حسناً على الرغم من ذلك“. قال ليام ضاحكاً: ”بلاء حسناً؟ لا بدّ من أنكِ تمزحين... دفعة واحدة

أخرى وسيدخلون المدينة“.

استهجنّت بيكس وقالت: ”قد لا يحصل هذا. شارف النهار على نهايته مما يعني أن القتال سيتوقف لهذا اليوم. وإذا استمرّ الحال هكذا طوال الغد فستضعف همّة المهاجمين وتقوى عزيمة المدافعين“. وفي هذه اللحظة وجدت بيكس جون، وكان يبدو مرهقاً وغارقاً بالعرق تحت ثقل خوذته ودرعه الحديدي الملطخ بالدماء، لكنه يتكلم بحيوية على الرغم من ذلك مع الجنود الآخرين وقد ملأته الحماسة وهو يتقاسم الماء معهم بكل أريحية.

جون هو في خطر أن يتحوّل إلى قائد عظيم مُلهم لشعبه. أشارت برأسها باتجاهه وقالت لليام: ”إن قوته فيّ ازدياد“. تبع ليام إشارتها وفهم ما ترمي إليه فقال: ”هذه... هذه المعركة... تُغيّره... أليس كذلك؟ إنها تُغيّر قدره“. أومأت برأسها موافقة وقالت: ”إنه يتسبّب في تغيير خط سير الزمن“. لاحظ ليام الصندوق الذي تتأبّطه فسألها: ”لقد أعدته معك... هل يعني هذا أنكم...؟“

قامت بيكس بإنهاء الكلام بدلاً عنه فقاطعتها قائلة: ”نعم. يمكننا تسليمها لريتشارد الآن. لن يفهم منها أي شيء“.

تناهى إلى سمع ليام حديث يدور بين جون وكابوت، إذ كان الصديقان القديمان يسلمان على بعضهما، ثم أشار الراهب إلى أعلى التلة نحو بيكس وشاهد ليام الارتياح والبهجة اللذين ارتسما على وجه جون على الفور، وما لبث الرجلان أن تقدما باتجاههما وعندما وصلا لاهتين قال جون ما بين الأنفاس المتلاحقة: ”سيّدتي“.

نظر بوب وليام بإعجاب إلى بيكس التي بدّلت فوراً من طباعها الرجولية وتحوّلت إلى الأنوثة قائلة بكل نعومة ممكنة وابتسامة لطيفة لا ترسمها لأحد سواه: ”مولاي“.

قاطع كابوت لحظة اللقاء الحميمة هذه قائلاً: ”مولاي... إنها هنا

بحوزة الليدي ريبيكا“. وكان الراهب حريصاً على عدم التفوّه بكلمة الكأس كي لا ينتقل اسمها إلى الأسفل ويعرف المهاجمون بأمرها، ثم قال: ”يمكنك الآن أن تتفق مع ريتشارد“.

زفر جون الهواء الذي ب صدره هائلاً وقال: ”لن أنحني له أبداً... لذلك الحيوان... لن يحصل ذلك مجدداً أبداً“.

مدّت بيكس يدها إلى وجهه ولا طفت خده وقال: ”لقد أظهرت للجميع اليوم شجاعتك وعزة نفسك... لقد أثبتت قوتك للجميع يا عزيزي“. قال كابوت: ”سيحترم الملك وقفتك هذه كثيراً... لقد قاتلته بكل ندية يا مولاي“.

بصق جون كمية من البلغم على الأرض وقال: ”سأقطع يده قبل أن أقبل خاتمه الملكي مرة أخرى“.

”لقد قمت بكل المطلوب يا مولاي... عليك الآن أن تضع بنود معاهدة السلام مع أخيك“.

”إذا لم تتفق معه ستخاطر بتقسيم البلاد إلى مملكتين متحاربتين يا مولاي“. قال كابوت.

تأملهما جون ملياً ثم أشار إلى ليام وسأله: ”ما قولك أيها العمدة؟ لقد حكمت المدينة بشكل جيد طوال الفترة الماضية... ولهذا أحب أن أسمع رأيك لأنني أثق برجاحة عقلك“.

مسح ليام جبينه الملوّث بالسّخام والعرق وقال: ”أعتقد أنهم على حق يا سيدي، يجب ألا يموت أحد آخر هنا اليوم“. ثم زمّ شفّتيه وأشار بعينه إلى الصندوق وقال: ”وما قد بات التفاوض بشروطك الخاصة التي ترضيك في متناول يدك من جديد يا مولاي“.

فرك جون ذقنه متفكراً لبرهة ثم قال: ”لكنّ أخي يشكل خطراً على مملكته... حروبه التي لا تنتهي وحملاته المتلاحقة، وهو سه بهذا الشيء...“

اقتربت بيكس منه وهمست في أذنه: ”مولاي...“ فتبدّلت تعابير وجهه

جون ببطء وهو ينصت لكلامها. ثم قال لها بصوت خافت بعد لحظات:

”من أين عرفت هذه الأمور؟“

فابتسمت له وقالت: ”عليك أن تثق بي في ما يخص هذا الأمر“.

تأملها بصمت فترة طويلة من الوقت ثم قال: ”ليدي ريبيكا... لم أقابل في حياتي شخصاً بمثل هذا...“ وهز رأسه وهو يبحث عن الكلمة الملائمة فهيمست له مجدداً:

”ثق بي... سيأتي دورك للحكم في ما بعد“.

بدت معالم الحزم على وجه جون ثم أوماً برأسه بعد قليل وقال ببطء: ”سأتكلم معه إذا“.

الفصل الثاني والثمانون

نوتنجهام، ١١٩٤

لاحظ جون نظرات الدهشة في عيني أخيه الأكبر عندما دخل الخيمة المعتمة، ثم خاطبه بصوته الأجش النابض بالسخرية:

”أخي الأصغر... يبدو أنك لوّثت يديك أخيراً بدماء المعارك“.

تقدّم جون إلى الأمام من دون أن يقول شيئاً فضحك ريتشارد وقال:

”أنت تفاجئني... يبدو أنك كبرت أخيراً وتوقفت عن التمسك بثوب مربيتك. أظنّ أنّ السبب الذي دفعك أخيراً للإمساك بسيف والمشاركة في معركة حقيقية هو أنك بدأت تعتبر نفسك رجلاً... ما زلتَ صبيّاً يسيل المخاط من أنفه في نظري، لكنني أقدرُ لك مبادرتك في اتخاذ الخطوة الأولى هذه“.

أجاب جون بسخريته وبنظرة متجهّمة قائلاً ببرود: ”أشكرك“.

وقف ريتشارد وقال: ”والآن... لننتقل إلى موضوعنا. هل الكأس في

حوزتك؟“

سحب جون اللفافة من جيب سترته فأوما ريتشارد برأسه بهدوء فلمح

جون شفتي أخيه الزهريتين اللتين تقلّصتا تحت شاربه الأشقر الخشن وهو

يقول:

”أنت لا تملك أي فكرة يا أخي عن حقيقة الأمر أليس كذلك؟ أنت لا تملك فكرة عن القوة التي يمكن لهذه اللفافة أن تقدّمها لك... أنت لا تعرف معنى الكلام المكتوب على طول ياردة كاملة عليها؟“
”إنها مجرد كلمات“.

ملأت ضحكة ريتشارد الرنانة كل أرجاء الخيمة وقال: ”مجرد كلمات؟ هذا ما يعتقد... مجرد كلمات. أنت أبله بلا شك. إنها رسالة من الله، رسالة أرسلها إلى الأرض قبل ألف عام ، وقد كانت موجهة لي من البداية، ألا تفهم الأمر؟ كلّ الحروب التي خضتها والحملات الصليبية التي خرجت على رأسها كانت بأمر شخصي من الله... لقد كلّمني وأخبرني عن المكان الذي سأجد فيه رسالته، ثم تأتي أنت وتحاول سرقتها مني؟ وهل تفكر الآن بمفاوضتي عليها؟“ احتقن وجهه وتابع كلامه:

”ساقطع لسانك يا أخي الأصغر بكل سعادة وسأقتلع عينيك من محجريهما وأرمي رأسك في العراء ليكون عشاء للغربان لمجرد تجرؤك على التدخل في قدرتي، ولكن... لقد أظهرت الشجاعة في قتالك لي اليوم وقد أعجبني ذلك منك“. وابتسم له قليلاً ومدّ يده لجون وقال: ”والآن... أعطني الكأس وسأفكر بأن أعام لك بقليل من الرأفة“.

”وماذا عن شعب نوتنجهام؟“

عبس ريتشارد حتى اتصل حاجباه ببعضهما وقال: ”هل تكثر حقاً لمصير هؤلاء الرعا“؟

”لقد قاتلوا بشجاعة“.

”ليسوا سوى حيوانات مزارع يا أخي الأصغر... إنهم الثيران التي كُتب عليها أن تتحمّل عبء كل ما يجري... لقد حاربوا لأنهم أمروا بذلك... ليسوا أكثر إقداماً من أي حصان... لأن فارسه هو من يأمره بالتقدّم إلى الأمام“.

”أنا أطلب الرحمة في الحكم عليهم“.

”لقد عاد ملكهم“. قال ريتشارد بحدّة ثم أردف: ”هؤلاء... هؤلاء الحشرات تجرّوا على تحدّي سلطتي... سيضمن لي قطع رؤوس مئات منهم وتعليقها فوق الحراب على جانبي طريق سوق نوتنجهام أن لا أضطر مرة أخرى للتعرّض لمثل هذا الموقف“.

شعر جون بعزيمته تضعف فاعترض قائلاً: ”لكنهم كانوا يدافعون عن منازلهم لا غير“.

”أعطني الكأس“.

لا تضغط عليه كثيراً... ما زال قادراً على الأمر بقطع رأسك. دعاه ريتشارد بحركة من أصابع يده لتسليمها له وقال: ”الكأس... الآن“.

تمسّك جون بها بشدّة أكبر وقال: ”أعطني...“

اتسعت عينا ريتشارد بدهشة من جديد وسأله: ”أعطيك؟ أعطيك؟ أنت تطلب مني أن أعطيك؟ سأعطيك ما قرّرت أن أعطيك إياه بالضبط، وإذا كنت تقصد حياتك فإنني سأتركك على قيد الحياة فقط، وفقط لأنه لا ينبغي بالدم الملكي أن يُراق تحت أنظار الرعا“.

عرف جون أنّ أخاه يحاول جاهداً السيطرة على غضبه المستعر، ولاحظ خديّه المحتقنين وعروقه النابضة على جبينه.

اضغط عليه بعد قليلاً... وقد ينتهي الأمر بقطع رأسي الآن وفوراً. شعر جون بأن العنفوان الذي دخل به الخيمة قد تلاشى الآن فقال: ”أنا... أنا أصرّ على الحصول على وعد منك بعدم التمثيل بجثثهم“. تقلّصت عينا ريتشارد وقال بصوت خافت: ”لا تفاقم شدّة غضبي يا أخي الصغير... كنت صبوراً معك بما فيه الكفاية“.

أسرع جون ورفع المخطوطة فوق الشمعة الكبيرة المشتعلة في منتصف الخيمة فصاح ريتشارد: ”توقف“!

”سأحرقها يا أخي... سأحرقها“.

حملق ريتشارد بعينين جاحظتين بالشمعة وبطرف المخطوطة التي لا

تبعد عنها سوى إنشأت قليلة ثم اسودَّ وجهه من شدة الغيظ وارتجفت شفتاه ومدَّ يده ليسحب سيفه من تحت عباءته، ثم... وعلى حين غرّة، وكما تشرق الشمس مختربة بأشعتها السحب الرمادية الممطرة... انقلب حال أخيه وضحك فجأة وقال:

”يا للهول... لقد اكتسبت بعض الروح القتالية أيضاً“.

لم يحرك جون ساكناً وأبقى المخطوطة حيث هي.

”ليكن... أنا أعطيك كلمتي“.

”لن تعاقب مدينة نوتنجهام؟“

هز ريتشارد رأسه ببطء وأجاب ”لن أعاقبهم“.

تنفّس جون الصعداء وشعر بارتخاء في أمعائه لكنه حاول جاهداً كبت شعوره بالراحة داخله وقال بكل هدوء ممكن:

”يمكنك الآن الحصول على مخطوطتك“. ثم مدَّ يده بها إلى الملك ريتشارد الذي أخذها منه وفتحها قليلاً ليتأكد من أنها الكأس الحقيقية وفحصها بصمت لبرهة ثم لفّها ثانية وقال:

”باعتبار أنني الملك، فإنّ كلمتي هي قانون بحد ذاتها“.

”هل ستفي بوعدك؟“

أوما برأسه بالإيجاب وقال: ”سأفعل. والآن... اركع أمامي وقبل يدي“.

اعتدل جون في وقفته وتناول نفساً عميقاً ثم انحنى ليقبل يد ريتشارد الممدودة أمامه.

”ستشهد يا أخي على إقامة مملكة تمتد من هذه الجزيرة البائسة الرطبة المسماة بإنكلترا حتى أورشليم... مملكة واحدة للرب... مملكة واحدة تحت حكمي أنا“.

حاول جون أن يرسم ابتسامة صغيرة على وجهه وهو يزعم شفثيه. شيء ما في الطريقة التي قالت بها الليدي ريبكا الكلمات التي همست بها في أذنه جعله متأكداً من تحقق ما تنبأت به لمستقبله.

لن تقيده الكأس في شيء يا جون... وستصبح الملك بعد أقل من خمس سنوات من الآن.
أمره ريتشارد: "قَبْلَ يدي".
تمتم جون: "نعم... نعم بالتأكيد".

الفصل الثالث والثمانون

نيويورك، ٢٠٠١

وقف آدم بجوار سال وتأملا الظلام المحيط بهما.. أميركا، أو على الأقل ما يمكنهما رؤيته منها، ليست سوى براري مظلمة مليئة بأشجار الأرز التي تظللها سماء الليل الصافية، ونور القمر الساطع ينعكس على أمواج النهر الرقيقة المتلاحقة، فهمس آدم:

”إنه يشبه... هذا يماثل تصوري لقارة أميركا قبل أن ترسو سفينة كولمبوس هنا... هناك في مكان ما تعيش بلا شك قبائل الأمريكيين الأصليين.. إنهم يتجولون في الأنحاء أحراراً ويعيشون كما كانوا يعيشون في القرن الخامس عشر“.

أومات سال برأسها وقالت: ”إنها تعجبني هكذا أكثر... بلا سّكان“.

”أخبريني يا سال... قالت مادي أنك أتيت من العام ٢٠٢٦؟“

”نعم..“

”أخبريني... ما شكل ذلك العالم في المستقبل؟“

”إنه مكان مزدحم معقد يسوده الصخب... المكان الذي كنا نعيش

فيه كان كذلك على الأقل“.

”هل كان يحتوي على أي... تقنيات مذهلة؟“

”مثل ماذا؟“

”لا أعرف... كالسيارات الطائرة أو ما شابه.“

قالت سال باستياء: ”لا... كل ما هناك هو أكوام من السيارات القديمة المهترئة. الهواء ملوث بالسموم وما شابه بعد المشكلات التي حصلت في الشمال.“

”المشكلات؟“

”إرهابيون وتفجيرات... حوادث قامت بها طالبان باكستان. وقد قلق أبي من نتائجها على الهند، بالإضافة إلى المناطق التي ضربها أكثر من طوفان وتسببت بحركات هجرة جماعية.“

أنصتا معاً صامتتين لصوت الغابات ولأحد طيور مالك الحزين ولهدير أمواج النهر الخافتة على الضفاف القريبة المفروشة بالحصى. ثم قال آدم:

”لا يبدو المستقبل رائعاً بالنسبة إليّ.“

”نعم... أنا أذكر... لقد بدا كل شيء...“ وحاولت جاهدة أن تجد الكلمات الملائمة ثم أردفت: ”موقتاً جداً... لا يمكنك الاعتقاد على أي شيء لأنك تعرف مسبقاً أنه لن يدوم طويلاً.“

”يا إلهي... إنه مستقبلي أيضاً... بعد خمسة وعشرين عام من الآن، ساكون في الثانية والخمسين من العمر وأتساءل إن كنت سأظل في نيويورك.“

”لن تكون الحياة في نيويورك على ما يرام، سيدأون بإخلاء مناطق منها.“

”بسبب الطوفانات؟“

”نعم، وبسبب الجرائم الكثيرة وقلة الطعام وما شابه، كما كان يحصل في مومباي.“

”يا إلهي... يبدو لي من كلامك أن المستقبل محببٌ جداً.“

”أسفة“. اعتذرت بلطف.

”لا تعتذري، إنه ليس خطأك يا سال... أشكركِ على... أنتِ تفهمين قصدي... على صدقك في ما قلته لي“. ثم زمّ شفّتيه وقال بعد برهة: ”هذا يجعلني أتساءل عما يدفعنا لتحقيق أي شيء ما دام هذا هو الحال الذي ستؤول إليه الأمور... أقصد... لماذا أكدّ في عملي في مجال الاستشارات؟ لماذا أدّخر الأموال لتقاعدتي الذي يبدو من كلامك أنه سيكون... كابوسياً“.

”لن يكون كابوسياً سوى على الفقراء... أما الناس الذين يملكون كثيراً من المال فلن يكون سوى...“ وتردّدت قليلاً... ”سال؟ ما الأمر؟“

نظرت إلى عينيه وقالت: ”أعتقد أن هناك موجة زمنية قادمة“. تلفتت حولها ثم اتجهت إلى البوابة المنزلة ونادت من تحتها: ”مادي... موجة زمنية... قوية جداً“.

سحبت مادي نفسها من السرير غصباً وترنحت غائمة العينين من شدة النعاس للانضمام إليهما بجانب البوابة. فقالت سال مشيرة إلى الناحية اليمنى: ”إنها هناك“.

شاهد الجميع جداراً قائماً يقترب متدحرجاً فوق صفحة المحيط الأطلسي وهو يبدو كسلسلة جبال تتقدّم بسرعة باتجاههم كما جرى في المرّة الماضية. فقالت مادي وهي تشير إلى طرف غرفة عملياتهم التي تصدعت تحت تأثير حقول الضغط المتتالية: ”من الأفضل لنا أن ندخل كي لا تنهمر فوقنا كل تلك الكتل الإسمنتية القادمة“. فتحرك آدم وسال بسرعة ودخلا متدحرجين على الأرض تحت البوابة المنزلة. ”ها قد وصلت... ادعوا لنا أن تعيدنا هذه الموجة إلى المسار الصحيح“. قالت مادي.

راقب آدم الجدار الأسود المتماوج يقترب منهم كموجة تسونامي عظيمة تحجب السماء والنجوم والقمر ثم قال وهو يشير إلى الغابات

والبراري الممتدة أمامه: "أنا أفكر إن كان من الأفضل لنا لو أبقينا الأمر على هذه الحال بعد أن عرفنا ما ستؤول إليه الأمور في المستقبل". فأجابته سال: "لقد فات الأوان على ذلك".

وصلت موجة الزمن إلى مانهاتن فارتجفت الأشجار الباسقات وارتعشت ثم تلاشت بطريقة لولبية في اضطراب زمكاني عظيم يحمل في طياته كل الاحتمالات. ظن آدم وهو يراقب الموجة وهي تعبر النهر باتجاههم أنه لمح ظل ناطحات السحاب وهي تتشكل في الأفق، وفي هذه اللحظة... مرّت الموجة من فوقهم فشعروا بريح قوية تعصف بهم، كانت الموجة كإعصار حقيقي مدّمر يعبر من فوق رؤوسهم للحظة من الزمن، يتلّع الواقع البديل الذي لم يكن مقدراً له أن يكون، ويُرسي بدلاً منه الواقع الأصلي الذي يُفترض به أن يوجد.

وفي لمح البصر... اختفت الموجة بنفس السرعة التي أتت بها. في الخارج... امتدّ الشارع الذي تتراكم على جانبيه الأكياس البلاستيكية وحاويات قمامة عدّة ويعمّه ضجيج نيويورك المعهود. خرجت سال أولاً ونظرت إلى الجهة اليسرى نحو النهر وأومات: "نعم... يبدو أننا عدنا إلى ديارنا سالمين".

انضم إليها آدم ومادي ليتأملا مانهاتن المتلاثلة والمبهرة في أثناء الليل، ونظرا إلى سمائها التي تومض فيها أضواء الطائرات التجارية التي ستهبط في مطار كينيدي الدولي ومطار لاغوارديا المجاورين، وتناهت إلى أسماعهم صفارة سيارة شرطة من بعيد واختلطت بهدير أحد مكبرات الصوت الصادرة بالأغاني.

إنها ليلة يوم الاثنين في نيويورك، والصخب ما زال على أوجّه، والأصوات عالية وكثيرة على الرغم من أنّ الوقت يقارب منتصف الليل. فقالت مادي:

"من الأفضل أن أتفق قاعدة البيانات للتأكد من أنّ التاريخ عاد إلى وضعه الطبيعي".

تأمل آدم وسال الليل لبعض الوقت صامتين، ثم قال آدم:
”لقد أحبيت مانهاتن في الوضع الذي كانت فيه قبل قليل“.
فوافقته سال بحزن: ”نعم... وأنا أيضاً“.

مكتبة الرمحي أحمد @ktabpdf تليجرام

الفصل الرابع والثمانون

يورك شاير، دير كيركليس، ١١٩٤

كان صباحاً بارداً، وبدلاً من السماء الزرقاء الصافية حجبت سحب كثيفة الشمس الحارقة وامتدت إلى عرض الأفق وبدأت أكثر كثافة غرباً. نظر كابوت من الإسطنبول إلى حقول الدير المزروعة بالخضار وقال: "يبدو أن الأمطار في طريقها إلينا، هذا جيد".

أعجب ليام بقدرة الرجل العجوز على التفكير بطريقة منطقية، على قدرته على العودة بكل هذه السهولة إلى حياة الدير ليتابع تأمله الهادئ ويعالج القضايا الحياتية البسيطة الخاصة بالأخوية الصغيرة بعد كل الحوادث التي مرّ بها.

"متى ستغادر؟" سأل كابوت ليام، فأجابه:

"قريباً. لدى بيكس وبوب جهازان في رأسيهما يقتلاهما إذا بقيا في مكان ما أكثر من الوقت المحدّد... وقد شارف وقتهما على الانتهاء. أليس كذلك؟"

أوما بوب برأسه وقال: "الوقت الباقي لانتهاء المهلة الزمنية: سبع وثلاثون ساعة وثلاث وأربعون دقيقة".

"ستُفتح بوابة العودة قبل انتهاء الوقت بقليل إلا إذا أرسلنا إشارة إلى

مكتب العمليات لفتح البوابة في وقت أبكر من ذلك". قال ليام.
قالت بيكس: "اقترح: لا ضرورة للتواصل مجدداً مع مكتب العمليات.
ستفي البوابة التي ستفتح بعد سبع وثلاثين ساعة بالغرض".
"أوافق على هذا". قال بوب.

أوما ليام وقال: "حسناً، هذا يعني أننا لسنا في عجلة من أمرنا".
انتهى حصار نوتنجهام بسلام علة الرغم من الخوف الذي اجتاحت سكان
المدينة مما يمكن أن يفعله الملك ريتشارد بهم، وفاجأهم جميعاً بعين الرأفة
التي نظر بها إليهم. وقد تذر من سلوكه هذا بعض النبلاء المجتمعين وعدد
من قادة الجيش الذين كانوا يطمعون في الحصول على حصص من الغنائم
عند سقوط المدينة.

أرسل جون إلى لندن بعد عفو أخيه عنه رسمياً، لكنه وضعه تحت
الحراسة لأنه لا يثق به كلياً. وسرت شائعات بأن جون سيبقى حبساً في
البرج كعقاب له لفترة غير محددة من الوقت.

وقد سُمح لبيكس أن تزوره مرة أخيرة قبل أن يرسلوه إلى الجنوب،
وقالت أنه بدا مرتاحاً جداً لأنه ما زال يحتفظ برأسه فوق كتفيه. وقالت في
تقريرها عن الزيارة لليام بعد أن طلب منها وصف ما شاهدته:

"كما أنني لاحظت سلوكاً مختلفاً جديداً عليه كلياً... لقد توقف
عن الارتجاف وكان نبض قلبه ضمن الحدود الطبيعية مما يعني أنه يشعر
بالراحة". قالت بمرح فضحك ليام من ذلك لأنه أدرك أنهما تعانقا مرة
أخيرة قبل افتراقهما. ثم قال كابوت:

"أعتقد أنه سيصبح ملكاً جيداً. لن يصبح مطلقاً قائد جيوش عظيمًا،
لكنه يملك ميزات أخرى لا يمكن إغفالها، كالتعقل والحذر والشفقة".
الشفقة؟ تساءل ليام في سرّه عن هذه الناحية.

إنه ممكن. سيحكم التاريخ على جون بقسوة، فقد قُدّر له أن يُعرف
بأسوأ ملك مر على عرش إنكلترا، على أنه الملك الذي لم يتمكن من
المحافظة على الأراضي الفرنسيّة التي حارب أخوه الأكبر والأقوى بكل

ما أوتي من قوة للمحافظة عليها، وعلى أنه الملك الذي وقَّع على وثيقة الماغنا كارتا التي اعترفت بحقوق الأشخاص الوارد ذكرهم بها بشكل قانوني، لكنه لم يوقَّع عليها إلا بعد الضغط الكبير الذي تعرَّض له من قبل نبلاء إنكلترا الشجعان، كما وصفهم التاريخ.

هذا هو التاريخ الصحيح، ويبدو أنهم قد تمكَّنوا من استعادته إلى أرض الواقع، وتعجَّب ليام في قرارة نفسه من أن يكون التاريخ الصحيح الذي سجلته كتب التاريخ والموسوعات إنعكاساً حقيقياً لهذا الماضي الذي يعايشه الآن. وسيتساءل جزء منه دوماً إذا ما كانت الماغنا كارتا، التي حرمت السلالة الملكية من أقوى امتيازاتها، نابعة من حرص النبلاء على تحصيل حقوق رعاياهم من الفلاحين... وما إذا كانت فكرة الملك جون، كعربون امتنان لسكان نوتنجهام الذين حاربوا من أجله، على الرغم من كل ما قيل عنه.

قاطع صوت بيكس أفكاره: "ليام"
"نعم"

"لدينا مهمة أخيرة أنا وبوب".

نظر ليام إليها وإلى بوب مستغرباً وسألها: "ما الأمر الآن؟"
أجاب بوب: "يعود تاريخ كتابة مخطوطة فوينتش إلى هذا اليوم. يجب كتابتها".

قالت بيكس: "علينا أن نكتبها بأنفسنا".

فغر فمه بدهشة ثم قال: "لحظة... هل تقصدان... هل تقصدان أن مخطوطة فوينتش هذه كانت مجرد...؟"

"لقد قمنا بكتابتها بأنفسنا، نعم. كتبناها لنضمن لأنفسنا زيارة هذا الزمن، في هذا المكان بالذات". أجابته بيكس.

عبس ليام محاولاً فهم ما جرى بطريقة منطقية ثم قال: "ولكن... هل يعني هذا أننا كنا هنا من قبل؟" وحكَّ صدغه الذي بدأ يزدان ببعض الشعر الأبيض.

”هذا يعني أنّ واحداً منا أو أكثر قد حضر إلى هنا من قبل في لحظة محدّدة من الزمن ليزرع بذرة مخطوطة فوينتش“. أجابه بوب.
”هل تعني أنّ واحداً منا سيأتي إلى هنا في المستقبل؟“
”تماماً، وبما أننا لا نملك فكرة عما سيجري فهذا يعني أنه ينبغي علينا أن نفّذها بأنفسنا“.

”ولكن... لكن هذا يعني تغيير خط سير الزمن عام دين متعمدين، أليس كذلك؟ وهو الشيء الذي يفترض بنا أن نمنع حدوثه بكل ما أوتينا من قوة؟ توقفا... هل يعني هذا أنّ الإشارات التي تعرّف إليها الشخص المسمّى آدم كانت من...؟“ وقطب حاجبيه مرتبكاً.

”كانت تلك الدلائل قد زُرعت من قبل لتضمن أنّ آدم لويس هو الشخص الوحيد الذي يمكن له فهم شيفرة هذا المقطع المحدّد من مخطوطة فوينتش وتحليله... وقد زرعت هنا لتلفت نظرنا“. قال بوب.
”هذا ليس ضرورياً بعد الآن... يجب أن تُكتب مخطوطة فوينتش من دون تلك الإشارات المشفرة“. قالت بيكس.
مكتبة الرمحى أحمد
”آه... ولكن...“

”لا نحتاج بعد الآن إلى السفر عبر الزمن للمجيء إلى هنا. هل توافقين يا بيكس؟“ قال بوب وهو ينظر إليها فوافقت بهزّة من رأسها وقالت:
”أنا أوافق. تمّ تصحيح مسار التاريخ. ولا ينبغي لأيّ حرف من مخطوطة فوينتش أن يكون قابلاً للتحليل بعد الآن كي لا يحصل أي تلوث زمنيّ“.

”إذا... ماذا ستكتبان فيها؟“ سألهما ليام.
”لقد حفظت نسخة عن المستند ويمكنني أن أكتبها كما كانت من دون أن أضيف الأحرف التي تعود إلى سكّان أميركا الجنوبية التي لفتت نظر آدم لويس من البداية“.

”هذا يعني... أنه لن يعرف عنّا أي شيء؟“ قال ليام عابساً وقد غلبته الحيرة وهو يحاول أن يفهم الأمر.

”بالضبط. وبالطبع... لن يتبع أثرنا في نيويورك.“
”صحيح...“ قال ليام ثم نظر إلى كابوت الجالس على مقعد خشبي والمذهول بالحديث بقدر ليام تقريباً، فسأله:
”وماذا عن صاحبنا الوفي الجالس هنا... السيد كابوت؟“
ابتسم كابوت وقال: ”نعم، كنت أتساءل عن الوقت الذي ستفكرون به بأمرى.“

نظر إليه كل من بيكس وبوب ببرود شديد. فقال ليام:
”لا... لن أسمح لكما بقتله. لقد ساعدنا... لم نكن لنستطيع تنفيذ هذه المهمة لولا مساعدته لنا. لن تؤذيها وأنا أمر كما بهذا.“
هز كل من وحدتي الدعم رأسيهما بهدوء ثم قال بوب:
”لسنا مضطرين لقتله، بل على العكس... وجوده ضروري ليحافظ على المستند بأمان.“

قالت بيكس وهي تنظر إلى كابوت بعينيها الثابتتين: ”أوافق. طالما أنك لن تتحدث عن كل الأمور التي شهدتها.“
أدرك ليام أنها على حق... لقد سافر الرجل العجوز برفقتها إلى القرن الحادي والعشرين، ووحده الله من يعلم الأشياء التي رآها، لكنه أدرك فجأة أن قليلاً فقط مما رآه كانت أموراً منطقية، وأنه لن يستفيد أيضاً مما سمعه أو شاهده.

مسد كابوت لحيته وسألهم: ”ومن هو الشخص الذي قد يصدق ما قد أرويه عما شاهدته؟ سيقولون أنني أحمق.“
قال ليام: ”إنها على حق. نحن نحتاج إليك لتأكد من بقاء المخطوطة بأمان، عليك أن تحتفظ بها وحدك ولا يمكنك أن تخبر أي شخص عن أي شيء من كل هذا.“

”لا تخف يا ليام... لا رغبة لي في الموت حرقاً بتهمة الهرطقة، لن أحكي لأحد عن العوالم الكروية، ولا عن الأيام التي ستأتي فيما بعد، أو عن مكان يُسمى: يورك الجديدة... يمكن لك أن تثق بي حيال هذا الأمر.“

قال كابوت مبتسماً بلطف.

فابتسم ليام أيضاً ومدّ له يده قائلاً: "اتفقنا إذاً يا سيد كابوت".
تناولها كابوت وقال: "اتفقنا يا ليام أو كونر".

وقف بوب وبيكس في نفس اللحظة فعرف ليام أنهما قد تبادلا الأفكار
الرقمية عبر جهاز البلوتوث فسألتهما: "هل أنتما على ما يرام؟"
"علينا أن نبدأ كتابة مخطوطة فوينتش حالياً، يبلغ عدد صفحاتها مئتين
وأربع وثلاثين صفحة وسنحتاج إلى سبع ساعات تقريباً لكتابتها". قالت
بيكس ثم التفتت إلى كابوت وسألته:

"أحتاج إلى ورق وحبر، هل تملك هذه الأشياء؟"

هزّ كابوت رأسه وأجابها: "نحن نملك هذه الأشياء. لن يفرح أمين
المكتبة بطلبي هذا الكني سأحضرها لك".

"أشكرك". قال ليام، ثم راقبه الرفاق الثلاثة وهو يتعد إلى الخارج
ثم أردف ليام:

"إنه جدير بالثقة".

"نعرف أين نجده إذا ما حصل أي تلوث زمني ابتداءً من هذه النقطة".
قال بوب. فقالت بيكس:

"إنّ خطره قليل. وسيكون التخلص منه في هذه الحالة سهلاً".

هزّ ليام رأسه لهما وقال: "أنتما ثنائيّ رائع، إنكما تليقان ببعضكما
جداً".

نظر كل منهما إلى الآخر ثم عادا للنظر إليه وقالا معاً: "اشرح لنا قصدك
من فضلك".

فقال ليام متذمراً منهما: "لا شيء".

الفصل الخامس والثمانون

نيويورك، ٢٠٠١

”أخيراً... اختفى ملصق الفيلم“. قالت سال وهي تقف أمام سينما غولدن سكربين وتنظر إلى لوحة الإعلانات. ثم قالت عبر هاتفها المحمول: ”ما هذا؟“

اصطفّت سيارات تاكسي كثيرة على الجهة المقابلة من الجادة السابعة وراحت تطلق أبواقها العالية على سيارة شحن كبيرة تسد شارعاً فرعياً.

”نعم... أنا متأكّدة، لا أثر للفيلم ولا شيء يشير إليه في لوحة الإعلانات. لقد اختفى“.

هزّت رأسها وهي تنصت إلى تعليمات مادي ثم أغلقت الخط ونظرت حولها. إنه صباح يوم الثلاثاء المعتاد، وعلى الرغم من أنها خرجت أبكر من المعتاد إلا أن كل شيء بدا لها كما كانت تتوقع له أن يبدو عليه.

كانت ساحة التايمز تعجّ بالحركة والسماء زرقاء صافية رائعة ولا أثر لذلك الفيلم المسمّى بالـ ”المخطوطة“. لقد اختفى تماماً، ومحت الموجة الزمنية الناعمة التي شعروا بها قبل نصف ساعة اسم آدم لويس والشهرة التي نالها بسبب المخطوط من التاريخ تماماً.

لم يعد هناك وجود لفيلم من بطولة ليوناردو دي كابريو، يقوم فيه البطل بالهرب من عملاء سرّيين أشراراً وهو يمسك بلفافة أثرية قديمة بقبضته.

شعرت سال فجأة بتقلص في معدتها فأدركت أنها لم تتناول شيئاً منذ إفطار البارحة، فتفقدت ساعتها ووجدت أنها بلغت الساعة السابعة وثلاث وعشرين دقيقة، مما يعني أنها لا تزال تملك ساعة واثنين وعشرين دقيقة تقريباً قبل أن يتحول يوم الثلاثاء هذا إلى مسرحية الرعب التي يعرفها الجميع. وهو وقت كاف لها لتناول بيجل بالجبنه وزجاجة صودا.

*

أغلقت مادي هاتفها الجوال ووضعت على المكتب وقالت لآدم: "لقد اختفى يا آدم. اختفى الفيلم الذي يحكي قصتك مع المخطوطة... لم يعد له وجود ولم يوجد يوماً من قبل".

مسح شعره بيده واتسعت عيناه رعباً من الفكرة التي راودته وقال: "ماذا يعني هذا؟ هل تم حذفني من العالم أو شيء من هذا القبيل؟ يا إلهي... هل توجد نسخة مختلفة عني في مكان ما في الخارج الآن؟" نفت مادي بحركة من رأسها وقالت:

"لا... لا. كل شيء على ما يرام يا آدم. لا وجود لنسخة أخرى عنك. لكنك تملك حياةً مختلفة الآن لا أكثر. لو اخترقتك الموجة في أثناء وجودك في الخارج لما كنت عرفت ما جرى لك ولما شعرت يوماً بأي شيء مختلف. كنت ستعيش تلك الحياة المختلفة مهما كانت، لكن وجودك داخل حقلنا المغناطيسي منع ذلك، وهذا يعني أنك مضطر للخروج واكتشاف حياتك الجديدة تلك... عليك البحث عن ماهيتها وعن مكانك الجديد في العالم يا آدم".

“أنا... هذا... أنت تقصدين أنني ربما لا أعيش في نيويورك؟”
فرفعت مادي كتفيها وأجابت: “لا أعرف، ربما تعيش فيها وربما لا.
ربما تعيش في إنكلترا... من يدري؟”

سحب آدم مفتاح شقته من جيب سترته وقال:
“أنت تقصدين أنني إذا ذهبت إلى شقتي فربما لا تكون شقتي بعد
الآن؟”

“لا أملك أي فكرة حيال هذا الموضوع، ربما لا.”
بدلها أنه يجد صعوبة في تقبل الفكرة فقالت له:
”من المؤكد أن حياتك ستكون مختلفة تماماً يا آدم، ولهذا عليك
الذهاب لاكتشاف مكانك الجديد في العالم. اتصل بوالديك... أهلك
موجودون أليس كذلك؟”

”نعم... وحده الله من يعلم إذا ما كانا على قيد الحياة أم لا.”
”اتصل بهما وتحديث معهما لتعرف من تكون الآن. سيظنان على
الأغلب أنك جُننت“. وضحكت بخبث.
”لا شك في ذلك“.

وقف آدم حائراً وتناول سترته الباهظة الثمن التي كانت معلقة على ظهر
كرسي وقال لها: ”لقد مررنا بأربع وعشرين ساعة في غاية الغرابة، أليس
كذلك؟“

أومأت برأسها وقالت: ”غريبة جداً“.
”أشعر... أشعر وكأنني أعرفك وأعرف سال والباقيين منذ عصور على
الرغم من أنني طرقت على بابكم البارحة فقط“.
ابتسمت مادي بحزن وقالت: ”إنه تأثير السفر في الزمان... إنه يعبث
بعقلك“.

نظر إلى عينيها وسألها: ”ألا أستطيع البقاء معكم؟“
باغتتها السؤال على حين غرة. تاق جزء منها للموافقة على طلبه، لتحظى
بشخص يمكن له أن يشاركها القيادة ويحمل معها كل أعبائها، لتحظى

بشخص يمكن لها وضع كل ثقته به.

لا يمكن له أن يبقى يا مادي وأنت تعرفين ذلك.

”آدم... أنا... آه. لا أعتقد ذلك، لا أظن أنني أملك صلاحيات السماح بذلك أو الحق بتجنيد الناس معنا“.

”ولكن... أنا أعرف الكثير عنكم الآن ولا بدّ من أنني أشكّل خطراً أميناً عليكم، ولهذا فسيكون من الأفضل لي أن أنضمّ إليكم، أليس كذلك؟ هذا أفضل من أن أكون في الخارج... وأن أؤثر حول كل ما شاهدته هنا“.

”لا أعتقد أنك ستؤثر يا آدم... أنا أثق بك. وفي كل الأحوال... إذا عدت إلى هنا غداً الأربعاء برفقة طاقم تصوير لفضحنا فلن تجد لنا أثراً بكل بساطة“.

تردّد آدم وحدّق بها صامتاً لفترة طويلة تخللها الشك والشعور بالخطر ما بينهما ثم قال بغرابة وبعوض من الحرج: ”حسناً... اتفقنا... ظننتُ أنه يمكن لي أن أطلب منك ذلك الطلب كما تعلمين. إذا لم أطلب فكيف لرغبتني أن تُجاب كما يقولون، أليس كذلك؟“

شعرت مادي بأنها مدينة له بالشرح فقالت: ”أنا آسفة، ما زلنا جدداً هنا، ثلاثتنا. ما زلنا نحاول التأكد من أننا نقوم بعملنا بشكل صحيح. وأنا... لا أعتقد أنني مخوِّلة بتجنيد من أشاء معنا...“

”لا... لا بأس. أعتذر منك... أنا الذي أخرجتك بطلبي“. ثم ذهب إلى طاولة الكمبيوتر لجمع سؤالاته الصلبة وسألها:

”هل أستطيع استرجاع هذه؟“

فكرت مادي بالأمر قليلاً. إنّ كل أعماله وبحوثه لفك شيفرة مخطوطة فوينتش موجودة على هذه الساعات، كما تحتوي على صور شواهد قبور دير كيركليس، لكنها جميعاً لن تعني أي شيء مهم لأي أحد بعد الآن، فأومأت موافقة برأسها وقالت:

”بالطبع“

جمع آدم أغراضه ودسّها في جيب سترته وقال: "أظن أن ساعة الوداع قد حانت".

زمت مادي شفتيها وهي تحاول بكلّ قوتها أن تمنع نفسها من تغيير رأيها، كي لا تسمح له بالبقاء ثم قالت أخيراً: "نعم. حانت لحظة الوداع يا آدم".

مشى آدم إلى البوابة فعلا صوت كعب حذائه في أثناء تقدمه فوق الأرضية الإسمنتية، ثم ضغط على الزر الأخضر فارتفعت البوابة المنزلقة وتسلّل ضوء النهار إلى داخل المستودع. استدار آدم إليها مرّة أخيرة وسألها:

"ربما تمكنت يوماً ما من تأليف كتاب حول هذا الأمر؟"
"يمكنك ذلك إذا أطلقت عليه صفة الخيال بلا شك. ولكن هل ستحول إلى كاتب يا آدم؟ لم لا؟ إنها تبدو فكرة رائعة". وابتسمت له.
انحنى ليخرج من تحت البوابة ونظر إلى الخارج وقال: "يا له من نهار رائع".

كان على وشك الخروج عندما نادته: "آدم..."
"نعم"

"حياتك الجديدة... أنا متأكدة من أنها لا تتضمن العمل في مركز التجارة العالمي". ثم نظرت بسرعة إلى ساعتها وقالت: "اسمع... لا تذهب للبحث عن عملك هناك في هذا الصباح... اتفقنا؟ اتصل بوالديك أولاً. وانسى أمر الذهاب إلى العمل اليوم".
"سأفعل ذلك".

"عدني"

نظر إليها مجدداً بحيرة وقال: "حسناً... أنا أعدك بذلك".
"انطلق الآن". قالت مادي ولاحظت تهذج صوتها رغماً عنها. إنها لا تريد له أن يشعر بأي شيء مريب، لا تريد له أن يشعر بالصراع الدائر داخل رأسها فقالت:

”انطلق لتكتشف حياتك الجديدة“.

”قولي وداعاً لسال بالنيابة عني“. ثم انحنى وخرج فراقبت مادي بنطاله
الرمادي الرسمي الذي يذهب به عادة إلى العمل وهو يتعد في الزقاق
المبلط بالحجر ويغيب عن الأنظار فهمست لنفسها:
”اعتنِ بنفسك يا آدم“.

الفصل السادس والثمانون

يورك شاير، دير كيركليس، ١١٩٤

وقف الرفاق في وسط حقل الشعير الذي كانت سنابله تصل حتى مستوى خصرهم، وأصغوا إلى حفيف السنابل المتمائلة مع الريح اللطيفة. سلّمت بيكس إلى كابوت مجموعة كبيرة من الأوراق وقالت له: "هذه هي المخطوطة الكاملة. وهي تحتوي على العديد من التعديلات. عليك أن تحرسها جيداً وتحافظ على سلامتها".

هزّ سياستيان كابوت رأسه بإحساس عميق بالواجب وقال: "سأفعل. لدينا سرداب تحت الدير، وسأحرص على وضعها هناك". "هذا جيد".

تقدّم ليام إلى الأمام وقال له: "سيد كابوت... نحن مدينون لك بالشكر الجزيل على ما قمت به معنا".

ابتسم الرجل العجوز وقال: "نعم... لقد كانت أشهراً مذهلة حقاً". "نحن متأكدون من ذلك".

تمسّك كابوت بيد ليام وقال له: "لقد تعلّمتُ منكم الكثير. وربما عرفتُ أكثر من اللازم... لكن إيماني... إيماني تزعزع قليلاً". فشدّ ليام على يده وقال:

”حسنًا... إذا كان كلامي هذا سيساعدك... على الرغم من كل الأمور التي أعرفها وكل الأمور التي شاهدتها، فأنا لا أزال أصلي لله القدير الذي يسكن السماء كلما كنت في موقف عسير“.

أوما كابوت وقال: ”هذا يريحني بعض الشيء يا ليام. أشكرك“. قالت بيكس بصوتها القديم الخالي من النعومة التي كانت تحدث بها جون كما لو كانت سيدة صالون:

”معلومات: تم العثور على جزيئات التاكيونات في الجو“. ثم استدارت لتبحث عن مكان فتح البوابة الاضطرابية التي فتحت قبل عدة أيام هنا ووجدت السنابل منحنية بشكل دائرة في أحد الأماكن القريبة فتمكنت من تحديد المكان بدقة وحذرت رفاقها:

”تراجعوا إلى الخلف“.

بعد لحظة، طارت أثوابهم وعباءاتهم الواسعة بسبب الرياح المفاجئة التي حملتها البوابة معها ووجدوا أنفسهم ينظرون إلى مدخل البوابة الكروية المتموجة.

”اعتذر منك يا سيد كابوت، لا أستطيع دعوتك للدخول معنا...“

هزّ كابوت رأسه وقال: ”إنه عالم قد يقودني إلى الجنون على ما أظن بكل الأحوال“. ثم رفع الأوراق إلى الأعلى وقال: ”كما أنه لدي عمل ضروري أقوم به هنا، أليس كذلك؟“

أوما ليام وقال: ”نعم... هذا صحيح“.

قال بوب: ”يجب علينا المغادرة الآن“. ثم تقدم إلى البوابة وتوقف أمامها والتفت ومدّ يده السليمة إلى كابوت وقال له: ”تشرفتُ بالعمل معك يا سيد كابوت“.

صافح كابوت يد بوب الضخمة وقال له ”وأنا أيضاً... حقاً. لم ألتق في حياتي رجلاً لا يمكن القضاء عليه مثلك. ولن أستغرب القصص الخيالية التي سينشرها المؤمنون بالخرافات في الأنحاء عنك يا بوب، وأعتقد أن سيرتك ستظل شائعة لفترة طويلة يا بوب“.

رسم يوب أفضل ابتسامة ممكنة وأفلت يد كابوت، وكانت بيكس آخر المودعين فقالت له:

”إذا التقيت بجون في المستقبل أخبره...“، ترددت بيكس لأنها لم تعرف كيف تكمل الجملة.

”هل تسمحين لي أن أقول له بأنك تفكرين به كثيراً وأنتِ عدتِ إلى فرنسا؟“

وافقت بيكس وقالت: ”نعم، ستكون تلك رسالة ملائمة.“
توهجت البوابة المفتوحة وكأنها تدعوهم للدخول بسرعة فقال بوب: ”علينا الذهاب. لا يجب فتح بوابة تفضي إلى فضاء متعدد الأبعاد لوقت أطول من اللازم.“

أفلتت بيكس يد الرجل العجوز وانضمت إلى بوب وليام على حافة المدخل الكروي فقال ليام: ”اعتن بها جيداً.“ قال ليام.

أوما كابوت بالإيجاب وراقب المسافرين الثلاثة وهم يدخلون البوابة الدائرية المتموجة بعنف وسرعة فتحوّلت هيااتهم إلى أشباح مرتعشة ثم غابوا تماماً في ذلك العالم الغامض المعتم والمتحرك حول نفسه كالدوامة. وبعد ثوان قليلة، اختفت البوابة مع هبة نسيم ناعمة وتركته وحيداً من جديد وسط حقل الشعير المتمايل مع الريح.

تأمل الراهب عدداً من الغربان التي تحوم فوق الأشجار التي بدأ لونها الأخضر النابض بالحياة يختفي لتتحول إلى اللون الذهبي الذي يعني اقتراب موسم الحصاد، وسرعان ما سيختفي معها أيضاً حر الصيف الخانق مفسحاً المجال للرياح المعتدلة التي تهب في الخريف.

تنشق كابوت رائحة الصيف بأنفه الأحمر المتورّد وراودته فكرة مفاجئة...

العالم كروي إذاً... أليس ذلك صحيحاً؟

تركت الفكرة ظل ابتسامة على وجهه المليء بالتجاعيد، ياله من اعتقاد

مطمئن على الرغم من غموضه، فنظر إلى الشمس الساطعة في السماء...
وأنت ثابتة؟ ونحن من ندور حولك؟
فكر كابوت مرتاحاً على الرغم من غرابة ما عرفه، بأن الكون الذي
خلقه الله قد يكون أعظم بكثير وأضخم بكثير من هذا العالم الوحيد
الصغير المليء بالبارونات والأمراء والملوك والباباوات الجشعين الطماعين
والأغبياء.

الفصل السابع والثمانون

نيويورك، ٢٠٠١

راقبت سال هيئات أشخاص عدّة تلف وتدور حول بعضها ولمحت حقل قمح أو شعير أصفر اللون متمايل مع الرياح المتولّدة عن البوابة وسماء زرقاء خلفهم. ثم اقتربت الأشباح الثلاثة وخرجوا بعد لحظة من الدوامة إلى أرض المستودع. ولم تعرّف إلا بصعوبة على اثنين منهم.

كان شعر بوب سريع النمو الداكن الخشن والمشعث قد طال إلى أن بدا أشبه بشجيرة برية. ثم لاحظت فوراً اختفاء ذراعه الأيسر من عند المرفق، وأحد أذنيه أيضاً.

”يا إلهي... بوب!“

لكن ليام... ليام... لقد تغيّر كثيراً إلى درجة أنها لو مرت الآن بجانبه في الشارع لما عرفته. لقد طال شعره الأسود لأنه لم يقصه طوال ستة أشهر وتهدّل فوق كتفيه، وكان يفرقه من المنتصف بطريقة خرقاء فانسدل على جانبي وجهه كستارتي مسرح داكتين، لكن ما صدمها حقاً هو لحيته الصغيرة الخشنة، إذ كان فمه محاطاً بشعر خشن قاس وتدلّى شاربه المتهدل فوق شفته العليا بينما تدلت من تحت فمه لحية عنزة رفيعة.

”ليام“!

كملت مادي فمها بيدها وقالت:

”يا إلهي يا ليام، أنت تبدو...“ ولم تجد الكلمات الملائمة.
”حقيراً! ورفع حاجبيه السميكين ثم أردف: ”أهذه هي الكلمة التي
تبحثين عنها“؟

ابتسم ليام لهما واقترب منهما وأحاط كل واحدة منهما بذراع من
ذراعيه وعانقهما بحركة خرقاء من شدة اشتياقه لهما وقال:
”آه... كم أنا سعيد لرؤيتكما من جديد.“
ضحكت مادي وقالت: ”أنت تتكلم بلهجة أهل القرون الوسطى
المضحكة“.

تركهما من عناقه فتراجعتا إلى الخلف فقال لهما:
”نعم... إنها الإنكليزية القديمة، سأعود إلى شخصيتي القديمة
بسرعة“.

”أنا معجبة جداً بملابسك“. قالت سال وهي تشير إلى سترته الجلدية
المزينة بكثير من الأزرار وجوريه القطنيين السميكين وجزمته.
”نعم... إنها متينة الصنع“.

نظرت مادي إلى بوب من الأعلى إلى الأسفل وقالت له:
”بوب... ذراعك مقطوعة... هل يمكن لك أن تصلحها كما فعلت
بيكس من قبل“؟

”بالطبع. كل ما أحتاج إليه هو الدخول إلى أنبوب توليد“.

فاستدارت إلى شاشة الكمبيوتر وقالت له:

”بوب، هل يمكنك ترتيب ذلك“؟

< بالطبع يا مادي.

أومض النابض الضوئي مرات عدّة لبرهة ثم ثبت في مكانه فعاد
الكمبيوتر للقول:

< أهلاً بكما مجدداً يا بوب وبيكس.

قام كل من وحدتي الدعم بإرسال تحية رقمية صامتة عبر جهاز البلوتوث إلى الكمبيوتر.

”أين رفيقنا الإنكليزي ذاك... آدم؟“ سأل ليام.

”لقد انصرف، وعاد لمتابعة شؤون حياته.“ أجابته مادي.

”هل أخذ مكانه في المصفوفة الجديدة؟“ سألتها بيكس.

فهمت مادي ما كانت بيكس ترمي إليه، كانت تسألها إذا ما كان موجوداً في الخارج عند مرور موجة الزمن الأخيرة، وإذا ما مُحيت ذكرياته عن تواصله معهم... إنها تسأل إن كان آدم لويس يعيش حياةً مختلفة الآن عن الشخص الذي عرفوه. فقررت أن تحافظ على بساطة الأمور في الوقت الراهن، لأنها تثق به - نوعاً ما - على الرغم من كل شيء... وحتى لو قرّر الإسراع إلى أقرب صحيفة لإخبارهم بالقصة المذهلة التي يعرفها فلن يصدّقه أحد. إذا اصطحب أحد الصحفيين الفضوليين إلى مكان غرفة عملياتهم هذه غداً فلن يجد شيئاً، لن يجد سوى مستودع فارغ تحت جسر وليامزبرغ.

أجابته مادي: ”نعم، لقد دخل المصفوفة الجديدة“.

أومات بيكس برأسها راضية.

ضم ليام يديه الاثنتين إلى بعضهما وقال:

”لم أستمتع بحمام ساخن مريح منذ وقت طويل“.

حكّت مادي أنفها وقالت: ”آه... لقد لاحظنا ذلك، لم لا تغيّران

ملابسكما أنت وبيكس وترتديان أشياء ملائمة أكثر، ويمكنك بعدها أن

تتجه إلى غرفة الاستحمام“.

أوما ليام وقال: ”نعم، إنه يبدو مخططاً جيداً“.

”عندما تنتهيان سنخرج ونأكل شيئاً ما معاً، وأنت أيضاً يا بوب...

يمكننا وضعك في أنبوب التوليد بعد عودتنا إذا أحببت“.

باعّد بوب ما بين شفّتيه الغليظتين في محاولة منه لرسم ابتسامة فاشلة

على وجهه وقال: ”نعم... إنه مخطط رائع“.

نظرت مادي إلى ليام وقالت: "يبدو لي أنه يحاول تطوير حسه الفكاهي أيضاً".

رفع ليام كتفيه وقال: "لن يجد واحدهما مهرجاً يليق به أكثر من الآخر". وقف آدم على تقاطع شارعي باوري وديلانسي المزدحمين في وقت الذروة الصباحية المعتاد.

حياة جديدة... وهو لا يملك أي فكرة عنها. هاتفه المحمول في جيبه... ربما كانت مادي على حق... ربما يجدر به الاتصال بأمه، ومهما كان المسار الذي اتخذته حياته والعمل الذي يؤديه فلا بد أنها ما زالت تعيش مع أبيه في بيتهما البسيط في تشيلمزفورد.

وماذا أقول بالضبط؟ مرحباً ماما... لقد أتيت للتو من مسار زمني آخر... أين أعيش الآن؟ هل أنا متزوج؟ ما هو عملي؟ أضحكته أفكاره.

لكنه أدرك عندها أنّ هاتفه الجوّال لن يعمل لأن عقده مع شركة الهاتف لم يحصل يوماً، وأن رقم بطاقة الـ SIM ربما سيكون غير صالح. حياة جديدة، ومع ذلك فإن نيويورك تبدو تماماً كما كانت تبدو البارحة، وهو لا يصدّق أن شقته قد لا تكون له الآن، وأن جيري موظف الاستقبال قد لا يتعرّف إليه.

نظر إلى اليسار فشهد ناطحات السحاب الممتدة على طول شارع وول ستريت وبرجي مركز التجارة العالمي التوأمين يرتفعان بفخر ويشقان عنان السماء. أخرج بطاقة التعريف الخاصة به التي تمنحه الإذن وتخوله دخول مركز التجارة العالمي من جيب سترته العلوي ونظر إلى صورته الملتصقة عليها... إنها صورة شخص مبتسم يرتدي قميصاً منشي وربطة عنق باهظة... إذا ما كانت مادي على حق فإن هذه البطاقة لن تمكنه حتى من المرور من أمام مكتب الاستعلامات في طابق عمله، ولن تمكنه بالتأكيد من الدخول إلى غرفة الكمبيوتر الرئيس وإلى مكتبه الخاص. ومفاتيح شقته؟ سحبها من جيبه وعبث بها بأصابعه.

إنه الآن منزل شخص آخر.

هز رأسه... إنه وضع غريب أكثر من المعقول... أكثر غرابة من الغرابة نفسها، إنه يقف وسط عالم مطابق تماماً للعالم الذي يعرفه، لم يتغير فيه أي شيء عدا حياة آدم لويس الذي أصبح يعيش حياة أخرى مختلفة تماماً عما كان يعيشها من قبل.

من غرفة التحكم إلى آدم: ماذا لو كانت مادي تكذب؟
إنه لا يصدق أن مادي كارت قد تكذب. إنها من النوع الصادق والنقي.
حسناً إذاً يا آدم... ما رأيك بهذا؟ ماذا لو كنت تحلم طوال الوقت؟ هه؟
ماذا لو كان كل ما مررت به مجرد هلوسات؟ ماذا لو جنت؟
أصابته تلك الفكرة بالقشعريرة فهمس لنفسه: "لقد حصلت كل تلك الأمور بالفعل، لقد حصل كل ذلك السفر عبر الزمن بالفعل. أنا لست مجنوناً ملعوناً".

هناك طريقة واحدة لاكتشاف الحقيقة يا ولد... أليس كذلك؟
نظر آدم إلى البرجين التوأمين ثم ألقى نظرة على ساعته فوجد أنها بلغت الثامنة صباحاً بالضبط. ربما يجدر به التأكد على الأقل... كل ما يجب عليه فعله هو الدخول وتمرير بطاقة تعريفه في الجهاز المجاور لمكتب الاستعلامات ليرى ما سيحصل. إذا تمكن من الدخول فهذا يعني أن حياته القديمة ما زالت على حالها، وأن عمله كمستشار تقني الذي يوفر له كل ذلك الدخل الكبير والشقة الفخمة المجاورة للنهر وعضوية النادي الرياضي المغلق لا تزال كلها له... وأن كل ما مرّ به محض هلوسة لعينة.

بالطبع... سيعني ذلك أنك تحتاج إلى مقابلة طبيب أمراض عقلية أيضاً.
ضحك مرة أخرى... إنه يحتاج إلى طبيب أمراض نفسية... يا لي من مجنون... ربما كان كل ما مررت به مجرد رحلة ذهنية... ربما تناولت أكثر مما ينبغي من الكحول البارحة، وربما وضع لي أحدهم في كأسه حبة مهلوسة على سبيل المزاح.

لا توجد سوى طريقة واحدة لمعرفة حقيقة الأمر . قالت غرفة التحكم
له من جديد .

وضع مفاتيحه من جديد في جيبه وانعطف إلى اليسار عبر شارع باوري
متوجهاً إلى مركز التجارة العالمي متخيلاً أنه سيكون جالساً مرة أخرى
أمام مكتبه بعد نصف ساعة من الآن ، وأنه سيتساءل من أين بحق الجحيم
خطرت له فكرة أنه أمضى الليلة الماضية في مستودع حجري برفقة فريق
من رواد الزمن المراهقين .
يا لي من مجنون .

مكتبة الرمحي أحمد ٩٩

الفصل الثامن والثمانون

نيويورك، ٢٠٠١

الاثنين (دورة الزمن ٥٩)

أعرف أنّ مادي رغبت في بقاء آدم. وأعتقد أنه أعجبها ربما أو شيء من هذا القبيل، كان يمكن له أن يبقى... كان بإمكاننا أن نبقيه معنا بطريقة أو بأخرى. لكنه قد عاد إلى حياته الآن، ويا له من محظوظ. أنا أتساءل عما يقوم به الآن، وعن مكانه... ربما عاد إلى إنكلترا.

في جميع الأحوال... بوب مشغول الآن بتنمية ذراع جديدة، وقصّ ليام شعره قصيراً وهذا لا يعجبني لأن رأسه يبدو الآن أكثر شبهاً بثمرة جوز الهند من بوب نفسه، كما أنّ اللحية التي أتى بها اختفت الآن، وقد استعمل لحلاقتها ماكينه حلاقة كهربائية لأول مرة في حياته، وأخبرنا بأن الأمر أخافه جداً لأنه اعتقد أنها تكاد أن تأكل وجهه. أنا سعيدة لأنه خلق اللحية التي جعلته مع الشعر الأبيض على صدغيه يبدو أكبر سناً. كان يبدو عجوزاً حقاً.

لكنه يبدو الآن أكثر شبهاً بشخصيته الأصليّة.

لكن، ويا للهول... إنه حتماً أكبر سناً، لم يعد يبدو كالفتى الذي كنت أراه كل يوم حين أصحو، لقد تغيّر بطريقة ما... ربما تغيّرت عيناه قليلاً

وأصبحت نظرتهما أكبر وأعمق من ذي قبل.

وضعت سال القلم من يدها وتفقدت بعينيها المستودع الهادئ. ما زالت كتب التاريخ التي كان ليام يقرأها مكومة على سريره، وكان الكتاب العلوي يتحدث عن الحرب الأهلية الأميركية، ويزخر غلافه بالرايات والأعلام والسيوف المتقاطعة وجزرالات الحرب الملتحين. وقد خرج يتجول في المدينة الآن وقال أنه يريد تركيز أفكاره. شعرت سبال أنه ليس سعيداً بعودته إلى هذا الزمن، وأنه ربما سيكون أكثر سعادة لو تابع حياته في عام ١١٩٤.

”توليتُ منصب عمدة نوتنجهام لبعض الوقت“. هكذا أخبرها بفخر شديد وساورتها الشكوك بأنه كان يتوق إلى ذلك الوضع. كما لاحظت سال أن شيئاً ما كان ينغص عليه حياته. لقد سمعت هذيانه في أثناء نومه البارحة حيث كان يقول ويكرّر لشخص ما مراراً وتكراراً: أنا آسف، أنا آسف.

عيناه... اللتان شاختا قبل الأوان.

عيناه... أيقظت هذه الكلمة ذكرى...

رأيتُ شيئاً منذ يومين. إنه دبّ... إنه دبّ قطني للأطفال، ولا أفهم ما يجعله يخطر على بالي لكنني متأكدة من أنني رأيت هذا الدب من قبل. وأعني بكلمة ”من قبل“ المرحلة التي سبقت انضمامي إلى رواد الزمن. لكنني لا أستطيع أن أذكر أين ومتى. الوضع غامض جداً ويصيني بالحيرة. كانت ترى معالم جسم بوب الطافي داخل السائل الكهربائي الكثيف المغذي في أنبوب التوليد من خلال باب الغرفة الخلفية المفتوح وهو يحرك قدميه في أثناء نومه هذا وكأنه يحلم. لقد نما عظم ذراعه أولاً وها قد بلغ مرحلة بناء أنسجة العضلات الزهرية التي تشبه الأربطة المشدودة حول ذلك العظم. المكان هادئ جداً.

خرجت مادي وبيكس لتحديث ما يعرفه فوستر عنهم من معلومات.
وقد رغبت سال أن تمضي معهم لتسلم عليه لكن مادي رفضت ذلك.
إنها تعام لني كطفلة دوماً.

تنهدت سال بانزعاج.
”سأذهب وحدي“. كرّرت سال جواب مادي بصوت عالٍ فتردّد
صدى صوتها داخل الجدران الحجرية وعاد إليها. نهضت عن سريرها
المزود بالنوابض فصدر عنه صرير مزعج واتجهت إلى طاولة الكمبيوتر
ببطء وثاقل.

”بوب“؟

< أهلاً سال.

”ما رأيك أن نلعب قليلاً“؟

< بالطبع. ما هي اللعبة التي ترغبين بلعبها؟

”هل لديك أي أحاجي بيكودو في ذاكرتك“؟

< بالطبع. هل تريدان أن نلعب معاً؟

”نعم“

أضاءت إحدى الشاشات وقد عُرضت عليها أيقونات معقدة على شكل
الموزاييك.

< ما هو نوع الموسيقى التي ترغبين بسماعها؟

”ما رأيك بالفرقة التي اصطحبتنا مادي لحضور حفلهم؟ ما كان

اسمهم“؟

< EssZed.

”نعم... لنسمع بعضاً من أغانيهم“.

غطى صوت الغيتار المنفرد والتنهدات العميقة التي تبدأ بها الأغنية على
ضجيج القطار الذي كان يمر فوقهم، فاستندت إلى ظهر كرسيها وهزت
رأسها بتناغم مع الإيقاع ثم قالت للكاميرا:
”هيا، لنبدأ... دورك أولاً“.

الفصل التاسع والثمانون

نيويورك، ٢٠٠١

كان فوستر يجلس على مقعد في الحديقة كما كان عندما تركته في المرة الماضية، وكان ينتزع لقمماً من العجين من داخل شطيرة الهوت دوغ التي يتناولها ويرمي بها إلى مجموعة حمامات نافذة الصبر. فقالت مادي له: "مرحباً".

نظر إليها وابتسم قائلاً:

"لقد وجدتني". ثم تأمل الفتاة المرافقة لها وسألها: "ومن تكون هذه الفتاة؟"

"آه نعم، هذه بيكس. لقد استولنـداها".

تقلصت عينا فوستر لبرهة ثم أدرك ما القصة فقال: "نعم... نعم بالطبع. إنها الأنثى المستنسخة. لديك علم بالبوابة التي ستُفتح في سان فرانسيسكو... هل أستمـلها؟"

"بالطبع نعم".

لفتت الندوب الدائرية الممتدة على طول ذراع بيكس اليسرى انتباهه فقال:

"يبدو أنها مرّت بتجارب صعبة بالفعل".

جلست مادي بقربه وقالت له:

”لقد اقتلع وحش من عصر ما قبل التاريخ ذراعها بأسنانه. وهذه الندوب هي آثار استيلاد ذراع جديدة“.

جحظت عيناه دهشة وسألها:

”ما قبل التاريخ؟“

أومات مادي برأسها وقالت:

”تلك قصة طويلة أخرى يا فوستر... وقد أخبرتك عنها المرة الماضية“.

”آه... أليست هذه هي المرة الأولى التي تأتين بها إلي هنا؟ لا بدّ من

أنني تحوّلتُ إلى عجوز خرف وأبله“.

”لا بأس. أنت أبله فقط“. قالت ضاحكة.

”آه... أخبريني... كيف هي أحوالكم مع السفر عبر الزمان؟“

تنهدت قائلة: ”إنها تسير على ما يرام حتى الآن على ما أظن... ما زال

التاريخ محافظاً على وضعه“. ثم نظرت حول أرجاء الحديقة فشاهدت

طفلاً صغيراً يلاحق الحمامات ليفرقها عن بعضها ووالداه يراقبانه عن بعد

قرب، ولم تجد أحداً قريباً بما فيه الكفاية ليسمع حديثهما فقالت:

”فوستر... أحتاج إلى أن أتحدّث معك حول مسألة في غاية الأهمية“.

رمى ما بقي معه من خبز للحمامات ونفض الفتات عن يديه وطلب

منها أن تتكلم.

”هل تعني كلمة باندورا أي شيء مهم لك؟“

أطرق الرجل رأسه متفكراً بالأمر ثم أجابها:

”هل تقصدين باندورا أخرى غير المذكورة في الأسطورة الإغريقية؟“

فوافقت مادي برأسها، فقال وهو يهز رأسه:

”لا... لا أعرف عنها أي شيء“.

”ولكن... عندما كنا نأخذ الأجنة الخاصة بالاستنساخ من نقطة سان

فرانسيسكو، اكتشفْتُ ملاحظة مكتوبة باليد وموجهة إلي بالاسم، تأمرني

بالبحث عنها“.

عبس قائلاً: "غريب"

"وهناك المزيد..." حكت له مادي في خلال العشر دقائق التالية كل شيء عن مخطوطة فوينتش وآدم لويس والكأس المقدسة والماسونيين الموجودين في المستقبل، ثم أخبرته في النهاية عن النبوءة التي تصف سرّاً عظيماً تمت كتابته قبل ألفي عام تقريباً وتفسيره، ثم أخبرته بأنهم يحتفظون به في قسم سري خاص من دماغ بيكس الإلكتروني.

"ولهذا فإنّ ذلك السرّ موجود هنا يا فوستر... داخل دماغ بيكس، وأريد منك أن تستمع إليه معي."

"ماذا عن ليام وسال؟"

هزت رأسها وقالت: "سأخبرهما به فيما بعد... لكنني أشعر أنك جدير بالثقة... لأنك..."

"الأنني لن أعيش طويلاً؟"

أجفلت مادي... إنه على حق... فقالت: "لا. هذا ليس السبب. بل تقول الملاحظة: لا تخبري أحداً، مما يعني أنّ أياً ما سيكون، وما ستخبرنا به بيكس بعد قليل، فأنا أريد أن أسمعه أولاً قبل أن أخبر أحداً آخر به".
أوما برأسه موافقاً وقال: "إنه طرح عادل بما فيه الكفاية. أنتِ على حق".

أشارت مادي إلى بيكس لتجلس بجانب فوستر ثم قالت لها:

"بيكس... سأفتح الجزء السري من ذاكرتك. هل أنتِ جاهزة؟"
"بالطبع". قالت بمرح.

"أنا قلقة بعض الشيء يا فوستر. إنه أمر مهم جداً، وأنا متأكدة من أنه وثيق الصلة بالمستقبل".

"ربما كان شيئاً يعرفه المستقبل عن الماضي؟"

"نعم، قد يكون أي شيء حقاً، ولكن هذا... ما ستخبرنا به بيكس بعد قليل هو..." ثم ضحكت بهستيرية وقالت: "هذا السرّ هو الكأس المقدسة نفسها". ثم نظرت في عينيه وقالت: "سأكون صادقة معك... الأمر يسبّب

لي الخوف بعض الشيء. لا بدّ من أنه سيكون أمراً عظيماً الأهمية، أليس كذلك؟ لا بدّ من أنه عظيم... وسيغيّر الأمور".
أوما برأسه متفكراً وقال: "هذا ممكن".
"أنا خائفة".

"إنها مجرد معلومات يا مادي، وخير لنا أن نعرف بها من أن لا نعرف... وسنعرف حقيقته الآن معاً". وتناول يدها مطمئناً.
"حسناً". انحنى فوق الرجل العجوز وهمست لبيكس:
"اسمعيني جيداً يا بيكس: آي باد- رجل الكهف- الفطور".
تحوّلت معالم وجه بيكس فجأة إلى البرود التام وخلت تماماً من التعبيرات وتعلّقت عيناها بمادي وقالت: "مرحباً يا مادي..." ثم نظرت إلى فوستر وسألتها: "من هذا؟"

"إنه فوستر. أحد أعضاء الوكالة. وهو موضع ثقة. هل فهمت؟"
"نعم"

"هل تذكرين تحليل شيفرة مستند الكأس المقدسة؟"
"نعم أذكره يا مادي، وقد كانت تلك مهمة ممتعة لي".
"جيد. أريد أن تخبريني أنا وفوستر بما تحتويه بالضبط".
فتحت بيكس فمها لتتكلم ثم تجمّدت.. بقيت ثابتة بلا حراك أكثر من عشر ثوان فتبادلت مادي وفوستر نظرات الاستغراب فسألتها مادي:
"بيكس... ماذا جرى لك؟"

أعاد السؤال بيكس إلى الحياة وتحركت عيناها لتستقرا على مادي وقالت لها:

"لا أستطيع تنفيذ طلبك".
"عفواً؟"

"لا يمكنني كشف محتوى الرسالة لك يا مادي الآن".
"ماذا؟ من الذي قرّر هذا؟"

رمشت بيكس بعينيها وهي تراجع بياناتها ثم أجابت:

”لا يمكنني الإفصاح عن هذا أيضاً، لكن يمكن لي أن أخبرك أنه شخص له سلطة أعلى منك“.

”سلطة أعلى مني“؟ ثم نظرت إلى فوستر وكرّرت بدهشة: ”سلطة أعلى مني؟ هل تعرف عمن تتحدث بيكس؟“
عبس فوستر حائراً وقال: ”لا، لا أعرف“.

”يا إلهي... هذا لا يعجبني أبداً... أسرار مخبأة داخل أسرار أخرى... يا له من وضع شنيع، هذا يعني أن شخصاً ما يستعملنا... ويستعملني أنا بالذات“.

ثم التفتت إلى بيكس وسألتها: ”ألا يمكنك إخباري أي شيء عن الرسالة؟ ألا يمكنك إخباري عن أي معلومة على الإطلاق؟“
”سمح لي بإخبارك بأنها رسالة تحذير فقط“.
”لكنك قلت أنه لا يمكنني الاطلاع عليها بعد“.
”تماماً“

”مما يعني ماذا؟ مما يعني أنه سيُسمح لك بإخباري بمضمون الرسالة في وقت لاحق؟“
”بالضبط“.
”متى؟“

مال رأس بيكس إلى الجانب قليلاً كما تفعل الكلاب وبحثت عيناها الرماديتان في المعلومات المتوافرة لديها ثم استقرّتا أخيراً على مادي وأجابتها:
”عندما تحين النهاية“.

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

@ktabpdf تليجرام

2010

1912

2026

119



ليام أوكونر كان يجب أن يموت في البحر عام 1912.
مادي كارتير كان يجب أن تموت على متن طائرة عام 2010.
سال فيكرام كان يجب أن تموت في حريق عام 2026.

لكن الثلاثة مُنحوا فرصةً أخرى ليعملوا لمصلحة وكالة لا يعلم أحد بوجودها، هدفها أن تمنع السفر عبر الزمن من تدمير التاريخ...

في عام 1994 وجد آدم لويس، وهو قرصان كمبيوتر (هاكر) اسمه في مخطوطة مشفرة عمرها ألف سنة، فتساءل: كيف وصل اسمه إليها؟ ولماذا؟

وعند لقاءهم بآدم سافر رواد الزمن إلى الماضي، إلى عام 1194، حيث نزلوا في غابات شيرود لاكتشاف مصدر تلك الرسالة الغامضة.

إلا أنهم حين علموا بوجود رجل مقنع يبحث عن الشيء نفسه بدأوا بالتساؤل والشعور بالخطر المحقق الذي تحمله هذه المخطوطة المشفرة القديمة على المستقبل... فما الذي سيكتشفونه؟

"مشوقة ومذهلة." Guardian

"ستحقق نجاحاً ساحقاً." Irish News

مكتبة الرمحى أحمد

هل قرأت؟

ISBN 978-6-14425-804-0



9 786144 258040 >

www.daralsaqi.com

